جورجي امادو

فارس الأمل

نقلها الى العربية عوض شعبان

١٩٨٧

فارس الأمل

دار الفـارابي
تلفون: ٣١٧٢٠٥ / ٠١ ـ ص. ب: ٣١٨١ / ١١
بيـروت ـ لبـنان
الطبعة الثانية
١٩٨٧

إلى ذكرى الدونا ليوكاديا برستس،
ذكرى كرامة وبطولة...
إلى ذكرى أنيتا ليوكاديا وليلا،
وإلى ذكرى رودولفو غيولدي.

« ... إنه نجمة مضيئة للشعب،
ومذنّبٌ رهيب للطغاة».
كاسترو ألفيس

مقدمة للطبعة العربية

إن نبأ نشر طبعة من كتابي عن لويس كارلوس برستس باللغة العربية، لـملأني غبطة. وإذا ما أمكن لكتابي هذا ان يسهم في تعريف الشعوب الناطقة باللغة العربية، بمزيد من الوضوح، على نضال الشعب البرازيلي في سبيل حريته ومن أجل السلم والتحرر الوطني للبرازيل، وعلى وجه القـائد العظيم لهذا النضال، البطل الوطني لشعبنا، الرفيق لويس كارلوس برستس، فإن في ذلك سبباً كافياً لأن أشعر بالسرور لكوني كتبت مثل هذا الكتاب.

في شهر تشرين الثاني، في مكان ما من البرازيل، وفي ظروف سرية قاسية، عقد الحزب الشيوعي في البرازيل مؤتمره الرابع، الذي تمت فيه الموافقة على منهجه الجديد وعلى انظمته الداخلية. وان في ذلك لحدثاً تاريخياً بالنسبة لشعبنا ووطننا. ان المنهج الجديد للحزب الشيوعي في البرازيل هو منهج انقاذ وطني يفتح السُبُل أمـام معـارك التحـرر الوطني الكبرى، في سبيـل الثـورة الزراعية والثورة المعادية للاستعمار، من أجل حكومة ديمقراطية شعبية، تضع البرازيل في معسكر السلم والديمقراطية وتنتزعها من نير الاضطهاد الاستعماري الأميركي. وفي مركز الصدارة من هذا المؤتمر كـان يقـف الرفيـق لـويس كارلوس برستس، الذي أعيد انتخابه مرة أخرى أميناً عاماً لحزبنا.

ولقد احتُفل بالمؤتمر الرابع في وقت كان فيه الشعب البرازيلي بأسره يحتفل

بالذكرى السنوية الثلاثين للسير الكبير الذي حققه « طابور برستس » ، تلك المأثرة الثورية الرائعة التي تشكل أهم حدث عسكري في تاريخنا. ولقد انصرم ثلاثون عاماً منذ أن أصبح برستس في مركز الصدارة من الحياة السياسية البرازيلية، بصفته حامل ثقة الشعب البرازيلي وقائد هذا الشعب في نضاله المرير البطولي من أجل السلم والحرية.

لقد أطلق عليه الشعب اسم « فارس الأمل » ، واليوم نشعر جميعنا باقتراب الأيام التي سيتحول فيها أملنا في وطن حر إلى حقيقة. وانه لمن دواعي سرورنا ، نحن البرازيليين ، ان يكون الرفيق برستس ، في هذه الأيام العصيبة الجليلة التي نحياها ، في طليعتنا ، قائداً لنضالنا . ان اسمه يرمز ، في البرازيل ، إلى جميع المشاعر العظمى وإلى الثقة التي لا تتزعزع بالنصر.

فمنذ عام ١٩٤٧ ، منذ ما وُضع الحزب الشيوعي مرة أخرى خارج القانون ، بعد سنتين من العلنية ، وانتُزع برستس من مجلس الشيوخ الجمهوري ، لا يزال برستس يعمل في الخفاء ، يحرسه الشعب البرازيلي ، لا يُرى ، ولكنه حاضر في جميع الأحداث. ولقد أقيمت دعوى فظيعة ضده وضد رفاقه في قيادة الحزب ، وأصدر بحقه بعض القضاة ، من خَدَم الرجعية ، حكماً بالسجن الاحتياطي. إن رجال الشرطة البرازيليين ، وبالإضافة إليهم رجال مكتب الاستخبارات الاتحادي (F.B.I ـ الشرطة السرية الأميركية) ، ينقّبون رحاب البرازيل الشاسعة ، تفتيشاً عنه. ولكن الشعب يخفيه عن الأعين ويحرسه حراسته لأثمن كنوزه. إن حياة برستس مهددة منذ سنة ١٩٤٧. وهو ، رغم ذلك ، لم يكن يوماً ما حاضراً في حياتنا السياسية كما كان في السنوات الأخيرة ، وكما هو الآن في الأيام السرية الصعبة هذه. ولقد ربّى برستس ، في هذه السنوات ، الآلاف من ملاكات حزبنا ، وأثار الشعور المعادي للاستعمار في الشعب ، وقاد البروليتاريا نحو معارك كبرى ، وأيقظ وعي الفلاحين ؛ وهو اليوم يبني الجبهة الديمقراطية للتحرر الوطني ـ التي تتألف من الطبقة العاملة ، والفلاحين ، والمثقفين ، والبرجوازية الصغيرة والبرجوازية الوطنية ـ هذه الجبهة التي يتوجب عليها ان تقود البرازيل نحو تحررها.

إن اسم برستس، مع اسطورته كبطل للشعب، ينتقل من فم إلى فم، ويقرأ الملايين نداءاته التي تذكي الحماس والنضال. وبعد مرور ثلاثين عاماً على ظهوره في حياتنا السياسية، لا يزال لويس كارلوس برستس، بل وأكثر مما كان في السابق، « فارس الأمل » بالنسبة إلى الشعب البرازيلي

فباسمه وباسم رفاقه في النضال أرغب في توجيه تحية إلى جميع الوطنيين في البلاد العربية، إلى جميع أولئك الذين يناضلون في هذه البلاد في سبيل السلم والحرية وضد الاضطهاد الاستعماري الأميركي. لقد عشنا أياماً عصيبة من الاخطار والارهاب المنفلتين. ولكننا استطعنا ان نرى من خلال هذه الأهوال نور الفجر الذي يبزغ للشعوب جميعها. هذا النور الذي يصبه الاتحاد السوفياتي، والصين، وبلدان الديمقراطية الشعبية، والذي أرثه نضالُ الشعب في بلادٍ كبلادنا وبلادكم. اما نحن في البرازيل فقد بنينا صرح الفجر تحت قيادة برستس، فهو يحمله بين يديه وفي قلبه، قلب الوطني والشيوعي.

كانون الأول ١٩٥٤

جورجي أمادو

ملاحظة: لقد ساعد في نقل هذه المقدمة عن اللغة البرتغالية السيد ألبر فرحات، فله الشكر.

أنشودة مؤثرة

سأروي لك الآن قصة بطل. لقد رويت لك في السابق، يا صديقتي، قصة شاعر. لقد كان الشعر سلاحه، وكان يمشي في مقدمة الشعب. وجرى ذلك على أرصفة باهيا ـ في ليلة كانت تتلألأ بألوف النجوم ـ أتذكرين؟ لقد قدمت إليّ يدك اليمنى ورويتُ لك قصة الشاعر كاسترو ألفيس. كان القمر بدراً، وكان انعكاس نور النجوم اللامع، على البحر الأخضر، يختلط بأنوار المراكب الشراعية. ومن المدينة المغلفة بالأسرار كانت تتصاعد أصوات «الأتاباكي»[1]، وكانت يامانجا[2] تبعثر شعرها على البحر، وقد جاءت، هي أيضاً، لتشاهد البدر في سماء باهيّا. وبقيت مع البحارة، مع المصطافين، مع الأعمى الذي كان شاعراً، مع العمال الذين كانوا يرتاحون عقب نهار قاسٍ، مع اللاعبين نصف الهواة، نصف المحترفين، مع الزنجي الذي كان يعزف على القيثار؛ وبقيت كذلك بالقرب منك لتستمع، هي أيضاً، إلى قصة الشاعر. لقد امتدحتُ شاعر الشعب، وقدم إلي الشعب شرابي وطعامي. البحارة قدموا الاصداف، والمصطافون قدموا الفواكه والخبز، وقدم المتشردون الخمر. وحرّك الزنجي قيثاره، وارتجل الأعمى أنشودة. وقطع اللاعبون نصف المحترفين ونصف الهواة لعبهم القذر بالورق، وسمحوا

(١) الاتاباكي: آلة موسيقية زنجية. (٢) آلهة البحر عند الزنوج.

لي ، بطيبة وعلى سبيل الاعتراف بالجميل ، بان أكسب دوراً وان اتعلم كل أساليب العاهم المغشوشة ، بما في ذلك أكثرها غموضاً .

وفي نلك الليلة ، انطلقت من الأرصفة موسيقى تتحدث عن البحر ، عن سر الحب العظيم . وسُمعت موسقى المدبنة ، الموسيقى الزنجية للماكومبا (٣) ، التي كانت ننحدث عن الرجال المكبّلين بالاغلال ، عن جمال الحرية العظيم . وتركت يامانجا برجهها العـاجـي واقتربـت منـا ؛ وكـان الشعـر هـو الذي استولينا عليه في الوقت نفسه . وقدمتِ إليّ جسدك على رمل الأرصفة ، ووضعت عليه رأسي . لقد غطيتِ النجوم والقمر والرجـال ويـامـانجا بظـل شعرك ، وارتحتُ فيك ، يا زنجيتي ، على رمل أرصفة باهيّا .

لقد امدحت شاعر الشعب ، وقدم إليّ الشعـب طعـامـي حتى شبعـت ، وشرابي حتى ارتويت ، واعطانيك ، انت ، يا زنجيتي ، لارواء شهوتي . وكانت تلمع فوق رؤوسنا ، في السماء ، نجمة الصباح ، قلب الشاعر كاسترو الفيس ، بالقرب من الرجال المناضلين من أجل حريتهم .

وبعد قليلٍ من ذلك كنا فوق البحر وقلتِ لي : « لقد كان ثمة نجمة أخرى في قلب الرجال ، وهناك زنجي هائل ومبتسم ، كزنوج رواياتك ، وقد وُشم صدره بحرف ــ ب ــ كبير . وكانت تخرج ، كما في الروايات التي تقصها ، نجمة من قلبه ، انما كان كل شيء صحيحاً هـذه المـرة . لم كان يسبح فوقنا أملٌ كبير بهذا القدر في تلك الليلة على أرصفة باهيّا ؟ » .

وكانت هناك نجمة ــ هي ليست نجمة الصباح ــ تلمع في أعالي السماوات ، ولم يكن ذلك بربقاً في ليل الماضي . لقد كانت تلك النجمة موجودة بالنسبة إلى العمال لذين يرتاحون للبحارة الذيـن تفوح منهم رائحة السمـك ، والذيـن أحرقت أعينهم ريح البحر ؛ لقد كـانـت مـوجـودة بـالنسبـة إلى الجنـدي الذي بلاطف خلاسيةً (٤) على رمل المحطة ، لقد كانت تأتي من الارض ، وكانت ضياء الحاضر ، ضياء الأمل ، ضياء المستقبل . لقد رأسها في تلك

(٣) احتفالات دينية زنجية.

(٤) امرأة من والد زنجي ووالدة بيضاء .

الليلة. لقد كانت تسبح في الهواء، تندفع من رجال الشعب الجالسين على الرمال.

كثيراً ما شاهدنا هذه النجمة، خلال سفراتنا، من سوق إلى سوق، عبر البرازيل. وفي إحدى المرات ـ وكان ذلك في ليلة ممطرة عاصفة الريح ـ كنا نتقدم في الشارع الفقير لمدينة بعيدة. وكنا نمشي منحنيين وجسمك بالقرب من جسمي. ورمت مسمعينا، من خلال المصاريع الخشبية لقاعة مظلمة، ضجة رجال يتحدثون بمرارة. وفجأة تلفظ شخصٌ ما في القاعة باسم الاسماء. وتبخر البأس والحسرة، وظل الأمل وحده. وفوق رؤوسنا، وفوق المطر والريح، كانت نجمة تلمع في الشارع الفقير. وسيطر فرح ربيعي على تلك الليلة الشتوية الممطرة. ومرة أخرى شاهدنا الرجال المقودين إلى السجن. لقد كانوا يبتسمون، انهم لم يكونوا لصوصاً ولا قتلة، إنهم لا يستثمرون النساء ولا يبيعون المخدرات. إن أولئك الذين كانوا يقتادونهم كانوا لصوصاً، قتلة، وكانوا يستثمرون الرجال ويبيعون المخدرات، لقد كانوا رجال شرطة. وكان الرجال المقودون إلى السجن يبتسمون، وكانت النساء اللواتي شاهدنهم يمرون يبكين، وكان الرجال يضمون قبضاتهم. وهمس أحدهم باسم، باسم سجين آخر. ولمع الأمل في ابتسامة المساجين، في دموع النساء، وفي قبضات الباقين المضمومة. وكان ضياء النجم يبعث الشحوب في القتلة، في اللصوص، وفي تجار الكوكايين من رجال الشرطة.

لقد شاهدنا في ليل البرازيل، يا صديقتي، نجمة تضيء، تعلن قرب انفجار صاعقة وعاصفة الشعب، ولكنها تعلن كذلك قرب بزوغ أصباح أوقات جميلة وأصباح بهجة. هذه النجمة هي نجمة الأمل.

سأروي لك، يا صديقتي، قصة هذا النور، هذه النجمة، هذا الأمل. كم من المرات سألتني إذا ما كان الأمر يتعلق ببيدرو ايفو، تيرادنتس، أو بالزنجي زومبي دوس بالمارس، أحد الأبطال الذين تغنى بهم الشاعر كاسترو ألفس. وفي ليل الأرصفة، في باهيا، كان الزنجي المبتسم، الذي وُشم صدره

بحرف ـ ب ـ، يعرف الحقيقة. وسألتني: «أيكون أعجوبة ما سوف ترويه؟». وأجبتكِ: «انه لأعجوبة». انه أعجوبة الشعب، يا صديقتي. ونحن الذين كنا نهيم على طرق البرازيل، نحن الذين اجتزنا البلاد في كل الاتجاهات واستعملنا مختلف وسائل النقل، شاهدنا في كل الأيام اعاجيب جديدة، أعاجيب شعبية مخيفة. إن أولئك الذين لا يؤمنون بالشعب لا يؤمنون أيضاً لا بالشعر ولا بالبطولة. ولكن الشعب يقوم كل يوم باعاجيب جديدة من الشعر، باعاجيب جديدة من البطولة.

وفي أحد الأيام، ابتدع الشعب الأسود في البرازيل، المستعبَد الشقي، أعجوبة كاسترو ألفيس الشعرية. لقد كان هذا شعباً لا يستطيع الكلام، فجعل يفتش عن صوت ليعبر بواسطته عن أفكاره. وانتج أجمل الأصوات.

وبعد سنين طويلة، قام شعب البرازيل كله، المستعبد الشقي، الشعب الأسود، الشعب الهندي المختبىء في أعماق الغابات العذراء، الشعب الأبيض، الشعب الخلاسي ـ الذي هو أجمل شعب في العالم ـ لقد قام شعب البرازيل كله، المكبل اليدين والرجلين، العطِش الجائع، المفتقر إلى الكتب وإلى الحب، بخلقِ أعجوبةِ البطولة التي **هي لويس كارلوس برستس**. ووُشمت صدور الزنوج وقلوب جنود الطابور بحرف ـ ب ـ. ودخل النور قلب الرجال، قلب العمال والبحارة والفلاحين والشعراء ومغنّي السامبا وراقصيها، قلب الملازمين والنقباء، قلب العلماء والروائيين. ودخل النور كذلك قلب الرجال والنساء؛ لقد كان هذا هو نجمة الأمل. إن شعباً مستعبداً يطلب بطله. وتحققت أعجوبة أكبر الأبطال.

البطل؛ يا للشيء البسيط، الكبير، الصعب! بطل، يا لها من كلمة رائعة! الشعب وحده، يا صديقتي، هو الذي يتبنّى، يغذّي وينمّي البطل. إن البطل يولد من احشائه.

البطل يولد من الشعب؛ انه الشعب نفسه في أسمى درجات فضائله. وهو يمشي، كالشاعر، في طليعة الشعب. الشاعر والبطل يصنعان الشعوب، بهبابها

الشخصية، الكرامة والحياة. انهما فترنان رائعتان في حياة أمة، في حياة شعب. انهما ضروريان ضرورة الهواء الذي نستنشق، ضرورة الغذاء الذي نأكل، ضرورة المرأة التي نحب لذلك يجهد اعداء الشعب، أولئك الذين يخونون الشعب، الذين يريدون خداعه واشقاءه، للحصول على شعراء وعلى ابطال في الساحات العامة. ولكنّ هؤلاء، يا صديقتي، هم ابطال مزيفون وشعراء مزيفون. إن الشاعر يكون في الساحة العامة عندما يناضل الشعب من أجل الحرية. إن البطل يكون في طليعة الشعب عندما ينهض الشعب للحصول على الحرية. والآخرون مصنوعون من كل الاجزاء؛ انهم يمتدحون ويتملقون الطغاة. وهم، وقد وُلدوا من طبقةٍ معينة، يبيعون انفسهم من أجل فتات الخبز التي يتركها لهم الاغنياء. إنهم مجردون من قوّتهم، كالديوك الخصيّة التي ظل ريشها على جمالِهِ نفسه، ولكنها فقدت كل قوة جنسية. وان أولئك الذين يبرزون كابطالٍ في مهرجان فاجع، وقد تُوجوا بأكاليل الغار، ليسوا سوى طغاة الشعب.

انك لن تخطئي مطلقاً، يا صديقتي، لأن الشعب لا يخطىء مطلقاً. انه يعرف صوت شعرائه، لان صوتهم هو صوته. إنه يعرف وجه ابطاله، لأن وجههم هو وجهه.

تطلّعي، يا زنجيتي، إلى الطغاة المتجلببين جلباب الابطال، المحاطين بشرطتهم، المحاطين بالكتّاب المباعين، المتزيّين بزي الشعراء، وهم يتظاهرون بالتحدث من أجل خير الشعب، عبر أعالي البحار والسهول ومدن العالم. لقد بكيتِ في أحد الأيام على حظ البرازيل. لقد كان ظل الظلم المسكين ينتشر، مدنّساً ومذِلاً مظهر الانسان، على كل ما كنا نحب، على نباتات قصب السكر، على الذرة، على الكاكاو، على القهوة وعلى القطن، على المدن والقرى الشعرية، على المعامل، على البحار حيث تسبح السفن الشراعية، على القوارب والسفن، على كتب مؤلفي الروايات وعلماء الاجتماع.

وانتشرت سنوات من البغي والتعاسة، من العبودية والفاقة، كالكفن على البرازيل.

لقد بكيت في احد الأيام، يا زنجيتي، لأن شخصاً كان عزيزاً علينا باع نفسه، وارندى هو أيضاً مسوحاً من وحل. وفقدت الامل لفترة وحيدة ورغبتِ في الموت لان كل شيء كان عظيم الفساد، عظيم الدناءة. عندها وعدتِ بان أروي لك قصة البطل، قصة ذلك الذي لم يبع نفسه مطلقاً، لم ينحنِ مطلقاً، والذي لم يترك عليه الوحل والدناسة والفساد ولعاب الافتراء القذر، أية آثار أبداً. ولما كان هذا الرجل هو الشعب نفسه، متجمعاً في وجه رجل، فإن الشعب هو أيضاً لم يبع نفسه ولم ينحن. والشعب هو مثله مسجون، ملاحق، مشنوم ومجروح. ولكن سينهض الشعب، مثله، مرةً، مرتين، ألوف المرات، وفي أحد الأيام، عندما ستتحطم قيوده، تخرج الحرية أعظم قوة من بين القضبان. ويقول شاعر الشعب، يا صديقتي، ان «كل الليالي لها فجرها»، وفي كل الليالي، ولو مهما بلغت ظلمتها، تلمع نجمة تعلن انبثاق الفجر، وتهدي الناس إليه. والامر لكذلك في ليل البرازيل، يا زنجيتي. إن له نجمه التي تنير الناس: **لويس كارلوس برستس**. وسنراه في أحد الايام، في صباح الحرية. وسيأتي وقت البناء في اليوم الجميل الحر، وسنرى عندئذ بان هذه النجمة التي كانت تلمع في الليل، كانت تحمل في طياتها تأكيداً بوجود شمس.

سأروي لك قصة بطل، يا صديقتي، ولن يبقى، في قلبك، دقيقة واحدة من اليأس. وكما جرى في تلك الليالي، حيث كان اسمه، الذي يُهمس به بتردد وخوف، يطرد الغم والرعب. سأتحدث إليك الآن عنه لكي تعرفي، أنت، ويعرف شعب الأرصفة الذي ينصت إليّ، بان بمقدوركم ان تكونوا ممتلئين بالثقة، وبان الليل ليس أبدياً. ان ما هو أبدي، يا صديقتي، هو الشعب، هي الذكرى التي يحتفظ بها عن ابطاله وعن شعرائه. ان عصر الطغاة لقصير، وقصير هو ليل العبودية. وان صباح الحرية لمن الجمال بقدرٍ يجعله أهلاً لأن نموت من أجله، لأن نهب حياتنا من أجله، لأنه سيبزغ في أحد الأيام على الناس. ومن السهل، للأسف، يا صديقتي، الموت في سبيل امرأة أو في سبيل الحرية! إنما من الصعب العيش حياة آلام ونضال، دون يأس

ودون تخاذل، دون بيع للنفس ودون انحناء. والحرية تتطلب أكثر من الموت، تتطلب ان يهبها الانسان كل لحظاته، كل قواه.

وهذا كل ما فعله برسنس، يا صديقتي، وهذا ما يفعله اليوم. لقدْ عُرض عليه كل شيء، ولم يبع نفسه. لقد سيم كل أنواع العذاب، ولم ينحنِ. لقد نعرف إلى كل الآلام، وظل ثابتاً!.

لقد اجتاز، وهو لواء الشعب، البرازيل مع جنوده. وفي المنفى كان قلبه ينبض مع شعب بلاده. ثم عاد كالرعد في ليل البرازيل. وهو بشكل في السجن الذي يُحتجز فيه، الشعب السجين. وهو سيخرج في أحد الأيام، وسيحطم الشعب الثائر أصفاد العبودية. الشعب هو هذا الرجل. لويس كارلوس برسنس هو البطل الذي ينبناه الشعب، يغذّيه وينمّيه.

والدنه في المنفى هي وشقيقاته. امرأته سجينة النازيين في أحد معسكرات الاعتقال. وولدت ابنته في السجن، وترعرعت في المنفى. ان برستس، يا صديقتي، يعرف ان يعيش من أجل الحرية ومن أجل الشعب.

وفيما إذا ما حصل، في فترة ما، أن وهن قلبنا المسكين أمام الآلام، وتمنى الموت لكي نتفادى تحمل الآلام والفساد، فلنفكر دقيقة في لويس كارلوس برسنس، لنفكر في ذلك الذي، في قمة الألم والفساد، متألماً، مشاهداً أفراد عائلته يتألمون، مشاهداً الشعب يتألم، مشاهداً كيف يموت البعض، يستسلمون أو يبيعون أنفسهم، ظل منتصباً، عائشاً من أجل الحرية. عندها سنحصل على قوى جديدة، على الشجاعة، على الأمل. على الأمل يا صديقتي.

لقد سُمي بفارس الأمل. انه الاسم الذي أطلقه عليه الشعب. انه النجمة في الليل الأسود، انه عاصفة الشعب، إنه الصاعقة في الظلمات، انه الريح التي تحني الطغيان. اعطني يدك، يا صديقتي، سأروي لك قصة لويس كارلوس برسنس.

انني أعرف جيداً، يا زنجيتي، ان هذه الليلة ليست ليلة أرصفة باهيّا. ان

الأرصفة مختلفة، ومختلفة هي النجوم. أين هو القمر إذن في هذه الليلة الباردة، ليلة النفي على أرصفة مدينة أخرى؟ قليلاً ما يهم هذا، يا صديقتي. قلبلاً ما يهم ان يتحدث الناس هنا لغة أخرى، ويتغنون باغنبات أخرى. وبالطريقة نفسها التي نحسّ فيها بجمال الأغنيات التي يتغنى بها بحارة العالم كله، سيفهم الناس هنا، هم أيضاً، القصة التي سأرويها لكِ. وسيتجمع شعب هذه البلاد على الأرصفة حولي، متل شعب أرصفة باهيّا. وهو سيقدم لي الشراب والطعام، سيعزف على آلاته الموسيقية ويرتجل الأغاني. وعندما يستمع الناس إلى قصة البطل، سيرفعون الأيدي ويرفعون أصواتهم من أجل الحريه. ذلك لأن الشعب، يا صديقتي، هو دائماً نفسه في أي مرفأ كان في العالم، في أي رصيف كان، وتحت أي سماء تظلل: انه دائماً طيب وقوي، عطوف وفهيم، محب للحرية، للجمال وللبطولة. لا، يا صديقتي، إن ليلي لس ليل المنفى على أرصفة أجنبية. إنني لا أشعر مطلقاً أنني بين أجانب، أو في المنفى، إذا ما كنت بالقرب من الشعب وإذا ما تحدثت من أجله. وهذا هو السبب الذى يدعوني لأن أروي هنا، بعيداً عن أرصفة باهيا، تلك القصة، التي هي قصة الشجاعة وقصة الإخلاص للشعب وللحرية. سنعرفين لم نستطيع أن نغادر وطننا، والاشخاص الذين نحب، ونذهب إلى أراض أخرى أو إلى السجن، وحتى في مثل هذه الحال، نظل سعداء.

إن الحرية لست مطلقاً باهظة الثمن، حتى إذا ما بلغ ثمنها أكثر من الموت، إذا ما عنى الحباة في المنفى أو في السجن.

أعطني يدك البسرى، وانصتي إلى قصة بطل.

القسم الأول

الولد الفقير

- ١ -

لقد ولد في أراضي الجنوب، يا صديقتي، في هذه الحقول الواسعة، حيث تتراكض، بحرية، الحيوانات والأساطير. والبامبا هو ذلك السهل اللامتناهي، الكئيب الهادىء، بسمائه الزرقاء زرقة من المستحيل تشبيهها، ذلك السهل الأخضر، خضرة مختلفة التموجات، حيث ترعى الثيران الهادئة، وتتراكض الخيول الجامحة، وحيث يولد، يا صديقتي، رجال شجعان، رجال يتركون لدى مرورهم ذكرى أسطورية. إن ولاية ريّو غراندي دوسول هي ولاية الرؤساء، ولابة الثورة، وولاية الشجاعة بخاصة.

إنه في أراضي الجنوب هذه قد وُلد. في هذه الأراضي حيث تركت البرازيلية أنيتا غاريبالدي والايطالي جوزيبي غاريبالدي، أثراً لمرورهما. على أراضي ريو غراندي هذه، بين ذراعي البرازيلية أنيتا، تلقى غاريبالدي معنى الحرية والديمقراطية. على حصانيهما عدا الاثنان في طليعة الغاووشوس[1]. أوه! يا لقصة ريو غراندي، العذبة كالأسطورة، البطولية كالملحمة! الحب المتحالف مع الثورات، تجوال الشعراء الذين يموتون في ساحات العراك، على ظهور خيولهم في الليل. إنه على هذه الأراضي قد وُلد.

وعلى هذه الأراضي أعلنت الجمهورية أثناء ثورة الفرّابوس، عندما كانت قوات الامبراطورية الرجعية لا تزال سيدة البلاد. وقدّم الغاووشوس حياتهم للحرية. وتساقطوا في الساحات بالقرب من جيادهم. وبلّل دمهم هذه لأراضي، جاعلاً منها إلى الأبد أراضي الحرية. وكان الرؤساء في طليعة رجالهم. وكانت الليالي عندئذ، يا صديقتي، ممتلئة بضجيج الطوابير الزاحفة،

(١) رعاة البقر.

وكانت الخيول تقتلع عشب الأرض. وخلال فترة طويلة من الزمن، وُلد الرؤساء على أراضي ريو غراندي. ان الرجال الذين كانوا يأمرون كانوا يتميزون بشجاعتهم وصلابتهم، ولم تكن تتردد بين شفاههم سوى كلمة واحدة: الحرية. ولقد لبّى الغاووشوس دوماً نداء هذه الكلمة، في كل مرة تلفّظ بها رجال شجعان. انهم يحبونها أكثر مما عداها، إنهم يضعون الشجاعة فوق كل الفضائل الأخرى. وفي الحقول، كان الخطباء الشعبيون يتحدثون عن الجمهورية. وتعلّم الغاووشوس هذه الكلمات، وأكثر من ذلك، تعلّموا مثلّها. إنهم لم يترددوا مطلقاً: انها ليست عادة الغاووشوس ان يترددوا. ان مربّي الماشية هؤلاء، الذين امتزج بهم في القرن التاسع عشر المستوطنون الأوروبيون، هؤلاء البرازيليون الذين ظلوا وقتاً طويلاً منعزلين في أملاكهم، دون ان يتصلوا بما عدا الطبيعة والحيوانات ـ ما دام الحصان يكاد يكون تمدداً لأقدامهم ـ كانوا يعتبرون أنفسهم حرس الحدود البرازيلية الجنوبية؛ لقد كانت هذه الأراضي تشكل حدود وطنهم. وفي أحد الأيام ذهبوا إلى البلاط، عندما تمركز البلاط في ريو: كان ذلك عهد نواب ـ الملوك. واصبحوا سياسيين، خطباء، برلمانيين، رجال مواهب، كانت تتحدث عنهم «صالونات» ريو دي جانيرو، في عهد دون جوان السادس، و «صالونات» بدرو الأول وبدرو الثاني. وعلى أراضي ريو غراندي، في الأملاك الاقطاعية، تحت سيطرة هؤلاء المزارعين وهذا الاقتصاد الريفي، كان الرجال يصبحون ثوريين؛ وكانت الجياد تجتاز لبل البامبا، ووجوه الرؤساء الروائية تتحول إلى أساطير في كل البلاد. وقام حكام عشائريون من وسط هذا النوع من الاقتصاد الريفي، وهذا النمط من الثقافة ومن تربية الحيوانات. ولكن حب الحرية والنضال نما أيضاً، يا صديقتي، كما نما العصيان ضد هذه الأشكال الاقطاعية للحكومة. وفي أراضي الجنوب هذه، التي غُذّيت بدم الثوريين، حمراء هي جذور المراعي والأشجار.

يا لأساطير الجنوب الكئيبة، كآبة السهول في هذه المنطقة! إن إله الغاووشوس المفضل هو نغرينيو دو باستورايو، أعظم أبطال الأساطير

البرازيلية تصبراً: انه ولدٌ أسود يموت ضحية سوء معاملة السيد، ثم يُبعث في ليالي البامبا، في صمت الثيران والنجوم. ويسير الزنجي الصغير، الذي أودت بحياته العبودية، على رأس الخيالة الثائرين، وموسيقى خطوات الجياد لذبذبة الوقع في أذنيه.

ان الاقتصاد المتأخر الذي صنع الطغاة، صنع الثوريين الكبار أيضاً. وبعد مكابدته لمظالم فترات طويلة من الدكتاتورية، كان على الغاووشوس ان يتعلم حب النضال والحرية، وان يجعل من ولدٍ أسود، عبدٍ وشقي، بطل أغانيه، وأكثر آلهة البرازيل حنواً.

وشاهدت حقولُ الجنوب هذه، هذه الحقول المغلوبة على أمرها إنما غير الخاضعة، بروز الطغاة والثوريين، ابناء الملاكين العقاريين، الاسياد الاقطاعيين التابعين لجنس أولئك الذين قتلوا الولد الصغير الزنجي، لجنس جلادي زنجي المراعي الصغير. شاهدت هذه الأراضي بروز ملاكين عقاريين، شاهدت الاقطاعيين ورؤساء العائلات في العهد العشائري ـ اسياد رجالهم المطلقين ـ اسياداً لم يشاهدوا قط كتاباً، يحذرون المدن والتقدم، ولا يعلمون من الحيوانات ومن الطبيعة سوى الدروس السيئة: الحيلة والخديعة. ان أيادي أسياد الأرض جميعهم ملطخة بدم الولد الراعي. ان في قلبهم رغبة السيطرة على الناس، بالسوط، كما يسيطرون على الثيران الهادئة في البامبا الواسعة: الحلم الخالد للطغاة المولودين على هذه الأراضي، حلم مستحيل؛ ذلك لأن دم الثوريين الذين تساقطوا في النضال، يجري تحت سهول ريو غراندي، جريان نهر تحت الأرض.

إنما على أراضي الجنوب هذه، يا صديقتي، حيث وُلد الطغاة، وُلد أيضاً الثوريون. كان الناس يُعاملون كالحيوانات، ويساوون أقل من ثورٍ أصيل، من جواد شديد المراس. على هذه الأراضي وُلد أولئك الذين جعلوا من الزنجي الصغير الضحية، الهمهم، أولئك الذين حملوه كعلم خلال تجوالهم على ظهور الخيول، الذين تعلموا من الطبيعة، من الحيوانات ومن الرجال المستعبدين، حب الحياة الحرة، أولئك الذين بنوا المدن، هجروا المزارع

ورجعوا إلى البامبا حاملين تجربتهم، لكي يستثيروا الرجال ويسيروا على رأسهم، فيقلبوا الطغاة ويجعلوا الحياة أفضل مما هي، أكثر جدارة وأروع جمالاً. ولم يحصل في أي مكان آخر من البرازيل، يا صديقتي، ان تقابلت العبودية والحرية بهذا القدر على ساحة النضال. وولد رجال ونساء لم يلطخ أياديهم دم زنجي المراعي الصغير، ولكن قلبهم كان يتأجج برغبة تشبه رغبة الانتقام والعدالة، رغبة تحرير الرجال من سوط الأسياد، من سادة الحياة والموت: إنه الحكم الخالد لرجال هذه الأرض، حلمٌ أصبح حقيقة يوماً بعد يوم، حلمٌ سُجل في نضال كل اللحظات. ذلك لأن دم أولئك الذين ماتوا في النضال من أجل الحرية يجري على هذه الأراضي كالنهر.

وفي أراضي الجنوب هذه، يا صديقتي، وُلد لويس كارلوس برستس. وبولادته تبدأ نهاية الطغاة. ان ولادته تثبت ان جنس المضطهَدين أصبح من القوة بحيث يستطيع قلب الطغاة والظفر بالحرية. وفي الثالث من كانون الثاني سنة ١٨٩٨، اختفت أسطورة زنجي المراعي الصغير، علَم المستعبَدين، من عقول هؤلاء الرجال، وارتفع علم آخر هو علم الرجال الأحرار، وبولادة برستس، بدأ عهد جديد لكل مستعبَدي البرازيل. مع برستس تبدأ مرحلة النضال النهائي، الفترة الرهيبة الرائعة للمعركة الأخيرة.

- ٢ -

وفي أحد الأيام، يا صديقتي، هرب ولد، في الثالثة عشرة من عمره، من بيته، ليتطوع في الجيش كجندي بسيط. وسكبت أمه الارستقراطية، وقد أصيبت في كبريائها، دموعاً بائسة. وكان دمها الأزرق ثائراً لفكرة انه ستكون لولدها مهنة بهذا الانحطاط. لقد كان أحد اجدادها حاجباً للامبراطور؛ ولقد نحت هذه المهنة النبيلة من دم عائلة فربناس ترافاسوس، كل أثر لدم أسود أو بلدي، وجعلت منه دماً أزرق، زرقة صافية ارستقراطية. وكانت دموع لويزا دي فربناس ترافاسوس المرة، تجري قرب صورة جدها الذي تشرّف بمساعدة الامبراطور بارتداء جواربه ومعطفه. ولم تعد تذكر ساعتئذ بانه كان يسبق اسماء فرنناس ترافاسوس، اسم أكثر وضاعة، اسم دم أحمر، اسم برستس. وعندما كانت تذكر ذلك، كانت تذكره من أجل أن تحمّله مسؤولية هرب الولد، ومسؤولية ميله إلى الجندية.

وكان يتراءى لها حفيد حاجب الامبراطور مرتدياً الجلباب المخزي لجندي بسيط. وتطلعت لويزا عندئذ إلى الصورة والندم يتآكلها. لقد كانت تلك هي خطيئتها هي. لقد تزوجت من رجل من الشعب، وهو موسر حقاً، ولكن عروقه لم تكن ممتلئة بدم البلاط الأزرق، بل بدم عامل قطران لقد كان هو الذي نقل إلى ولده هذه الغريزة المنحطة. وكان هذا قد قرر، وهو لما يزل صغيراً، ان يصبح جندياً. وأمام عزمه العنيد، انتهى بها الأمر إلى الرضوخ، ولكنها حملته على ان يعد بان يبدأ من الأعلى، كتلميذ في المدرسة الحربية، التي كانت أبوابها مفتوحة أمامه بفضل دمه الأزرق. ان العائلة، وقد اعتادت على أعمال البلاط وعلى التطلع بازدراء إلى كل عمل يخرج عن نطاق عمل البلاط «النبيل»، المريح، الكثير المكسب والطفيلي، كانت تعتبر

الانتساب إلى سلك الجندية عملاً غير مشرف.

لقد كان كل عملٍ اهانةً بالنسبة للويزا، يا صديقتي. لقد وُلد الرجل بنظرها من أجل دسائس البلاط، من أجل أحاديثه المغناجة الناعمة، من أجل رقص البولونيز بفن، والتعمق في علم الدعابة (٢) الصعب. نعم، لقد كانت تلك هي مهنة الارستقراطي، ميله الطبيعي، لقد كانت شيئاً ما مرموقاً ناعماً. وكانت تتطلع إلى كل عمل آخر بازدراء؛ وحتى إلى عمل القاضي الذي كان يشكل مهنة زوجها اليومية. لا، إن الله لم يخلق، في أفضل ساعات إلهامه، من أجل هذا الشيء، طبقة النبلاء المختارة. لقد خلقهم من أجل ان يملأوا الأرض بلطفهم، بمواهبهم، بنبلهم، وبتلك النعومة ذات اليدين الانيقتين والجلد اللطيف، المشتركة بين الرجال والنساء. وكانت أحياناً تقول هذا الأمر لزوجها، يا صديقتي. وكان القاضي أنطونيو بنريرا برستس، «الدكتور برستس الهرم»، كما كانوا يسمونه في العائلة وفي مدينة بورتو اليغري، يبتسم ابتسامة نصف هازئة ونصف عطوفة لكي يجيبها:

ـ أنت تنسين يا دونا لويزا ان دم كثير من هؤلاء «النبلاء» قد امتزج كل الامتزاج بدم غريب... وان شعرهم ليس ناعماً كثيراً... أما في ما يتعلق بي، يا دونا لويزا، فإنني، بصراحة، أفضّل هؤلاء الزنوج الأرقاء الطيبين، في أكثر الأحيان...

عندها كانت تنطلق من عيني دونا لويزا دي فريتاس ترافاسوس نظرة ازدراء متعالية. كانت تحس انها فوق مستوى هزء زوجها.

إن الابتسامة البارعة والمشية الرائعة لجدها الأول، الذي كان يبرز بصورة حية من اللوحة المعلقة في جدار البهو، والذي كان يبتسم كرجل سعيد لأنه أعطى لدون بدرو منديلاً ناعماً من الكتان المخرّم، لكي يمخط به منخريه الاسبراطوريين، ان هذه الابتسامة ولطف المشية هذا كانا يكفيان لرفعها إلى مستوى أعلى كثيراً من هزء الدكتور برستس الهرم، العاميّ. لقد تزوجت من

---

(٢) Humour.

رجل من عامة الشعب، بعد أن رفض قلبها الإنصات إلى صوت دمها الأزرق، وأحبت هذا المحامي اللامع المثقف، الذي كان يحوز ثقة الجميع لمعرفته بالقانون، والذي كان الجميع يتنبأون له بمستقبل باهر. انه لم يكن نبيلاً، ولكنه سيصبح كذلك في يوم من الأيام، بالتأكيد، لقد كان هناك الامبراطور، الذي سينطف بقرارٍ يصدره، باسمه وبالنيابة عن الرب، دم المخلصين له، ويهبه لون السماء الأزرق الصافي. وكان أهلها المستاءون يقولون: انه ليس نبيلاً. وكانت ذكرى عامل القطران، المتسلق جوانب السفن، في مهنة العامل المخزية، لا تزال ماثلة للعيان. عمل مأجور... وكانت أذنا لويزا النبيلتان تمتلئان بهدير أصوات العمّات والأعمام، وابتسامة ابناء العم النبلاء الهازئة، والهمسات المتواصلة، لبنات العم، للصديقات، لمعارف البلاط. ولكن الحب، يا زنجيتي، هو أقوى من الكبرياء والاباطيل: ان بمقدوره ان يدفع نبيلة منحدرة من سلالة حاجب امبراطور إلى ان تقتسم سريرها مع ابنٍ لعامل قطران. وكانت لويزا تفكر، في ليالي التردد هذه، بانه سيأتي يوم يتلقى فيه محاميها المحترم، الغني، الشهير والمنتصر، من يدي السلطان، لقب فيكونت أو بارون، يستطيع ان يُغرق في بحار النسيان الذكرى المزعجة لعامل القطران المتسلق جوانب السفينة، المتسلق مقدم المركب، مؤخرة الباخرة، باخرة... سفينة شراعية متعددة الصواري تجتاز البحار... نعم، حتى انه يستطيع ان يرسم على ترسه صورة جانبية للسفينة الشراعية، لأشرعتها البيضاء المشرعة لريح المحيط، للأمواج المنفسحة أمامها. وعندها تصبح قصة ابن عامل القطران في السفن من اختراع اعداء مجهولين تافهين، وتبقى فقط اسطورة النبلاء البرتغاليين، الذين اجتازوا المحيط على سفن شراعية ضعيفة لكي ينطلقوا نحو المغامرة ويكتشفوا عوالم مجهولة.

وفي أحد الأيام أعطت يدها النبيلة لابن عامل قطران. وذهبت لتعيش معه في مدينة بورتو أليغري، حيث أصبح انطونيو برّيرا برسس أشهر القضاة وأكثرهم احتراماً. ان معرفته للقوانين، وشعوره الفطري بالعدالة خاصة، واستقلال تفكيره الذي ورثه من أبيه عامل القطران، كل هذا قد

جعل منه رجلاً شعبياً في المدينة، نوعا من المثال للرجل العفيف، الحريص على تأدية واجباته، والذي كان حسه بالشرف لا يعادل إلا حسه بالعدالة، بالعدالة الحقيقية، لا العدالة التي تكتفي بتطبيق القانون، بل بتلك التي نبتت جذورها في قلب معرفة التفاوت الاجتماعي بين الناس.

ولم يمت صدى الاحكام التي أصدرها الدكتور برستس في المدينة الريفية الصغيرة، بورتو أليغري. لقد وصل، يا صديقتي، حتى إلى محاكم البلاط، حيث أخذ يستوحي منه قضاة مشهورون. وكانت نصائحة السديدة، كرجل طيّب وعالم، التي كثيراً ما كانت تؤدي إلى تجنب المماحكات الطويلة، وتحل المسائل التي كان من الممكن ان يستمر عرضها امام العدالة سنين طويلة قبل ان تجد لها حلاً، كانت نصائحه هذه تحوز التقدير نفسَه الذي تحوزه أحكامه. تلك كانت سمعته، تلك السمعة التي سرعان ما جعلت من بيته ملاذاً للأولاد الذين كان عليهم، لسبب من الأسباب، ان يوضعوا تحت حماية القانون. انه لم يكن يعاملهم كيتامى أو كمجرمين أحداث. لقد كان يسمح لأولاده، يا صديقتي، بأن يكونوا رفاقاً خُلّصاً للقصّر الذين كان يُعهد إليه برعايتهم. وعندما كانت الدونا لويزا دي فريتاس ترافاسوس، وهي التي تعتبر ان على الولد النبيل ان يعرف الحفاظ على مركزه، تحتج على هذه الصداقة الحميمة مع القصّر الفقراء، اليتامى أو المجرمين، كان الدكتور برستس الهرم يقول بصوته الهادىء، بانه يريد ان يصنع من هؤلاء الأولاد رجالاً، لا «كراكوزات» بلاط.

وكان هذا الازدراء للبلاط، للثياب الجميلة، للألقاب النبيلة، للحياة الأنيقة، وهذه الطريقة في تكريس نفسه جسداً وروحاً لواجباته كقاضٍ، تثير وتجرح لويزا. لقد فقدت الأمل في ان ترى زوجها قاضياً في ريو دي جانيرو، يتردد على البلاط، يتحدث إلى الامبراطور ـ الذي كان مشهوراً بأنه عالم ـ حائزاً على اللقب المرغوب فيه كثيراً: لقب بارون أو فيكونت أو حتى لقب ماركيز. وبالتأكيد، لم يكن يتجه إلى هنا طموح الدكتور برسس، الذي كان يكتفي باحترام وتقدير بورتو أليغري، والذي

لم يكن يرغب لا في الذهاب إلى البلاط، ولا في شرف مناقشة الامبراطور، ولا بلقب نبيل. لقد كان يكتفي بعمله، بكتبه، وبالدراسة الدقيقة لكل قضية، وبالرضى الذي كان يقرأه على وجوه أولئك الذين كان ينصفهم.

وعدا ذلك - وكان هذا أكثر ما يرعب سليلة فريياس ترافاسوس - كان القاضي يمضي حياته بالتحدث عن الوالد عامل القطران، ويعاود عيش تلك الرواية الكئيبة بكثير من الكبرياء، تلك الرواية التي كثيراً ما حلمت لويزا باستبدالها بأسطورة «الكونكيستادورس»[٣] الملحمية وبسفنهم الشراعية، بالأرض الحقود وبالهنود في «الباندراس» المدنة للـ «سرتون»[٤]. وكان الدكتور برستس ميالاً بصورة غريبة لأن يقص ما كان يسميه «الحياة البطولية لوالده عامل القطران»، لأبيه المناضل من أجل اعطاء ولده حياة أفضل من تلك التي كان يحياها، والذي توصل لأن يجعل منه دكتوراً بالحقوق، ببذله تضحيات كان القاضي يعددها، بشكل تفصيلي فياض مقيت، أمام امرأته لويزا. انها لم تكن تود ان تكره زوجها والده ولا ان تنساه، ولكن كان عليه ان يدع هذه التفاصيل، لأوقات الود في سرير «الجاكاراندا»[٥]، الذي كان يستوعب من غرفة النوم ثلثيها، وان يدع لها ان تروي للزائرين قصة العائلة، التي درستها في أدق تفاصيلها، وحيث كانت تستبدل تضحيات عامل القطران بمظاهر الشجاعة، بالقتل الجماعي للقبائل الهندية، الذي قاده إلى نهايته المحمدة الجد الأول الباندرانتي.

ولم يكن ينغص ذلك فقط على زائريه، يا صديقتي، بل وعلى أولاده أيضاً. ومنذ ما فقدت الأمل برؤية زوجها يهتم بلقب النبل، كانت تفكر بأولادها، وخاصة بالبكر. ذلك الذي سيرث من المرساس ترافاسوس لطف النبل الذي لا يُقاوم، سر النجاحات في البلاط وفي المدن الكبرى، المظهر العالمي للسموّ الطبيعي المنحدر من الدم النبيل. لقد كان أملها، يا صديقتي، كان عامل

(٣) الغزاة.
(٤) مناطق صحراوية في شمالي - شرقي البرازيل، تضم خمس ولايات برازيلية.
(٥) خشب برازيلي ثمين.

ربحها في لعب المطامع. انه سيرث، دون شك، من عامل القطران حب العمل والدراسة والعدالة، وغير ذلك من الأشياء الأرضية. قلّ ما كان يهم هذا، فإن الرجال المثقفين كانوا يحوزون إعجاب الامبراطور. لقد كان هذا على الأقل ما سمعته يُردِّد... سيصبح نبيلاً مثقفاً، إنما نبيلاً قبل كل شيء آخر... وحصرت لويزا نفسها في الحلم بهذا الولد الذي سيقودها يوماً ما من يدها عبر أبهاء البلاط الملكي المضيئة اللامعة. بل انها كانت تنصت، في الحلم أيضاً، إلى هذه المحادثات التي كان يخيل إليها انه يُهمس بها عند مرور الأم والابن:

ـ هذه هي السنيورة فريناس ترافاسوس والفيكونت الصغير.

ـ انها من عائلة عريقة... من دم ممتاز... انما الأب؟ من أين جاء.

ـ بوجد شيء ما على ملامح البانديرانتي... شيء ما نبيل أيضاً. ولكن لمَ كان الدكتور برستس يصرّ على ان يروي لأولاده قصة نسبه الأبوي؟ لمَ كان يطلق أحياناً بعض نكات مرحة حول الفرق ما بين دمه ودم الفريتاس والترافاسوس؟ لمَ كان يسمح للأولاد، وخاصة للصغير أنطونيو، باللعب مع اليتامى الخَلِقي الثياب، الجياع، الذين كانت السلطات تحتجزهم في بيته؟.

وفكرت في صباح اليوم الذي لاحظت فيه غياب ولدها بأن أنطونيو قد بدأ، وسط هؤلاء المتشردين، يعتنق الفكرة الجنونية بالالتحاق بالجيش. ولم يكن الجيش، الناشيء من بين أوساط الناس الفقراء، ليتمتع إلا بحظوة قليلة في البلاط، وبقليل من العطف لدى الأمبراطور. وكان الصغير أنطونيو، حتى قبل وفاة الدكتور برستس، يتحدث عن الالتحاق بالجيش، وعن رغبته في ان يصبح جندياً. وكانت لويزا تلاحظ ان زوجها لا يستعمل سلطته بصورة كافية لمحاربة افكار ابنه.

واندفعت لويزا في النضال لدحر الأفكار العامية لولدها البكر، انطونيو، الذي لم يكن قد بلغ العاشرة من عمره بعد. وكانت تأمل بأن الدم النبيل سوف يتحدث في قلب انطونيو بصوت أعلى من صوت الدم الوضيع لعامل

القطران. معركة لا فائدة منها. ان كل أحلام الولد، كل رغباته، كانت تتلخص بالالتحاق بالجيش. لو التحق بالبحرية على الأقل...

كانت البحرية، يا صديقتي، مهنة نبيلة. ولم يكن يُرى فيها سوى البيض وكثير من الارستقراطيين وابناء العائلات النسلة أو الغنية، ولم يكن الضباط الذين نشأوا بين نيران القتال، والذين لم يتلقوا دراسة ما، يحظون بأي امتياز، كما كان يحصل في الجيش. لقد كانت مهنة تتطلب السفر إلى الخارج، تتطلب الاتصال بالطبقة النبيلة في أوروبا الهرمة، تلك الطبقة التي كانت تبرز في بلاطات بعيدة متبرجة. لم يكن الأمر شبيهاً بما يجري في الجيش. بملاكاته المجندة من بين الشغيلة والزنوج المحررين والخلاسيين، ومن بين الفلاحين. وفي كثير من الأحيان، لم يكن ضباطه يتابعون دراسة اختصاصية، ولم يكن بينهم سوى القليل من النبلاء، القليل من الأغنياء، وكان بعضهم لا يكاد يحسن القراءة؛ وهم، وقد نالوا درجاتهم في ساحات القتال، لم يخلقوا لكي يجرجروا سيوفهم في البلاط، حيث، فوق ذلك، لم تكن تتاح لهم كثيراً فرصة الظهور، كما يحصل لضباط البحرية؛ ولم يكن بمقدورهم رؤية الامبراطور إلا بعد طلب مواجهة. اه يا صديقتي، لو التحق بالبحرية على الأقل...

ولكن انطونيو الشاب كان قد ورث عن جده عامل القطران، الذي استطاع ان يجعل من ولده دكتوراً بالحقوق، إرادة قوية. لقد كان يعرف ما يريد، ولم يكن يتراجع عما اقتنع به بسهولة.

واستطاعت لويزا، بمنتهى الصعوبة، ان تحصل من انطونيو على تعهد بأن يدخل المدرسة الحربية على الأقل، وبأن يبدأ من الأعلى. ووعد انطونيو بذلك. إنما، ما هي تلك القوة الغريبة، يا صديقتي، التي كانت تجذب هذا الولد نحو الشعب، نحو الناس الفقراء، نحو هؤلاء الجنود والزنوج والخلاسيين الذين يشكلون الجيش؟ لقد كان من سلالة عامل قطران، إنما هو كذلك من سلالة حاجب امبراطور. أيكون، يا زنجيتي، دم عمال القطران العامي أقوى وأعظم أثراً من دم النبلاء الأزرق؟

وفي أحد الأيام هرب أنطونيو بريرا برستس من منزله والتحق بالجيش،

بصفة جندي بسيط. لقد كان في الثالثة عشرة من عمره. وكان، وهو الذى ينحلى بجزم الرجل، على اسنعداد للحماة، وكان يحب هذه الحماة على اعنبار انها مغامرة، على الانسان ان يحياها دون ان يقاسمه اياها أحد.

وبكت لويزا أمام صورة الجد الأول الارستقراطي، الذي كانت نبدو عليه، تحت المخمل الذي كان يرتديه، سيماء الغضب للانحطاط الذي انتاب العائلة. ومن على صورة أخرى، ترتدي ثياباً أحدث وأكثر نواضعاً، كان القاضي انطونيو بريرا برسس، والد الجندي الفتيّ، يرسل ابسامته الطيبة الهازئة. وتحولت دموع لويزا، دموع لويزا فريتاس ترافاسوس، إلى شهيق.

إن ما لم تكن تفهمه، ان ما كان يؤلم قلبها، هو هذا الانتصار الذي أحرزه دم عامل القطران الأحمر على الدم الأزرق النبيل، هذا الانتصار الذي كانت تبدو معالمه في إرادة ورغبات وأفكار الولد. وكانت لويزا فريتاس ترافاسوس تفكر بانه، إذا ما استمر الأمر على هذه الحال، فإن نسلها سيتحد مع عمال القطران في العالم، ضد الكونتات والبارونات والفيكونتات والدوقات وأباطرة الدنيا في أحد الأيام...

في أحد الأيام، يا صديقتي، وضعت فتاة مبتلاة بهوس قراءة الصحف وبالاهتمام بالسياسة، عدة كتب في محفظتها المدرسية، وقررت ان تصبح مدرِّسة، تماماً كما كان من الممكن ان تفعل ابنة خياطة عادية، رغبت في ان تسمو بعض السمو في الحياة. وكان هذا الشيء يشكل بالنسبة لعائلة ليوكاديا انحطاطاً من وجهة النظر الاجتماعية. لقد كان والدها تاجراً غنياً، وكانت امها منحدرة من عائلة عشائرية. وكان كلاهما يعتقد بان حظ المرأة في العالم مقتصر على ان تقوم بزواج موفق، ان تحصر نفسها ضمن منزلها في حدود أفكار زوجها، دون ان تهتم في ما يحدث خارج حدود البيت. لم يكن العالم موجوداً بالنسبة لامرأة ذلك العهد، يا صديقتي. وفي ذلك الوقت، حيث كانت قراءة رواية ما تكاد تعد منافية للآداب بالنسبة لفتاة صبية، كان الاهتمام الذي تبديه ليوكاديا بالسياسة، لا شك في ذلك ولا ريب، عملاً جنونياً. وان فتاة صبية تصر على قراءة الصحف، تهتم بثورة الأسطول، تناقش حول

الثورة، كان حادثاً غير منتظر في الحياة الهادئة لبيت فلبزاردو. وهذه الفكرة الآن في الذهاب إلى دار المعلمين، في أن تصبح مدرّسة، ان تلقن الأولاد الفقراء الحروف المجانية!.

ولكن الدونا ارميلندا أوعسادي ألميدا فلبزاردو، والدة ليوكاديا، كانت، مع هذا، تتمتع بذكاء مرن خولها فهم أحدث أفكار العصر، وقادها إلى متابعة عمل ابن ليوكاديا بصورة كاملة، حتى سنة ١٩٤١، حيث اسلمت الروح. إنما في ذلك العهد، في مدينة بورتو ألبغري، في الجنوب الأقصى من البرازيل، كان، حتى أكثر الناس تطوراً، يعتقدون بان على المرأة ان لا تهتم بما كان يجري في العالم، وبانه لم تكن لدى الفتاة المنحدرة من صلب أناس أغنياء أية حجة ذات قيمة تخولها ان تختار المهنة التي لا مستقبل لها، مهنة مدرّسة، مهنة أناس فقراء، أناس محتاجين. على ابنة تاجر غني ان تهيّىء نفسها للزواج. ومن أجل الحصول على زواج موفق من شاب نبيل يقودها إلى البلاط، على الفتاة الصبية الغنية أن تكون مثقفة، ان تعرف قليلاً من الفرنسية، ان تحسن بعض الاحسان الضرب على البيانو، ان تهتم باعمالها البيتية، ان تعرف تهيئة طبق الطعام، وان ترقص بأناقة. وانضمت الدونا ارملندا إلى صفوف عائلتها، التي كانت تعارض بكل قوة اباطيلها مشاريع ليوكاديا المناقضة للصواب. وربما كان احتجاجها غير صادر عن قناعة كاملة، لأنها كانت تحس بالاختناق الذي كان محكوماً به على نسوة ذلك العهد. وربما كانت تفكر بان ابنتها كانت على صواب في ان تتصرف على هذا النحو، وبان عليها ان تحيا الحياة التي تود، مؤمنة الاستقلال لنفسها بالعمل. إنما كيف كان بمقدورها ان تعارض، وقد بدا ان قرار ليوكاديا قد أرعب جميع الناس؟.

واحتج جوزيه جواكين فليزاردو بحدة. ما سوف يقوله زبائن «بيست فليزاردو»، بيت شارع دوس اندراداس التجاري المشهور؟. انما جوزيه جواكين لم يكن، هو كذلك، من معدن قاس لدرجة لا تستطيع معها الصغيرة ليوكاديا ان تضمن الفوز لوجهة نظرها. إن هذه الفتاة الصبية، يا

صديقتي، لم تكن فتاة عنيدة فقط، بل كانت، مثل الشاب برستس، تعرف ماذا تريد، تعرف ان تصنع حياتها. ولم تكن الحياة تتحدد بنظرها في ان تقوم بزواج موفق من شاب من عائلة جيدة، بان يكون لها بيت مريح، ويكون لديها زنجيات للاهتمام بالأولاد وبالمطبخ، ونساء موكاماس (٦) لترديد أغانٍ حنونة خلال امسيات الصيف الحارة؛ لم تكن الحياة بنظرها بدانة وضجراً. لا، يا صديقتي. في كل صباح، كانت ليوكاديا ترى الحياة في الشارع، على وجوه الرجال الذاهبين إلى العمل، وجوه الزنوج، وجوه الزبائن الذين كانوا يتناقشون في «بيت فليزاردو» حول الملكية والجمهورية، أو حول الغاء الرق؛ لقد كانت ترى الحياة على وجوه الفتيات الصبايا اللواتي كن يذهبن إلى المدرسة لكي يتعلمن مهنة ما. نعم، يا صديقتي، كانت الحياة تمر أمام ليوكاديا وتجذبها، وتناديها بيديها المتقرحتين؛ وكانت الفتاة تكتشف ان هناك كثيراً من الأشياء الطيبة النبيلة يتوجب القيام بها في هذا العالم. انها لم تولد من أجل ان تقبع في بيتها، بينما تتكاثف المشاكل التي تتطلب الحلول، وتتكاثف الآلام في الخارج.

وكان أبرز مظاهر عقلية الأهل يبدو في تصرفات ليوكاديا. فهي مثل الدونا أرميلندا، لم تكن لترضى عن نفسها مطلقاً؛ لقد ورثت عن أمها الرغبة في التطور، في متابعة سير الافكار، وورثت عن والدها الافكار التقدمية، حب الثقافة وتفهم المظالم الاجتماعية.

لقد كان التاجر جواكين جوزيه فليزاردو هذا رجلا غريباً. لقد حملته رؤيته لرجال السياسة المحترفين، الذين يفكرون بمصالحهم الخاصة بدلاً من الاهتمام بمصالح الشعب والبلاد، على كره السياسة، على اعتبارها شيئاً محتقراً. لقد كان، وهو المثقف والقارىء المتعطش لكل كتاب جديد منشور في أوروبا، تاجراً غريباً، يختلف تمام الاختلاف عن زملائه، ليس فقط لانه كان متعلماً ويستطيع الصمود في وجه رجال القانون ورجال السياسة، وانما

(٦) اسم كان يطلق في عهد الرق في البرازيل على النساء من الرقيق، اللواتي يكرسن أنفسهن للأعمال المنزلية.

لانه كان يثور ضد العقائد الوطيدة الأسس، للكنيسة أو للرق. واكسبه هذا عطفاً بين الأوساط الواسعة للبؤساء والفقراء والمستعبّدين والارقاء. لقد كان جوزيه فليزاردو يشتري الارقّاء في سبيل هدف واحد: هو ان يعتقهم، وبدْد ثروة كبيرة لكي يجعل منهم رجالاً أحراراً. وكانوا يدعونه في بورتو أليغري بـ «أبي الزنوج». وكانت أبواب منزله مفتوحة دائماً للزنوج الهاربين، الذين كانوا يجدون فيه ملجأ لا يستطيع النبلاء إخراجهم منه.

وكان الزنوج يحيونه في الشارع:

تباركت، يا أبانا.

لقد كان يحيّا كذلك، بحب واحترام، من قبل الأرامل واليتامى الذين كانوا بعرفون بانهم سيجدون دائماً في ذلك البيت، في شارع «ابونتي»، انفراجاً لآلامهم، ويداً طيبة عطوفة تمدهم بالعون بنكتم وتستر، فكأنها لا تفعل شيئاً. وأشاع موته في أحد الأيام الحزن في المدينة كلها. ومشى، خلال بعد ظهر ذلك اليوم من سنة ١٨٩٩، حاكم الولاية خلف عربة الموتى. انما كان هناك كذلك جمهور مجهول الاسماء، من الناس الفقراء، من الخلاسيين، من الزنوج، وخاصة من الزنوج الارقاء الذين منحهم الحرية.

واستطاعت ليوكاديا ان تنتصر بدون صعوبة على معارضة أم كانت تهتم بتطور العالم، وأب عفيف مثقف، كان يهتم بأكثر مشاكل زمنه خطورة. واعتادت ليوكاديا، منذ مقتبل عمرها، يا صديقي، التغلب على العقبات، واعتادت على النضال. ذلك هو السبب الذي استطاعت بفضله، في شيخوخنها المظفرة، ان تدهش اميركا كلها بشجاعتها، بجلالها في تحمل الآلام، بقوتها المعنوية، بعظمتها المؤثرة.

وفي أحد الأيام، سارت الفتاة الصبية الغنية في طريقها إلى دار المعلمات، كابنة أي عامل قطران. وكان التاجر فليزاردو يشترك في التعليق مع زبائن مؤسسته التجارية حول تصرف ابنته الجنوني، ولكنه كان يبتسم بسخاء. وكانت الدونا ارميلندا تبتسم ابتسامة مشوبة بشيء من الكبر، وهي تشاهد

ابنتها برفقة تلميذات دار المعلمات، اللواتي كن يدرسن من أجل الحصول على مهنة. لقد كانت ليوكاديا ها هنا، مختلطة بالصبايا الفقيرات، مرحةً، سعيـدة، واعية لما كانت تقوم به، كأية واحدة منهن... نعم، انها لن تصبح مثل النساء اللواتي كانت الدونا ارميلندا تعرفهن، شخصاً محدود الآفاق، محصوراً في بهو الزيارات، في المطبخ، في السرير الزوجي، والذي كانت القراءة بالنسبة إليه حادثاً منافياً للآداب، والحياة مشهداً بعيداً خطراً.

وفي اليوم الذي أخذت فيه ليوكاديا كتبها وذهبت إلى دار المعلمات، وسط تنهدات ونحيب العائلة، لم تتنهد الدونا ارميلندا ولم تبدُ لا حزينة ولا خائفة. لقد فكرت طويلاً، يا صديقتي، وقالت في نفسها بانه سيأتي يوم تتحرر فيه نساء العالم كله، وينزعن عن بيتهن صفة القفص الذهبي، وتزول الأباطيل السخيفة من الوجود، ويعملن مع الرجال في بناء عالم أفضل. وفي أحد الأيام...

في أحد الأيام، يا زنجيتي، في يوم مشعة شمسه، التقى الجندي الشاب بالمدرّسة الصبية، التقى انطونيو بليوكاديا، فهام أحدهما بالآخر، فتفاهما وتحابا. وبعد خطبة شعرية، أوثقا بالزواج شبابهما الثائر.

- ٣ -

في تلك الصبيحة المظفرة من يوم الخامس عشر من تشرين الثاني سنة ١٨٨٩، يا صديقتي، وقد كانت الملكية تنهار في البرازيل، تجمّع طلاب المدرسة العسكرية حول استاذهم ورئيسهم، الليوتنان كولونيل بنجمين كونستان بوتللو دي ماغالياس، وأقسموا بان «ينتصروا أو يموتوا»، من أجل الجمهورية والديمقراطية. في ذلك الصباح، وقع تلامذة البرايافرمليا [٧]، أفضل مدارس العصر العسكرية وأشهرها - مدرسة «أطباء الجيش» - «ميثاق الدم»: إما تنتصر الجمهورية وحكومة الشعب ومن أجل الشعب، أو يفنى الجنود الجدد في النضال. وجعل كل منهم يقسم على ذلك بدوره. وكانت ساعة مؤثرة، يا صديقتي. لقد حمل تلامذة الضباط هؤلاء على عواتقهم، وهم على وشك انهاء دراستهم، الحمل الثقيل الذي هو مصير البلاد. لقد تعلموا معنى الوطنية وحب الوطن والكرامة، من فم ذلك الليوتنان كولونيل الشريف، الذي كان في الوقت نفسه رجل عمل، رجل عدالة، وكان بطلاً.

وتقدموا، الواحد تلو الآخر، يا صديقتي. كان أحدهم شاحب الوجه من التأثر، وآخر مبتسماً، وآخر أيضاً قد تقلص فمه من الغضب، ذلك لانه كان خلاسياً وكان يذكر بان جدوده الأول كانوا عبيداً للامبراطورية. وعندما وصل الدور إلى الطالب انطونيو برّيرا برستس، تقدم هذا بعزم وصلابة، مرفوع الرأس، ينطلع باستقامة إلى أمام. فاقسم، ثم وقف إلى جانب بنجمين مستعدا لمرافقته.

---

(٧) الشاطيء الأحمر.

إن هذا الطالب، مثّله في ذلك مثل الخلاسي ومثل الفلاح الذي انهى دراسته، لم يكن قد دخل مدرسة برايافرمليا بفضل ألقاب نبل. لقد ناضلت والدته كثيراً لكي تجعله يبدأ مهنته من الاعلى: لقد كانت تريده ان يفيد من الامتيازات الممنوحة لعائلتها، وان يبدأ حياته العسكرية كتلميذ ـ ضابط في مدرسة ما. ولكن انطونيو برّيرا برستس كان يفكر على نحو آخر. انه، وهو ابن لعامل، كان يفكر كأبيه بأن من الواجب ان يبدأ الانسان حياته من الأسفل، وان يتسلق درجات الرقي بعدئذ؛ وذلك كان السبب الذي جعله يقسم ان يناضل ضد الملكية وان ينتصر، أو يهب حياته من أجل الجمهورية، ولم يفعل ذلك، بدافع الحماسة الفتية التي أيقظتها فيه دروس بنجمين وحدها. لقد ظل هذا التلميذ جندياً طوال سبع سنوات؛ وكان قد امتزج بالشعب، الذي كان يعرف قضاياه، لا معرفة مراقب ومشاهد، بل معرفة رجل عاشها. لقد كان يعرف كم كان صعباً على جندي ان يجتاز ابواب المدرسة الحربية ومدرسة اركان الحرب، بينما كانت هذه الابواب تفتح على مصاريعها بسهولة متناهية امام الطفيليين من النبلاء وامام أبناء الأغنياء. ولكنه كان يعرف أكثر كثيراً من ذلك، أكثر كثيراً، يا صديقتي. لقد كان يعرف ما كان يجري في المدن وفي الريف، حيث يعيش الجنود على اتصال مع أكثر الناس فقراً واستثماراً وبؤساً. لقد كان يعرف الزنوج: لقد تعرف بينهم إلى آلام جنس مسترّق. لقد شاهد نضالاتهم الثورية. ورأت عيناه، يوماً بعد يوم، في ظل الامبراطورية، صعود الرجعية، الخبيثة الحذرة، انما القوية، التي كانت تناضل ضد التيار الداعي إلى الغاء الرق. وهو، وقد عاش إلى جانب الارقاء السابقين وابناء الارقاء، وكانت له مهنتهم نفسها، لم يدع نفسه تنخدع بديماغوجية العائلة المالكة، التي كانت تجهد نفسها لكي تُظهر الأمبراطور وعائلته بمظهر «انصار الغاء الرق، الذين لا يصدرون قراراً بهذا الالغاء، لان القوى السياسية في البلاد لا تسمح لهم بذلك». وفهم بان استرقاق السود كان الاساس الذي ترتكز عليه الامبراطورية، وانه، من أجل هذا السبب نفسه، كان الامبراطور وعائلته، بالضرورة، من انصار هذا الاسترقاق. فهم بانه، حتى في حالة الغاء الاسترقاق وانتصار الشعب، فان مهمة الوطنيين لم

تكن لتنتهي عند هذا الحد. فهم بان من الواجب قيام نظام يمثّل فيه الشعب، يستطيع الشعب فيه اختيار حاكميه، وإسماع صدى حاجاته. حاجات كان الجندي انطونيو بريرا برستس قد شاهدها بعينين دهشتين لولدٍ هرب من منزله ليعيش، في الجيش، مغامرة الحياة. لقد اكتشف ان حياة الشعب هي حقاً مغامرة كئيبة، يا صديقتي، مغامرةٍ مرة مؤلمة، بطولية أحياناً، وفاجعة دائماً. لقد شاهد المجاعة التي يعيش في وسطها أصحاب الحرف، بينما كان الراقصون في القصر، يرتاحون من تعب الرقص أمام مقاصف مملوءة بالاطباق اللذيذة، ويتذوقون مآكل ذات اسماء فرنسية معقدة. لقد شاهد في السرتونس، في الشمال الشرقي من البلاد، الرجال الذين لا أرض لهم يصبحون انبياء للتعاسة، ويتحولون بصورة ارتجالية إلى رؤساء عسكريين ودينيين لكي يناضلوا من أجل الحصول على الأراضي التي كان نبلاء [٨] ذلك العهد يتلقونها من الامبراطور، لقاء كلمة بارعة، أو رقصة موفقة، أو جلدٍ محكم بالعصا على كليتي أحد الزنوج. لقد شاهد الزنوج يهربون من السنزالس [٩] القدرة البائسة إلى الغابة العذراء الحرة. لقد تعرف إلى ضحايا وابطال مجهولي الاسماء. لقد شاهد الشعب، وعاش حياته وشاطره آلامه. وعلى هذا الشكل، يا صديقتي، أصبح الشاب انطونيو برّيرا برستس رجلاً، وانهى، في العشرين من عمره، دراسته العسكرية.

وفي صباح الخامس، عشر من تشرين الثاني سنة ١٨٨٩ هذا، لم يكن الطالب انطونيو بريرا برستس، تلميذ بنجمين كونستان، هو الذي أقسم فقط بان يموت، إذا لزم الأمر، من أجل انتصار الجمهورية؛ ان من فعل ذلك، كان ـ وبصورة خاصة يا زنجيتي ـ هو الجندي انطونيو بريرا برستس، تلميذ الشعب، ذلك الذي علمته الحياة، قبل ان تعلمه الكتب، ضرورة الديمقراطية والحرية.

وتقدم الطلاب واحداً واحداً، وامتلأ قلب الليوتنان كولونيل بنجمين

(٨) Les comtes, Les barons, Les marquis ـ المعرّب.

(٩) أكواخ خربة يسكنها الزنوج.

بوتللو دي ماغالياس سروراً. لقد علّم هذا الجيل كرامة الرجولة والثقة بالانسانية وبالاخوّة العالمية. ولم يُستعمل مطلقاً كرسيّ استاذٍ، يا صديقتي، بمثل الاتقان الذي استعمل به كرسي هذا الاستاذ من أجل نشر الافكار التقدمية والثورية. ان أولئك الذين يضطهدون اليوم في البرازيل، يا صديقتي، الاساتذة الدين ينشرون من أعلى كراسيهم أفكار العصر ويعطون لمهنتهم، كمربين، كرامتها كلها؛ أولئك الذين يضطهدونهم، الذين يعذبونهم ويسجنونهم، ينسون درس الجمهورية، درس بنجمين؛ ينسون انه حوّل كرسيه إلى منبر، وان البرازيل مدينةٌ بقدرٍ كبير، بقضية سقوط الملكية، إلى دروسه الجمهورية. إنه، وقد استند إلى فلسفة أوغست كونت وسار على نهجها إلى حدٍ كبير، هو الذي كان يفضح في كل وقت ديماغوجية الامبراطور، المتظاهر بانه ليبيرالي، من انصار الغاء الرق، بل ومن الجمهوريين. لقد كان يا صديقتي هو الرجل الذي يمثل حقيقة كل أولئك الذين يرغبون بالجمهورية، كما كان «دون بدرو» الثاني يمثل، خيراً من أي انسان، جميع الرجعيين.

لقد كان بنجمين كونستان رئيساً شعبياً، من أولئك الرؤساء الذين يعرفون الجهر بالحقيقة. لقد عرف كيف ينزع عن بدرو الثاني القناع الوقح للرجل الليبرالي الذي كان هذا يختفي وراءه، وأظهر للشعب وجه الطاغية بشكله الحقيقي. وفي أيامنا، قام لويس كارلوس برستس بعملٍ مماثل: لقد عرف ان يظهر اعداء البرازيل الحاليين في عريهم الفاجع.

لقد كان بنجمين كونستان يجمع في نهاية القرن الأخير أنبل فضائل الشعب البرازيلي. لقد كان، وهو الذكي المثقف والمخلص، مربياً ممتازاً للرجال، ورجل شرف. وهو، وقد كابد عيش ولد فقير، عانى جميع المظالم وجميع الحرمانات. ان الاحترام الذي كان يحظى به من قبل الشعب لم يكن يستند إلى المظاهر التي قد تؤدي أحياناً إلى احترام زعيم مزيف؛ بل كان ينحدر من عظمة حقيقية، طاهرة، لا شك فيها. انه لم يكن يتمتع بأية مزية من مزايا الديماغوجي، بل كان، على العكس من ذلك، يتحلى بمناقب الزعيم الشعبي الحقيقي.

ان لويس كارلوس برستس، الذي يشبهه إلى حد يثير الدهشة، من الناحية المعنوية، هو اليوم متمم رسالته. ولم يكن لويس، هو أيضاً يا صديقي، يحمل أية صفة من صفات الديماغوجي، ولم يكن أي شيء فيه يشكل مظهراً خارجياً، ولا مظهراً مزيفاً. وكانت عظمته كذلك واقعاً ملموساً. لقد كانت حياته كلها مكرسة للشعب، لعبادة الشرف، للكرامة، للحقيقة، لقضية البرازيل. وكان مثقفاً ذكياً ومخلصاً، كبنجمين كونستان. ولقد تحدر مثله من عائلة فقيرة، وصعد الدرجات مكابداً مثله كل المظالم وكل الحرمانات. وكما وجد بنجمين كونستان الإيجابية[١٠]، وجد هو أيضاً في يوم من الايام فلسفة للحياة. وان الماركسي لويس كارلوس برستس، هو في أيامنا هذه وجه ذو أهمية تاريخية في حياة البرازيل، تعادل بعظمتها ان لم تفق، أهمية الايجابي بنجمين كونستان في النصف الثاني من القرن الماضي وكان كلاهما عسكرياً مجرباً بالقتال، وبرهن الأول عن سعة معلوماته وعن شجاعته، كما برزت في الثاني عبقرية عسكرية وسياسية لا مثيل لها في أميركا. وكان كلاهما رجلاً يضحي بكل شيء من أجل صالح الشعب. ولم يكن لأي منهما اندفاعات الخطباء الغزيرين. ولم تكن لهما حركات مسرحية. ولم يكن اي منهما بتنكر بقناع ما، لكي يقدم نفسه للشعب. انهما لا يتمتعان بقوة أسر مغناطيسية ولا باندفاعات محمومة. انهما هادئان، صافيان، بشوشان وبسيطان. ولكل منهما عينان نفاذتان ونشيطتان؛ عينان تكشفان عن حقيقة مشاعر القلب. وفي العصور النائية، والشبيهة بعصور النضال ضد الملكية وضد الفاشية، يتعرف الشعب إلى رؤسائه في شخص كونستان الايجابي وبرستس الماركسي.

وكان كونستان يتقدم على رأس تلامذته نحو البلاط. وكان الرجال الذين كانوا يقودون، في ذلك اليوم، الجيش المتمرد، لا يعرفون إلى أين عليهم ان يقودوا الشعب. لقد كانوا يسمعون اصواتاً تطالب بالجمهورية، ولكنهم كانوا يترددون في إعلانها.

(١٠) الايجابية: طريقة فلسفية انشأها أوغست كونت، تقول بأننا لا يمكن ان نعرف بصورة كاملة سوى الحقائق التي نلمسها ونتأكد من وجودها بالتجربة ـ المعرّب.

وكان الليوتنان كولونيل كونستان بوتللو دي ماغالياس على رأس طلابه الذين أقسموا ان يعلنوا الجمهورية أو يموتوا. وكان بينهم الطالب الهادىء الحازم، انطونيو بريرا برستس. واجتازوا شوارع مدينة ريو دي جانيرو، حيث كان الخطباء الشعبيون: لولس تروفايو، باردال ملّيت، راوول بومبيا، سليفا جردين، يلقون الخطب من الشرفات، أو من على ظهور الصناديق. وكان الجمهور لدى مرورهم يهتف لهم، يتظاهر للجمهورية، ويتبعهم، هم التلامذة الفتيان الابطال. وكانت الجماهير في شارع أوفيدور، يا صديقتي، تهتف باسم بنجمين كونستان. وكانت الهتافات تستقبل كذلك التلامذة الذين كان الجمهور يتعرّف إليهم، وكانت تمتزج بالهتافات الموجهة إلى كونستان. وفي وقت من الأوقات، مرّ التلامذة وراء فريق من الجنود الخلاسيين والزنوج. فتوزعت الهتافات ساعتئذ بين الليوتنان كولونيل وبين أحد التلامذة الذين يتبعونه: لقد تعرف الجنود الزنوج والخلاسيون القدماء إلى واحد منهم كان جندياً مثلهم، وأصبح صديقاً لجميع الجنود: لقد تعرفوا إلى الجندي انطونيو بريرا برستس.

وفي صباح هذا اليوم من سنة ١٨٨٩، يا صديقتي، هُتف للمرة الأولى في شوارع مدينة ريو دي جانيرو باسم برستس.

- ٤ -

خرجت الخادمة مسرعة وقد أضاءت وجهها ابتسامة عريضة. ودخلت، دون كلفة، لدى الجيران العديدين، في شارع ريا شويلو في بورتو أليغري. وكان عيدا الميلاد ورأس السنة قد انصرما. ما هو السبب الذي دعا إذن، يا صديقتي، الزنجية العاملة لدى آل برستس، لان تهاجم الجيرة بهذا الشكل، كما لو كان الامر يتعلق بيوم عيد ؟.

آه! يا صديقتي. لقد كان يوم الثالث من كانون الثاني سنة ١٨٩٨، هذا، يوم عيد حقيقي في شارع ريا شويلو. ويُحتفل بذكرى هذا اليوم، في أيامنا هذه، في البلاد الأميركية كلها. ان الزنوج والخلاسيين والبيض في البرازيل: العمال في معاملهم، والفلاحين بين عائلاتهم، والجنود، والطيارين، والمثقفين، والعلماء، ان كل أولئك الذين يتعطشون للحرية وللتقدم، يحتفلون بيوم الثالث من كانون الثاني، تاريخ ولادة بطل الحرية. واليوم، يا صديقتي، وقد سيطر حكم الارهاب، يتلفت كل أولئك الذين يبيتون في مساكن عمالية، في الأكواخ الفلاحية، في مساكن متواضعة لصغار التجار، لصغار المزارعين أو المستخدمين، كل أولئك المثقفين والعلماء الذين لا يستطيعون التعبير عن آرائهم والذين يتعرضون للمراقبة، يتلفت كل هؤلاء وقد سيطر عليهم التأثر، نحو غرفة انفراد ثُلاثية في جناح المسلولين في الكوريسون (١١)، حيث يوجد ذلك الذي وُلد في الثالث من كانون الثاني، والذي، وقد رفع عالياً راية الشعب، أخذ على عاتقه أمر القيام بصليبيته من أجل الحرية. ان حكومات الاستبداد واعداء الوطن يرتجفون في هذا اليوم؛ انهم لا يجرأون

(١١) سجن في ريو دي جانيرو.

على الخروج ليلاً من بيوتهم، ويختفون تحت شراشفهم حتى رؤوسهم، وحتى وهم على هذه الحال، لا يستطيعون خنق خفقات الخوف الذي يضطرم في قلوبهم الصغيرة. ذلك لانهم يعرفون بان هذا اليوم هو تاريخ بالنسبة للشعب، وبانه يُحتفل في كل بيت برازيلي، خلال هذه الليلة، بمولد لويس كارلوس برستس. ان الامل في هذه الليلة يخفق في القلوب. انه يخفق بقوة يخترق معها الصمت الذي فرضته الشرطة، ويدوّي قضاء لا يرحم في صدور خونة الوطن الهالعة. ان الامل، يا صديقتي، يخفق بقوة عظيمة يجتاز معها السجن الهائل، الذي تشكله البرازيل في أيامنا هذه، وينتشر من شمالي أميركا إلى جنوبها، من الألسكا إلى الباتاغوني.

وكانت الزنجيات اللواتي كن يسهرن على سررنا خلال ليالي البرازيل، يروين قصة البطل الاسطوري، ويعلنّ في تنبآتهن الخرافية، عن مستقبلنا. أتذكرين، يا صديقتي، الزنجية التي سهرت على سريرك؟ انني واثق من انها كانت الأولى التي قالت لك، وهي تنظر في عينيك، بانه مقدر عليك ان ترافقي وان تتحملي كاتباً متشرداً، وثائراً يحب ان يتطلع إلى القمر في أقصى المرافىء. وانها لزنجية تلك التي قالتِ لي في إحدى ليالي ايليوس النائية بأنني سأحب ان أرسم طريقي وسط الشعب، في السوق وعلى الأرصفة، وسأخترع أغنيات صغيرة وقصصاً. ان الزنجيات تتنبأن دوماً بالحقيقة، يا صديقتي، لأنهن ينظرن بعيون الحب. وهكذا حدث ان أعلنت خادمة آل برستس السوداء، خلال طوافها في صباح الثالث من كانون الثاني سنة ١٨٩٨ على بيوت شارع رياشويلو، ولادة طفل يحمل نجماً غريباً. لقد أعلنت انها شاهدت في عينيّ الولد المتوقدتين، نجماً يشتعل ببريق عظيم دبّ من جرّائه الخوف في قلبها. لقد كانت قد ذكرت آلهتها، وشاهدت أوشيسي، اله الصيد، الذي يجوب غابات افريقيا. لقد شاهدت شنغو كذلك، اله العاصفة والرعد، اله المعارك المنتصر. بل ولقد شاهدت أكثر من ذلك، شاهدت بريق ذلك الذي قدم من أفريقيا بصفة مستعبدٍ وفانٍ بسيط، وأصبح، اله الحرية في البرازيل، في أحلام المستعبدين. لقد شاهدت زمبي، أصغر الآلهة الزنوج، الذي أثار

العبيد ، وهرب نحو غابة بالمارس وخلق جمهورية للناس الأحرار . لقد شاهدت في عيني الولد ، أوشيسي فاتحاً الغابات العذراء ، شنغو ملقياً بالعاصفة بالمعركة ، ومنتصراً على أعدائه ، وزمبي صانعاً الحرية . انها لم تشاهد مطلقاً ، مطلقاً ، ولداً مماثلاً . وخلال الماكومبا في هذه الليلة ، سنرقص ، وعلى شرفه تغني انشودة النصر :

Erô ôJa é parâ mon, ê lnun ôJâ ll a ô lô (١٢) .

ذلك كان السبب ، يا صديقتي ، الذي دعا خادمة آل برستس ، إلى ان تنطلق بوجهٍ مشعّ بابتسامة ، وبجسمٍ يتحرك كما لو كان يرقص ، إلى الجيران ، وتؤدي باندفاعِ المهمة التي أوكل بها إليها الملازم انطونيو بريرا برستس ودونا ليوكاديا :

ـ ان الملازم والمدام بعلمانكم بانه أصبح لكم خادم جديد يخضع لأوامركم . . . ـ وكانت عيناها تضحكان في وقت واحد مع شفتيها وجسدها كله .

لقد كانت تضحك مهتاجة سعيدة ، وتُرسل الضحكة المنبسطة نفسها التي كانت تُشاهد على شفتيها ، خلال ليالي الماكومبا ، عندما كانت تحتفل بظهور أوشكلوفا ، أكبر الآلهة .

لقد كانت طفولته ، يا صديقتي ، طفولة ولد فقير .

لقد كان الفقر أخلص رفيق لعائلة والده ، الملازم برستس . وكان لهذا مزاج بالغٌ في الاستقلال ، وكانت انفته أعظم من ان تخوله الحصول على الترقية بسهولة . وبالرغم من شجاعته وكفاءاته ، كانت حياته المادية صعبة دائماً ، ولم تكن المهنة العسكرية في ذلك العهد من خير المهن ايراداً . ولم يكن انطونيو يعول ، براتبه ، عائلته وحدها ، بل كان يقدم العون كذلك لعائلة

---

(١٢) أنشودة النصر باللغة المساة بالـ Nagô ، وهي إحدى اللغات العديدة التي يتحدث بها زنوج البرازيل .

أمه إن مال الحميّ ومؤسسة « فليزاردو » قد انقطع مورده منذ وقت طويل: ان هرب الزنوج الذي سهّله جواكين جوزيه، والمساعدة المقدمة للمستبعدين، للأرامل ولليتامى، قد استنفذت القسم الأكبر من توفيرات التاجر الصغيرة. لقد كانت حياة الملازم صعبة. وكانت أفكاره الايجابية والطريقة التي يفهم بها الشرف، تمنعانه من ان يعيش مجرجراً سيفه في أروقة الوزارات أو في قصور الحكومة. انه لم يتخذ مطلقاً من الجيش « مهنة ». وكان عليه ان يموت فقيراً في سنة ١٩٠٨، وهو نقيب في فرق الهندسة، مخلفاً عائلة مجردة من المال تماماً.

وترعرع الولد لويس كارلوس برستس، وقد لُقّن بان الأولاد الفقراء لم يخلقوا لكي تكون لهم لعب ثمينة ميكانيكية، ولا كتب مزينة بالرسوم الفخمة. وفي عيد الميلاد كان يلاحظ ان بابا نويل لا يذهب إلا لدى أولاد أولئك الذين عرفوا ان يجمعوا مالاً. ان هذا الولد، الذي كان يتوقف خلال ضحكه أحياناً، وينقلب رزيناً بصورة مفاجئة ليفكر تفكير الراشدين، فهم بصورة سريعة ان جمال ومباهج العالم قد وُزعت بشكل سيّىء. لقد كان يشاهد أولاد شارعه مجردين من كل هدية، من فرح الحصول على أبسط اللُعب. لقد كان يستمع إلى الحديث، في البيت، يتحول في العديد من المرات إلى مسائل المال. وعُرضت هذه المسائل أمامه منذ طفولته؛ ومنذ طفولته تعوّد ان يحلها بأنبل الطرق.

لقد كان له أربع شقيقات. ولما لم يكن لديه لعبة ما، فقد كان يكتفي بصنع لُعبه. لقد كان يهتم بصنع « العرائس » لشقيقاته، لان هذا الولد الفقير، يا صديقتي، كان يحب دوماً رؤية الناس سعداء حوله. وكان يهتم دوماً بسعادة الغير. لقد كان سرور الغير سروراً له. وكان على هذا الشكل في البيت، في أول الأمر، يا صديقتي. ثم أصبح كذلك مع رفاقه في الصف، ثم مع جنوده. ثم أصبح على هذا النحو مع البرازيل كلها، حتى جاء اليوم الذي فهم خلاله، في المنفى، ان المسألة التي تستأثر باهتمامه هي سعادة جميع المضطهدين. لقد بدأ باكراً جداً تلك المهنة التي كان عليها ان تصبح مهنته.

لقد بدأها في البيت، بين مصاعب الولد الفقير.

لقد تعلم من والده انطونيو ومن ليوكاديا ان الحياة لا تتوقف عند حدود المنزل. لقد كان الوالد الايجابي يهتم بالعالم كله. وكانت الوالدة تتلف عينيها كل مساء، بقراءة الجرائد، حيث كانت تتابع تطورات قضية دريفوس التي كانت تجري في فرنسا النائية، وكانت تتحدث عن زولا، وتعرض تفاصيل المأساة. وتعلم لويس كارلوس برستس من الحياة، منذ نعومة أظفاره، نضالات الرجال، والمظالم والآلام. ومنذ طفولته الأولى بدأ يتعهد فولاذ مزاجه بالسقيا. لقد تلقى من والده دروساً في النزاهة. لقد علمه النقيب برستس، يا صديقتي، بانه لا يمكن الحصول على الشرف بالمتاجرة بالذكاء، بالمزاج أو بالقلب. لقد علمه ان الشرف متأتٍّ من فهم العدالة، من حياة شجاعة مملوءة بالكرامة. ذلك كان السبب الذي استطاع من أجله، يا صديقتي، ان يكتب لي ما بعد، من غرفة انفراده كسجين، إلى الدونا ليوكاديا، بانه «بشعر بالسعادة، بالرغم من كل شيء». كتب هذا، وكان قد حُكم بالسجن أكثر من ثلاثين عاماً، إثر أكثر المحاكمات بغياً. ان قوة الروح هذه، هذا الفهم للشرف الحقيقي ـ ليس ذلك الذي نجده بسهولة في مناسبات الحياة الخارجية، بل ذلك الذي نتوصل إليه بتأدية الخدمات للانسانية ـ اعطيا له منذ طفولته، بالمثال الذي تلقنه من النقيب ومن زوجته، اللذين كانا يفضلان الحرمان على أقل تنازل ذي صفة خلقية أو ذهنية. لقد فهم ان في الحياة طريقين، وان أهله قد اختاروا أشدهما قسوة. لقد كانت هذه الطريق تبدو لهم أكثر جمالاً. وهذا أيضاً ما كان الولد يفكر به.

ان طفولة لويس كارلوس هي طفولة ابن ضابط يُنقل من مخفر لـ كان أولاً في بورتر أليغري، ثم في ريو دي جانيرو، ونُقل بعد ذلك إلى داخل ريو غراندي دوسول، إلى ايجوي وإلى أليكرتي، ثم أعيد مر إلى بورتو أليغري. ويصح ان يُقال عن عائلته انها عائلة من الغجر مخيماتها بين الفترة والفترة لتتبع رئيسها من بلاد إلى بلاد. وتأمل الوا كارلوس منظر الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً، والذين يعيشون

محنية على حقول يعملون فيها من أجل أولئك الذين احتكروها. وفي المدن شاهد أصحاب المعامل يكدّسون المال على حساب العمال الذين يشتغلون، وعلى حساب المستهلكين. شاهد العمال والفلاحين وصغار البورجوازيين، شاهد الشعب يتألم. لقد كان ولداً رزيناً. فاعتاد ان يفكر ويستخرج النتائج مما كان براه. ولم يكن مظهره الرزين، الذي كان يبدو أحياناً مظهراً خجلاً، ناتجاً عن خوف من الحياة. لقد كان لويس كارلوس يحس، يا صديقتي، بان من الواجب مواجهة مشاكل العيش برزانة وتفكير.

وسقط الوالد صريع المرض في أحد الأيام؛ وكان هذا مرضاً طويلاً لم يُقدر له ان يشفى منه مطلقاً، واضطره إلى الذهاب مع عائلته إلى ريو، لكي يعتني بنفسه. وكانت تلك أياماً قاتمة. وفي البيت الواقع في إحدى ضواحي مدينة ريو دي جانيرو، حيث لزم الوالد الفراش، شاهد الولد لويس كارلوس والدته تضاعف جهدها في العمل. الدونا ليوكاديا هي ربة البيت في هذا الوقت، انها أم مملوءة بالعطف، وزوجة مهتمة بالعناية التي تقدمها لزوجها المريض، وانها هي التي كان عليها ان تتصرف بشكل تضمن معه ان يكفي ما يُحصّل من المال لمصاريف العائلة. انها لأوقات صعبة؛ وكان البيت يعيش في جو ثقيل لمأساة يمكن ان تنفجر في كل لحظة. وأصبح الاصدقاء نادرين: ففي ما عدا أفراد قلائل، لم يبق حول النقيب المحتضر سوى العائلة الفقيرة. وكانت العائلة مفتقرة إلى المال، وإلى السرور كذلك. وكانت الدونا ليوكاديا تخفي حزنها عن أولادها، إنما كان من المستحيل حقاً إخفاء أي شيء عن الصغير لويس كارلوس، المرهف الاحساس. لقد كان يفهم كل مأساة والدته، وكان يفهم كذلك كم كانت قوية في ألمها. لقد فهم كونها لا تشعر بأقل أسف لأن زوجها قد فضّل حياة قاسية، انما شريفة، على عيش هين ودون مبادىء.

وكانت الدونا ليوكاديا تجتاز البيت بخطى خفيفة. وفي غرفتها، كان النقيب انطونيو بريرا برستس يحتضر. وكان لويس كارلوس يحرص على ان تكون شقيقاته مسرورات، وان لا يعرن انتباهاً للمأساة التي تجري حولهن.

وازداد وجهه رزانة باطراد. ولكنه جعل يزداد هدوءاً باطراد. وعندما مات النقيب، جعل لويس كارلوس، وهو في سن يقل عن العاشرة، يعزي الجميع. لقد كان هو الذي جفف دموع ليوكاديا وحوّل انتباه شقيقاته نحو اللعب.

ان الاولاد الفقراء، يا صديقتي، يواجهون الحياة منذ سنيهم الأولى، ويحملون على عواتقهم الطفولية اللدنة مسؤوليات الراشدين. ان المشاكل تلامسهم من قرب، واحياناً تتجاوزهم. وشاهد الولد الفقير لويس كارلوس حوله: أمه وشقيقاته ـ أرملة ويتامى، تجردات من كل شيء تقريباً. أفق من الرماد منجرد من أي أثر لترسم الأشياء. منذ تلك السنوات البعيدة اعتاد برستس ان لا يفقد حس ترسم الأشياء، ان لا يفقد الثقة، ان لا يفقد السرور الداخلي. لقد كان يواجه الحياة مباشرة ويستعد لاقتحامها.

وفي أحد الأيام، بعد سنوات طويلة من ذلك، يا صديقتي، كتب من غرفة انفراده إلى الدونا ليوكاديا، التي كانت في المنفى، يقول: «ان ما يحصل لي اليوم لا يمثل بالنسبة إلي لا دهشة ولا تعاسة». لقد كان قد تعلم هذه العبارات الكبيرة، يا زنجيتي، في طفولته، في البيت الأمومي، باتصاله بالألم وبالفقر. وان الدرس الذي يعلمنا اياه اليوم، هو انه لا يوجد أي أفق، ولو مهما أدلهم ولو مهما تجرد من أي أثر لترسم الأشياء، لا يحمل في حناياه الامل بسماء زرقاء حرة. ويعلمنا كذلك، يا صديقتي، بان الحرية هي في كل واحد منا، وان الثائر، حتى في السجن، هو رجل حر. ليس هناك من مستعبد سوى ذلك الذي يحب الاستعباد.

- ٥ -

«Senora, hiciste grande, mas grande a nuestra América.
«Una madre de llanto, de venganza, de flores,
«Una de luto, de bronce, de victoria».

Pablo Neruda.

وارتسم، كالطيف الحارس، على حياة لويس كارلوس برستس، يا صديقتي، منذ طفولته الأولى، وجود امرأة ذاتية الاندفاع. ان دم ليوكاديا برستس هو دم القديسات والبطلات: دم أنيتاغاريبالدي، ماريا كيتاريا، ودم آنا نيري كذلك. وتمثل الدونا ليوكاديا، في حياة لويس كارلوس برستس البطولية، القوة المغذية، الحارسة، وتمثل العون. وانني أشاهد أحياناً، يا زلجيتي، في هذه المرأة الهرمة، أجمل صور الشعب البرازيلي. انظري إليها يا صديقتي: انها الشعب كولدها. وفيما إذا كان الشعب يتبنى، يغذي ويسند البطل، فان ليوكاديا برستس هذه، هي دون شك، من بين أعلى المناقب الانسانية، تجسيد للشعب، حيث تجد المستقبل والأمل. ويسمى ولدها **«فارس الأمل»**.

انظري، يا صديقتي، في سماء المنفى، إلى لمعان قمر البرازيل الأصفر الكبير. انه قادم من سماواتٍ هناك، وقد أنار هذه البحار وهذه الأرياف. لقد لمع على السفن الشراعية في مرفأ سوق باهيّا الصغير. لقد لمع يا زلجيتي، على جسور رسيفي، على مياه الأمازون خلال المد، على مياه سان فرنسيسكو الفاجعة. لقد لمع على الكاتنغا [١٣] وعلى البامبا. لقد لمع كذلك، يا صديقتي،

(١٣) منطقة قاحلة حيث لا ينبت سوى الصبار.

على جزيرة فرنندو دي نورونيـا ، التي تمثـل الحنين إلى الوطـن بـالنسبـة إلى المحكومين في سنة ١٩٣٥ ، اخواننا ؛ لقد لمع على غرفة انفراد سجن ريو ، حيث يحلم كارلوس برستس ببرازيل المستقبل. هذا القمر ، يأتي من البرازيل ، يا صديقتي ، ويحمل ضوؤه الذهيب ذكرى دافئة للوطن.

اذكرُ ، يا زنجيتي ، انه في أحد الأيام ، كانت الليلة قمراء كذلك في الكاتنغا [13] ، بين باهيا وسيرجيبي ـ وكنت برفقة الكانغاسيرو [14] ، زيه بيانو ، من عصابة لامبيون. لقد كان زنجياً هائلاً ، سبق له ان قتل كثيراً من الناس ؛ ولهذا السبب نفسه كانت بندقيته الرشاشة تحمل كثيراً من الخطوط المحفورة بالسكين. ولكنه كان رجلاً طيباً ، يا زنجيتي ، يحب سماع الروايات والحديث عن الاقدام والشجاعة. وكـان لامبيـون قـد أرسلـه لجبـايـة الضرائـب في سيرجيبي ؛ وفي ذلك الوقت ، الذي لا يزال حديثاً ، يا صديقتي ، كان لامبيون يحكم السرتون ذات الولايات الخمس. وجلس زيه بيانو وقد وضع بندقيته الرشاشـة بالقرب منه ، وجعل يروي مآثر لامبيون. وكان لهذا الفلاح ذي الصوت الخشن ، والذي جعل منه ملاكو الأراضي قاطع طرق ، حديث رئيسه نفسه ، أكبر كانغاسيرو في المنطقة ؛ وكان ، كـرئيسـه ، يتحـدث بهدوء مثير. لقد كان يروي مآثر إقدام لامبيون ، لدرجة توقف معها القمر نفسه عن السير ، يا صديقتي ، لكي ينصت إليه. وقال لي بانه « اشجع الرجال في العالم ، وليس هناك من يدانيه ».

وتحدث عن إطلاق الرصاص في الليل ، وعن الهجمات على المزارع ، وعن طعنات الخناجر في الظهر. وفي صوته الذي أصبح لطيفاً وشعرياً ، وفي بريق عينيه الوادعتين كزنجي ، كان يظهر طرفٌ من فخر. وكان القمر قد ارتفع عالياً جداً في السماء ، وكانت تُسمع في جنبات الكاتنغا أصوات وهمية. وسألني زيه بيانو إذا ما كنت أعرف شخصاً أعظم شجاعة من رئيسه. وأردف يقول:

---

(١٤) فلاح فقير يتعاطى اللصوصية.

« لا يوجد شخص من هذا النوع في العالم كله ».

وظهرت على شفتي زيه بيانو ابتسامة ظفر. ذكرت عندها، يا صديقتي، انه كان في فرنسا أمّ برازيلية تتحدث في الاجتماعات، تزور الوزراء، تقابل رجال السياسة، تتوجه إلى الشعب، لكي تنتزع من أيدي النازيين طفلة لا يتجاوز سنها عدة شهور، طفلتها الصغيرة. وحدّثت زيه بيانو عن دونا ليوكاديا برستس. وتابعني هو ورفاقه، الذين كانوا ينصتون إليّ، بانتباه. وقلت: « إن هذه هي امرأة، امرأة صغيرة هرمة، امرأة صغيرة هرمة لا تملك مسدساً ولا خنجراً ولا بندقية رشاشة، انها امرأة صغيرة هرمة شجاعة ».

الدونا ليوكاديا برستس، يا زلجيتي. وكما لو قلت: شعب البرازيل. اننا لحبها كما لحب الوطن. وعندما ترفع هذه المرأة الهرمة، ذات المظهر الذي يذكر بابطال المآسي اليونانيين، يا صديقتي، وجهها الفخور الذي جوّفه الألم، فان شعب البرازيل كله، فان الوطن نفسه، هو الذي ينتصب بكل قدرة مناقبه.

كانت ليوكاديا فتاة ثائرة رُبيت ضد الأوهام البعيدة عن العقل، التي كانت تجعل من المرأة أداة ترف. وعندما تزوجت، لم تتخذ الوضع الجامد نفسه الذي كانت تتخذه نساء عصرها، اللواتي كن ينتحبن ويتشكين إذا ما اختار أزواجهن حياة قاسية على التضحية بآرائهم. بل كانت ليوكاديا، على لنقيض من ذلك، تؤيد زوجها بوعي وصلابة. لقد كانت ترافقه بصبور في تنقلاته المتوالية، وكانت تتدبر الأمر لكي تجعل الراتب الضئيل يكفي لتغطية نفقات العائلة. وكانت أول من أيّده عندما رفض القبول بمتطلبات محترفي السياسة، الذين كانوا يشوهون عمل الجمهوريين. ولم تخرج من شفتيها مطلقاً، يا صديقتي، لا كلمة تشاؤم ولا كلمة تثبيط للهمة. لقد كانت قد تطورت مع زوجها، وتعلمت منه الكثير: تعلمت كل ما كان بمقدوره ان يعلمها إياه، وكما كان عليها في ما بعد ان تتعلم من ابنها، تعلمت أسرار تعاسة وسعادة العالم. وكانت عائلة انطونيو وليوكاديا عائلة متحدة وشجاعة، تقدمت في دروب الحياة بعزم وصلابة.

ولكن أنطونيو مات شاباً. تصوري، يا صديقتي، ألم هذه المرأة التي كانت لا تزال فتية، عندما فقدت رفيق أيامها كلها، ذلك الذي عرف ان يساعدها عندما كانت تجهد نفسها، بواسطة عينيها الفضوليتين الانسانيتين، لتفهم العالم. فكرت ليوكاديا في أول الأمر، بانها مفتقرة إلى كل شيء. فلم تكن المشاكل المادية التي تتطلب حلاً فورياً تواجهها فقط، بل وان زوجها بقوته المعنوية، والمثال الذي كانه بالنسبة للأولاد، لم يبق له من أثرٍ بالقرب منها.

وقامت ليوكاديا برد فعل فوري لقد كان الأولاد هناك، وكان هناك الصبي بصورة خاصة، يا صديقتي، لويس كارلوس هذا، الذي كان عليها ان تحيطه بحنان أفضل الأمهات، والذي ستقدم له على سبيل المثال حياة أعظم الآباء كرامة.

وعندما حُمل التابوت الذي يضم الميت العزيز الذي لا يُنسى، استدارت ليوكاديا نحو أولادها، استدارت نحو لويس كارلوس، ثم تابعت سيرها. إنها ستصبح من الآن فصاعداً أماً وأباً في الوقت نفسه، ستصبح حناناً وقوة، طيبة وثقة، صلابة وحزماً.

وان أول مسألة تتطلب الحل الآن هي مسألة إطعام العائلة.

وكان راتب النقيب التقاعدي في ذلك العهد شيئاً تافهاً. وقررت ليوكاديا أن تعمل. ولم يكن أمراً مستهجناً ان تكون قد درست في دار المعلمات، وكان على ثورتها في سن الطفولة ان تقدم لها عوناً عظيماً. وأصبحت استاذاً في الموسيقى وفي اللغة الفرنسية؛ وعندما كان يندر التلامذة، كانت تخيط في الحي، وتعمل إلى ساعة متأخرة في المساء، وعيناها عالقتان بما بين يديها من عمل. وربحت بيديها خبز العائلة وتعلمت قسوة العمل. ولكنها خلال هذه التجربة القاسية، لم تحلم أحلام غنىً طموحة، لا من أجل ولدها ولا من أجل بناتها. لقد كانت تحلم بأن تجعل منهم فقط رجلاً ونساء ذوي كرامة. وكانت تحلم، فوق كل شيء، ان تجعل منهم اناساً شرفاء وانسانيين.

وكان حلمها من أجل ولدها حلماً طيباً. لقد كانت تحلم بأن يصبح طبيباً في

أحد الأيام، ليس طبيباً يملك عيادة فخمة، يعتني بأعصاب النساء البارزات، اللواتي يتظاهرن بالمرض لتمضية الوقت. لا. لقد كانت تتصوره قابعاً في احدى المدن الداخلية الضائعة في السهل، وعيادته مملوءة باناس فقراء يوزع عليهم الطبيب الفتي الصحة. لقد تصورته هكذا، يا صديقتي، في خدمة الناس. وعلى هذا الشكل كان عليه ان يكون، يا زنجيتي، في خدمة الناس. انما ليس كطبيب. لقد منعت مصاعب العائلة المالية حلم ليوكاديا الجميل المتواضع من ان يتحقق. كيف يمكنها ان تفكر ببذل نفقات دراسة طويلة كدراسة الطب، عندما لا يكاد المال الذي كانت تربحه يكفي لاطعام العائلة؟ لم يكن لديها الكثير من التلامذة. ان قليلاً من الناس يستطيعون في هذا الحي الفقير ان يدفعوا ترف تعلم الفرنسية والموسيقى، بالرغم من انه كان للكثيرين رغبة في ذلك. ولم تكن الاثواب المخاطة كثيرةً هي أيضاً، وكانت واردة من بيوت متواضعة، ومصنوعة من قماش رخيص الثمن. لا، لا يستطيع لويس كارلوس ان يصبح طبيباً.

وترعرع الولد وهو يشاهد أمه تعمل كالرجل. وكانت الدونا ليوكاديا، تشعر، وهي ممتلئة مرحاً وحنواً، بانها تقوم بعمل مشرّف بتسديدها الديون، حتى التافهة منها. وبالرغم من المصاعب، لم تكن تتوجب على بيت ليو كاديا ديون قديمة، بل كان هذا البيت يتمتع بثقة التجار المجاورين.

وكان أصحاب الدكاكين يديّنون لويس كارلوس، بالرغم من كونه لم يكن قد بلغ الحادية عشرة من عمره. وكان الخمّار البرتغالي في الحي يقول: «ان إدانة آل برستس هي كما لو كنت تضع المال في الصندوق». وكانت كلمة ابن الدونا ليو كاديا تساوي كلمة رجل كامل. واكتسب الولد بهذا الشكل معنى تحمل المسؤوليات، والشعور بمسؤولية الكلمة المقالة؛ شيئان سيصبح لهما، في ما بعد، أثر حاسم في حياته. وكانت الجيرة تتابع بانتباه نضال عائلة برستس. وكانت تتلقى من هذه الأرملة ومن هؤلاء الأولاد درساً في الشجاعة.

لم يكن بمقدور لويس كارلوس ان يصبح طبيباً، يا صديقتي. وكانت

المهنة الوحيدة الممكنة بالقياس إليه، والتي لم تكن تتطلب مصاريف باهظة، هي مهنة السلاح. فعندما يصبح لويس كارلوس رجلاً عسكرياً كوالده، يمكنه ان يكون مفيداً للناس. وفي سن الحادية عشرة، وبعد ان تخطى سلسلة من العقبات، دخل المدرسة الحربية، وبدأ على هذا الشكل مهنته المظفرة.

وكانت إقامة برستس الفتى في المدرسة الحربية عبارة عن سلسلة لا تنقطع من الانتصارات والمظالم. لقد كان الأول في صفه، الأول في كل شيء. وحسب القوانين المعمول بها في المدرسة الحربية، كان له الحق بمركز تلميذ ـ مقدم. ولم يُعط له هذا المركز. وعُين أحد رفاقه، وكان قد حاز علامات جيدة، إنما لم تكن له عبقرية برستس، بصفة مقدم. وحاز لويس كارلوس فقط على مركز وكيل مأجور. لقد كان ولداً فقيراً، يا صديقتي. لقد انهى سنته المدرسية وقد نال جوائز في جميع المواد. وكان من المتوجب ان ينال ثلاثة أوسمة، أعلى هدايا المدرسة الثلاث. ولكنه لم يعطها مطلقاً. لقد كان لويسْ كارلوس ولداً فقيراً، يا صديقتي.

واستطاع هذا الشاب، الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة، ان يحتفظ بهدوئه المطلق أمام هذه المظالم. لقد كان دائماً عالي الرأس أمام أولئك الذين كانوا يفخرون بغناهم أو بوضعهم العائلي. انه، وهو والطيب، والطبيب دائماً مع الفقراء من أمثاله، لم يكن يتشكى مطلقاً من المظالم التي كان ضحيتها، وكان يثور ضد تلك الموجهة إلى غيره. وعلمته المدرسة درساً آخر: لقد أظهرت له كيف يستطيع المال، مهما كان مصدره، ان يقوم مقام الذكاء والطبع. ولقد رأى وشعر بتجربته نفسها كم يخفض الفقر من قيمة الانسان، في نظر أولئك أنفسهم الذين أوكل إليهم أمر تطبيق العدالة. وفي عالم خاطىء، كان الولد لويس كارلوس ضحية خطايا هذا العالم. انه لم يحتج، ولكنه بدأ يفهم بانه يتوجب تغيير وجه ومعالم الدنيا. وهو، وقد عمد إلى بذل سنوات طويلة في هذا السبيل، في ما بعد، دون ان يتوصل إلى نتيجة، استطاع أخيراً ان يرى ويفهم جميع مقدمات المسألة. عند ذلك ألقى بنفسه في خضم المعركة. ولكن برستس يا صديقتي، بدأ، في أيام الظلم المدرسية تلك، يصقل أسلحته. لقد

شاهد الغنى والفقر وجهاً لوجه. وأخذ دم عامل القطران، الذي يجري في عروقه، يسيطر الآن: ان لويس كارلوس برستس، وهو فقير مثل جده عامل القطران، وابنٌ لامرأةٍ كانت تدرّس وتخيط، يتيم، دون ثروة ودون مركز، ان كل هذا دفع الولد الفقير لويس كارلوس برستس إلى ان يتعلم التفكير.

وكان يحدّث ليو كاديا، في أيام العطلة، عن مسائل المدرسة. لقد كان الأول في صفه، ولكنه لم يكن ليُعامَل كذلك، فلقد احتل هذا المركز شخص سواه. لمَ لم يكن التلامذة الصالحون الفقراء يعاملون كالأغنياء؟.

في أحد الأيام، يا صديقتي، اكتمل بدره فوق الكانتغا، جرد الزنجي زيه بيانو، الذي خُلقت يداه لفلاحة الأرض وترويض الخيول المتوحشة، من أرضه. جُرد من أرضه وطُرد دون ان يُقدَّم له أقل تفسير. وكان زيه بيانو لا يزال عندئذ غلاماً. فتناول بندقيته الرشاشة وقتل ذلك الذي سرق له أرضه. ان الغني يشتري العدالة بماله أو بالذهب، يا صديقتي، ولم يجد زيه بيانو شيئاً غير مدفوع الثمن، سوى الانتقام. وأصبح بعد ذلك قاطع طرق في عصابة لامبيون.

ولقد تعلم الولد لويس كارلوس برستس من شفتي ليو كاديا ان الثورة الشخصية ليست إلا شكلاً من أشكال الغيظ. ان التألم من الظلم ليس بالشيء الكافي، من الواجب استخلاص الدروس من ذلك. وسوف يجد هذه الطريق في يوم من الأيام. ولم تفكر ليو كاديا بان تعزّي الولد بوعده بمكافآت سماوية، أو بان تروي له خرافات ذات مغزى فاضل وبعيدة عن الحقيقة. لم تقل له سوى شيء واحد، شيء كانت قد تعلمته من زوجها:

ـ هناك أولاد أغنياء وأولاد فقراء، يا ولدي. هناك رجال أغنياء ورجال فقراء. ويأخذ الأغنياء دائماً المكان الذي يعود للفقراء. وقد جرى الأمر كذلك دائماً...

وفي أحد الأيام، في السرتون، قالت زنجية فلاحة الشيء نفسه لزيه بيانو. ولكنها أكدت على هذا الحكم بجملة من التسليم بالأمر الواقع:

ـ وسيكون الأمر دائماً على هذا الشكل... ولن يتغير مطلقاً... وعلى أثر ذلك تناول زيه بيانو بندقيته الرشاشة، وذهب لينتقم لنفسه.

أما ليو كاديا، فقد تابعت تقول:

ـ لقد كان الأمر كذلك دائماً، ولكنني اعتقد بانه سيأتي يوم تتغير فيه هذه الحال. أدرس، يا بنيّ، لا تدع لهذه المظالم السبيل لأن تجعل اليأس يتطرق اليك، فلربما وجدت يوماً ما، في الكتب وبين الفقراء أمثالك، حلاً لهذه المسألة.

واختار لويس كارلوس هو أيضاً طريقاً أخرى. أما في ما يتعلق بزيه بيانو وأفراد فريق لامبيون، المضللين والمستثمَرين، ولو مهما كانوا كانغاسيروس وثائرين، فإنهم بدلاً من ان ينضموا إلى صفوفه، ساروا في ما بعد لمقاومته.

يا زلجيتي. ان الخيال الواسع لهذا المخلوق الرائع، المتناهي القوة في أنوثته اللدنة، قد ارتسم على طفولة الفقير الصغير. لقد أعطاه مثاله الشجاعة. واستطاع، بفضل ليو كاديا برستس، ان يواجه الحياة برزانة، وان يتعرض للمشاكل وجهاً لوجه، وان لا يتراجع مطلقاً.

* * *

كان قمر أرصفة المنفى يتدحرج في تلك الليلة على الأراضي الوحشية للكاتنغا التي وُلد فيها. لقد تحدثتُ، يا صديقتي، إلى زيه بيانو وإلى الفلاحين الذين يحيطون به. لقد رويت لهم ما قامت به ليو كاديا برستس في أوروبا لكي تنتزع ابنتها الصغيرة من قتلة الأولاد. وعندما انتهيت، ظل زيه بيانو صامتاً لحظة؛ وحدق الفلاحون بالقمر بينما ابتعدت إحدى النساء لتبكي. وقال لي زيه بيانو:

ـ لقد حرّرت الصغيرة، هه! يا لها من هرمة تقمصها الشيطان... لقد فتش طويلاً عن صفة ثانية، ولكنه فشل في مسعاه. لقد كان فقير اللغة، فهو

لم يذهب إلى المدرسة مطلقاً وهو لا يعرف كلمات كثيرة، ومع هذا فقد فتش طويلاً. انقطعت المرأة عن البكاء، وابتسمت بسعادة. أمرَّ زيه بيانو يده على شعره الوسخ، وحدق في القمر:

- إن هذه الهرمة تروق لي... وكان بمقدورها ان تروق حتى للامبيون...

هناك رجل في السجن يا صديقتي، مرهوب الجانب، ذلك لأنه عُرف عنه بان الحرية تسكن صدره، وبان هذه الحرية قد احتُجزت منذ ما وُضع في السجن. ولقد سار هذا الرجل ثائراً، كثيراً من المرات، في مقدمة الشعب، في مقدمة الفقراء، لقد كان يعرف أسرار التوزيع السيّىء للثروات في العالم. واجتاز، خلال ملحمة خالدة، البامبا والغابة العذراء والكاتنغا. لقد اجتاز الانهار وتسلق الجبال وشق الطرق. وكانت الحرية تمشي أمامه، وكان الأمل يحيط به.

إنما كان يطوف فوقه، فوقنا جميعاً يا صديقتي، فوق الجنود، فوق الشعب المنتفض، خيال ليو كاديا برستس، التي تعهدت وأنشأت البطل. ليو كاديا برستس، أم الشعب، شعار الشعب نفسه، شعار الوطن المستعبد، المخان، إنما المحطِّم سلاسل العبودية.

هذه المرأة هي الشعب نفسه، يا صديقتي. تطلعي إليها، انها الوطن.

ـ ٦ ـ

كان «ذوو الدم الأزرق» في مدرسة ريالنغو العسكرية هائجين، بينما كانوا يستعدون للاشتراك بأول امتحان خطي سنوي، ليس فقط لأن ذلك يشكل أول اتصال لهم بالمدرسة، من حيث كان عليهم ان يتخرجوا ضباطاً، إنما بسبب الزعيم بيوبورجس خاصة، استاذ التحليل، الذي اشتهر بانه رجل قاسٍ، يتطلب كثيراً، بخيلٌ في اعطاء العلامات وغير قابل للاغراء مطلقاً. وكان «الزرق» ينتظرون قراءة علامات الامتحان الخطي الأول، ويرتجفون قلقين بانتظار الأسوأ.

وبدأ المعيد القراءة. وكان من الواجب ان تتراوح العلامات بين الواحد والعشرة، ولكن بدا ان الاستاذ تجاهل هذا المبدأ، واعطى علامات تتراوح كلها تقريباً بين الصفر والخمسة، والصفر خاصة هو الذي كان أكثر ما يتردد. وكانت العلامات العاطلة تنهمر على الصف المصعوق. ولفجأة قطع المعيد بنفسه القراءة: وتطلع، بخوف وبفم نصف مفتوح وهيئة من أرعبته مشاهدة شيء لا يمكن تصديقه، نحو الاستاذ. ولكن بما ان هذا لم يحرك ساكناً، تابع المعيد القراءة:

ـ رقم ٢٤٤: تسعة.

كانت الدهشة عامة، وصُعق الصف من هذه العلامة الغريبة، التي منحها استاذ كثير المتطلبات كالزعيم بيوبورجس. لا يمكن ان يكون الأمر متعلقاً بحظوةٍ خاصة، فقد كان الزعيم أسمى من الترجّيات والصداقات. إذن، يجب ان يكون بالأمر صلة بصبيّ ذي مقدرة مجهولة حتى الآن في المدرسة العسكرية. من ذا يكون؟ وتُلقف السؤال بهمس من فمٍ لفم، وتجاوز الفضول

التلامذة إلى المعيد، ومن هذا إلى الاستاذ نفسه، الذي كان يريد ان ينتهز الفرصة ليعرّف الطالب الذي أنشأ تلك المسابقة الخطية، الكاملة إلى حد لم يستطع، خلال تصليحها، ان يجد فيها مأخذاً.

وكان التلميذ رقم ٢٤٤، هو أيضاً، دهشاً، وإلى حد ما، خائفاً. لقد كان يعرف انه قدم مسابقة جيدة، وكان واثقاً مما كتب. ولكن العلامة (تسعة) كانت تخيفه، لان العلامات الجيدة، العلامات القصوى، كانت تعطى عادة للتلامذة الأغنياء. وأعطيت في هذه المرة بعدل. وهُزم الصبية الأغنياء، الذين كانوا ينتزعون منه أعلى العلامات بفضل ثروتهم، هزيمة شنعاء. ووجد لويس كارلوس برستس رجلاً عادلاً. واستفاق من دهشته ليمتلىء حبوراً. لقد كان هذا الصبي، يا صديقتي، يقدر الرجال ويثق بهم، وجاء هذا الاستاذ ليوطد يقينه.

وحوّل التلامذة نظراتهم، غير المصدقة نوعاً ما، لحو الصبي الهزيل، المحدودب قليلاً، ذي الشاربين الناميين، والذي كانت «تسعته» لا تجعله يتيه غروراً. لقد كان لويس كارلوس في الثامنة عشرة من عمره، ولكنه كان قد أمضى هذه السنوات الثمانية عشرة، من حياة فقيرة وصعبة، بمراقبة عالم الفقراء في نضاله من أجل البقاء. ولم يكن منحه علامة تسعة أو إلحاق ظلم إضافي به ليشوها صفاء تأملاته حول الحياة.

تأملات حول الحياة، نعم، يا زنجيتي. ولم يكن هدوء هذا الصبي الهزيل هدوء المتشككين الذين يفقدون، أثر مواجهتهم لأول خيبة أمل، كل ثقة بالحياة وبالناس. لا. لقد كان يكمن خلف هذا الهدوء عقل نشيط فضولي، يلاحظ ويدرس ويفتش عن الأسباب وعن التأثيرات والحلول. عقل متعلق بالكتب، لانه يقبع فيها جزء من التجربة التي تنحدر من الحياة. يتوجب ان ندرس، ان ندرس كثيراً، ان نتغلغل في أعمق أعماق الأشياء، ان نكشف عن منبعها، ومنبع الحياة والثقافة. في البيت، في الكلية، في الشوارع، متعددة كانت دروس الحياة: في الحوادث اليومية الصغيرة، كما في الكبيرة، عندما ينال التلميذ الغني علامات جيدة، في مشهد الدونا ليو كاديا منحنية على

عملها، مفتشة بيأس عن وظيفة استاذ، لدى عمال الحي السيئي التغذية، الذين يذيبون بصرهم بقراءة الكراسات السرية على ضوء الشمعة. ان درس الحياة الأكبر ينتشر من كل الجهات، وتقدم الكتب تفسيراً لهذه الحوادث. لقد كان هذا الصبي يعيش في الحياة وفي الكتب. ذلك هو السبب، يا صديقتي، الذي جعل رقم التسعة هذا، الذي أدهش الآخرين، لا يثير فيه أي زهو مطلقاً.

لقد كان، وهو الذي يُعتبر التلميذ الأول في المدرسة العسكرية منذ تأسيسها، المعبود والرئيس والقاضي والناطق بلسان الشباب، رفاقه في الدراسة. ان للشباب، يا صديقتي، مقدرة غريبة في اكتشاف الرجال.

لقد كانوا يعتبرونه مخلوقاً قوياً، مختلفاً عنهم، انما قريباً منهم في الوقت نفسه. ان هذا الصبي القاسي على نفسه، المنظّم والمهذب، العامل دون توقف، والذي يحمل في حناياه عطفاً عطياً نحو الآخرين، ولا يفخر مطلقاً، ولكنه لا يطأطيء كذلك رأسه أبداً، والذي كانت النساء اللواتي كان يجذبهن رداء الطلاب العسكري الأحمر اللامع، لا يتوصلن إلى تحويله عن دروسه، هذا الصبي الذي كان يعي، تمام الوعي، التضحية التي كانت والدته تفرضها على نفسها من أجل تربيته، وكان يريد ان يكون جديراً بها، إن هذا الصبي لم يكن يفرض نفسه على رفاق صفه فقط بسببٍ من قوة ابتسامته، ومن تلك التي كانت تتحدر بشكل أكبر، من مثاله، بل وكان يفرض نفسه على أولئك الذين كانوا قد تقدموه، وهكذا تشكل حوله جيل كامل. ولقد توصل إلى ان يعمل، وهو لا يزال طالباً، ما لم ينجح في عمله بنجمين كونستان الا عندما كان استاذاً: لقد ربّى على الشرف والكرامة جيلاً كاملاً من العسكريين البرازيليين.

لقد كان منذ سنيّ المدرسة الأولى، يساعد رفاقه المتقدمين عليه. لم يكن يدرس المواد المسجلة في المنهج فقط، بل كان يدرس كذلك مواد السنوات اللاحقة، لكي يتمكن من مساعدة الطلاب الذين كانوا يسألونه ايضاحات، والذين كان يعطيهم دروساً خاصة.

وفي السنة الثانية ، كان لويس كارلوس يعطي دروساً لتلامذة الصف الثالث. لقد كان صبياً يخلو من كل أثر للانانية. ولم يكن يعمل في قاعة الدراسة وحيداً وقد سيطرت عليه الرغبة في التفوق على مزاحمين، بل كان ، وقد أحاط به رفاقه، يدرس بصوت مرتفع ، أمام اللوح الأسود ، ويساعد رفاقه على إعداد وظائف اليوم التالي.

وعلى هذا الشكل كسب اعجابهم وثقتهم.

إن هذا الصبي الذي سوف يصبح بعد قليل أحب البرازيليين ، بطلَ شعب كامل ، أمل بلاد كاملة ، كان يتمتع ساعتئذ بموهبة من جاذبية لا تقاوم . انه لم يكن مسيّراً بمطمح تافه . لقد كان قلبه نقياً وذكاؤه صافياً . إنه لم يكن قد عرف بعد بانه صورة الشعب ، ابن الشعب نفسه . ولكن كان معروفاً عنه بان الحسابات و « حب الوصول » في الحياة ، الوصول السريع ، كانا عنه غريبين . لم تكن به أية رغبة للقيام بمهنة ما . لقد كان يدرس لكي يتعلم ويعلّم . وكان هذا الولد يعلّم رفاقه في المدرسة في كل الأيام بانه ليس بمقدور أي إنسان أن يعيش لنفسه فقط ، بينما يفتقر الناس إلى الخبز ويُحرمون من الحرية والثقافة . لقد كان يعلّم ليصبح بإمكان كل الناس أن يفيدوا من الثقافة . فمع لويس كارلوس ، يا صديقتي ، درس جيل من التلامذة متطلبات الشعب .

من أجل هذا السبب كان رفاقه يدافعون عنه ، إذا ما كان ضحية ظلم ما . وهكذا ، في أحد الأيام ، خلال درس رسم المخططات ، عندما قام برستس ، كالعادة ، ليس بعمله فقط ، بل وبعمل عددٍ من رفاقه أيضاً ، كلف الاستاذُ الذاهل احدَ التلامذة بوضع العلامات ، فمنح هذا نفسه علامة عشرة ومنح واضعَ رسمه علامة سبعة . وعندما قرئت العلامات بصوت مرتفع ، أخذ الصف علماً بالظلم الموجه :

ـ لويس كارلوس برستس ، سبعة .

ونال الآخر عشرة ، وصرخ التلامذة :

ـ ولكن برستس هو الذي رسم المسابقتين.

وابتسم لويس كارلوس. لم تكن المظالم لتشجيه. لقد كانت تفتح عينيه على تلك التي يرتكبها العالم مع الفقراء.

لقد كان رفاقه يحبونه ويدافعون عنه. كانوا يرون فيه شخصاً يعرف أكثر مما يعرفون، وينظر أوضح مما ينظرون، شخصاً لا يحصر نفسه في نطاق الكتب، بل يقرأ في الحياة ويبدأ بالتحدث عن المستقبل كالعرّافات، اللواتي يقرأن في خطوط اليد. وكانت خطوط اليد هذه، بالنسبة إليه، الشوارع الفقيرة في الحي الذي كانت دونا ليو كاديا تعتني بالأطفال فيه، وتقتصد القروش لكي تستطيع ان تشتري لولدها الكتب، حيث كان العمال يتسلقون المنحدرات الصلبة للهضبة التي كانوا يسكنون، هذه الشوارع التي كانت تعجُّ بعائلات الجنود، بالقلق اليومي وبمشاكل المال الملحة. ولاحظ لويس كارلوس ان الفتيان الذين كانوا يتيهون في مناقشات المثقفين الدقيقة حول مسائل اللانهاية الغامضة، حول ما وراء الطبيعة، حول وجود أو عدم وجود الخالق، كانوا من طبقة الاغنياء، طبقة أولئك الذين لديهم وقت للاضاعة وقد توافرت لهم سهولة العيش. اما الآخرون، فتيان شارعه، الجنود الشباب والعمال الشباب، فلم يكن لديهم الوقت من أجل مسائل ما وراء الطبيعة هذه. فلقد كانت تشغل لبهم مسائل أخرى، أعظم بساطة وأكثر ألف مرة رعباً: مسائل الخبز اليومي، المرض في العائلة، والايجار المستحق الدفع.

لقد كان الصبي يكتشف هذه الحقائق التي كانت تُخفى بعناية عظمى وأنقذ من مسائل ما وراء الطبيعة والاحلام جيلاً كاملاً، ووجّهه لحو مشاكل البرازيل، لحو مشاكل الشعب. ان برستس هو الذي أنشأ الرجال الذين قاموا بالثورة في سنوات ٩٢٢، ٩٢٤، ٩٣٠ و ٩٣٥. من هذا الجيل لحدر التينننتيستيون، الأوكتوبريون، الوطنيون، الليبراليون، أبطال قلعة كوبا كابانا الثمانية عشرة، رجال طابور برستس ورجال الطابور الثالث لمدرسة الطيران.

وفي هذا الجيل وُجد ولد فقير، تفتحت عيناه على الحياة، وتحول عقله نحو الكتب، إنما كان يحمل في قلبه آلام الشعب. لقد شاهد الشعب فوراً، ولهذا السبب، يا زنجيتي، شاهد الشعبُ فيه رئيسه، شاهد فيه الرجل الذي سوف يحمل له شيئاً ما.

إن المظالم والنجاحات وثقة وإعجاب رفاقه واساتذته به، وتعيينه في مركز المدرّس التكنيكي لِفرَق الهندسة والمدفعية كلها، هذا التعيين الذي قوبل بترحيب اجماعي، وتأنيبات استاذ العلم العسكري، الذي كان لا يتحمل التعليقات المجددة لتلميذه ولم يكن يمنحه مطلقاً علامة تفوق السبعة - لأنه كان في تدريسه القاسي، غير جدير بتقدير المواهب الخارقة لهذا التلميذ الذي سوف يهزم، بعد عدة سنوات، ثمانية عشر لوءاً، واضعي[15] خطط جيوش مشهورين، خلال ملحمة الطابور - أن شيئاً من كل هذا لم يكن يبعد لويس كارلوس عن رفاقه، لم يكن يجعله يشمخ بانفه، بل على العكس، يا صديقتي، لقد كان أكثر الشباب انسانية، وكان يحب العيش بحماسة، وكانت أيام العطلة بالنسبة إليه أيام سعادة عائلية. وخلال كل مهمته المظفرة، لم يقلع هذا القائد العبقري للشعب، هذا الرئيس غير المنازع، المطاع والمحبوب، لحظة واحدة عن ان يكون أكثر الرجال انسانية وبساطة. وبصفته عبقرية عسكرية رياضية، وقلباً فولاذياً، وقائداً ودليلاً على رأس العمال والجنود والفلاحين والبحارة وطبقات الشعب الفقيرة والتقدميين والوطنيين المخلصين، ظل دائماً، وفي جميع الأوقات، أكثر الرجال لطفاً ولدونة وأخوّة. أن قلبه، كقلب ابناء الشعب، من فولاذ، انساني، فهيم وطيب.

لقد كانت أيام العطلة أعياداً بالنسبة إليه. وفي البيت الفقير والنظيف، كانت دونا ليو كاديا تبتسم سعيدة. وكان لويس كارلوس، المرح الصاخب، المهتم بصحة والدته، يحيطها بالعنايات ويغمرها بالسعادة. وكانت هناك الشقيقات. وبصفته عسكرياً خالصاً، كان لويس كارلوس لا يحسن الغناء،

---

(١٥) stratège.

ولكن الشقيقات الصغيرات كن يردنه ان يغني لهن في المساء، في ليل الضاحية نصف المدني. ويأخذ تلميذ ـ الضابط، الذي كان الأول في مدرسته، وكان ألمع التلامذة وأحبهم إلى الرفاق، بانشاد، ان حسناً أو سيئاً، أغنيات لدنة عطوفة لكي يساعد شقيقاته الصغيرات على الرقاد. وكان صوته يملأ الغرفة حنواً.

وخلال ليالي شبابه العائلية، عندما كان لويس كارلوس يغني من أجل شقيقاته، كان يفكر بالبرازيل التي تحيط به، كان يفكر بشعب البرازيل. وكانت مسائل هائلة تضطرم في رأسه الفتي. وكانت احدى شقيقاته تحتجُّ دائماً إذا ما كان يتوقف عن الغناء. فكان يستدير نحوها ويبتسم لها، وقد شعر بان قلبه يخفق حباً.

ان الدرس الذي يعطينا إياه لويس كارلوس اليوم، يا صديقتي، هو ان الرجل مهما سما، وقدر وأحب، لا يستطيع ان يقلع عن ان يكون إنسانياً، عن ان يحس، كبقية الناس، بالأفراح والآلام ـ حتى أصغرها وأدقها وأبعدها عن الملاحظة وأسرعها زوالاً ـ دون ان ينحط عن عظمته ودون ان يخسر موهبته بحب الناس. الفولاذ والحب، هما العنصران اللذان يتألف منهما قلب الأبطال، قلب لويس كارلوس برستس، يا زنجيتي.

– ٧ –

في ريالنغو، يا صديقتي، تقوم المدرسة العسكرية، التي يبرز تقليدها المظفّر في كل لحظة حاسمة من تاريخ البرازيل، من الامبراطورية إلى الجمهورية. ففي مدرسة برايا فرمليا العسكرية أسمع بنجمين كونستان صوته، ومن هناك خرجت الايجابية والجمهورية، ورؤساء الجيش الذين رفضوا ان يقاتلوا ضد زنوج كوباتاون، ومن هناك تخرّج فلوريانو بيشوتو.

إنه لتقليد مظفّر، يا صديقتي، ذلك الذي كانت تتبعه مدرسة ريالنغو، التي خلفت برايافرمليا. انظري، يا زنجيتي، انها لمدرسة مجيدة. وفي يوم ما، عندما تصبح الأزمنة أفضل، عندما تغدو الحياة عيداً لا ينقطع من العمل والفرح، سيتوقف الناس متأثرين أمام هذه المدرسة. وستحمل لها النساء الزهور بين أذرعهن المعترفة بالجميل. وسيروي الأهل لأولادهم تاريخها. وسيتطلع الأولاد نحو الملاعب وقاعات الدراسة بأعين وقّادة لامعة. لن يمر أحد أمام هذه المدرسة دون ان يهدهده التأثر. انها لمدرسة مجيدة، يا صديقتي.

هنا تلقّى لويس كارلوس برستس دروسه، وهنا تكوّن. وفي الملاعب المسقوفة لهذه المدرسة كان يتنزه، محاطاً برفاقه. كان يتحدث، وكان الآخرون ينصتون إليه. إن البرازيل الواسعة، بسهولها، بجبالها، بمدنها، بانهارها، سان فرنسيسكو وبارانا والامازون، ان كل هذا كان بانتظاره. ومن كل مكان كان يتصاعد صراخ التعاسة، نداء الاستغاثة، وفي كل مكان كانت الجمهورية مهانة، والديمقراطية مخنوقة والوطن يُخان.

وفي كثير من المدارس الأخرى، يا صديقتي، في المعاهد العالية، لم يكن يسمع صراخ الوطن الجريح هذا، صراخ الشعب الجائع. وكان التلامذة

يحتجزون أنفسهم في ألعاب الذكاء البرّاقة، يضيعون وقتهم بصنع كلمات بارعة، بالتفتيش عن الأشكال الأدبية الجديدة وغير المجدية، كانوا يتيهون في فلسفات متشككة أو رجعية، محاولين ان ينسوا خلال الضحك، أو يتجاهلوا بابتسامة احتقار، الصخب القادم من الخارج، الصخب المتصاعد من البرازيل الواسعة. لقد أصبحت كليات الحقوق والطب والآداب والزراعة، ومدارس الطب البيطري والكيمياء والهندسة، مراكز أدبية. وكانوا ينطلقون من قصيدة صغيرة أو كبيرة، لصنع عالم خيالي، بعيد ومعزول عن الحياة، وكان يجري هذا بينما كانت تتصاعد من العالم المجاور صراخات اليأس. وفي كلية الحقوق في ريّو، كان رونالد دي كارفاليو يبحث عن أوزان جديدة؛ وفي كلية الطب في باهيّا، كان أطباء المستقبل يتناقشون حول القواعد، تحت الاشراف القاسي للأساتذة الذين كانوا أكثر اهتماماً بالبرتغالية الكلاسيكية منهم بدراسة الجراثيم؛ وفي كلية الطب في ريّو، كان الاستاذ ألوازيو دي كاسترو يؤلف قصائد صغيرة ثمينة ويلقي دروسه باللغة البرتغالية الجامعية العظيمة النقاء، العالية القدر؛ وكان الجميع يهربون من الحياة ليلقوا بأنفسهم في أحضان مبدأ المودرنيسم [١٦] ومبدأ النيوتونيسم [١٧]، ويهيئون أنفسهم للفاشية عندما ستدق ساعتها. وكانت الكليات تتجاهل ماركس، وأصبحت الحرب موضوعاً أدبياً، والبرازيل صحراء يتوجب الهرب منها. وكان الظل الجديد الذي يرتسم على هذه المدارس هو ظل الفيتيريست مارينتي [١٨].

وهكذا، يا صديقتي، وسط كل هذه الأحزان، أنشأت مدرسة ريالنغو العسكرية جيلاً من البرازيليين. وكانت المواضيع التي تستأثر باهتمام هذه المدرسة هي: البرازيل، والحرب، والرجال، لا شبح شاعر فاشل. كانت الحياة تنبض هناك؛ وكان يُسمع دون وجل وبأذنين مفتوحتين، الصخب

(١٦) Modernisme.

(١٧) Néotonisme.

(١٨) Futuriste: مشتق مبدأ الـ Futurisme، وهي مدرسة فنية قامت في ايطاليا في سنة ١٩١٠، وهي تمثل، بصورة متناسقة، المشاعر الماضية والحاضرة والمستقبلة (ملاحظة المعرّب).

العميق المتعالي من البلاد، الصخب الذي لم يكن يُنسى خلال الضحك ولا يُستبعد بابتسامة احتقار. في هذه المدرسة المتفتحة للصخب القادم من الخارج، كشف لويس كارلوس برستس، بالمثال الذي قدمه، النقاب عن البرازيل لجيلٍ كامل.

كانت مسائل البلاد تصل إلى ريالنغو في عاصفة من الصراخ والصخب. كانت البلاد موجودة بالنسبة لهؤلاء الشباب، وكان الرداء العسكري يتطلب مسؤولية بنظر البلاد، بنظر الشعب. وحدثهم التلميذ لويس كارلوس برستس، الولد الفقير لويس كارلوس برستس، عن مسؤولية الجيش. وفكر حاجبٌ قديمٌ من عهد برايا فرمليا، عندما شاهد الشاب، بوجه بنجمين كونستان العبوس الرائع. وفي مدرسة ريالنغو هذه، يا صديقتي، كان التلميذ لويس كارلوس برستس يتنزه مفكراً في البرازيل.

وبينما كانت تتابع، في المدارس الأخرى، يا صديقتي، حركة أدبية مصطنعة، وتُناقش مسائل تدعو للسخرية، كانت تسيطر هنا رغبة بالنضال، يصنع مشاريع من أجل مستقبل البلاد؛ لقد كانت تُفهم هنا جدّية وعظمة وخطورة بعض المسائل. وكان الصخب القادم من البرازيل يؤثر على قلب هؤلاء الشباب.

وسنذهب في أحد الايام، يا صديقتي، كمحبوبَين حديثي العهد، الذراع بالذراع، لكي نقوم بجولة حتى ملاعب مدرسة ريالنغو هذه. سنستمع إلى رنين الأبواق، إلى الأوامر الحربية، سنشاهد التلامذة يمشون، وسنعيش من جديد الأيام التي كان فيها غلام، بعينين مشتعلتين ووجه رزين وعميق وابتسامة عريضة عطوفة، يحدّث رفاقه عن الكرامة والنبل والشجاعة والوطنية. ومن خلال الملاعب، وفي صمت قاعات الدرس، سوف نشاهد تصاعد الخيال الذي لا يُنسى لشباب سنة ١٩٢٠، ونشاهد وجوههم الجبارة. هؤلاء التلامذة الذين ماتوا في سنة ١٩٢٢، على الشاطىء، في كوباكابانا؛ والذين ماتوا في سنة ١٩٢٤، في أحياء سان باولو الغنية، في بامبا ريو غراندي، والذين ماتوا في سنة ١٩٢٧، في سرتون البرازيل من

الجنوب إلى الشمال الشرقي، والذين ماتوا في سنة ١٩٣٠، وقد أحاط بهم الشعب، والذين ماتوا في سنة ١٩٣٥ وهم على رأس الشعب، هؤلاء التلامذة الذين سيُبعثون غداً من جديد، مع الشعب الذي لا يموت أبداً، الذي ينتفض ألوف المرات. ويعلمنا الشاعر، يا زنجيتي: «ان الحرية لا تموت أبداً». ان البعض قد اندثر، والبعض الآخر لا يزال يناضل، والآن الشاب برستس سجين الآن مع شعبه. انه من هذه المدرسة، يا صديقتي، انطلق في دروب الحياة، التي استطاع ان يكتشفها وان يدل الآخرين عليها. من هذه المدرسة، بملاعبها وقاعات الدراسة فيها وتعليمها وتلامذتها المتعطشين للوطنية، انطلق ليتعرف إلى جميع أسرار نضال كانت تقترب نهايته، انطلق ليضع نفسه على رأس الشعب. في هذه المدرسة ظهرت عبقريته، وسُقي فولاذ سيفه وقلبه، في مدرسة ريالنغو هذه، يا صديقتي.

وهكذا ترين، يا زنجيتي، ان هذه المدرسة هي مدرسة شهيرة. وفيها خطا لويس برستس أولى خطواته في الحياة. ان الأمر كما قلته لك: من هنا يبدأ تاريخ البرازيل الحديث.

- ٨ -

كان البيت قابعاً على هضبةٍ، في الضاحية، بين مجموعة من عشرين بيتاً مشابهاً، في طرف شارع ماغاليانس كوتو، في ماير. كان هذا الشارع غير المبلّط، شبه العاري، المملوء بالأخاديد والحصى، محدوداً بغابة صغيرة وباراضٍ غامضة. وكانت تبدو في أفقه هضبة تسكنها غسالات وعمال. وكان عامل شحن المركب الأسود، زوج الغسالة جوليبيتي، يهبط الهضبة أحياناً ليتجاذب طرفاً من حديث صغير مع «ملازمه»؛ ولكن الملازم الشاب برستس كان هو الذي يصعد، في أحيانٍ كثيرة، المنحدرات المشمسة ليستمع إلى العامل يقص عليه حياة حمّالي المرافىء القاسية. إن الشارع الفقير والهضبة البائسة كانا عالماً جديداً بالنسبة للملازم الذي يبلغ الواحدة والعشرين من عمره.

وفي سنة ١٩٢٠ تخرّج من المدرسة العسكرية وألحق بصفة ملازمٍ في فرقة الهندسة بطابور المواصلات، الذي كان يبني في ضواحي ديودورو أجزاء من سكة حديد البرازيل المركزية. ويبدأ برستس العمل بالنشاط الذي كان يتميز به وبالحماسة التي رافقته طيلة أيام دراسته. لقد كان يريد ان يدفع لعائلته ثمن التضحيات التي بذلتها من أجله؛ ذلك لأنه لم يكن لدى هذا الملازم الشاب، يا صديقتي، أقل موضع للأنانية، وحتى للزهو النبيل. لم يكن بمقدوره مطلقاً ان ينعزل عن الآخرين، ان يعيش لنفسه، أو حتى ان يعيش لنفسه ولعائلته؛ ان عالمه أرحب من ذلك. وكان الاهتمام الذي يحمله للآخرين ينطلق من أعمق أعماق نفسه. وفهم جنودُه فوراً بانه ليس كغيره، بانه لا يكتفي بإصدار الأوامر، وبمراقبة العمل. لقد كان يذهب إلى وسطهم ويدير العمل بنفسه. كان يستطيع بابتسامة ان يحمل الجنود على إعادة عمل لم يُحسن

صنعهُ، مظهراً بصورة عملية ما الذي يتوجب القيام به، عاملاً بقدر ما يعمله كل منهم. لقد كان على استعداد دائم لان يناضل من أجل جنوده، عندما يتعرض لهم ضباطٌ يتيهون غروراً بأشرطتهم ويستغلون رتبهم لتسخيرهم. لم يكن يسمح بحصول مظالم، وكان الجنود يلاحظون بدهشة ان الملازم برستس هذا يعتبرهم مصنوعين من نفس لحم ودم الضباط، مهما سمت رُتبهم. عندها تجمعوا حول لويس كارلوس برستس، كما حدث لتلامذة المدرسة العسكرية، وأصبحوا جنوده. وفسّر أحدهم، في احدى المرات، الأمر للآخرين قائلاً:

ـ لقد كان والد الملازم جندياً مثلنا.

انه يعرف...

وكان الجد، يا صديقي، عامل قطران، وكانت الأم تعطي دروساً ليلية بصفتها استاذاً مساعداً، فتذهب كل مساء إلى المدرسة البعيدة، حيث كانت تعطي دروساً لكي تؤمن حاجات البيت. وكانت الأخت البكر، ايلوييزا تعمل في بيت تجاري لكي تؤمن للصغيرتين دراستها. وكان لويس كارلوس يعرف ما هو العمل المأجور، يعرف حياة الفقراء الصعبة، والتضحيات التي يجب عليهم ان يبذلوها لكي يعيشوا. ويشعر انه أكثر قرباً من آلام الجنود منه من أشرطة الضباط.

كان عليه ان يعمل من أجل عائلته... ان يؤمن لليوكاديا وللشقيقات حياة أفضل، أكثر دعة، وأكثر راحة. لقد ناضلن كثيراً لكي يجعلن منه ضابطاً. انه لا يزال يذكر ذلك اليوم الذي أراد فيه ان يتخلى عن دروسه ويتعاطى التجارة ليستطيع بذلك تأمين بعض المال لعائلته. ولقد قالت له ليوكاديا بان أفضل ما يستطيع القيام به هو، ان يتابع دراسته ليصبح ضابطاً، وبهذه الطريقة يستطيع ان يساعدهم يوماً ما أكثر كثيراً. ولقد جاء هذا اليوم. انه يستطيع الآن أن يؤمن حاجات المنزل، ان يسمح لليوكاديا بان ترتاح، وان يمنح عطلة لايلوييزا وأكثر قليلاً من الرفاهية للشقيقتين الصغيرتين. في كل مساء، كان يرافق ليوكاديا إلى القطار الذي كان يقودها

إلى المدرسة، ويذهب بعد ذلك لانتظارها لدى عودتها. وكان هذا الأمر بالنسبة إليه واجباً ومسرة. وظل هذا الولد وهذه الأم رفيقين من أكثر الرفاق مودة، وعندما كان الناس يرونهما مارّين، كانت النساء يعلقن على هذا الأمر مبتسمات:

- هذا هو الملازم وأمه... انه غلام طيب...

واثناء مروره مع ليوكاديا، كانت المجاملات تنهمر عليه: الصبايا يبتسمن له والرجال يحيونه ويقولون: «إنه رجل مستقيم»، ولديه في البيت كثير من العمل، فهو يدرّس شقيقتيه الصغيرتين، انه استاذهما. ولم يكن يخرج إلا عندما تعود ليوكاديا من المدرسة. وعندما كانت العائلة ترقد، كان يحتجز نفسه في غرفته ويبدأ المطالعة. ولما كان بفطرته ميالاً للرياضيات، كانت الرياضيات تثير إهتمامه أكثر من أي علم آخر. ولم يكن يمر يوم دون أن يدرس فيه. وبرفقة كتبه العزيزة كان يعمل إلى ساعة متأخرة من الليل، والنور يلمع في غرفته، فيعقّب على ذلك عمال الهضبة قائلين:

- إن الملازم يدرس... انه رجل واسع المعرفة...

وفي صباح اليوم التالي، قبل ان يذهب إلى عمله، كان يقترب من شقيقتيه من جديد. لقد كان الولدان يملآن جانباً من حياته. لقد أحبهما دائماً بوداعة، وعلاوة على كونه لهما شقيقاً كان أباً حقيقياً: يلاعبهما ويساعدهما على حفظ دروسهما. وكان وصوله إلى البيت، يوم السبت، يشكل عيداً لهما، ذلك لأنهما كانتا تعرفان انه لا يأتي مطلقاً بيدين فارغتين، بل يحمل دائماً كتاباً أو لعبة. وعند وصوله كانت الصغيرتان تتعلقان بعنقه، وتصنعان من أذرعهما عقداً حوله، فيرفعهما بين يديه ويدخل المنزل محاطاً بضحكاتهما وقبلاتهما.

وفي مساء الأحد كان يعزف لحناً موسيقياً، يتناول القيثارة بين يديه المتقرحتين فينطلق منها لحن شجي، يملأ بيت الضاحية بالشعر. لم يكن غريباً عن الفن، لقد كان يحب الجمال، يحب الغناء، يحب الموسيقى والشعر. وكان

الجيران، جيرانه الفقراء في الشارع، جيرانه الأكثر فقراً في الهضبة، كثيراً ما يهرعون إليه. وكانوا يرقصون أحياناً، ويذهب الملازم الذي لا يتقن الرقص ليتحدث إلى الرجال. وكانت الصبايا ذوات الشعر الممتزج بالشرائط الكبيرة، واللواتي يرتدين أثواب الأحد المنشاة، يتطلعن إليه متنهدات، ولكن ساعة الحب لم تكن قد دقت بالنسبة إليه: ان الملازم برستس لم يكن يفهم لا التنهدات ولا الابتسامات. لقد كان قلبه بكامله لعائلته ولقضية بلاده. لقد كانوا يرقصون، يغنون، يلهون بلعبة الرهان، وكانت الصبايا يقلن بان الملازم رزين أكثر من اللازم، وبانه لا يحب الغزل.

وفي أمسيات أخرى، كانت العائلة تظل جالسة حول الطاولة وتثير، بطريقة ودية، الذكريات، وتهيىء المشاريع للمستقبل. وبالرغم من كل شيء، كانت ليوكاديا لا تزال تحلم بان ترى ولدها طبيباً يوماً ما، يعتني بالمرضى في مدينة داخلية صغيرة. وكان الناس يتحدثون عن النقيب انطونيو بريرا برستس، الايجابي، الذي مات لانه رفض الخضوع لرجال الحكم. يتحدثون عن مشاكل الحياة اليومية، عن صغار الهرة السوداء، عن «شيطنات» وملاطفات الشقيقتين الصغيرتين، ويتساءلون فيما إذا كان «زهر العسل»(١٩)، الذي يتسلق العريش، سيتابع نموّه، ويتساءلون عن الموعد الذي ستتفتح فيه زهور الوردة الحمراء كالدم. وكان برستس يهتم بكل شيء ويتدخل في شتى المسائل. إنه لم يكن يحتفظ بالصمت إلا حول نفسه، لقد كان متواضعاً بشكل غريب. ولم يكن يتحدث مطلقاً عن الانتصارات التي يحرزها في عمله، ولا عن المدائح التي توجّه إليه، وهو المتواضع في حياته، كان متواضعاً في ملبسه. انه لم يكن يطلب شيئاً لنفسه شرط ان ينال ذووه جميع ما يحتاجون.

وكانت حياة العائلة الهادئة السعيدة تنقضي وادعة. فكان العمل والخياطة والعيش تجري في سلام لدن دافىء، يمتاز بالمودّة والفهم. وهكذا مرت سنوات ٩٢٠، ٩٢١ و ٩٢٢.

---

(١٩) Chévrefeuille.

ولم يكن بمقدور الناس الذين يقطنون شارع ماغاليانس كو في ضاحية ماير، في ريّو دي جانيرو، ان يتصوروا بان عيش الملازم برستس، الغارق في جوٍ من السعادة، تنكّده اهتمامات لا تُحصى، وبانه كان يتهيأ للقيام بثورة.

نعمْ، يا صديقي، ذلك لأن أسعد حياة لم يكن بمقدورها ان تُنسي هذا الرجل، البرازيلَ وحياة مواطنيه الرهيبة. لقد شعر بضرورة الثورة لدى اتصاله بالجنود وبالضباط الذين كان يعمل معهم، وباتصاله بتجار الضاحية الصغار، بالجيران وبسكان الهضبة. وبينما كان يهيّىء مع أهله المشاريع للمستقبل في البيت، كان يتواجد في الثكنة. سيتحطم هذا السلام دون شك، وسيتلاشى الامل بمستقبل أكثر سعادة، ولكن ماذا يهم هذا؟ ان البلاد والشعب يطالبان بالنقيب الشاب. نقيب، نعم، يا صديقي، ذلك لأنه تقدم بالرتب بسرعة. لقد كانت معارفه العظيمة توفر له تقديراً خارقاً للعادة في الجيش. وفيما لو لم يستجب لصخب الشعب هذا، الذي سبق له ان سمعه للمرة الأولى على مقاعد المدرسة العسكرية، لكان باستطاعته ان يصعد سلم الرقيّ بسهولة وسرعة. لقد كان يملك المعرفة والذكاء والثقافة. لقد كان يعرف مهنته خيراً من أي انسان. ولكنه، خيراً من أي انسان، كان يستمع إلى صُراخات اليأس التي تتصاعد من أربعة أنحاء البرازيل.

لقد كان جيله يتآمر، كان الرجال الذين أنشأهم في المدرسة العسكرية يتآمرون لقلب حكومةٍ غريبة عن الشعب وكان يتآمر هو أيضاً.

وفي سلام البيت، حيث كانت ليوكاديا تعيش سعيدة، عرض لويس كارلوس برستس في أحد الأيام لأمه وجهة نظره. لقد كان يعرف جيداً ان ليوكاديا ستوافقه، ستكون أول من يتخلى عن أي حلم وينسى أي اعتبار لأية منفعة شخصية، لكي تراه يناضل من أجل شعبه. بالنسبة إليها كانت البرازيل هي المفضلة على كل شيء.

يا للحياة العائلية الوادعة، يا للعيش الهادىء السلمي! لم تكن حياة البرازيل وادعة، يا صديقي، كانت كئيبة ومرعبة. ان شعباً كاملاً كان

يطلب الخبز والثقافة والحرية. وكثيرون هم من كانوا ينعمون بحياة عائلية وادعة، يعدون المشاريع ويحلمون، ويرفضون سماع هذه الصرخات، فقليلاً ما كان يهمهم الوطن ويهمهم الشعب.

وفي ليلة التآمر والاجتماعات السرية، غادر لويس كارلوس برستس الاطمئنان العائلي الوادع ليلقي بنفسه في وسط الثوريين المحموم. وسيحل الخامس من تموز سنة ١٩٢٣ بعد قليل. واستعد برستس لهذا اليوم. وفي البيت كانت الشقيقات راقدات، وفروفرو تشخر بالقرب من صغيراتها، وميلونغيتا ترتاح من «شيطنات» نهارها، وطيور «الكناري» قد أقلعت عن الغناء، وظلت ليوكاديا وحدها ساهرة. سيصل ولدها في وسط الليل، بعد ان يكون قد وضع التصاميم، اتخذ المقررات، وهيأ المشاريع. انها تفهم. وهي التي كانت تتخيله يهيىء المشاريع لعائلته! لقد كان هذا الأمر أدنى من مستواه: كان لويس كارلوس برستس يحلم بالبرازيل.

- ٩ -

كان الصراخ الذي يسمعه ضباط وجنود الجيش قادماً من زوايا البرازيل، الدانية منها والقاصية على السواء، يا صديقي. الزفرات والصراخات والتنهدات تتحول إلى صخب؛ إلى حلم يتولد من التعاسات اليومية، ويعود إلى الأيام التي استولى فيها ملاكو العبيد، على الجمهورية لكي يُذلوها ويستعبدوها بعد ان كانوا يسيطرون على الملكية.

إن شعب البرازيل، يا صديقي، هو شعب بطل. لقد كان بودي ان أملك ناصية جميع الصفات في العالم، لكي أحدثك عنه. كان بودي ان أتعرف إلى أكثر الكلمات وداعة ورقّة وانسانية، وأعظمها بطولة، لكي أصف لك الشجاعة والثقة اللتين تخفقان في قلب البرازيليين. ان شعب البرازيل، وقد ديس بالأقدام وكُبّل بالقيود، أهمل واحتُقر، أوثقت يداه، أقفل فوه، آكلاً ما لا يكاد يكفيه لسد رمقه، مُخاناً ومُهاناً، لا ييأس مع كل ذلك. انه لا يدع للامبالاة مشؤومة ان تسيطر عليه. انه يناضل، يصخب، يخلق ويغذّي بدمه رؤساءه وأبطاله. انه شعب بطل مقاوم وكفء، تفجّر اغانيه أملاً لا متناهياً، انه شعب يحتفظ بأمله كاملاً في وقت التعاسة، لان التعاسة ليست سوى مقدمة للحرية.

إن الأغنياء وأولئك الذين يتولون السلطة يرتجفون، لأنهم لن يستطيعوا أبداً كبح جماح إرادة الشعب، لن يستطيعوا أبداً الاستيلاء على قلبه الحر الثائر. وحتى في أصعب الأوقات لم ييأس هذا الشعب مطلقاً. لقد ناضل في كل اللحظات لكي يقطّع السلاسل التي تكبله. إن هذا الشعب البطل قد صنع في غمرة أوجاعه، بتأمل وإنما بصلابة، بطلَه. لقد انبت **لويس كارلوس برستس**: صوته وحسامه.

★ ★ ★

لقد حدث ذلك في مطلع عهد الجمهورية، يا صديقتي. وكان فلوريانو قد جاء إلى الحكم. إن هذا الريفي القادم من الألاغواس، المتداعي والبخيل بالابتسامات، كان يرى هدف الجمهورية الأعلى يسير نحو الأفول. إن اقطاعيي الملكية، وملاكي العبيد القدماء، ان أولئك الذين كانوا يريدون، في أوج انتاج الممتلكات والمطاحن والمعامل الأجنبية المنشأة حديثاً، ان يجعلوا عمالهم يشتغلون كالعبيد، ان كل هؤلاء كانوا يريدون ان يستولوا على الحكم من جديد، وان يحكموا ضد الشعب، ضد الوطن، من أجل مصلحتهم وحدها. وكان يحيط بفلوريانو تلامذة بنجمين كونستان، وتيننتيستيو ذلك العهد والروائي راوول بومبيا الذي يخفق قلبه حباً للجماهير، وبعض الصحافيين، وجماهير الشعب الواسعة. وكان يناهضه الملاكون العقاريون واصحاب المعامل ومالكو ألقاب النبل والوظائف ذات الريع الوافر: روي باربوزا، محامي الانكليز، أصحاب أملاك سان باولو وميناس، الفوضوي سيلفيرا مارتينس، الاميرالات الذين كان يسيطر عليهم الحنين إلى البلاط. ومن أجل تسخير الجمهورية لمآربهم الخاصة، نظم هؤلاء أمر القيام بعصيان. فقضى فلوريانو على هذا العصيان بيد من حديد. وحاولت المصالح الانكليزية التي يدافع عنها العصاة، ان تحمي وتساعد الثوار المسلحين. وذهب سفير انكلترا إلى القصر ليسأل فلوريانو كيف سيستقبل الفرق الانكليزية إذا ما جاءت «لحماية مصالح الرعايا البريطانيين». فأجاب الريفي الألاغواسي بصوت هادىء:

ـ سأستقبلهم برصاص البنادق...

في ذلك الوقت كان الشعب هو الذي يحكم، يا صديقتي، كانت الجمهورية في خدمة البرازيل، في خدمة مصالحها، في خدمة الرقي والاستقلال السياسي والاقتصادي. وأجرى فلوريانو انتخابات شريفة. وكانت الحدود، التي وضعها الدستور لقضية الاقتراع العام، لا تسمح إلا لجزء صغير من الشعب ان يتمتع بحق الانتخاب. وفي بلاد من الأميين، تضم عدداً هائلاً من العبيد المحرّرين حديثاً، كان بمقدور الأشخاص الذين يحسنون القراءة

والكتابة وحدهم ان ينتخبوا . وفوق ذلك ، كانت الآلة الانتخابية التي أنشئت عهدَ الملكية لا تزال قائمة ، وظلت تتابع عملها في ظل الجمهورية . ولما لم يكن بمقدور فلوريانو ان يزوِّر الانتخابات ؛ وكان لا يفهم بان من الواجب تعديل مواد الدستور المتعلقة بحق الانتخاب ، فقد استولى ملاكو العبيد على الجمهورية . وكان على الشعب ، فيما بعد ، ان يقول بصوت خطبائه الشعبيين :

ـ هذه ليست بجمهورية أحلامي . . .

انها لم تكن جمهورية الايجابيين ولا جمهورية تلامذة الجيش ، ولا جمهورية رجال إلغاء الرق ، ولا جمهورية الشاعر كاسترو اسليفيس ، ولا جمهورية الخطيبين الشعبيين سليفا جردين ولويس تروفون . وكما في عهد الملكية ، كانت الحكومة هي حكومة حفنة من الرجال تحكم ضد أكثرية الشعب الساحقة .

إن هذه الحكومة هي التي سلمت « السرينغايس »[٢٠] الى الرأسماليين الأجانب ، والتي خربت اقتصاد المطاط . في اراضي أمازونيا ، في مياه النهر الكبير ، حيث تولد الحميات والأوهام ، في هذا العالم الذي لا يزال قيد التنظيم حيث تجتاح المياه الجزر ، وتلد الأرض أرضاً ، وحياة وحيوانات كبيرة مائية واشجاراً عملاقة وعصافير لا تحصى ـ حيث وصل الرجل المدهوش ، الذي قدِم ، باكراً جداً ، من الشمال الشرقي ، من بلاد الجفاف ، حاملاً في برديه شجاعة خارقة أعلى من مستوى الشجاعة العادية ، على أرض قيد التكون ـ في هذا العالم تنمو ، في حالة وحشية غريبة ، ثروة بعيدة عن حدود التصور في الغابات العذراء ، التي لم تمس ولا تُخترق ، حيث تنمو « السرينغايس » ، تنطلق أنهار من المطاط ، ثروة شعب . وتدفقت هذه الثروة في أحد الأيام ، كأمل في حياة أفضل . انها لم تكن لا بيضاء ولا لبنية . لقد كانت معدنية وصفراء بلون الذهب ، بلون كل الأشياء التي تنتج مالاً . ولكن هذه الثروة كانت تحمل في طياتها مأساة ، مأساة المال الذي يحوي طمع

(٢٠) شجر المطاط .

الانسان ويجعله يخاصم رجالاً آخرين، أشقاءه. ووُلدت المدن، وأصبح حلم الأمازونياحقيقة ملموسة. إن السيارانسيين (٢١)، وقد طردهم السوط والجفاف والشمس المحرقة للمراعي الخضراء، والقاتلة للماشية وللرجال، يمموا وجوههم شطر الأمازونيا، شاربين مياه الآبار. في الماضي كانت هذه البلاد هي بلاد الأساطير والنسوة المحاربات والبوتو (٢٢) والكوبرا (٢٣) الكبيرة والسي Cy والهنود الأحرار، الذين يتنقلون في الغابات العذراء. وعندما وصل السيارانسيون، أصبحت هذه البلاد تُدعى الأمازونيا، ووُلدت مدينة مناوس في وسط النهر والغابة، بين مياه الأمازون البيضاء ومياه ريو نيغرو السوداء. ووصلت المدينة بقصورها وخماراتها وسفنها وسككها الحديدية، وتراجعت حدود الوطن بعيداً، وسافر الرجال من مناوس بيلين لحو أوروبا، لحو باريس وفيينا وليشبونة ولندن، وسمعوا أصوات «الصنج» في مدريد، وذهبوا لرؤية المونبارناس وعشاقه، لرؤية مصارف السيتي، ليأكلوا الكيْجادنياس (٢٤) على طريق السنترا. ووصل البرتغاليون مزودين بمشاريعهم التجارية، واشتروا المطاط الذي كان يجري من السرينغايس، حيث امتزجت عصارة الأشجار بدم الرجال. وبعد أن أثروا، رجعوا الى بلادهم وبنوا المسارح والمستشفيات والمدارس في القرى التي وُلدوا فيها. ثم جاء السوريون، مغامرو القرن العشرين، الذين، وقد وصلواحاملين حقائب متواضعة، سرعان ما عادوا الى اعتلاء النهر متوجهين فوراً لحو المخازن الأنيقة في شوارع بيلين أو مناوس. إن رجل الشمال ـ الشرقي والرجل الأمازوني، ابن الأبيض وابن الهندي، مناضلين داخل الغابة العذراء ضد الطبيعة التي كانت لا تزال حاملاً، ضد فيضانات يومية لنهر واسع كالبحر، ومخيف أكثر من الشمس، ضد الحمى، ضد الملاريا، ضد سم التيفوس، ضد البرص، ضد الحيوانات، متقدمين في الغابة التي لا يمكن اختراقها، راسمين الطرق، مطاردين الغذاء اليومي، دون

(٢١) سكان ولاية سيارا.

(٢٢) سمكة نهر الأمازون.

(٢٣) نوع من الحيات السامة (المعرّب).

(٢٤) «كالو» بالجبنة، مشهورة في البرتغال.

نساء يقهران بهن قلقهما في ظلام الليل، إن هذين الرجلين أعطيا بذلك قيمة لثروة البلاد الرئيسية. وسرعان ما كان البرتغالي يشتري هذه الثروة، وكان السوري يعاود بيعها بوسائل ملتوية. وكان الأغنياء في مستعمراتهم في مناوس، في منازلهم في بيلين، في أحياء ريو الأنيقة، في أحياء غلوريا وكانيتي، في البيوت المغلقة الفخمة الأنيقة أو في قصور الحكومة، يفيدون من هذا العمل، من هؤلاء الموتى الذين لا يُحصى عددهم، من هذا النضال المظفر الدائم ضد الموت، كانوا يفيدون من أفجع وأعظم الملاحم الحديثة تأثيراً: ملحمة السيارانسي في أمازونيا، في عهد اكتشاف المطاط. إن شغيلة الشمال الشرقي، ـ وقد اتلفتهم الحمى، وغطاهم البرغش الذي يشكل كفن هذه البلاد، وقبض على حنجرتهم النهر القوي الذي هُتك سره، وكرههم الهندي المالك الذي طُرد من أرضه، ـ كانوا يتقدمون دائماً. وكانت زوارقهم تقطع مياه النهر: ساقٌ للتمساح، عين لسهم الهندي، الدم للملاريا؛ وماذا يتبقى لحيات الكوبرا الهائلة التي تقلد بأجسادها تعرجات الساقية؟ ولكن الشغيلة كانوا يتقدمون دائماً. لقد أقاموا خطوط ماديرا ـ مارموريه الحديدية، أبهظ سكك الحديد ثمناً، تلك التي ابتلعت مبالغ عظيمة وأرواحاً لا تُحصى. تطلعي جيداً، ياصديقتي، فترين أن عوارض الخط الذي تمر عليه قطارات التقدم ليست من خشب. إن هذه العوارض قُدت من أجساد الرجال الذين لاقوا حتفهم وهم يبنون هذا الخط. إن الخطوط الحديدية ترتكز على أجسادهم، وعلى هذه الأجساد تسير قطارات غابة الرعب. إن نهر ماديرا وحده هو الذي يعرف هذه القصة، وهو وحده يستطيع أن يرويها بالتفصيل؛ انها مرعبة، يا صديقتي، لدرجة ستؤلف معها دموع الألم التي سوف تسكبينها، هي وحدها، إذا ما قُيّض لك سماعها، نهراً آخر. وبينما كان الدم يسيل غزيراً في مياه السواقي الصافية، كان السيارانسي يتقدم في الغابات العذراء. وكان، وقد طرقته شمس السيارا، التي حولت مروجه الخضراء الى صحراء، يرى عائلته تموت، وخيوله تسقط، وماشيته تنازع. وهكذا استمد الشجاعة التي لا تغلب، والتي جعلته يسير باتجاه أمازونيا مناضلاً ضد الغابات العذراء، والنهر والحميات. إن ألوف وملايين الكيلوات من المطاط التي تهبط

من النهر، على السفن، على المراكب، على الزوارق، هذه الثروة الهائلة التي لا تُحصى، هي من نتاج عمله، حياته، دمه وأمله.

وفي المدن، البرتغالي ينتظر، وكذلك السوري، كما ينتظر البرازيلي وصاحب المليارات ورجل السياسة، الذي خلقه هذا الأخير، وجميع أولئك الذين يؤمن لهم المطاط، القادم من قلب الغابات، منافع المدنية ومرح العيش. إنهم لم يشاهدوا مطلقاً الأراضي الغنية الخصبة التي تخصهم. ذلك لأن هذه الأراضي، يا صديقتي، لا تخص السيرانسي الذي استولى عليها. انها تخص أسياداً يملكونها ويتمتعون بها كما يُتمتع بالمرأة. والسيارانسي الذي استولى عليها ليس سوى عبدهم. تلك هي قصة الأمازونيا، يا صديقتي.

في شوارع نيويورك وشيكاغو ولوس الجلوس ولندن وباريس وبرلين، المغطاة بالأسفلت، في جميع مدن العالم، تسير السيارات على دم السيارانسيين. وبدمهم يتغذى فورد، كما يتغذى الوول ستريت والسيتي. ويختفي وراء البرازيليين الأغنياء وراء رجال السياسة في العاصمة وفي الولايات، وراء المغامر السوري والتاجر البرتغالي، وراء كل هؤلاء يختفي الرأسمال الأجنبي. إن كل ما ذكرنا يشكل عنصري مأساة الأمازونيا، يا صديقتي. وفي أسفل الهرم، يحمل السيارانسي، بعضلاته الفولاذية، تجار مناوس وبيلين، أصحاب المليارات البرازيليين والرأسماليين الأجانب الجشعين. إن هؤلاء الآخرين، وقد شكلوا قمة الهرم الذهبية، يشترون بقليل من المصاريف، دون أن يقدموا أي عمل، ثروة شعب.

ووجد الانكليز أنه ليس هناك من سبب يدعوهم لشراء المطاط من البرازيل، ما داموا يملكون أراضي واسعة يستطيعون زراعتهابالسرينغايس. ولكن شجرة المطاط لا تنمو إلا في أمازونيا. وحاول الانكليز الاستيلاء عليها. ولم تكن المسألة سهلة الحل، يا صديقتي.

لقد كان السيارانسي يعرف التماسيح وأفاعي الكوبرا والهنود والحمى التي ينتجها البرغش، لقد كان يعرف ليالي العادة السرية التي يحلم خلالها بامرأة

تضاجعه، كان يعرف الحيوانات المفترسة التي تتجول بحرية، يعرف الغابات العذراء المعادية، النهر المعادي، سوط الوكيل، طلقات البندقية التي كانت تقمع محاولات الفرار: وفيما عدا النهر والحمى والغابات العذراء والوكيل، السيد والعبودية والغنى، لم يكن يعرف شيئاً آخر. انه لم يكن يعلم شيئاً عن الاستعمار الذي يكشف أسرار الأمازونيا، ويطمع بثرواتها، بمطاطها، بـ «مطاعيم» شجرة السرينغايس التي تسمح بزراعة غابات أخرى في العالم وتصنع تعاسة ثروة رجل الأمازونيا، مأساة دون مجد ودون جمال. ماذا كان بمقدور شغيل سيارانسي مصاب بالملاريا أن يعرف عن أسرار الاقتصاد العالمي؟ لقد كانت أسرار النهر تكفيه.

وفي أحد الأيام، يا صديقتي، باع حاكم وقح مجرد من الحياء، عدو لوطنه ولشعبه، «مطاعيم» السرينغايس إلى الحكومة الانكليزية لكي يزيد في ثروته. ماذا كان يهم هؤلاء الحكام، يا زنجيتي: الشعب والوطن؟ لقد كانت هاتان الكلمتان مجردتين من كل معنى بالنسبة إليهم؛ فهؤلاء الناس لا يفكرون إلا ببطنهم، بلذائذ الطاولة، بالمشاهد البراقة، بالنسوة الصبايا، الجميلات، المحبات واللدنات. قلبهم كان متعطشاً للمال، وكانت أيديهم ترتجف بخلاً: ماذا يهمهم الشعب والوطن؟ ماذا يهمهم تقدم وسعادة البرازيل؟ واشترى الرأسماليون الأجانب «مطاعيم» شجرة المطاط بثمن بخس. وبينما كان الفقر ينشب مخالبه في الأمازونيا، كانت الأموال تتكدس في صناديق الحاكم السافل.

ومنذ ذلك الحين، يا صديقتي، أقلع برتغاليو مناوس وبيلين عن بناء المسارح في ليشبونة، وعن أكل الكيجادنياس في سنترا، وعاد السوريون إلى هبوط النهر كما صعدوه، حاملين حقائبهم على أكتافهم. وفقد النهر ثروته. وفي جزر أوقيانيا، وبين الغرسات المنسقة ذات الايراد الأعلى، كان سوط الوكيل الانكليزي يتساقط على ضحايا جديدة. وأخذت غرسات البرازيل تحتضر. ولم يستطع أثرياء بيلين أن يتموا الكنيسة المبنية بالرخام والذهب، والتي أهدوها إلى نوتردام دونازاريت، قرباناً عن جميع المال الذي ربحوه. ووُهبت قطعة من أمازونيا إلى فورد. وحمل الانكليزي «مطاعيم» المطاط؛ إن

لديه أراضي يستطيع أن يزرعها فيها. وكان الاميركي يريد الاستيلاء على «المطاعيم» وعلى الأراضي. وأخذ يخفق على الأرض البرازيلية، بين أسرار الأنهار، على البوتو والباج غراندي[٢٥]، على السيارانسي، الذي ظل حتى ذلك التاريخ عبداً للثري البرازيلي، للبرتغالي، للسوري، والذي أصبح الآن عبداً لفورد، على كل هؤلاء أخذ يخفق من الآن فصاعداً علم اليانكي ذو النجوم الثماني والأربعين. ومنذ ذلك الحين، يا صديقتي، لم يعد أغنياء مناوس يذهبون إلى نيويورك لرؤية ناطحات السحاب، لشرب الوسكي المغشوش، لمشاهدة نجوم السينما بلحمها ودمها. لقد أصبح أغنياء مناوس، فقراء مناوس؛ وجعلوا يشربون خمر البلاد في خمارات المدينة، ناظرين بحزن إلى مسرحهم الضخم الذي يعود عهده إلى أيام المطاط الغالية. ولما لم يكفهم هذا الأمر، باعوا قطعة أخرى من البلاد إلى اليابانيين. إن أصغر البلاد الرأسمالية سناً كانت، هي أيضاً، ترغب بنيل حصتها من البرازيل. ولم يبق بمقدور أثرياء الأمازونيا مطلقاً، يا صديقتي، أن يصرخوا في قصور الحكومة في ريو، أمام وزراء يرتجفون. إن سلطتهم المبنية على عائداتهم من المطاط قد انهارت. وتابع دم السيارانسيين الجري ـ وكانت أجورهم تنخفض باستمرار لكي يُسمح لأسيادهم أن يشبعوا نهمهم من العادات والعيوب المكتسبة خلال الفترة التي كانت فيها الأسعار مرتفعة. واكتسب المرض مواقع جديدة. وكان يُفتقر إلى كل شيء: إلى الأدوية وإلى النساء. وقد فقد الأغنياء أنفسهم أملهم في المستقبل. وكانت تحط الرحال في الأمازونيا سفن يخفق فوقها العلم الانكليزي، وتحمل دون انقطاع «مطاعيم» شجرة المطاط. وكان العلم الاميركي، علم فورد، يخفق فوق الأمازون، كما كان يخفق العلم الياباني. وتحت الأمازونيا كان يجري دم السيارانسي، مؤلفاً نهراً أعرض من كل أنهار العالم، شبيهاً بالشهيق، بصوت متألم يستغيث، كشكاية، كصراخ، كصخب. وكان يتصاعد كذلك صخب أغنياء مناوس وبيلين القدماء، صراخ البرازيليين والبرتغاليين والسوريين. واطلق الكتاب صيحات غضبهم.

(٢٥) صورة اسطورية شعبية لدى هنود أمازونيا تمثل رئيساً كبيراً.

وكتب فريرا دي كاسترو رواياته، وبريغرينو جيونيور كتب قصصه. ومن الأمازونيا المباعة، المسلوبة غناها، تصاعد صراخ، يا صديقتي، صراخ كان يدوي في قلب التيننتيستيين، صراخ كان يحرك قلب لويس كارلوس برستس.

★ ★ ★

وفي المجمع العلمي البرازيلي، يا صديقتي، أخذ رجل من بلاد الأنهر الكبيرة يتحدث عن اليونان. وكان كويليو نيتو مع هذا قادماً من احدى ولايات الشمال الثلاث: أمازوناس، بارا، مارينيون. وكان حظه منوطاً بحظ النهر الكبير، حظ سيارانسيّه، برتغاليه، سوربيه، هنوده، أغنيائه وفقرائه، غاباته العذراء، مأساته، فاجعته، وحظ جحيم حياته. وكان على الأمازونيا أن تعني بالنسبة إليه ألوف الروايات والمقالات والقصائد. وكان كويليو نيتو مع هذا مثالاً ورئيساً لمدرسة أدبية تختلف عن ذلك تماماً. وهو، وقد لقب بـ «أمير الكتاب البرازيليين»، واعتُبر كأمير كتاب البلاد في ذلك الوقت، استطاع أن يحصل بفضل أدبه على كرسي في مجلس النواب، وعلى أخرى في إدارة نادي كرة القدم؛ لقد كان الأدب يؤمن له أعمالاً. لقد نشر مئتي كتاب. وملأ، بخطه الأنيق، ألوف الأوراق بالجمل، بالصفات، بالافعال، بالموصوف والمنعوت، بالصور الدقيقة، بالعبارات المدروسة؛ لقد حلل على هواه مسائل لغة ليشبونه البرتغالية. إنما من بين ألوف السطور هذه، لم يُكرّس سطر واحد للرجال الذين كانوا يناضلون في أمازونيا. لم يُكرّس سطر واحد لذلك. لم توجه كلمة واحدة، اهانة واحدة، توبيخ واحد، لأولئك الذين باعوا أمازونيا. إن كويليونيتو لم يكن يعرف لا الكلمات القبيحة ولا القاسية: إن ادب كل هذا الجيل كان دون ألياف ودون أعصاب: إن جيلاً كاملاً باع نفسه من أجل الفتات: إن هذا الأدب هو أقذر وأتفه وأكثر آداب العالم أخطاء. إن خلاسيي الشمال الشرقي والشمال، ومخضرمي الجنوب، ومستوطني سان باولو، إن جميع هؤلاء، كانوا يتحدثون عن اليونان. وليست

سان لويس دي مارينيون مدينة في شمال البرازيل: انها «أثينا البرازيلية»، حيث يفاخر بالتحدث بلغة برتغالية صافية.

* * *

لقد كان رجال السياسة يبيعون البلاد ويعقدون القروض، وكانت السياسة تدور حول المطاط، حول البن وحول السكر. وكان الكتاب يجهلون البلاد. وكان الشعب يجهل الكتاب، وهؤلاء كانوا يبيعون كتبهم إلى البرتغال، هذا إذا ما كانوا يبيعونها. وبالنسبة لهذا الجيل، الذي كان احساسه يشبه احساس صبية قروية، لم تكن البرازيل موجودة مطلقاً. كان الأدب وسيلة للحصول على عمل. كانت الكتب ومقالات الصحف تشكل مناسبة للبروز في المجتمع. لقد كان هذا الجيل، يا صديقتي، هو الذي تمخض عن هذه الجملة المشهورة: «إن الأدب هو ابتسامة المجتمع». لقد كان افراد المجتمع يرقصون في «الصالونات»، على وقع نغمات «اوركسترا» كانوا يدفعون ثمنها بالذهب الأجنبي، وكانوا يدفعون بالدولارات، بالماركات، بالليرات، بالفرنكات، ثمن الأثواب والأحذية، ثمن ابتسامات النساء والكتاب. لقد اختفى تقليد النضال والوطنية في الأدب البرازيلي لدى هؤلاء الأشخاص المجردين من الأعصاب، الذين كانوا كتاباً عاطلين قبل كل شيء، وكانوا يقلدون بدناءة أية بذاءة تُنشر في اوروبا. إن خلاسيي مارينيون وباهيا المتكبرين، وأبناء مستوطني سان باولو، الذين كانوا يبيعون أنفسهم بأبخس الأسعار، ويصرفون جهدهم للاهتمام بمسائل سخيفة في القواعد، ويحتجزون أنفسهم في برج لم يكن من بلور بل من زجاج قاتم غير شفاف، إن هؤلاء جميعاً كانوا يخونون رسالتهم كأدباء، يجهلون شعبهم، يقطعون وقتهم بالتغني بمدح أولئك الذين كانوا يبيعون وطنهم بالمزاد، مدحاً مفرطاً. لقد أثروا إثراء جعلهم في صف أولئك الذين يفتنون ببيع بلادهم من الاستعمار. لهذا السبب كانوا «حياديين»، «لا سياسيين» وعاطلين.

إن ظاهرة «كويليونيتو»، مثال الأدب الوطني في ذلك العهد، هي النتاج

الرديء للادب الأوروبي السيّء في ذلك الزمن، وهي دليل الطلاق بين الشعب وبين الرجال الذين كانوا يحكمونه. إن الأدباء الجدد، وقد أمضّتهم فكرة وجوب الاعتزال في بيوتهم من أجل نظم القصائد ذات القوافي الغنية، التي كانت تجعلهم يتقدمون في مهنة الأدب، انتهى بهم الأمر إلى التحدث عن اليونان، إلى خيانة سرتانيجوس البرازيل في الروايات العاطلة التي كانوا يبرزون خلالها مجتمعاً لا وجود له.

إن هذه الظاهرة الأدبية التي قُدر لها أن تعاود الظهور أيام الدولة الجديدة، إن أدب الهرب هذا، المتجاهل للشعب، والذي لم يكن سوى وسيلة للحصول على أعمال ولامتهان السياسة، كان يخضع لأوامر الوول ستريت والسيتي. إن كويليو نيتو وغيره من الـ Virlatos correlas (٢٦) « الفيرياتوس كورياس » كانوا يشعرون بخوف مقدس من الشعب؛ وكان الشعب بدوره لا ينظر إلى الأديب نظرته إلى رجل نافع كفؤ. وكان الأدب « بسطة » تباع فيها القصائد والجمل والضمائر.

إن تاريخ البرازيل من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٢٢ هو تاريخ البن. إن تشابك اقتصاد البن في السياسة الوطنية يعود إلى زمن بعيد. فقد حمل القضاء على العبودية زارعي البن، على مساندة الجمهوريين. وكان هؤلاء قد ناضلوا ضد فلوريانو، وسيطروا على البلاد مع برودينتي موررايس، وحافظوا على نفوذهم حتى بدأت فترة الثورات. ولما كانت حياة البلاد الاقتصادية منوطة بالبن، فقد كانت السياسة تدور حوله كذلك. وكانت الولايتان الأكثر أهمية في إنتاج البن، سان باولو وميناس، تتناوبان الاستئثار برئاسة الجمهورية. وخلف زارعي البن، كانت تكمن المصالح الانكليزية والاميركية، كما كان الالمان واليابانيون قد بداوا التغلغل في البلاد. وكان الانكليز يسجلون تقدماً على الاميركيين، الذين كانوا يجهدون أنفسهم لتنصيب رئيس من عملائهم. وكان الالمان يجمعون الرجال في بارانا، في

(٢٦) أدباء برازيليون عاطلون جداً.

سانتا كاتارينا، وستتلو النازية ذلك في الغد القريب، حاملة معها الانتغرالية [٢٧] Intergralisme وسياسة التلاعب بأسعار الماركات.

وأخذت الصناعة تنتشر في سان باولو، ولكن الحكومة تابعت الانصات إلى أوامر استبداد زارعي البن، وأوامر الأسياد ذوي الاقدام المصنوعة من البن. ولم يكن الرؤساء الذين تتابعوا على الحكم تقدميين بأية حال من الأحوال، لقد كانوا يتحدرون على خط مستقيم تقريباً من مزارع البن في سان باولو وفي ميناس. حيث كان السعي حثيثاً لعقد قروض تستعمل لدفع قروض سابقة، كما كانوا يبعثرون مال الأمة دون أية مبالاة اطلاقاً بمسائل الشعب. وكان موقفهم أمام الأمم القوية، التي كانت تلقي برساميلها في البرازيل، والتي أضحت سيدة الكهرباء والغاز والذهب والحديد والقطر الكهربائية وخطوط السكك الحديدية ومساحات الأرض الشاسعة، كان هذا الموقف هو موقف ولد خائف أمام معلمه. وكان بروداني دي مورايس وكامبوس سالس قد بدأا هذه السياسة. وبعيدة كانت تلك الأيام التي كان فلوريانو خلالها يجيب برجولة عن سؤال سفير وقح. وقد أصبح الحكام الآن لا يتمتعون إلا بوضع مزرٍ أمام السفراء، لا يتفوهون إلا بعبارات وادعة خاضعة. ولم يكن الصخب الذي يتصاعد من البرازيل يصل إلى آذانهم. وكان الايجابيون، الذين سبق لهم أن هيأوا للجمهورية نظرياً، يتطلعون برعب إلى ما كان يجري في الحكومة المستولية على السلطة. إن البن والاستعمار، وقد استوليا على الحكم، انطلقا للسيطرة على مختلف ولايات البرازيل، منشئين، حسب أهوائهما، الحكام ومجالس النواب والشيوخ. وكان الاستعماريون يعقدون المحالفات حول بعض النقاط المحددة، ويشنون الحرب حول نقاط أخرى، ولكنهم كانوا يدخلون ميدان السبق إبان الانتخابات، صانعين، على هواهم، الحكومة والمعارضة. وكان ذلك في وقت كان فيه «البوهيمي هو الذي يشكل نقيض البورجوازي». ولم يكن قد بدأ الحديث بعد عن البروليتاريا، وكان الشعب يُعامل بازدراء عظيم.

---

(٢٧) مبدأ فاشي برازيلي ـ المعرّب.

وفي مزارع سان باولو وميناس، كـان أسيـاد الأرض يتهمـون فلاحـي الشمال ـ الشرقي وماتوتوس[٢٨] سان باولو بـالبلادة. وكـان المستـوطنـون الايطاليون والبرتغاليون يشاطرون أهالي البلاد الأصليين العيش في المزارع، ويعملون من الفجر إلى الغسق من أجل فريق صغير من كبار الملاكين. وخلال الحملات الانتخابية، كانت تتتابع الخطب والـولائم والوعود. ولم يكن الشعب يتأثر لشيء قليل كهذا. انه فقد إيمانه بهؤلاء الرجال، وجعل يتطلع لحو المستقبل يحدوه الأمل بمشاهدة ولادة شيء جديد. وكانت مظاهر هذا الأمل ترجف جدران مدرسة ريالنغو العسكرية. ولم تكن مزارع البن بعيدة، ولم تكن بعيدة أيضاً لا الحكومة ولا حياة الفلاحين البائسة. وكانت هذه المسائل، وهي أكثر قرباً من مسائل أمازونيـا، تُثـار خلال احـاديـث السهرات العائلية في ريو دي جانيرو، في النقابات التي كانت تتشكل، في الخمارات، في مدارس الطلبة الداخلية، وخاصة بين أوساط تلامذة الضباط.

وكانت مزارع البن في سان باولو تنتخب الرئيس الأول، وتنتخب مزارع ميناس الرئيس الذي يليه. وكان نور البن ـ الملك، يكسف أنوار المزروعات البرازيلية الأخرى. وكان زارعو الكاكاو في باهيا، وزارعو ريو غراندي، ورجال برنمبوكو، جزعين. فهؤلاء أيضاً كانت لهم مصالحهم. وكان البن، السلطان الفرد، يجهلهم في سلطانه، كما يجهل الشعب المتألم في المدن وفي الريف.

وقد اكتسب بعض ضباط البحرية، يا صديقتي، ممن كانوا يترددون على «صـالـونـات» القصر إبـان الفترة الديمقـراطيـة للجمهـوريـة، عـادات الارستقراطية. وبالنسبة إليهم، كان الزنوج لا يزالون عبيداً، ولم يكن من المفروض أن يعامل البحارة ككوائن حية. ولم يكن هؤلاء الضباط يوجهون الأوامر لبحارتهم إلا ضرباً بالسياط.

وفي أحد الأيام، يا صديقتي، أثار بحار زنجي الاسطول ـ وكان العديد

(٢٨) فلاحو سان باولو.

من الضباط يفكرون كذلك بانه لم يكن هناك من سبب يدعو الى معاملة البحارة معاملة العبيد. وربما كان هؤلاء يشكلون الأكثرية، ولكن مظهر الضباط الرجعيين المتجبر، جعلهم يترددون. وثار البحارة، وثار معهم ضباط الآلات. واستولى الزنجي جوان كانديدو على الاسطول وأدار الآلات، وأطلق نيران المدافع، كأميرال يتصرف على سفينته. لقد كان البحار شخصاً بارزاً، ولم يكن حيواناً صالحاً للسوط. وهبت في هذا النهار ريح لطيفة على غوانابارا وحركت علم السفن وقلوب الثائرين. وساعد نسيم البحر اللطيف الثائرين في عملياتهم، وراهن شخص ما على أن البحارة، وقد عُزلوا عما عداهم، لن يتوصلوا الى تسيير السفن الكبيرة. وسير البحارة السفن الكبيرة ببراعة ذئاب البحر الصلبة. ووُعدوا بتنفيذ جميع مطاليبهم، وخُدعوا بوعود الصفح. وعاد السوط من جديد الى ضرب جنبات الزنجي جوان كانديدو، ولكن البحارة فهموا في هذا اليوم بأنه لم يكن من الصعب قيادة السفن.

وتابع صخب البحارة التطواف فوق جون غوانابارا، فوق المدينة وفوق البحر.

* * *

وخلال انتخابات الرئاسة، كان الشعب، بالرغم من شراء الأصوات بالجملة ومن الوعود المتدفقة، يخرج إلى الشارع، بصدرٍ لاهث وقبضات مضمومة ويصيح: «حتى متى»؟.

وعندما جاءت الحرب أرسلت البرازيل بحارتها، وحصلت على بضع سفن وورثت الوافدة الصدرية الاسبانية لسنة ١٩١٨. وأشرف أطباء كبار على تطهير الأمكنة في ريو، في سان باولو، وفي المدن الساحلية حيث كان يسكن الأجانب. وأجبر الخوفُ من أن يكون الأوروبيون، مالكو ثروات البلاد، مصابين بالحمى الصفراء، الحكومةَ على الاهتمام بهذه المسائل. ولكن بلدان البرازيل الداخلية كانت دائماً فريسة لأوبئة التيفوس والجدري والملاريا

ومختلف أنواع الحميات. وكان الانكليز والألمان واليانكي [٢٩]، وجميع أولئك الذين كانوا يملكون مالاً لاقراضه للحكومة، لا يسكنون المدن الداخلية؛ لقد كانوا، كالبرازيليين الأغنياء تماماً، يسكنون المدن الساحلية أو عواصم البلاد الأوروبية. وكانت البلدان الداخلية مسكونة من أناس مزريين، قليلاً ما كانت تهم حياتهم. لمَ الاهتمام إذن بتطهير الأراضي الداخلية الواسعة؟.

وجاءت الثورة الروسية. وهبت ريح من التجدد على شرقي أوروبا. وبدأ وجه العالم يتغير.

* * *

ومات الكتاب من طراز كويليو نيتو، بعد ذلك بعدة سنين، وهم يجهلون بان مدنيةً مختلفة، جيلةً وجديدة، قد وُلدت على سدس من الكرة الأرضية. لقد كان هؤلاء الأشخاص يتصورون انهم يعيشون في يونان ألسيبياد، بينما كانوا لا يعيشون في الواقع إلا في برازيل فانسسلوْبراز. إنما في ذلك العهد، يا صديقي، كتب رجل خلاسيّ من ريو، سكّير وقذر، وموظف تافه في وزارة الحربية، رواياتٍ لم يُعلق عليها أدنى اهتمام، حُرّمت قراءتها وعرِّضت مؤلفها للسخرية. وحظيت بأهمية أقل، مقالاته التي كان يعلن عن نفسه فيها بانه «ماكسيالي» [٣٠]، ويمتدح فيها، وهو الوحيد الذي كان يتبع هذا النهج في البرازيل، الثورة الروسية. ان ليماباريتو، وهو الروائي الريّان العبقري لمدينة ريو دي جانيرو، لضواحيها، لخلاسييها، لأحيائها الفقيرة، لرقصاتها الزنجية، لم يجتز سوى مرة واحدة أبواب المجمع العلمي. لقد دُعي لحضور أحد الاحتفالات، فذهب وأحدث فضيحة مخيفة، ملأت بالخزي الوجوه القرمزية لجميع ايلوييزو دي كاسترو، الذين كانت أردافهم الارستقراطية ترتاح على ارائك المجمع العلمي اللدنة. وفي فترة الفساد في البرازيل تلك، يبرهن صوت

---

(٢٩) الأميركيون الشماليون.
(٣٠) بولشفي.

ليماباريتو، الوحيد، المخنوق، إنما المهاب والقويّ، على انه كانت للشعب ساعتئذ القوة للقيام بثورة؛ وكانت شكايته قد أصبحت ثورة. ولم يكن أي وجه من وجوه الأدب البرازيلي في الماضي، فيما عدا كاسترو ألفيس وأوكليدس داكونيا، يتمتع بالقوة الشعبية التي يتمتع بها هذا الخلاسيّ الغاريوكي [٣١]. انه الشعب، الشعب الذي يشتم أصحاب السلطان والمال. وهو في رواياته، في مقالاته، في منشوراته الانتقادية، يفضح أعداء الشعب. ولم يفكر في أي وقت من الأوقات بمهنته الأدبية، وكان يهجر الصحف الكبرى ليعمل في صحف أسبوعية عمالية صغيرة. ان وجه الجبار هذا، الذي ينتصب كالاعجوبة الخارقة وسط أدب البرازيل المخنث لذلك العهد، وجه الجبار هذا، الذي من المستحيل نسيانه، والذي تعاظمت مؤلفاته مع الزمن، إن هذا الوجه قد دُفن في معالم النسيان سنين طويلة. ان الروائي ليماباريتو هو أعجوبة شعبية، يا صديقتي. انه اعجوبة شعبية انبثقت من اضرابات سنة ١٩١٧ ـ أول اضرابات عمالية كبرى في البرازيل ـ انبثقت من ثورة أوكتوبر في روسيا. لقد كان ليماباريتو نتاجاً لكل هذا، ونتاجاً لتعاسة الشعب البرازيلي. وبالطريقة نفسها كان كويليو نيتو نتاج الحياة الهادئة السهلة للطبقات الحكومية، لغارسي الين الذين كانوا لا يريدون ان يعرفوا شيئاً عن حياة سكان البلاد.

في سنة ١٩١٧، يا صديقتي، بدأ العمال سلسلة اضراباتهم وبدأ وزنهم يظهر في حياة البلاد السياسية. لم يبق الأمر متعلقاً بالترجّيات، بنداءات الاستغاثة؛ فلقد بدأ العمال يحتجون، يتحركون، يهددون حكم الأفراد، يستحوذون على حقوق، يظهرون قواهم الهائلة.

إن التعبئة العمالية العامة، التي تحققت بمناسبة اضرابات هذه السنة، هي مطلع عصر سياسي جديد في البرازيل. إن سلطة جديدة تنتصب، سلطة ستسير على رأس الثورة الشعبية المستقبلة، سلطة زرعت بذار سنوات ٩٢٢، ٩٢٤، ٩٣٠ و ٩٣٥.

---

(٣١) ساكن ريو دي جانيرو والمولود في العاصمة.

وفي خمس من ولايات البلاد الشمالية ـ الشرقية كان الكانغاسيروس يجتاحون بلاد السرتون. لقد كان هذا نتيجة للظلم المسيطر في الريف، كان نتاجاً فوضوياً عنيفاً ضد سلطة الأسياد الاقطاعيين. ذلك كان مثال لامبيون وغيره من الفلاحين الذين دفعهم إلى اللصوصية نظّار المزارع، الذين كانوا يستولون على أراضيهم ويملكون حق الحياة والموت في الأملاك الواسعة.

وفي الوقت الذي ظهرت فيه الطبقة العمالية على استعداد للنضال، استعملت الرجعية أسلحةً جديدة. وقدمت البروليتاريا المضربة في ريو، لبا باريتو إلى الأدب. وقدمت الرجعية، وقد فهمت بان أيام العظمة قد انتهت، الأديب الوحش الذي يُدعى جاكسون فيغيريدو. ان هذا السيرجيبي[٣٢] المفتقر إلى النغم الغنائي، والذي ينخره الكره والطمع الحقير وينهشه شيطان الإطراء، والذي وُلد ليلحس أقدام الأسياد، هذا الرجل المبشر بمقدم الشرطة السياسية في البرازيل، الفاسق، الرعديد والبخيل، سوف يعلم، بعد وقت وجيز «المراقبة» لرجال الشرطة. إن هذا الكاتب الذي يُعد من أتفه كتّاب البرازيل، والذي كان غير جدير لأن يكتب جملة واحدة تقف على قدميها، كان يجهل سر جمال وقوة الأسلوب؛ لقد فهم على الأقل بان الزمن الذي كان الكتّاب فيه يشكلون «ابتسامة المجتمع» قد دالت دولته، وان بالرجعية وبالحكم الفردي وبأسياد الأرض وبأصحاب السلطة حاجة للكاتب الشرطي. فافتتح جاكسون فيغيريدو هذا العصر في البرازيل. انه هو الذي سمح بولادة انتغرالية المعتوه بلينيو سلغادو. ان جاكسون دي فيغيريدو، وهو الاصفر، بلون السوداويين القذر، الكئيب والجاهل للمباهج، الناكر لجمال الحياة كله، هو نتاج أذلّ وأحط ما أخرجه الأدب.

وبعد عدة سنوات من ذلك، يا صديقتي، اجتاحت زارعي البن حمّى «الطراز الحديث». فان حديثي الغنى في سان باولو، الذين لم تكن تهمهم روايات أمثال كويليو نيتو التي تحمل على الرقاد، والذين كانوا، مع استعمالهم لأدب جاكسون فيغيريدو البوليسي، لا يتوصلون إلى هضم هذا الأدب؛

(٣٢) من سكان ولاية سيرجيبي.

هؤلاء الأشخاص الذين ترددوا على خمارات أوروبا، على الكنائس والمتاحف، الذين شربوا الانخاب مع رؤساء مختلف المدارس الأدبية، والذين كانوا يتلذذون بقراءة كوكتو، وماريني، وبليز سندرارس، لم يكن بمقدورهم الا ان يهتموا بأدب أكثر نعومة، وأكثر صعوبة ويكاد يكون ايزوتارياً (٣٣). وخلق الاحساس الضعيف لحديثي الغنى هؤلاء مبدأ الفيتيريسم (Futurisme): يعني ثورة كاملة في المبنى، مع محتوى من أكثر المحتويات رجعية. ان اصحاب هذا المبدأ (Futurisme)، كانوا أدوات لتسلية ـ بورجوازية كبيرة اغتنت فجأة، وكانت مهمتهم تنحصر في امتاع أسيادهم. وهم، وقد رفضوا كتابة اللغة البرتغالية الأكاديمية، وجهلوا اللغة البرازيلية الشعبية، خلقوا لغة خاصة بهم وحدهم.

ومن وجهة النظر الأدبية، يا صديقي، كان هذا الأمر نتيجة لوضع اقتصادي وسياسي في البرازيل في ذلك العهد. في ذلك العهد كان كل شيء حقيراً، فاسداً ودنيئاً.

ولم يكن أبيتاسيو سووا، رجل السياسة في المنطقة الشمالية ـ الشرقية، يختلف بشيء عن أي غارس للبن. لقد كانت به حاجات للمال تكاد تكون أكثر إلحاحاً: ان مزارع الشمال هي أقل انتاجاً من مزارع الجنوب. ولم تكن مزرعته الواقعة في المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد بمثل فخامة مزارع البن في الجنوب. وبعد ان انتُخب رئيساً للجمهورية، زار انكلترا والولايات المتحدة، وعاد إلى البرازيل على ظهر سفينة يانكية. وكان الأميركيون سعداء. إن دورهم قد حان. ولم يكتف أبيتاسيو، يا صديقي، بأخذ المال من صناديق الأمة المملوءة بأموال الأجانب المستدانة، بل واستحوذ كذلك على ملاعق القصر الفضية.

في ذلك الوقت، يا صديقي، في الوقت الذي وصل فيه انعدام الوطنية،

(٣٣) صفة كانت تعطى في مدارس الفلاسفة القدماء لنظريتهم السرية المخصصة لأشخاص معينين.

وانعدام المبدأ والخلق في القضايا الإدارية، إلى الذروة، والذي بلغ فيه احتقار الشعب، والخلاعة السياسية والأدبية الحد الأقصى، ووصل فيه صخب الشعب وصياح الثورة إلى القمة، في ذلك الوقت خُلق الحزب الشيوعي في البرازيل في سنة ١٩٢٢، في ريو دي جانيرو: جواباً عن كل هذا.

القسم الثاني

طابور برستس

«Luego te vieron in Siempre delante de Prodigiosos hombres animados por tu tranquilo gesto impresionante y tu esperanza de lo inesperado»

Raul A Gonzalez Tunon.

- ١ -

من السرير الذي سمّره فيه المرض ومنعه من المساهمة بالنضال، اطلع لويس كارلوس برستس، يا صديقتي، على اخبار ثورة الخامس من تموز سنة ١٩٢٢. وكانت حكومة ابيتاسيو سووا تتهيأ لنقل رئاسة الجمهورية إلى أرثور برناردس، تلميذ كلية كارآسا القديم، حيث تعلّم، كما كُتب في ذلك العهد، «الرياء والمداهنة ونظام التدرج الجزويتي وكره الشعب». وفي صباح الخامس من تموز، ثار طلاب المدرسة العسكرية، الذين ظلوا يحتفظون في ذهنهم بذكرى رفيقهم لويس كارلوس برستس. وتبعهم حصنالين وكوبا كابانا بضباطها الشباب. وكان لويس كارلوس برستس يتتبع من غرفة مرضه، الأخبار السيئة لثورةٍ كانت تسحقها الحكومة. وكانت هناك وحدات تعهدت بالاشتراك بالثورة ولكنها لم تفِ بتعهدها؛ وقد تمكنت الحكومة بفضل كمينٍ بارع وغير شريف، من توقيف قائد أحد الحصون. وكانت الفرق الحكومية تهدد الثوار. وكان كل ما بقي من الثورة في ذلك الحين هو حصن كوبا كابانا، حيث كان على الـ «تيننتيسمو»[1] ان تظهر للمرة الأولى وبصورة فاجعة أمام شعب البرازيل. وكان على ثمانية عشر رجلاً ان يكتبوا بدمائهم اسماءهم على رمال كوبا كابانا. ان الرمال المستحمة في بحرٍ يمحو عنها العلامات اليومية التي يتركها عليها الزمن، هي رخام غير صالح للخلود، يا صديقتي. ان البحر المتناهي القوة خالدٌ أبداً، يا صديقتي،

(١) لم تظهر هذه الكلمة في البرازيل إلا بعد انتصار ثورة سنة ١٩٣٠. وقد عنت الثورة الوطنية ـ التحررية، في مرحلة عدم استقرارها النظري. وقد كتب واحد من أشد انصارها تحمساً حول هذا الموضوع يقول: «إن التننتيسمو هي التعبير الثوري لطبقات البرازيل الوسطى».

وتحمل الرمال علامته العظمى، وأثر مروره المستمر عبر الأجيال. وتسحب الأمواج نحو أعمق أعماق المحيطات كلّ ما يكون قلبٌ ويد الانسان قد نحتاه على سطح الرمال الأبيض: أسماءَ النسوة المعشوقات، كلمات الرغبة، قصوراً من طراز القرون الوسطى بنتها أيادي أولادٍ حالمة، آثار الاجساد النسائية البيضاء العارية، والآثار المخيفة لجثث الغرقى. ان شيئاً ما لا يدوم على الرمل أكثر من بضع ثوانٍ؛ ذلك لأن البحر الغيور في مقره وفي خلوده، يمرّر في كل الأيام، على ذكريات الرجال، أمواجه من الزبد المتدحرجة على الرمال البيضاء. فليحذر الناس الذين يحلمون بترك اسمائهم محفورة للخلود، من حفرها على الرمال، ذلك لأن البحر، سيد مصائر القمر والسفن والصيادين والرمال، هو أقوى من إرادة الإنسان. إن ذكرى البحر غير المنظورة ـ خليلة الناس وسيدتهم ـ هي الوحيدة التي تبقى على الرمال. ان كل صياد يعرف ذلك، يا صديقي، ويعرفه كل بحار، وأي شخص يهيم على الأرصفة.

إنما الشعب، يا صديقي، هو أقوى من البحر! وعندما يحفر حركة ما من أجل الخلود، فقليلاً ما يهم أين يحفرها. وان الرمل نفسه، الضعيف والزائل، يصبح رخاماً لا يتحطم إذا ما طبع عليه الشعب علامته. وتبرز هذه العلامة عبر الزمن، ولا تستطيع حركة البحر اليومية إلا ان تزيدها رسوخاً. ولكن عندما تُحفر هذه الحركة بالدم، تنتشر علامة الشعب القانية، يا صديقي، على الرمال البيضاء وعلى البحر الأزرق. انها قانية كعلم النضال، كالدم المصنوع منه هذا النضال، قانية كالألم، كالحقد، كأجمل الأزهار، كالأمل. الشعب هو أقوى من البحر، يا صديقي.

لقد كانت الليلة الواقعة بين الخامس والسادس من تموز، ليلة فاجعة بالنسبة لحصن كوبا كابانا. وطلب القائد، وقد كان سجين الحكومة، إلى الثوار ان لا يدمروا المدينة البريئة والمجردة من وسائل الدفاع. لقد كانت الثورة موجهة ضد حكومة الطغاة، وليس ضد الشعب. وكان من المستحيل تدمير قصر الحكومة، فقد كان يقوم بينه وبين الحصن هضبة تمنع المدافع من إصابة هدفها.

وفي حصن كوبا كابانا، دعا الملازم سيكيرا كامبوس، الذي استولى على القيادة، إلى عقد اجتماع لضباطه. يجب القيام بعمل ما. فالفِرق الحكومية المؤلفة من ألوف الرجال الحسني التسلح، والمزودين بمؤن فياضة، تقترب من الشاطيء. انها متهيئة لحصار الحصن، الذي سيضطر إلى الاستسلام تحت وطأة الجوع. وكان الرجال الموجودون هناك، يا صديقتي، حول سيكيرا كامبوس، من أولئك الذين لا يستسلمون. وكان لا بد من الإجابة عن هذا السؤال: ما العمل؟.

وأخذ نيوتن برادو وماريو كاربنتر وإدواردو عومس وسيكيرا يتناقشون. بإمكانهم ان ينسفوا الحصن. وسيُنسفون معه، وبهذا الشكل لن تستطيع الحكومة احتلاله أبداً. وسرعان ما أضرم سيكيرا كامبوس النار في أحد المشاعل وتوجه شطر مستودع البارود. ولكن هناك مئات الجنود، والحصن فوق ذلك يخص الشعب. وفيما لو كان الأمر يتعلق بمظهر جزئي من نضال مقدر له أن ينتصر لكان بالإمكان التجاوز عنه؛ ولكن الانفجار، في ظرفهم، ما كان بمقدوره ان يكون الحركة البطولية الأخيرة لثورةٍ قُدر لها الاخفاق. أطفأ سيكيرا الشعلة الملتهبة، وابتدأ النقاش من جديد. وقرروا شرح الأمر للجنود، وصرفهم إلى منازلهم: وذهب الجنود. وبقي سبعة عشر رجلاً في داخل الحصن المتمرد. وتقدمت طوابير الحكومة المؤلفة من مئات ومئات الرجال المسلحين بالبنادق والرشاشات، على رمل شاطيء كوبا كابانا. وأنزل الثوار العَلَم البرازيلي من على الصارية، وقسّموه إلى سبع عشرة قطعة: واحدة لكل رجل. وغادروا الحصن عندئذ، وقد فتح كل منهم سترته العسكرية ووضع قطعة من العَلم على صدره، وذهبوا لمقاتلة ألوف الجنود الذين يتقدمون نحوهم.

وفي أحد الأيام، وذلك منذ سنين طويلة، وقد كانت العبودية لا تزال مسيطرة، طلب الشاعر كاسترو ألفيس ان يُنتزع من صواري سفن النخاسين، العَلم البرازيلي الملطخ بالعار. وفي هذا النهار من تموز، انتُزع العلم البرازيلي الذي أذّله ولطخه أسياد الحكم بالعار، من احدى الصواري، ووضعه رجال

يدافعون عن كرامته وعن شرفه على قلوبهم. على قلوبٍ وصدور سوف تخترقها القذائف.

وتقدم الرجال على الرمل الأبيض وقد تطلعوا باستقامة إلى أمام، والإبتسامة تعلو منهم الشفاه.

إنهم جميعاً في مقتبل العمر، يا صديقي، وأمامهم، تفتح الحياة أبوابها رحبةً جميلة مملوءة بالشمس؛ إنهم من ربيع الحياة في الصميم.

وفيما وراء الشاطىء، في ريو دي جانيرو، في مدن برازيلية أخرى وفي الريف توجد نساء هرمات يفكرن بهؤلاء الشباب ذوي الخطيبات المتيّمات، والزوجات اللواتي سيتيتم أولادهن غداً. الحياة تدعوهم. ولكن لا، يا صديقي. على صدورهم تطفو قطعة من علم ممزق، شعار شعب كامل، شعب يطلب، من خلال يأسه وأمله، خبزاً وعدالة وثأراً. إن تعاسة الشعب هي أكبر من جمال الحياة. سيكيرا يمشي في المقدمة، يتبعه نيوتن برادو وادواردو غومس، ضباط، جنود ومدني واحد.

وكتب سكويرا على مزقة العَلم التي يحملها على صدره، بضع كلمات على سبيل الذكرى لخطيبته. وكتب كاربنتر على مزقته، جملةً لأهله، وكان المدني «كوْشيّاً» يُدعى أوكتافيو كوريّيا. ولما كان مروره عابراً من ريو، فلم يكن يهمه شيء من كل هذا. وكان هذا الرجل، قد التقى على شاطىء كوبا كابانا بالرجال الـ ١٧ الذين كانوا يتقدمون، فسألهم:

ـ إلى أين تذهبون؟

ـ إلى الموت.

ـ لماذا؟

ـ لنساعد على انقاذ البرازيل.

ـ اذهب معكم إذن.

فأعطيت له بندقية، وتقدم هو أيضاً.

لقد أصبحوا ثمانية عشر. ولكنهم، يا صديقتي، كانوا بالحقيقة ألوفاً، كانوا ملايين، ذلك لأن هذا المدني الذي انضم إلى الجنود، يمثل جماهير الشعب، يمثل الكوشوز في ريو غراندي، يمثل رجال غابات الصنوبر ومروج البارانا، رجال سانتا كاتارينا وماتو غروسو، يمثل الفلاحين المحنيّ الظهور في مزارع البن والكاكاو، في الأمازونيا، يمثل أولئك الذين يعذبهم الجوع في المدن، وأولئك الذين يُستثمرون في الريف. إن هذا المدني يمثل الشعب، يمثل ألوف وملايين الرجال.

لم يبق الجنود بعيدين أبداً. آثار خطوات على رمال كوبا كابانا. على هذا الشاطىء الأنيق، حيث، في أصباح الصيف، تبتسم نساء بثياب البحر لرجال أغنياء يرتاحون من بطالتهم اليومية، على هذا الشاطىء اللامع والرياضي، حيث يتحرك أناس أنيقون وسطحيون، على أغنى وأجمل وأكثر شواطىء أميركا الجنوبية أناقة، سيقوم شعب البرازيل بحركة بطولةٍ وجمال وسيرفع احتجاجه ضد أعدائه. وقليلاً ما يهم ان يتمرغ غداً أسياد السلطة على الرمل اللدن، متجاهلين رغبة الشعب كذلك. قليلاً ما يهم، ذلك لأنه سيكون أيضاً تحت أجسامهم المترهلة، الدم الذي سكبه الشعب، هذا الدم الذي يولد منه في كل يوم مناضلون جدد. غداً سيقوم هذا الشاطىء، هو أيضاً، بمهمته الانسانية. سيأتي إليه الأولاد ويلعبون على رماله؛ وسيرتاح الشغيلة فوقه من عناء عملهم، وسيتمتع الفقراء، برماله. ولن يكون أعداء الشعب هناك. ولن تكون كوبا كابانا أكثر الشواطىء أناقة، شاطئاً للمترفين، بل ستكون شاطئاً للشعب. عندها فقط يستطيع البحر أن يغسل آثار الدم التي تركها رجال الحصن الثمانية عشر على رماله. ان يوم الخامس من تموز هذا هو بداية سير طويل للشعب، يا صديقتي.

إنهم يتقدمون. إنهم ثمانية عشر رجلاً، سبعة عشر جندياً ومدني واحد. ان شعباً بكامله يمشي على شاطىء البحر. وصوّب الجنود الأعداء سلاحهم نحو القلب، نحو مزق العلم.

عندها فهم البحر وظل جامداً، لا تتخلله أية موجة ولا أية حركة،

وأصبح الرمل ملكاً للرجال. وتطلع البحر، سوف يحدث شيء ما يدوم ذكره ويخلد كالبحر نفسه.

وتقدم الرجال، تقدموا مبتسمين. واندفعت طلقات نارية، أولى، وتلتها الألوف، طلقات رشاشات وطلقات بنادق. وسال الدم، وحُفرت كلمة بحروف قانية على شاطىء كوبا كابانا: حرية.. إلى الأبد، يا صديقتي.

- ٢ -

صديقتي. ادعي جميع الناس إلى قربنا على الرصيف، ادعي البحارة، ادعي عمال شحن البواخر، ادعي عمال الآلات الرافعة ونزلاء الفنادق، ادعي أولئك الذين يملأون ويفرغون السفن، ادعي الطيار والجذاف من على قاربه السريع، ادعي النساء اللواتي يمررن، ادعي الاغنياء والفقراء، الانيقات والقبيحات، أولئك اللواتي يملكن عائلة سعيدة أو اللواتي يعشن في التعاسة. ادعي العمال، ادعي الفلاحين الذين يذهبون إلى السوق حاملين غلالهم، ادعي سائقي الشاحنات، ادعي الثوريين الذين يعقدون اجتماعات، ادعي البحارة السوفياتيين الذين مُنعوا من الهبوط من سفينتهم، والذين سَحقوا حديثاً، في بلادهم البعيدة، يا صديقتي، قتلةً دنيئين؛ نادهم جميعاً، يا صديقتي، بصوتك الحنون، لانني أود أن أحدثك عن صليبية أبطال البرازيل، خلال البامبا والسرتونات والصحارى والجبال والأنهار والمدن. أود ان أحدثك عن طابور برستس. انها أعظم مأثرة سلاح لشعب، انها أعظم ملاحم أميركا الحديثة، أشدها قوة وأكثرها أسى وأثقلها وزناً. ان شاباً عبقرياً، لواءً في السادسة والعشرين من عمره، يرسم على خارطةٍ دروباً جديدة لشعب، ويفتح مع جنود طرق التحرر للبرازيل.

إن رحلة الستة والعشرين ألف كيلو متر هذه، التي اجتيزت من التاسع والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٢٤ حتى الثالث من شباط سنة ١٩٢٧، ليست خارقة فقط، يا صديقتي، لان غابات عذراء قد اجتيزت وافتُتحت طرق في الكاتنغا وفي الصحراء، بل لانها فتحت دروباً في التفكير البرازيلي. من ريو غراندي دوسول حتى ولاية مارينياون الأمازونية، من بارانا إلى التوكنتاس، من باهيّا إلى ماتوغروسو، من ميناس إلى غواياس، خلال

البرازيل الهائجة كلها، كان الطابور في أي مكان يمر، يجعل من المسائل المنسية، قضية الساعة، يكشف النقاب عن مآسٍ كانت تبدو مستعصية الحل، وعن شقاء مزمن كان يحركه جنود الشعب عند مرورهم. وكان الشعب يسارع، يا صديقتي، في المدن، في القرى، في المزارع، مقدماً الخبز والأثمار للجنود، وكاشفاً لهم عن آلامه. ولم يكن هؤلاء الرجال الذين ثاروا في ريو سنة ١٩٢٢، في سان باولو وريوغراندي سنة ١٩٢٤، على صلة بواقع البلاد إلا الآن، وهم يجتازون داخلها ويشاهدون كم هو البؤس، بؤس الشعب اللامتناهي، عظيم، عميق ومؤلم. وبفضل هذه الرحلة، يا صديقتي، التي رسمتها ونفذتها عبقرية برستس، تعلم الشعب دروس ثورة. وتعلم الجنود والرؤساء ولويس كارلوس برستس من الشعب مسائل البرازيل. وان الماركسي الذي هو لويس كارلوس برستس اليوم، ليتحدر بخط مستقيم من رحلة الطابور. لقد قسم ووزع السرتونات(٢)، ألغى أعمال المصادرات اللاشرعية التي كان يستولي بواسطتها الملاكون العقاريون على أراضي صغار الفلاحين؛ حرر المساجين البريئين من أغلالهم؛ ولقد التقى بالكانغاسيروس، قاتل معهم وتعرّف إلى وجههم الحقيقي. ومن كل معركة استخلص درساً: لقد كان الشعب يفيد من الطابور، والطابور يفيد من الشعب.

وان أساطير الطابور التي لا تحصى تعيش، اليوم أيضاً، في «السرتونات» الريفية، على شواطىء سان فرنسيسكو، في سهول البياوي، في النجد المركزي المملوء بالأسرار، وتنعش السرتانيجوس(٣). وفي العديد من المرات سمعت فلاحين، سائقي سيارات، جاغونسوس(٤)، يروون قصصاً يظهر فيها الأبطال العريقون في القدم جنباً إلى جنب مع أبطال طابور سيكيرا ودوترا وتريفينو وفي الليالي الطويلة المنجمة، قرب الانهار، يروي الرجال إلى الأولاد السرتانيجوسيين، الذين كانوا يدلون العميان والكانغاسيروس إلى طريقهم،

(٢) جمع سرتون.
(٣) سكان السرتون.
(٤) فلاحون فقراء يتعاطون اللصوصية.

ملحمة الطابور، ملحمة هذا الطابور الذي كان تارة مؤلفاً من ألف رجل، وتارة من ألف وخمسمئة، وأحياناً مما لا يكاد يبلغ الثمانمئة، والذي كان يحمل معه الحرية. وعندما لم يكن الطابور يمر، كانت فرق الحكومة تتمتع بكراهية الشعب. وعندما كان الطابور المخلّص يذهب، كان الظلم والإرهاب الحكوميان يعاودان إلى الظهور، ولكن كان خلفهما يكمن الأمل. سيأتي يوم يعود فيه الطابور، يا صديقتي، إلى الأبد، وتعود معه الحرية، وتعود معه العدالة والحب والبهجة. وقبور الطابور ـ قبور مسكينة محفورة في فترة ما بين معركتين، أثناء توقف قصير قبل متابعة التقدم ـ منثورة من أول طرف في البرازيل إلى آخر طرف. وعلى ساحات المدن الكبرى، قامت نصب مرتفعة على شرف ابطال شرعيين، ولكنها قامت كذلك على شرف أبطال مزعومين؛ ويتوقف سكان المدن أمام هذه النصب الرخامية، ذاكرين مآثر تملأ قلوبهم بالثقة.

ولا يوجد في السرتون، يا صديقتي، نصب غير قبور جنود طابور برستس. لقد غطاها العشب. وأصبحت الصلبان رمماً، واختفى الكثير منها. ولم يبق بالاستطاعة قراءة الاسماء المختفية: ان الأموات هم مجرد جنود الشعب. ولم يكن من المستحيل مع هذا ان لا يكون الجنود قد دُفنوا في هذه الأمكنة تماماً، بعد ان نالوا مدالية، هي قذيفة في الصدر. بل ومن المعقول ان يكون قد دُفنوا أبعد من هنا. ولكن قليلا ما يهم هذا، يا صديقتي. فالاسطورة تقول بأن جندياً من الطابور يرقد رقاده المأتمي في هذا المكان. ويذهب السرتانيجوس لزيارته. ان هذه الكومات الترابية هي بالنسبة إليهم نصب مجيدة، أسباب للأمل. ذلك لأنه سيأتي يوم ـ وهم على ثقة من ذلك ـ يعود معه الطابور: وستسمع الانهار والجبال والرجال صخب الخيول وأزيز الرصاص. وسيأتي مع الطابور الحب والحرية، العدالة والبهجة. وعلى رأس الطابور سيعود **فارس الأمل**.

وعندما كان يبدو وجه برستس الملحمي، كان الفلاحون يتركون فؤوسهم وسككهم. لقد كان نقيباً في الوقت الذي ثار فيه مع جنوده، ثم

أصبح في ما بعد زعيماً، ثم لواءً؛ ومن معركة إلى معركة، ومن نصر إلى نصر، قاد رجاله بشجاعة رائعة. وكان يحمل باحدى يديه العدالة، وبالاخرى كان يحمل الحرية. وكان بصورة خاصة فارساً للأمل. وان شعب سرتون اليائس، شعب الشعراء هذا، الذي كان قد اندفع نحو الثورة، اطلق عليه هذا الاسم، يا صديقتي، الذي يشكل بيتاً من شعر الحب.

كان الشعب، بعد ان تغذى بيأس انطونيو كونسيليرو، يتغذى بأمل الأب سيسارو الحزين وبعدالة لامبيون الانتقامية. وقد أطلق أوكليدس دا كونيا، وقد كان ممن شاهدوا لفترةٍ من الزمن احدى مآسي السرتون، صرخة احتجاج قبل ذلك بعدة سنين، ولكن شيئاً ما لم يتغير. وكان يأس السرتون يتفاقم. وكان الأهالي التعساء، يصنعون، من خلال رغبتهم بالتحرر، الكانغاسيروس والقديسين والانبياء. وفي أسواق المنطقة الشمالية ـ الشرقية، كان الفلاحون ينشدون الـ (A.B.C.) [5] التي ألفها الجاغونسوس الشجعان، اللصوص الخارجون على القانون. وقصد الوعاظ، وقد أرهقهم البؤس والجوع، السرتونات، وجعلوا يتنقلون من مزرعة إلى مزرعة ومن قرية إلى قرية. ولما لم يكن للسرتانيجو أقل ثقة بالمستقبل، فقد أخذ يخترع الشياطين والقديسين.

ولكن ها هو فجأة يترك منجله، فأسه وسلاسله. وبدلاً من المنجل، أصبح لديه الآن بندقية، وأصبح لديه رشاش بدلاً من سكة الفلاحة. ومشى على رأس الطابور فارس الأمل. لقد اخترق السرتون كالاعصار. وخلقت السرتون، من خلال مشاكلها الحادة، هذا الرجل، وتعرّف لويس كارلوس برستس إلى البرازيل في كامل عريها. ومن ذلك الحين تغيرت حياة السرتون، كما تغيرت نظرة برستس إلى الحياة نفسها.

إن الطابور هو أسمى فترة من فترات تاريخ بلاد تفتش عن نفسها. انها الفترة التي تمر بالبرازيل خلالها مسائل لا تعرف لها حلاً. الرجال الثائرون في

---

(٥) نوع من القصائد الشعبية البرازيلية.

الثكنات لا يطلبون سوى تغيير الرئيس. انهم ما زالوا لا يعرفون كيف يحلون مسائل البلاد. السرتانيجوس يتحولون إلى كانغاسيروس بدلاً من ان يصبحوا ثوريين. وساعد الطابور بدوره، بملحمته الخالدة، في تطور العقول. ومنذ ذلك الحين، سوف يقلع السرتانيجوس عن تضخيم صفوف الجاغونسوس، سوف يصبحون جنوداً للحرية. ان الرجال والضباط والجنود والمدنيين، القادمين من المدن، والمتطوعين في صفوف الطابور والمواجهين لأشق مشاكل البرازيل، كانوا يشعرون بأن أمر حل هذه المشاكل يعود إليهم. وبدون الطابور، لم يكن من الممكن حصول التحالف الوطني التحريري لسنة ١٩٣٥. وبدون الطابور ربما كان بمقدور برستس ان يقوم بثورة سنة ١٩٣٠، ولكنه كان من المحتمل ان لا يكون قد أصبح في أيامنا هذه سوى لواء من ألوية الجيش. لقد مكنه الطابور، كما مكن جنوده ومكن البرازيل كلها، من مشاهدة المأساة البرازيلية على حقيقتها. لقد فتح الطابور دروب الثورة البرازيلية.

لقد جاءوا من ريو غراندي، يا صديقتي. لقد حقق نقيب مجهول من فرقة الهندسة، أصبح فجأة لواءً، ضرباً رائعاً من الشجاعة، نهاه عن القيام به الرؤساء الثوريون أنفسهم. وفي بارانا تشكلت قوات برستس وميغيل كوستا، ومنها ابتدأت الرحلة الكبرى. لقد كانت البرازيل هناك أمامهم، وذهبوا ليشعلوا الثورة في كل مكان. ولم يكن هؤلاء الرجال قد بدأوا يعرفون، في ذلك الوقت، ماذا كانوا يريدون. وفيما لو كانوا قد سئلوا عما كانوا سيقومون به في حالة انتصار الثورة، لأجابوا بعبارات بليغة وببضع شعارات، ما كان بمقدورها ان تتناسب بشيء مع ضروب البطولة التي سبق لهم ان حققوها. وانهم لم يفهموا ما كانوا يريدونه سوى في نهاية الرحلة. فمنذ سنة ١٩٣٠، قدم التحالف التحريري مطالب واضحة للبلاد، ناتجة عن تجربة الطابور. وفي سنة ١٩٣٠ كذلك، قبل وقت ليس بالقليل من التحالف التحريري، كان رئيس الطابور، برستس، قد أذاع بياناته على الأمة. ولقد تفهم، خيراً من أي انسان، مشاكل البلاد وعرف الوسائل الحقيقية لحلها.

وخلال السير، لم يقدم أي انسان أكثر منه، معارفه للآخرين. ولم يتعلم أي انسان أكثر مما تعلم هو.

وتقدم الطابور عبر البامبا والسرتونات والصحاري والغابات العذراء، يا صديقتي. وكان الرجال الطويلو اللحى والشعر، يرتدون الجلد كرعاة البقر، ويحتذون أحذية السرتانيجوس نفسها، وكانوا يذكروننا باللصوص، بالأنبياء، ويشبهون شعب داخل البرازيل. ولكنهم كانوا أنبياء من نوع جديد، فما كانوا يحملون الموت أو انتقام اليأس. لقد كانوا يحملون الحرية، يحملون حلم قيام برازيل أفضل، أكثر جمالاً وأوفر عدالة.

لقد كان طابور برستس يحمل معه رغبات وآمال وأحلام ومشاكل البرازيل. وان ملايين من الرجال، كانوا قد وضعوا فيه كل املهم، ما كانوا يعيشون إلا من أجله. وان فرقاً جيدة التسلح، جيدة التجهيز، جيدة المرتبات، وتفوق الطابور بعشرين مرة، هُزمت مرة، مرتين، عشر مرات، ألف مرة. ان كل يوم كان يشاهد معركة تستعر، وكان يشاهد انتصاراً. لقد كان للويس كارلوس برستس، يا صديقتي، عبقرية الجنود العظماء. وان الاستاذ الذي لم يكن يفهم مسابقاته عن الستراتيجية العسكرية، والذي كان يعطيه علامات عاطلة، كان على حق. ان ثمانية عشر لواء قد هُزموا بفضل ستراتيجية الاستاذ. ففي سرتونات البرازيل، أحدث تلميذ المدرسة العسكرية القديم ثورة في الستراتيجية! كما فعل في أيامنا هذه الألوية السوفياتيون الشباب. إن الشعب، يا صديقتي، هو ثوري بصورة خاصة، وقد صُنع رؤساؤه لكي يغيروا علم العالم وحياته. واستطاع بطل الشعب، على رأس رجاله الألف، وبفضل كفاءته العسكرية، ان يستحوذ على اعجاب أكثر الألوية الهرمين ثقافة.

لم يكن الأمر يتعلق بالتدليل إلا على الشجاعة في المعارك وعلى المخاطرة بالحياة في كل آونة. لقد كان يتوجب تهيئة تصاميم للانتصار، والشعور بالفترة الخطرة وايجاد الوسيلة للخروج منها. لقد كان هذا الصبي ذو الستة والعشرين ربيعاً يعرف فن الحرب كأكثر الألوية تجربة. وما كان بمقدور

أكثر المقامرين حماسة، وأكثر الألوية مقدرة، ان يراهن بفلس على ان الطابور سيستطيع السير مسافة مئة كيلومتر. لقد كانت تقف في وجهه قوى تفوقه إلى ما لا نهاية، كما كانت تواجهه عدا ذلك: الطبيعة الوحشية والجوع والأمراض ووحوش الغابة العذراء والأنهار غير الصالحة للملاحة وجبال لم يكن قد اجتازها إنسان والأراضي العوسجية والكاتنغا ـ ولم يكن هناك أية درب. وسار برستس مع الطابور، مسافة ستة وعشرين ألف كيلومتر.

لقد انتصر على جنود الحكومة، على ثمانية عشر لواء، على فرق تفوق الطابور بعشرين مرة. لقد انتصر على الجوع، على الأمراض التي لا تحصى وعلى الحماية المجهولة. لقد انتصر على الجبال، على الانهار، على الغابة العذراء وعلى الكاتنغا التي لا تُخترق. لقد انتصر على يأس السرتون. لقد كان اسمه يشجع حتى أولئك الذين ما كانوا يؤمنون بشيء. وكانت خططه العبقرية تهب الثقة بالنصر لأولئك الذين كانوا يذهبون للقتال. وكانت شجاعته الهادئة مثالاً لأولئك الذين كانوا ذاهبين إلى الموت. وكانت إرادته في التعلم أملاً من أجل المستقبل.

وكان أمل وثقة البرازيل يتوطدان حول الطابور، كلما كان هذا يتابع تقدمه خلال تتابع الأيام. وأخذ المستقبل يتفتح الآن أمام أولئك الذين كانوا يائسين. يا له من طابور من نار، من نار الأمل! يا له من طابور من فولاذ، من فولاذ الشجاعة! يا له من طابور من عدالة ومن حرية. وكان برستس على رأسه. وكان السرتانيجوس يقولون، يا زنجيتي، إن في مقدمته فارس الأمل؛ وكان رجال الطابور، المتعبون، الوسخون، الجياع، يتقدمون. لقد كانوا يحملون المرضى والجرحى، ولكنهم ما كانوا يفكرون بالتوقف. وتبدو لنا الحرية، يا صديقتي، أحياناً، هي أيضاً، خاضعة وسجينة، ولكنها حتى في هذا الوقت لا توقف سيرها. انها تسير دوماً إلى أمام، وليس ظلام اليوم سوى النذير بصباح وضاء: تلك هي رسالة الطابور.

واليوم أيضاً يجتاز رجال الطابور سماء البرازيل، فوق السرتونات وفي

هدير الانهار، في ضجيج الشلالات، يتحدث عنهم السرتانيجوس، وهم يفكرون ببرستس. لقد حمل هؤلاء الرجال الذين اجتازوا البرازيل، الأملَ للتعساء. وفي أحد الأيام سيعودون، وعندها سيهبون الحرية إلى الأبد للأشخاص المحررين.

وليس بعيداً هذا اليوم، يا صديقي.

- ٣ -

عندما كان لويس كارلوس برستس، يا صديقتي، قد أبلّ من مرضه، كانت ثورة سنة ١٩٢٢ قد مُنيت بالاخفاق. وكان رئيس الجمهورية، ابيتاسيو سووا، يتهيأ ليسلم الحكم إلى الرئيس المنتخب، آرثور برناردس: وهو رجل لا يعرف الضحك. وكان جاكسون دو فيغاريدو هو ساعده الأيمن، يعاونه في ذلك بضعة قتلة بغيضو الذكرى: أعضاء «ميليشيا» دو غرافو فرمليو، أول منظمة فاشية في البرازيل. وكان هؤلاء الرجال، وقد قاموا بحملة برناردس الانتخابية، حفنة من اللصوص والقتلة والكسالى، ويضع كل منهم في «عروة» سترته زهرة قرنفل حمراء. وكان جاكسون دو فيغاريدو، وهو أحد قراء سان توماس وأحد تلامذة سان الياس دو لويّولا، رئيس هذه العصابة الروحي. وفي ذلك العهد كان الشعب يطلق مختلف كنى الهزؤ والسخرية على المدافعين عن برناردس. ففي ذلك الوقت ظهر مارشال ـ الظلام، ماجور ـ البندقية الرشاشة، اللواء رابا ـ جوز الهند. ان حملة برناردس الانتخابية، التي جرت في جو من التزوير، من تهديد المعارضة ومن فساد جميع المترددين، دفعت شبيبة الجيش نحو ثورة سنة ١٩٢٢. وقد أثار تحرير برناردس إلى رئيس فريقه البرلماني، ذلك التحرير الذي يوجه فيه إليه الأمر بشراء الجيش كله، جميع الألوية، لان «الجميع معرضون للبيع»، كما قال، أثار هذا التحرير اضطرابات واسعة بين العسكريين في جميع أنحاء البلاد. وأقام النادي العسكري، وهو الساهر على تقاليد وكرامة الجيش، دعوى ضد التحرير الذي أنكر برناردس ان يكون كاتبه. ولكن الاختصاصيين أثبتوا ان التحرير صادر حقاً عن مرشح رئاسة الجمهورية. ويظل هذا الحادث مرتبطاً مباشرة بثورة سنة ١٩٢٢، وبالنهاية المسرحية الفاجعة المؤثرة للحصن.

وقرر برستس، وقد أبلّ من مرضه بالتيفوس، ان لا يحضر حفلة انتقال السلطات. وشعر كل ضابط كان يضطرم في جنباته حس بالكرامة، بانه قد مُس بالشتائم التي وجهها برناردس إلى الجيش، وأخذ يذكر الدم الذي سكبه ملازمو وجنود كوبا كابانا. واستطاع برستس، بعد ان حصل على مأذونية، ان يحمل القيادة على إلحاقه بحصن ريو غراندي دوسول، حيث سوف يعمل بصفة مفتش على بناء الثكنات في داخل الولاية. وكان بناء هذه الثكنات، فضيحة من أعظم فضائح ذلك الوقت. فقد حُوّلت المخصصات التي صودق على صرفها عما خصصت له بواسطة ممتهني السياسة، وكانت المواد المستعملة أدنى قيمة من تلك التي كانت مسجلة في الفواتير. وكان السياسيون والمفتشون والمهندسون شركاء في الجرم. وفضح المهندس لويس كارلوس برستس، مرةً، مرتين، ثلاث مرات، التحولات الفاضحة للمخصصات، للمواد، فضح العمليات الدنيئة التي حُققت في ما يتعلق ببناء هذه الثكنات، الموضوعة الآن تحت اشرافه. ولكن لم تحظ هذه التقارير بأي اهتمام. فأبرق، ولم يتلق جواباً. فطلب ان يُسمح له بالذهاب إلى ريو ليقدم تقريراً شفهياً ويثبت اتهاماته. فلم يُجب إلى ذلك، ولكنه ذهب مع هذا. ولم يجد الوزراء ورجال الأعمال من حل آخر يتعدىَ إبعاد نقيب الفرق الفنية الشاب عن مركز عمله. فأُرسل برستس لقيادة بناء قسم من الخط الحديدي الذي كان عليه ان يصل، على خط ريو غراندي دوسول، مدينة سانتو انجلو بمدينة كومنداي.

وتعرّف برستس إلى الرشوة المتفشية في الادارة؛ وشاهد كيف تبذّر أموال الشعب، شاهد السرقة يصار إلى معاطاتها بالاتفاق مع قانون الحكومة؛ وعرف بان شكايات المواطنين تتجاهل من قبل المكاتب المختصة، ويعيرها المسؤولون إذناً صماء. لقد ناضل ضد أولئك الذين كانوا يحكمون في سبيل مصلحتهم الشخصية. وها هو الآن، في سكة الحديد، وحيداً مع ثلاثمائة جندي. لم يكن لديه أي ضابط لمساعدته؛ فمن الفجر إلى الغسق، سوف يشتغل اثنتي عشرة ساعة في اليوم، على طريق سكة الحديد؛ مسؤولاً عن كل شيء، واضعاً التصاميم، معلماً الجنود: مهندساً وشغيلاً. وأصبح لويس

كارلوس الآن، كأبيه الملازم انطونيو بربرا بـرستس، على اتصـال مبـاشر بجنوده. انه، وهو يعمل الآن في بناء سكة الحديد، كان مساوياً لجنوده في وسط البامبا. وكانت ظروف الجنود واضحة. فمن بين الثلاثمئة رجل، كان فريق صغير يعرف القراءة. وكان أكثرهم، وقد حطمتهم الفاقة، أميين ولا يملكون أية فكرة عن العالم. ولم يكن برستس يرتاح عند انتهاء يومه، المؤلف من اثنتي عشرة ساعة عمل على خط السكة، تحت وطأة شمس الصيف، فلقد خلق وأدار، وحده، مدرسة لجنوده. انه المدير والاستاذ والمعيد. عندها أخذ الجنود، يا صديقتي، ينادونه: «والدنا»! وهكذا بدأت تلك المودة مع جنود البرازيل، مع شعب البرازيل الذي يتزايد يوماً بعد يوم. وفي أقل من ثلاثة أشهر، تعلم تسعون بالمئة من الجنود القراءة والكتابة. انهم الآن يستطيعون فهم نقيب الفرق الفنية الغريب هذا، الذي كان خلواً من كل مظاهر التصنع، التي كثيراً ما ترافق حامل «الشرائط»، والذي كـان يُنظـر إليـه كجنـدي مثلهم. تلك كانت ميزته العجيبة. ان برستس، الانساني والعالم، هو والد لجنوده. انه رئيسهم، والدهم ورفيقهم ويتحدث عنه جنود الكتيبة، والدموع في عيونهم. ولم يكن يوجد بالنسبة إليهم شخص أفضل منه، أكثر علماً، أكثر عدالة وأعظم أخوّة.

في ذلك العهد، يا صديقتي، أخذت القوى الثورية في البلاد تتحرك من جديد. وخلال سنة واحدة من الحكم، كانت حكومة برناردس قد طمست جميع تجاوزات الادارة على القوانين. وازدادت الأخطاء الحكومية خطورة، وأنشىء نظام بوليسي في البلاد. وجعل الثوريون يتـآمـرون مـن جـديـد، وضمت هذه المؤامرة في كنفها قوى سياسية هائلة. وابتدأت التهيئة للثورة الجديدة بصورة محمومة. وكما في السابق، كان برستس في وسط الثوريين: لقد تعرف إلى الفضائح الإدارية وإلى حياة الجنود الصعبة.

انه لنقيب غريب، لويس كارلوس برستس هذا، يا صديقتي. لقد كان يفكر بانه كـان عليـه ان لا يثـور، بصفتـه نقيبـاً. ألم يقسم يمين الإخلاص للسلطات الحاكمة! فلكي يريح ضميره، طلب مأذونية وأخذ يقوم باجراءات

لمغادرة الجيش. وبانتظار صرفه من الخدمة، جعل يشتغل كمهندس مدني. فأنشأ مراكز الانارة الكهربائية في مدن دو كوشو، سانتو أنجيلو، وسانتياغو دوبو كيرايو، وغيرها. وتوصل، بقيامه بهذا العمل، إلى حل عدة مسائل تكنيكية. لقد كان عليه ان يجلب من مكان عظيم البعد تياراً كهربائياً عالي التوتر. وقام بالأعمال، بالحزم والبراعة والسرعة المعروفة عنه. ذلك كان الشكل الذي يفهمه لويس كارلوس عن الإدارة.

وهب الثوريون في سان باولو، صانعين من جديد انتفاضة شبيهة بانتفاضة الخامس من تموز وكان ايزيدورو لوبس وميغيل كوستا، على رأسهم. فطلب برستس مجدداً صرفه من الخدمة. ولما لم يأت الجواب، لم يكن بمقدوره الانتظار أكثر مما فعل. وخيمت الثورة على البلاد، وازداد الاستياء. وفي التاسع والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٢٤، ثار برستس مع كتيبة عمال السكك الحديدية في سانتو انجيلو، أولئك الذين كان قد علمهم القراءة. وترك المهندس والاستاذ والرجل النظري، ترك في هذا اليوم أدوات عمله، ليرتدي ثوبه العسكري، ويُظهر للبلاد وللعالم، في الوقت نفسه، عبقريته العسكرية وشجاعة شعبه.

بعد مرور سنتين على ثورة سنة ١٩٢٢، كان اللواء ايزيدورو دياس لويز قد استولى على قيادة الفرق، في سان باولو؛ وكان يقف إلى جانبه فريق من ضباط الجيش ومن الشرطة العسكرية في ولايتي سان باولو وماتوغروسو، كان من بينهم ميغيل كوستا والاخوان «تافورا» و«جواكين» و«جيارز» و«باديليا» و«مسكيتا» و«منديس تيشيرا» و«ادواردو غوميس» ـ أحد الذين ظلوا أحياء من حصن كوبا كابانا ـ وكاباناس، ورؤساء هرمون مثل جويا أوفرنسيسكو. ومن الخامس حتى السابع والعشرين من تموز، سيطر هؤلاء على المدينة. وكان جواكين تافورا، المحبوب من الجنود، الشجاع والمناضل، روح الحركة. وبعد ان جُرح جرحاً خطراً خلال هجوم قوى الثوار ضد كتيبة الشرطة الخامسة، قضى نحبه، وشكل موته بداية لانهيار الثورة في سان باولو. ان «ايزيدورو»، الذي لم يكن يفهم ان بمقدوره ان يجد

عوناً له في جماهير سان باولو العمالية، والذي خشي مغبة تسليح الشعب، منع القوى الثورية من التزايد. وفي ذلك الوقت، كان تحت أمرة « ايزيدورو » في سان باولو ما يقرب من ستة آلاف رجل. وكان جنود الحكومة الثمانية عشر ألفاً، الذين يفوقونهم بثلاثة أضعاف، يحاصرون المدينة من الشمال والشرق. وعدا ذلك، كان أكثر من عشرة آلاف رجل يتقدمون أو يتجمعون ليكملوا تطويق المدينة. وكانت طوابير تهبط من « ميناس جيرايس » نحو منطقة الشمال ـ الغربي. ومن ماتو غروسو في الجنوب الغربي، جاءت كتيبة الحرس العسكري. وتجمعت كتيبة « أزفيدو كوستا » في « ايتابيتينغا »، لتهاجم المدينة من الجنوب. وبين الفرق التي كانت على استعداد للقتال وتلك التي كانت في طريق معاودة التجمع، كانت حكومة « برناردس » تملك في ضواحي سان باولو ما يقرب من ثلاثين ألف رجل يواجهون ستة آلاف ثائر من نوار « ايزيدورو ». فقرر الرؤساء الثوريون ان يتخلوا عن المدينة وان يتوجهوا، مع فرقهم، نحو النقاط التي يمكن متابعة الثورة فيها. وفي الليلة الواقعة بين السابع والعشرين والثامن والعشرين من تموز، غادرت القوى المتمردة سان باولو، ووصلت، وقد سارت باتجاه خط السكة الحديدية، إلى مدينة بوري.

وستشكل ثورة الأسطول، بعد ذلك ببضعة أشهر، هي أيضاً، اندحاراً جديداً. ان السفينة « سان باولو » هي التي سترفع وحدها علم الثوريين الأحمر. ولما لم تحذُ السفن الأخرى حذو « سان باولو »، حولت هذه، بعد ان تبادلت طلقات المدفعية مع إحدى قلاع خليج ريو دي جانيرو، اتجاهها نحو الجنوب، وقد قرر من عليها ان يسلموها إلى سلطات الأوروغواي، في مرفأ مونتيفيدو.

ووصل « ايزيدورو » بسكة حديد « باوليستا » إلى « بوري ». ومن هناك، قررت الفرق الثورية ان تتوجه شطر مصب « الايغاسي »، حيث بمقدورها ان تهدد ثلاث ولايات: البارانا، السانتا كاتارينا وخاصة ريو غراندي دوسول، حيث كان ينتظر قيام انتفاضة بين آونة وأخرى. ومن بوري، توجه « ايزيدورو » مع فرقة نحو مرفأ « جواكين تافورا »، على الشاطىء الشمالي لنهر

بارانا ، بسكة حديد « سوروكابانا » . ولكن السكينة لم ترافق الانسحاب ؛ فان الجنود الخاضعين لقيادة الماجور « جوريس تافورا » ، والذين يشكلون جناح القوى الثورية ، اشتركوا بسلسلة معارك في « فيتـوريـا » ، وفي « اركـايـو » و « بوتوكاتو » ، فيما كانت قوى المؤخرة التي يقودها اللواء « ميغيل كوستا » ، تقاتل في سلتوغراندي ، في باراغوسو ، في آغوا كلارا ، في أنديانا ، في سانتو أناستاسيو وفي كوواتاوكيايو .

وعند وصول الثوريين إلى « جواكين تافورا » ، اضطروا لمواجهة القوات الحكومية التي يقودها الزعيم « جرمونو شان » ، والمعسكرة على الضفة اليمنى للبارانا . وحاول ايزيدورو على رأس فرقة الاستيلاء على « ناتو غروسو » . وهاجم المدينة من ناحية « تري لاغواس » ، حيث تنطلق سكة حديد شمال ـ غربي البرازيل . ولكن المقاومة التي اعترضته حملته على الإقلاع عن عزمه ، واضطرته إلى التوجه شطر « ايغواسو » . فهبط البارانا وذهب ليقيم مركز أركان حربه على الضفة الشمالية ، في منطقة « غويرآفوز » في إيغواسو .

وتتابعت المعارك ، وهُزمت القوات الحكومية التي كانت تحتـل مـرفـأي جاكاريه وذ . كارلوس ، والتي يقودها الزعيم بريكل دو ألبوكيركي ، كما هزمت فرق غويارا ، التي يقودها النقيب غارسيا فييجو ، الذي لم يكن مزوداً بسوى فرق صغيرة من حرس الطليعة ، المسلحين ، بصورة خاصة ، بالسكاكين والمسدسات ، وغير المزودين بأية بندقية أو بأية قطعة من المدفعية .

في الوقت الذي تمركزت فيه القوات الثورية في منطقة ايغواسو ، على استعداد لبدء حملة بارانا ، كان يبلغ عددها ثلاثة آلاف رجل مسلح ، أي نصف العدد الذي كانت تملكه ساعة خروجها من سان باولو . وكان الباقون قد ماتوا في القتال عبر الطرق ، هربوا أو سقطوا مرضى . وانتشر رجال إيزيدورو الثلاثة آلاف في منطقة واسعة . انهم سيئو التسلح ، منهوكـو القوى من السير ومن القتال . وتقف في مواجهتهم فرق ارثور برناردس ، بعدد يبلغ أربعة أضعاف عددهم ، من جنود مرتـاحين ومـزودين بـالمدفعيـة الثقيلـة

ومدفعية الميدان والجبال، وبالأسلحة الأوتوماتيكية وبمئات الألوف من القذائف. كان ثلاثة ألوية مشهورون بأنهم أقدر مَن في البلاد، يقودون الاثني عشر ألف رجل هؤلاء، وهم: كاديدو روندون، الذي تُوج بالغار لنشاطه التبشيري الكاثوليكي بين الهنود، والذي يعرف المنطقة معرفة تامة، وقد سبق له ان تعرف إلى جميع المناطق البرازيلية الداخلية، والذي كان يُعتبر خير من يستطيع القتال على هذه الأراضي، وسيزفريدو وكواكنيو. وكان خط القتال يمتد على طول مئة ميل. وتتابعت المعارك خلال سبعة أشهر، دون ان يتوصل الحكوميون إلى القضاء على الفرق الثورية المزيلة. وجرى القتال في غوارابافا، وفي جبال ميديروس، خلال أربعين نهاراً وأربعين ليلة. ولم يكن رجال الحكومة الاثنا عشر ألفاً يكافئن ضد ثلاثة آلاف ثوري. وحاول برناردس ان يربح وقتاً. واقترح أحد رجاله، وهو نائب، وصديق للواء ايزيدورو، على رئيس الثورة اجراء مقابلة في ليبروس، في الخارج. وقد اغتنمت الحكومة فرصة هذه المفاوضات، التي كادت تتخذ شكل هدنة، لتعزيز قواتها. وكما كان من الواجب ان يُتوقع، لم يتوصل النائب وإيزيدورو إلى أيّ اتفاق. ولكن برناردس توصل إلى الغاية التي كان يهدف إليها. لقد حصل على الوقت اللازم لتعزيز قواته العاملة. وهو يريد ان يسحق قوات ايزيدورو، قبل ان يُتاح لطابور برستس، الذي كان قد غادر ريو غراندي، ان يتصل بالقوات «الباولستية»[٦]. وفي السابع والعشرين من آذار سنة ١٩٢٥، أحرزت القوات الحكومية انتصار كاتندوفاس، استولت على المدينة، ووجد جيش ايزيدورو نفسه في وضع شديد الصعوبة، لم يستطع التخلص منه إلا بفضل قوات لويس كارلوس برستس.

في ليل ٢٨ ـ ٢٩ تشرين الأول، اندلعت الثورة في ريوغراندي، في عدة نقاط من الولاية. فثار ضباط ورؤساء في الجيش على رأس جنود ومدنيين. وفي هذا الوقت، أثار برستس، هو أيضاً، عمال السكك الحديدية في منطقة ميسوس.

---

(٦) قوات سان باولو.

وبعد سلسلة من المعارك، اجتمع الزعيمان « هونوريو دوليموس » و « ريكانيتو »، واجتازا الحدود إلى الأوروغواي. وبعد فترة من الزمن في كانون الأول، سار جوليو بزيوس، على الطريق ذاتها. وصمدت فرق برستس وحدها وهي تقاتل في « ايتاكي » و « توباسيرتان ». لقد مرء على برستس شهران وهو يقاتل في منطقة ميسوس. وكان على علم بوجود ثوريين آخرين مسلحين في الجنوب وفي منطقة الجبال. ولكن هزيمة « هونوريو دو ليموس » و « زيكانيتو » ودخولها الأوروغواي، تركت برستس وجنوده الألفين (ذلك كان عدد جنود الطابور) وجهاً لوجه أمام عشرة آلاف وخمسمئة جندي حكومي. وقرر برستس أن يصعد نحو سانتا كاتارينا ويذهب للقاء قوات ايزيدورو. وطوّقه عشرة آلاف حكومي في منطقة نهر الأوروغواي العسكرية. وبحركة عبقرية حطم برستس الطوق، قاتل في كونسيسايو، في رامادا، في كامبوس نوفوس، هزم قوات اللواء لوسيو استيفس، وتبع مجرى نهر الأوروغواي حتى بورتو فليز. ودخل منطقة كونتستادو.

واستمرت حملة كونتستادو شهرين أيضاً. ولم يترك برستس، وقد وقع بين قوات اللواء بيم وقوات كلاوديو نونس، « ماريا بريتا » في أكمل نظام ممكن، ولكنه، وقد شق طريقه خلال منطقة اشتُهرت بانها لا تُخترق، قد توصل إلى خدع خصميه وإلى الالقاء بهما الواحد ضد الآخر. وقاتل بيم كلاوديو أحدهما الآخر ليلة كاملة. القتال دام بشكل مخيف، وكلّ من القائدين واثق بانه يقاتل قوات برستس. ولم يكتشفا إلا في الصباح الخطأ الفاجع الذي ترديا فيه؛ ولكن قوات برستس كانت قد أضحت بعيدة. وبذلك قام الزعيم، البالغ من العمر السادسة والعشرين، بثورة في فن لستراتيجية.

إن برستس، وقد عمل على اتصال فرقه بفرق الزعيم فيدانسيو دوميلو، قد شق طريقه على هذه الأراضي الخالية من الدروب وتوجه نحو منطقة ايغواسو، حيث جيش إيزيدورو وميغيل كوستا. وبعد عدة معارك وعدة

حوادث هرب، تقلص عدد الطابور إلى ثمانمئة رجل، لا يجدون ما يأكلون ولا ما يرتدون، غلاظ شعورهم تتساقط على اكتافهم، لا يملكون سوى القليل من السلاح، ويكاد لا يكون لديهم أي حصان. وكان برستس يفكر دوماً بمهاجمة مؤخرة قوات اللواء روندون، واجبارهم على ان تضع نفسها بين فرقة وفرق ايزيدورو. ولكن الانتصار الذي أحرزه روندون في كاتاندوفاس، ضد ايزيدورو، حال دون تحقيق هذه العملية. وفي هذا الوقت، أخذت فرق سان باولو تقاتل متراجعة تحت ضغط قوات حكومية تفوقها بعدة أضعاف. وعندما وصل برستس إلى منطقة ايغواسو، ذهب إلى ايزيدورو وإلى الرؤساء العسكريين الآخرين لمباحثتهم حول الثورة. وكان يُنتظر وصوله إلى «فوز» في «ايغواسو»، انتظار المخلّص.

وكانت البعثة العسكرية الفرنسية التي تدرّب الضباط البرازيليين الفتيان، يا صديقتي، دائماً من أنصار حرب الخنادق، تلك الستراتيجية التي كان عليها، وقد ارتكزت على خط ماجينو، ان تقود الجيوش الفرنسية في سنة ١٩٤٠ إلى انهيار سريع أمام القوات الألمانية. ولم يكن بمقدور استاذ برستس، الذي سبق له ان منح تلميذه هذا علامات سيئة بالستراتيجية، فهم حرب الحركة التي كان يفكر فيها هذا التلميذ، مثله في ذلك مثل غاملان الذي كان في ذلك العهد رئيساً للبعثة الفرنسية في ريو. وقد سبق لبرستس ان كتب إلى ايزيدورو يقول: «بالنسبة إلينا، نحن الثوريين، الحركة هي الانتصار. الحرب في البرازيل، في أي مكان حصلت، هي حرب حركة». وبدأ ايزيدورو، الذي كان قد تحصن في منطقة ايغواسو، يدفع غالياً ثمن اخلاصه لحرب المواقع. انه لم يكن يرى، كما يرى برستس، ان حرب المواقع تناسب، أكثر ما تناسب، الحكومة التي تملك معامل الذخيرة وتصك العملة وتملك عدداً كافياً من الأميين لكي ترمي بهم ضد رشاشات المتمردين.

وبينما كان برستس يتوجه نحو مصب الايغواسو، كان ما يزال يأمل بانه سيقنع الرؤساء الثوريين بضرورة القيام بحرب الحركة وبترك البارانا للفرق الحكومية وبالتغلغل في داخل البرازيل. وبذلك يمكن انقاذ الثورة بانتظار

ثورة فرق وطوابير أخرى. وان أصدق دليل على أفضلية حرب الحركة، قد أعطي بالسير الذي انتهى هو نفسه من اتمامه. وهو، وقد أسهم في حصار سان لويس، قاد رجاله، ـ ألفان في أول الأمر، ثمانمئة في آخره ـ، حتى إيغواسو، هازماً عشرة آلاف وخمسمئة خصم، مجتازاً الفاً وخمسمئة كيلومتر ومحطماً معنويات القوات المعادية.

وفي الثاني عشر من نيسان سنة ١٩٢٥، عُقد مؤتمر الرؤساء الثوريين عند مصب الايغواسو، وحضره: ايزيدورو، ميغيل كوستا، باديليا، ماندیس لتيشيرا، غيار، الفارو دوترا ودلمونت.

انها أصعب مرحلة من مراحل الثورة، يا صديقتي. معنويات الفرق والضباط في انحطاط عميق، الهرب هي الكلمة التي تردد دائماً. « جوان غاي » و « فيلينتو مولر » يطردان من صفوف الطابور: انهما رجلان مناهضان للثورة، يحرضان الناس على الهرب، لاجتياز الحدود إلى الخارج، ويخلقان جواً من الهزيمة. ضباط عديدون آخرون يذهبون، جنود كثيرون يهربون. وتبدو الثورة وكأنها قد اخفقت. ان هزيمة فرق ايزيدورو في كاتاندوفاس، ترمي بثقلها على ذهن الجيش. ولم يرفع قدوم رجال برستس الثمانمئة، مع « سيكويرا كامبوس » و « كورديرودي فاريا » و « جوان البرتو »، القادمين من الجنوب، معنويات فرق سان باولو. هناك ألف وثمانمئة رجل لا يجدون فعلاً ما يأكلون. لقد اجتازوا، منذ سبعة أشهر، في كل الجهات، الأرض التي يقاتلون عليها، ولم يبق لديهم أي طعام. الخونة يروّجون أخباراً رهيبة. وحسّن طرد « فيلينتو » و « غاي »، الذي قرره برستس، الوضع فوراً. ومن الآن وصاعدا لن يفكر أولئك الذين يودون الهرب، بجر أناس معهم. سيذهبون وحدهم. ضباط وجنود يهربون، حاملين مؤناً ومالاً. والحقيقة انه لم يبق سوى القليل من الضباط، القليل من الجنود، القليل من المؤن والقليل من المال.

وعندما افتُتح مؤتمر الرؤساء الثوريين، بدا ان الاتجاه نحو تصفية الثورة هو الذي سوف يفوز. ولكن اللواء الذي يبلغ السادسة والعشرين من العمر،

القادم من الجنوب، والذي كان قد احتفل بعيد ميلاده وهو يقاتل، في رامادا، شرع بالكلام وبدأ تقريره بان أعلن انه هو وجنوده لن يذهبوا، حتى فيما لو ذهب الجميع، حتى فيما لو اعتقد جميع الآخرين بان الثورة قد فشلت. هو ورجاله سيتابعون النضال. وأعلن برستس انه سيجتاز البرازيل هو وطابوره. سيدخل ماتوغروسو، ويتوجه بعد ذلك نحو الشرق ويهدد عاصمة البلاد. وكان لهذا الكلام تأثيره الآسر على الرؤساء الثوريين، وأصدروا قرارهم بسفر الطابور إلى داخل البلاد وبصالح متابعة الحركة الثورية.

ان هذا اللواء، هذا العبقري ذا الستة والعشرين ربيعاً، الذي كان بالأمس نقيباً، والذي قاتل منتصراً خلال خمسة شهور مضت، كان يؤثر تأثيراً سحرياً على الألوية، على الزعماء، على رؤساء الجيش الهرمين الذين استعادوا شجاعتهم وأملهم. وسلم ايزيدورو، الذي كان عليه ان يذهب إلى الأرجنتين للدفاع عن مصالح الثورة، قيادة رجاله إلى برستس وإلى ميخائيل كوستا. ولا يستطيع برناردو باديليا، اللواء الآخر، ان يبقى في منصبه: صحته لا تسمح له بذلك. وأصبح الماجور ميغيل كوستا، الآن، القائد الأعلى. وعُين النقيب لويس كارلوس برستس زعيماً ورئيساً لاركان الحرب.

وأحبط الجنود علماً بمجريات الأمور. عليهم ان يتوغلوا في داخل البلاد، لا كجنود ثورة مندحرة، بل كجنود ثورة تناضل من أجل النصر. ان السير الكبير سيبدأ، يا صديقتي.

- ٤ -

لقد توجب في أول الأمر ، يا صديقتي ، النضال ضد السفلة ، ضد الخونة ، ضد الكفرة ، ضد أولئك الذين كانوا تحت تأثير الخوف أو النية السيئة أو عدم اصالة النظر في الحوادث ، يعارضون تقدم الطابور ويعلنون بأن الثورة قد فشلت. ولم يكن السير الكبير قد بدأ بعد ، عندما لاحظت قوات ريو غراندي دو سول وقوات سان باولو ـ أي قوات برستس وقوات ميغيل كوستا التي كانت قد توحدت ـ بان عددها بدأ يتناقص بشكل يثير القلق. ان هزيمة كاتاندوفاس الحديثة العهد ، وكون الفرق الثورية محاصرة وموضوعة ، حسب تعبير اللواء روندون ، « في قنينة مقفلة » ، والمخفاض معنويات الضباط والجنود الجياع ، العائشين منذ أشهر حياة تكاد تكون بهيمية ، وتأثير جراحهم المخيفة ، كل هذا كان يشكل دعوة للهرب إلى الخارج. وبالقرب منهم توجد حدود البلاد التي تطفىء لهيب جوعهم وترد إليهم حريتهم ، البلاد التي يجدون فيها راحة وصحة. ومن الناحية الأخرى من الحدود ، يوجد سر البرازيل غير المكتشفة ، الخالية من الطرق ، يوجد عدو أقوى بألف مرة ، كما يوجد الجوع ، والأمراض الموضعية الخاصة بداخلية البلاد ، وتوجد الانهار المجهولة وجبال الغرب. وبالنسبة للكثيرين منهم ، كانت فكرة الضابط برستس مستحيلة التحقيق : كيف يمكن اجتياز هذه البرازيل غير المحدودة؟ « اراض إلى ما لا نهاية » ، كتب أحد الشعراء في أحد الأيام ، يا صديقتي ، وهو يتحدث عن البرازيل. أراض مغلفة بالأسرار ، بأساطير ، بأوهامها ، بأمراضها ـ الملاريا ، التيفوس ، البرص الحمى الصفراء ـ بحمياتها المختلفة الألوان ، الجائلة بصورة فاجعة عبر البلاد حلم فاجع! وكان الضباط والجنود الممتلئون رعباً لا يرون في هذه الرحلة سوى فاجعة ، سوى مأساة لم يسبق لها مثيل في الماضي. وأخذ البعض يذكر

انسحاب لاغونا خلال حرب الباراغواي. ولم يكن هذا ليعد شيئاً يُذكر بالقياس لحلم برستس العقيم. على هذا النحو كان يفكر السفلة، الخونة، أولئك الذين كانوا لا يريدون ان يروا ان هذا السير وحده هو الذي يستطيع ان ينقذ الحركة الثورية، أولئك الذين كانوا لا يرون في هذا النقيب عبقرية عسكرية، وُلدت في أميركا، لا يرون فيه وريثاً «لبوليفار»[٧] و«لسان مارتين»، ولا يفهمون ان منهجه لم يكن لا مجنوناً ولا عقيماً، بل نتيجة لليال طوال من الدرس وحدْس يقرب من الأعجوبة.

في الأدغال، في الغابة العذراء، في هذا العالم المجهول وهذه الطبيعة الخطرة، كثير من الضباط والجنود والمدنيين أخذوا يفرون، لقد تملكهم خوف من الموت. وكانوا يقولون: «نحن لا نريد أن ننتحر». ولكن الكثيرين ظلوا كذلك. ووثقوا. فان السير الذي قام به برستس منذ ريو غراندي، أقنعهم بانهم يواجهون لواءً جديراً بتحقيق مآثر عسكرية كبرى. ماذا تهم الطبيعة المتوحشة والأمراض والمصاعب ومكامن الموت في كل لحظة؟ الموت هو امرأة جميلة، وعلى كل فارس بارع بفن الحب ان يحسن مغازلته والسيطرة عليه كما يُسيطر على امرأة جميلة: ببطولة وحياة متوقدة النشاط.

«محصورون في قنينة»، ذلك ما قاله روندون بابتسامة خبيثة. وبين دهشة الخصم الكبرى، حطم برستس «قعر القنينة». لقد قرر اختراق حدود الباراغواي، واجتياز البلاد مع قواته والدخول بهذا الشكل إلى ماتو غروسو، في وجه العدو الهازىء.

وبدأت القوات الثورية، في أول الأمر، تقاتل متراجعة. وشق برستس لنفسه طريقاً، من سانتا ايلينا، حيث توجد معظم قواته، إلى بورتو منديس، حيث كانت هذه القوات تجتاز النهر لتدخل الباراغواي.

وبدأ سيرهم البطولي في الثلاثين من آذار. ولم يكن قد بقي من الطابور

(٧) لواء ورجل دولة أميركي ولد في كاراكاس (١٧٨٣-١٨٣٠)، حاول تحرير بعض بلاد أميركا اللاتينية من النير الاسباني وتوحيدها (ملاحظة من المعرّب).

القادم من سان باولو، بعد حوادث الهرب وخسائر المعارك، سوى سبعمئة رجل. أما في ما يتعلق بالطابور، الذي عاد إلى اجتياز ريو غراندي تحت قيادة برستس، فقد حافظ على رجاله الثمانمئة الذين كان يملكهم ساعة وصوله. وقد دلّ طرد الخونة المثالي، من أمثال فيلينتو، على حزم الرئيس. وكانت الفرق التي حققت، تحت قيادة برستس، السيرَ الأول البالغ مئتين وخمسين فرسخاً، تؤمن بقائدها وبمشروعه. وكان برستس، بالنسبة لجنوده، نوعاً من اله النصر، اله المعارك، وكان صديقاً أيضاً. إنه لم يكن يتخلى عنهم.

وتم الانسحاب نحو بورتو منديس بنظام كامل. وكانت الطريق التي شقها برستس، تسمح للفرق بالوصول إلى ضفاف بارانا. ها هم أمام البارانا، أمام هذا النهر الذي يشكل حداً للبرازيل، وللباراغواي وللارجنتين. وكان عرض المكان الذي تفكر قوى الثورة باجتيازه يبلغ خمسمائة متر. ان جنود برستس هم هنا، يا صديقي. إنها الفترة التي سيحطمون خلالها «قعر لقنينة». تطلعوا نحو المجرى الهائج الذي ينفتح بشكل دوارات؛ إن الموت يهدر في جري النهر السريع. إن من الصعوبة اجتياز النهر على هؤلاء الألف والخمسمئة من الرجال الذين لا يملكون سوى مركب صغير، «الأسي برازيل»، بآلات معطلة، وسوى قارب واحد. هناك رجال، ـ ضباط وجنود ـ ؛ وهناك نساء، بائعات المؤن للعساكر، اللواتي يرافقن الطابور، واللواتي يفوق حبهن للجنود الذين يتبعونهن جميع المصاعب؛ وهناك كذلك ألف وخمسمئة حصان. وفي الناحية الأخرى من النهر، بلاد أجنبية، ستُخترق حدودها، تسيطر عليها حكومة صديقة لتلك التي يقاتلها هؤلاء الرجال. كيف سيُستقبلون؟ ألن يجدوا الموت في الباراغواي، فيما إذا سلموا منه في النهر؟ وفي هذه الفترة الأخيرة من عدم الاستقرار، فرَّ بعض الضباط والجنود: لقد كان يبدو لهم باطراد، ان منهج برستس هو مغامرة غير محمودة العواقب. ولكن الجنود ثبتوا في أماكنهم. بالنسبة إليهم لم يكن هناك من شيء خارج نطاق الثقة الهائلة المؤثرة التي يمنحونها رئيسهم. ووصلوا إلى أمام البارانا في السادس والعشرين من آذار. وكانت أكثر المسائل استعصاءً على

الحل هي مسألة وسائل النقل لاجتياز النهر. من البديهي ان لا يكفي لذلك المركب الصغير، «الأسي برازيل»، بمحركاته المعطلة، ويكمن الخطر في كون قسم واحد من الفرق يمر بينما يتعرض القسم الآخر للنار العدوة، على الضفة البرازيلية. ولكن في صباح السابع والعشرين وصل إلى بورتو أديلا المركب «بل»، رافعاً علم الباراغواي. فأرسل برستس جوان ألبرتو للاستيلاء عليه. واستولى هذا الضابط، الذي برهن منذ وصوله من ريو غراندي على انه جندي ذو مناقب خارقة، على المركب بعد معركة قصيرة. فأصبح الثوريون يملكون الآن مركبين لاجتياز النهر. واجتاز جوان البرتو النهر على القارب، وهبط أراضي الباراغواي وسلم قائد الحصن رسالة يفسر الثوريون فيها حركتهم ويطلبون السماح لهم باجتياز أراضي البلاد الشقيقة، متعهدين بالقيام بهذا الأمر بنظام كامل.

وفي الثامن والعشرين من نيسان، اجتازت الفرق الثورية البارانا ودخلت الباراغواي. وفي التاسع والعشرين منه، وصلت أولى الدوريات العدوة إلى «بورتو ارتازا» و «بورتو منديس»، حيث كانت تعسكر قوات برستس. وكان روندون واثقاً بان برستس وجنوده متكدسون على ضفاف نهر بارانا، في قعر «قنينته» الشهيرة. وما لبث ان أحيط علماً بان القنينة لم يكن لها من وجود بالنسبة لبرستس.

لقد كان على جنود الطابور اجتياز مئة وخمسة وعشرين كيلومتراً في أراضي الباراغواي، والوصول إلى حدود ولاية ماتوغروسو. وسارت طلائع القوات، بقيادة جوان ألبرتو، في الثامن والعشرين من الشهر، وسار القسم الأكبر، مع القيادة العامة، بعد ظهر التاسع والعشرين منه. وفي المؤخرة، كان يحرس المدفعية الكتيبة التي يرأسها النقيب آري ساغالدوفرير. وكانت المدفعية تتقدم بصعوبة عبر مجاري المياه والمستنقعات. وكان يتوجب، في أحيان كثيرة، سحب المدافع عبر الأنهر، مع ما كان يتعرض إليه هذا الأمر من صعوبات خارقة. وقرر برستس، بعد ذلك بفترة وجيزة، ان ينخلى عن المدفعية التي لم تكن تستطيع ان تقدم له عوناً كبيراً خلال سيره.

وكانت الفرق الثورية تشكل لوحة ممضة من البؤس. وكان الرجال، المرتدون الاسمال والمحتذون أحذية مثناة أقسامها الخلفية إلى الداخل، الهزالى والمفتقرون إلى الرقاد، قذرين غلاظاً. ولقد قام برستس بكل هذا السير، البالغ مئة وخمسة وعشرين كيلومتراً، سيراً على قدميه، لكي يستطيع جنديّ متعب أو جريح ان يستعمل حصانه. وعندما كان يرى جندياً منهوك القوى، غير قادر على متابعة طريقه، ولا على سحب جسمه المتداعي تعباً، كان يهبط عن راحلته ويقدمها للجندي، ويسير هو، اللواء، القائد المنتصر في العديد من المعارك، على قدميه، كأبسط الجنود الراجلين. وكان الجيش كذلك يضعه من نفسه في القلب، ويتحمل، دون أي ظلٍ من تردد، جميع المتاعب والمصاعب. ان أحداً لا يستطيع ان يبدو ضعيفاً أو خائفاً أمام عينيّ الرئيس الكبير.

ووصلت الطليعة إلى ماتوغروسو في الثلاثين من نيسان، واجتاز الطابور الحدود في الثالث من أيار، داخلاً أرض البرازيل من جديد واجتيزت أراضي الباراغواي بمنتهى النظام، كما وعد بذلك برستس وميغيل كوستا.

وبعد ان خرج الجنود من سايكارو، حيث استوقفهم أمر تصفية المدفعية، اجتازوا «ماركولينوغو» و «بانشيتا» ونهر «بانوي»، باتجاه «باتريمونيودا أونياون». وفي هذه الأثناء، كانت القيادة العامة للقوات التي تقاتل الثوريين في ماتوغروسو قد أصبحت بين يدي الماجور «برتولدو كلينجر»، الذي أعاد جمع قواته مع قوات الزعيم «بيريكل البوكيركي»، وانتظر الثوريين على رأس جسر نهر آبا. وهاجمهم جوان البرتو في هذا المكان، بثلاثمئة رجل ضد ما ينوف على الألفين. ثم عاود الاتصال بسيكيرا كامبوس، وتوجها معاً نحو جبال «الأمنباي»، ثم دخلا «ريتيروميزايل» حيث أخذا ينتظران وصول القسم الأكبر من الطابور. ووزعا، على الضفة الشمالية من «الدورادو»، فريقا من «الفدائيين». وعلى ضفة هذا النهر صنع برستس أطوافاً[٨] بواسطة البراميل، لكي يجتاز الطابور النهر فوقها. وفي أول حزيران، وصل الطابور

(٨) Radeaux.

إلى « رنترومیزابل » ، بعد ان اجتاز سلسلة من الأنهار وعدداً لا يُقدر من الكيلومترات . وعند غسق المساء الممطر لليوم التالي ، وصل الطابور إلى سكة الحديد ، وفي اليوم الرابع من الشهر ، وصل إلى « باتريمونيو دي جاراغواري » حيث انفصلت فرق سان باولو وريو غراندي ، لتسير كل منها في طريق خاصة بها ، قبل ان تعود إلى الاجتماع من جديد ، في العاشر من الشهر ، عند مصب نهر كامابوا .

وفي هذه الأثناء كانت قيادة الطابور قد أعيد تنظيمها ودفعت مظاهر الحسد بين جنود سان باولو والغاووشوس ، التي كانت تتجسد أحياناً ببعض الحوادث والاصطدامات ، الرؤساء إلى توحيد الفرقتين . وكان يحصل أحياناً خلاف بسيط في وجهات النظر ، بين ميغيل كوستا وبرستس ، حول الستراتيجية الواجب اتباعها . وعند مدخل ماتوغروسو ، كان الرفيقان ، يا صديقتي ، على خلاف بالتفكير . فلقد كان ميغيل كوستا يريد أن يقوم بمعركة حاسمة ضد قوات الحكومة ، بينما كان برستس يعارض هذا الرأي ، إذ أنه كان يعتقد باستحالة الانتصار في مثل تلك الحال ، ويفهم بأن الأمر سينتهي ، بمعركة من هذا النوع ، لا إلى تصفية الطابور فقط ، بل وإلى تصفية الثورة كذلك ، لأن هذه لا يمكن إعادة إذكاء جذوتها إلا إذا ظلَّ الطابور على قيد الحياة في داخل البلاد .

كان ميغيل كوستا ، بنظر الكثيرين ، جندياً رائعاً ووجهاً انسانياً نادر المثال . انه ، وهو قائد الطابور الأعلى ، لم يخالجه ظل من حسد لكون اسم برستس ـ روح ودليل السير الكبير ـ كان أكثر الأسماء شعبية . لقد أطلق على الطابور اسم رئيس أركان حربه ، ضد إرادة برستس نفسه ، واستجابة لإرادة جنود وشعب البرازيل . ولم يتفوه ميغيل كوستا مطلقاً بكلمة واحدة حول هذا الموضوع ، إلا إذا ما كان الأمر يتعلق بامتداح رفيقه وخلّه ، وبالقول كم كانت هذه التسمية تتجاوب مع الحقيقة . وكان ، بصفته قائد الطابور ، يؤيد دون تحفظ مناهج برستس . واختفت الخلافات البسيطة التي كان يذر قرنها بينهما في الأمور العسكرية ، منذ اللحظة التي أصبح فيها برستس ، بعد إعادة

تنظيم القيادة، مسؤولاً بصورة فعلية عن كل القسم الستراتيجي والتاكتيكي في الطابور. ولم يحدث مطلقاً بينهما بعدئذ أي شقاق؛ كان برستس يعترف بكل جاذبية ميغيل كوستا؛ وكان ميغيل كوستا ينضح اعجاباً بعبقرية برستس العسكرية. ويمثل هذان الرجلان المتحدان، العظمة المعنوية لثورة سنة ١٩٢٤. ميغيل كوستا هو الثوري الذي لا يحمل في نفسه أقل أثر من كبرياء جريحة، والذي كان ينحني، بصفته ثورياً واعياً، أمام الواقع الدقيق لعبقرية لويس كارلوس برستس العسكرية. انه الأول في الاعتراف بان برستس هو شخص غير عادي. ان وجه ميغيل كوستا، يا صديقتي، هذا اللواء الذي انتزع العديد من الانتصارات، معبود جنود سان باولو، هذا الرجل ذو الخلق المستقيم، ذو الشعبية الهائلة، لم يزدد سمواً إلا عندما اعترف وأيّد عبقرية برستس. وان موقف ميغيل كوستا هذا، الذي يدلل على قوة ثورية عميقة، حدّد مستقبل الرجل. وسنجده، وهو الشجاع، الكفؤ والمتناسق مع نفسه، مرة أخرى، في سنة ١٩٣٥، إلى جانب برستس، في الاتحاد الوطني التحريري، كرئيس في سان باولو.

توجه الطابور نحو مدينة بوس، حيث عسكر الماجور كلينجر. وذهبت احدى الكتائب في أول الأمر للاستكشاف، بقيادة دجلمادوترا. واجتاز القسم لأكبر من الطابور نهر بوس، بينما اشتركت قوات كورديرو دوفاريا وقوات سيكيرا كامبوس بالقتال مع العدو. وحوصر الماجور كلينجر، ولكن برستس فك الحصار، لأن المواقع التي يحتلها كلينجر يسهل الدفاع عنها. وكان على الطابور ان يخسر قسماً كبيراً من رجاله ومن مؤنه، إذا ما انتقل إلى الهجوم. ولكن انتصاراً على كلينجر لم يكن ليعادل هذه الخسائر. وعاد الطابور إلى متابعة سيره نحو حدود غواياس، حيث دخل في الثالث من حزيران، بعد ان كان قد اجتاز مستنقع ماتو غروسو منذ حدود الباراغواي حتى جبال سانتا مارتا.

وتزوّد الطابور، خلال مروره عبر ماتو غروسو، بالغذاء والكساء. ففي هذه الولاية الغنية والمهملة من قبل السلطات الادراية، وجد برستس الطعام

والشباب لرجاله. ولم يبق الطابور الآن مؤلفاً من هذا الجمع من المتسولين الخلقي الثياب، الذين اجتازوا البارا غواي أمام ناظري اللواء روندون المندهشين.

وحصل برستس في ماتوغروسو، كذلك، على جياد جيدة للطابور. وعاشت الدوريات المكلفة بـ «البوترايار»[٩] أوقاتاً بطولية في ماتوغروسو. فكان يُبعث بفرق مؤلفة من ثمانية، عشرة أو خمسة عشر رجلاً للبحث عن الجياد والماشية للطابور. انهم كروافد نهر كبير: الطابور، انهم ينقبون الأراضي، يقادون الثيران والجياد، يستقصون أخبار العدو ويساعدون في الاهتداء إليه. إن البوترايادور هم بمثابة رجال الشرطة للطابور، يا صديقتي؛ لقد كانوا يضللون القوات المعادية في نطاق نصف قطر يبلغ عدة فراسخ. وعندما كانوا يبتعدون نحو الشرق، نحو الجنوب أو الشمال، بحثاً عن البهائم، كان الخبر يسري فوراً بان الطابور يتقدم جنوباً، شمالاً أو شرقاً؛ وكان يظن بان البوترايادور هم طليعته. لقد قام هؤلاء الرجال القليلو العدد، يا صديقتي، بمآثر حربية لا تُنسى، حورتها أساطير الكانتادور[١٠] الشعرية في السرتاو، لدرجة لا تزال معها تشكل حتى الآن أساطير داخلية البرازيل الشعرية. وان كثيرين من البوترايادور لم يعودوا أبداً؛ لقد قتلهم العدو. وفقد غيرهم الاتصال بالطابور، وهاجروا إلى الخارج. ولكن أكثرية هذه الدوريات كانت تعود دائماً ـ وقد فقدت اثنين أو ثلاثة من رجالها ـ قائدة جياداً، حاملة أخباراً جديدة ودقيقة عن موقع وتصاميم الحكوميين. ان هذه الدوريات، التي كانت تجتاز عشرين، خمسين وحتى مئة فرسخ قبل ان تتصل بالطابور من جديد، كانت تقاتل ضد جيوش، تحتل المدن والقرى، تحوّل العدو بعيداً عن الدروب التي كان الطابور يفتتحها. ولقد ساعد البوترايادور، بصفتهم رواد وانصار طابور برستس، الطابور على بناء وتوسيع طرقات

(٩) فعل يستعمل في البرازيل للدلالة على الابحاث التي تقوم بها الدوريات من أجل إعادة الماشية والخيول الشاردة.

(١٠) فئة من المغنين الشعبيين، يتنقلون من قرية إلى قرية، ينشدون ويغنون وهم يعزفون على كمنجة.

البرازيل. ان بطولتهم كانت تبرز في كل يوم، في كل لحظة.

ان الصفة الملحمية لطابور برستس، يا صديقتي، كانت، بصورة خاصة، نتاج هذا العدد الذي لا يُحصى من الأعمال البطولية والشخصية التي كان يقوم بها هؤلاء الرجال. وكان للفرد، في هذا الجيش الثوري، قيمة لا تُقدر. ولم يُقرأ في أية صفحة أخرى من تاريخ البرازيل، انه كان للاندفاع الذاتي الشخصي، للبطولة التشخصية، هذا التناسق الكامل مع الفكرة الجماعية، مع قيادة الرئيس. ان عبقرية وبطولة برستس، وسرعة اتخاذه للقرارات، وكفاءته في حل أصعب المسائل ساعة حدوثها، كانت تتراءى لكل ضابط، لكل جندي، لكل فرقة، لكل دورية من البوترياذور. لم يكن هناك سوى الرئيس. كان هناك الرئيس، الذي هو أكبر جنود وطنه، وكانت القيمة الانسانية للجنود. هذا ما كانه الطابور، يا صديقتي.

- ٥ -

سأروي لك اسماء بعض منهن، يا صديقتي: إحداهن كانت تدعى «أيْ جزيه»، وهي خلاسية منصنعة. وهناك «أونسا»: لقد كانت ترقص «الماشيشيس»[١١]، أثناء الليل، في الغابات العذراء وفي الكاتنغا، قرب الأنهار المغلفة بالأسرار. وكانت «كارا دوماكاكا» متجلببة بالجلد، ولم يكن بمقدور أي إنسان أن يميزها من رعاة البقر في ماتوغروسو وفي الحقول الشمالية الشرقية. وانجبت «سانتا روزا» صبياً سُمي بـ «جوزيه، ابن الثورة». وهناك إيرمينيا، الشجاعة والمخلصة إيرمينيا، النمساوية التي اصبحت بطلة برازيلية، الشقراء إيرمينيا التي وجدت السعادة مع الزنجي فيرمينو. و «إيزابيل بيسكا - بيسكا» التي كانت تسمي نفسها بين أكثر السرتونيين جهلاً بايزابيل المخلصة. وألبزا الجميلة، بسنيها الثماني عشر وفمها القذر. وتياماريا، ماريا الهرمة التي كان يخشاها الحكوميون ويتهمونها بمعاطاة السحر، وقد قتلها هؤلاء بطريقة في منتهى الوحشية. وشينينيا الضخمة، التي لم يكن يجاريها في المشي مجارٍ، والتي كانت تتقدم بسرعة تفوق سرعة أي جندي، بالرغم من بدانتها. وهناك أخيراً أجمل من ذكرنا من النساء، ألبرتينا، ألبرتينا الجميلة، التي سقط رأسها كشهيدة في فترة طيبة بطولية. وقد حصل ذلك كما يلي: كان الملازم أجينو بزبرا دوسوزا، من القوات الثورية، وقد جُرح في معركة بيانكو، بنبع الركب موضوعاً على محمل ينقله الجنود، وكانت حالته تزداد خطورة يوماً بعد يوم. وعندما وصل الطابور إلى ميناس دوريودوكانتاس، في باهيا، أشفق الناس على مصيره. ان هذا الملازم، الذي أصيب بالسل خلال أيام هذا السر الصعبة، كان ينازع دون ان يجد أقل شيء يستطيع ان

---

(١١) رقصة برازيلية شعبية لموذحية، زنجية الأصل.

يخفف عنه شيئاً من ألمه. وهو، وقد جاء من ريوغراندي، كان من أفضل مقاتلي الطابور. وكان القواد والجنود يشاهدونه يسير نحو نهايته بهدوء. لم يكن هناك من دواء، فلم يكن بمقدوره ان يرتاح. واقترح عليه أناس محسنون في ميناس دوريودوكانتاس، ان يضيفوه، فقبل. وظل معه أخوه أليب، الشاب الفتيّ العود، البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، والذي صيّرته معارك الطابور رجلاً، وبقيت كذلك ألبرتينا، أجمل بائعات المؤن للعساكر، إحدى زهرات ربوغراندي، تلك التي كان قلبها طيباً بقدر ما كان جسمها جميلاً، بقيت لكي تساعد الملازم في أيامه الأخيرة.

وذهب الطابور مخلفاً ألبرتينا تحرك منديلها الأحمر، كثورية، وقد امتلأت عيناها بالدموع وتلألأت ابتسامة أخوية في شفتيها. ثم عادت البرتينا إلى الملازم لتعتنيَ به بحنان الأخت، واخلاص الممرضة. لقد كانت تفكر بانه ربما كان من الممكن ان تتحسن حالة الملازم اجينو، ويصبح بمقدوره ان يُنقل إلى باهيا، حيث الأطباء بارعون والمستشفيات جيدة. وعندها ستعود إلى اجتياز السرتونات من جديد، وتذهب للبحث عن الطابور، وتجد رفاقها في السير الكبير.

ولكن جنود برناردس، يا صديقتي، دخلوا ميناس دوريودوكانتاس. وتعرفت المدينة إلى مظالمهم. كل واحد أخذ ينهب على هواه؛ واختار أحد الملازمين البرتينا كمحظية له. ان شهوته المكبوتة، خلال مكثه الطويل في السرتون، حطمت عقالها أمام جمال البرتينا، التي كان وجهها الأبيض محاطاً بمنديل الثوريين الأحمر. انها أشبه ما تكون بزهرة، برؤيا رائعة. ولم يرَ الملازمُ الرجل المريض، المحتضر، لم يرَ الشاب الذي تعلم الكرامة والبطولة في الطابور، لم يرَ سوى امرأة جميلة. واندفع نحوها كبهيمة في مرج، وقد جهل انه كانت لبائعة مؤن في طابور برستس شجاعة الرجال. ولكن البرتينا قاومت، فلم تكن تحس نحو هذا الرجل إلا بالقرف. وانضم الغلام للدفاع عنها. وتدحرج رأساهما؛ رأس الغلام ورأس المرأة. وكان المسلول يحتضر في سريره، أمام هذا المشهد المخزي. وتضرجت يد الملازم بدم الضحيتين؛

وأخذ الوحش بضحك ويُري الجنود رأس ألبرتينا، الرأس المجرد من الجسد، المغطى بكفن الثورة الأحمر.

خنق جندي ابتسامة، وأرسل المسلول، بضعف وهو يسعل، احتجاجاً، واجهشت امرأة بالبكاء، وأرسل رجل ضحكة هستيرية. ارتجف الرجال، والملازم نفسه أصفر لونه. وكان الرأس الدامي، المجرد من الجسد، بشعره الممسوك بالكفن الأحمر، لا يزال يبتسم ابتسامة قرف أمام هؤلاء الوحوش، المباعين جسدا وروحاً للحكومة. لقد كان رأس البرتينا يبتسم.

أواه يا بائعات المؤن في الطابور! أواه يا نساء الشعب اللواتي تبعن رجالهن، تبعن الثورة! انهن وحدهن اللواتي استطعن ان يجعلن برستس يغير رأسه. فبعد ان تلقين منه الأمر بمغادرة الطابور ساعة اجتياز نهر الأوروغواي، وافقن بإشارة من الرأس. لقد كان برستس يوحي إليهن احتراما عميقا. لقد كان يعاملهن كصديقات، ولا يوجه اليهن لا مديحاً ولا إهانة. وفسر لهن بان الأمر لا يتعلق بنزهة لنساء، بل بسير صعب لرجال اشداء، وكان عليهن ان يبقين. أشارت النساء برؤوسهن ان نعم، يا صديقتي. ولكن في اليوم التالي، عندما انتهى اجتياز النهر، شاهدن برستس على الضفة الأخرى. لقد كن على استعداد لمعاودة السير. كانت إحداهن تحمل بندقية رجلها، والأخرى تهتم بمريض، وثالثة تبتسم، مزيلة بابتسامتها تعب الجنود. فابتسم برستس هو أيضاً. وظلت البائعات في صفوف الطابور.

لقد كانت البائعات جديرات تماماً بعطف برستس، جديرات بان يبقين. لقد اجتزن الانهار، اجتزن الجبال. لقد قاتلن كالرجال، وماتت الكثيرات منهن ميتة الابطال. لقد انجبن أولاداً خلال السير. وكان الحب بفضلهن يضيء ليالي الطابور. خلال سير الطابور كله، على ضفاف الانهر، في صحاري الشمال ـ الشرقي، في الكاتنغا المتوحشة، في الغابات العذراء، في الجبال المسيطر عليها خلال الليلة السابقة ليوم المعركة، حيث كان الرجال يخاطرون بحياتهم، خلال الليالي المنجمة أو المقمرة حيث كانت تسمع انغام

القيثارات والأغاني، خلال الليالي الخالية من النجوم، المسكونة بالأشباح وبالأوهام، كانت تأوهات الغرام تتصاعد نحو السماء؛ وكانت قلوبٌ لرجال ونساء شجعان تخفق هياماً.

سأحدثك، يا صديقتي، عن القصيدة الغرامية للشقراء إيرمينيا وللزنجي فيرمينو. لقد قدمت من النمسا، من فيينا رقصات الفالس والسرور. لقد كانت، وهي المخلصة والطيبة، الشجاعة والحاذقة، شقراء، كان لها شعر بلون القمح ووجه بلون الطحين. وأصبحت، وهي ممرضة الطابور، أماً للجنود الجرحى، أختاً للضباط المرضى. واشتركت في سير الطابور كله حتى الدخول النهائي إلى بوليفيا. وخلال المعارك، كانت تظل قرب خط النار، لكي تسارع للبحث عن الجنود والضباط والجرحى. وخلال حصار ترازينيا، ذهبت عدة مرات إلى خطوط الثوريين والخطوط العدوة، واقتادت إلى المركز الصحي في الطابور، الجنود الجرحى. ولم تكن تهب نفسها لحظة واحدة من الراحة. وكانت يداها البيضاوان ملطختين بالدماء. وكانت تبحث بنظرتها عن الجرحى، وتقودهم تحت تدفق القذائف. وكثيراً ما اتخذت هذه الشقراء الشجاعة كهدف للرماية. لقد ولدت في فيينا، حيث تتصاعد الحان موسيقية رائعة من كل مقهى، من كل فم، وترعرعت في سان باولو، الهادئة الساكنة. ومشت مع الثورة التي كانت تحملها في قلبها. وكانت تتقدم بين القذائف بهدوء، وقد حملت جريحاً بين ذراعيها! يا للممرضة إيرمينيا، النمساوية البرازيلية في الوقت نفسه! وفي أحد الأيام، خلال معركة كانت تبدو خاسرة، ذهبت بشجاعة للبحث عن فرق الرشاشات الثقيلة البعيدة، في وسط الطابور. وحصل هذا خلال معركة أنابوليس؛ وتدين الثورة بانتصارها في هذه المعركة لحركة الممرضة هذه.

إن قلبها الذي يخفق للموسيقى، خفق أمام الملازم فيرمينو. وكان لهذا الملازم، المتحدر من صلب أبطال البالمار، شجاعة الزنوج المبتسمة، وابتسامة نقية. وفي الليل، عندما كانت القيثارات تنشد، وكان الحنين إلى مسقط الرأس في القرية يستولي على رجال الطابور، والمغنون يثيرون ذكرى غرام بعيد

ومسحبل، وكان القمر يهبط لتأمل الأبطال، والنجوم تلمع في السماء، كانت الشقراء إيرمينيا والأسود فيرمينو يتبادلان عبارات الغرام. وكانت الانهار تنصت إليهما، وتحتفظ بها الجبال في قلبها الغرانيتي. وحملت المياه في تياراتها موسيقى عبارات الزنجي البرازيلي والبيضاء النمساوية. وفي الغابيا في بوليفيا، يا صديقتي، بعد الحجر على الطابور، كان على كثير من الخلاسيين البرازيليين ان يولدوا نتيجة لهذا الحب. وفي يوم ما، سيطأ أولاد إيرمينيا وفيرمينو من جديد أرض وطنهم. وسوف يجددون، كجنود جدد للثورة، بطولات أبيهم، وبطولات أمهم. وسيكون لوجوههم الخلاسية بياض لون وجه إيرمينيا الطحني والسواد العسلي لقصب السكر، لوجه فيرمينو.

في الليالي التي كان يتوقف فيها الطابور وينتشر في المروج كنهر انساني، بعد أن يكون قد خلف وراءه درباً ضيقاً انتهى من شقه، هذه الليالي التي تكون فيها الأدغال غير مسيطر عليها بعد، وقد وقف في أحد الجوانب عدو أكثر عددا، ووقفت في الجانب الآخر الأمراض وانعدام الغذاء وحنين أولئك الدين ظلوا في المدن والقرى التي اجتازتها الحركة الثورية، في هذه الليالي كانت الخلاسية «أونسا» الشهوانية الذابلة، تحرك وركيها وهي ترقص الماشيشيس. لقد كانت ترقص للجنود أكثر الرقصات برازيلية، أكثرها شهوانية وأكثرها دعارة. وعندما كان جسم «أونسا» السنوري يميل، كانت ذكرى مناسبة صائعة تطوف في عينيّ كلٍ من هؤلاء الرجال: رقصة، امرأة عابرة في الشارع، اطراء ألقي كيفما اتفق، عيد، ذكرى حب.

ان جسد أونسا، حيث كان الردفان يعيشان حياة مستقلة في نغم الماششس، كان يحمل ذكريات الماضي على التدفق. وكانت رقصتها في الغابات العذراء مخيفة وداعرة. وكانت تتدفق مواكب الأوهام، اللوبسومن (١٢)، المولادوبادر (١٣) الكايبورا (١٤)، حيوانات الغابة،

(١٢) (١٣) (١٤) صور مخيفة من الأساطير البرازيلية.

التابير[١٥]، نمر الثلوج والسعدان، العصافير والأسماك، وتثبّت انظارها مع الرجال على جسد «أونسا» المتوج في الفضاء، بفخذيها الشبيهين بمؤخر سفينة تتقاذفها أمواج قوية، متلمسة الأشجار، مادة احدى ذراعيها نحو النهر والأخرى نحو السماء. كانت الخلاسية، ذات الردفين المدورين اللذين لا يرفع الرجال نظرهم عنهما، ترقص، يا صديقتي، في أعماق الغابة العذراء.

انها لم تكن ترقص دائماً، لقد كانت تحمل البندقية أحياناً، وأحياناً أخرى كانت تنقذ الرجال. ولم يكن جسدها فقط جسداً للخطيئة، ولم يكن يُستعمل فقط لإرواء شهوات الحب. ففي أحد الأيام هوجمت إحدى الفصائل بقوى تفوقها بعشرين مرة. فتاه الرجال كما تاهوا في ليالي الماشيشيس الداعرة. وانطلقت «أونسا» بين القذائف، وأقامت اتصالاً مع قوى الطابور الرئيسية، وانقذت الرجال من الموت. لقد مرت بين القذائف، وسيطرت على الاعداء بالمشية الشهوانية لجسدها الخلاسي الشهواني، فدانت لها منهم الرقاب. ورجعت مع النجدة، ورقصت هذه الليلة رقصة الماشيشيس كرقصة انتصار. على هذا النحو كانت «أونسا» يا صديقتي.

في السرتون، بين الجنود الحكوميين وبين الأهالي المتطيرين، كانت تسير الأساطير حول الطابور. ان هذه الأساطير، العديدة والمطبوعة بجمال غريب، والتي كان العميان يغنونها في الأسواق، كانت تجعل من وجه برستس بطلاً لها، شبيهاً بوجه إله جديد طهر في سماء البرازيل. وكانت هذه الأساطير تمجّد محاسن الطابور. وكانت إحداها، وهي تتحدث عن سرعة حركة الطابور، تقول بان الجنود لم يأكلوا سوى القوائم الأمامية من الحيوانات لكي يستطيعوا السير بسرعة أكثر. وكثير من هذه الأساطير وُلدت بسبب وجود بائعات المؤن في الفرق الثورية. فبعد مرور عشرين دقيقة لانجاب سانتا روزا لولدها الذي دُعي جوزيه، ابن الثورة، كانت هذه قد اعتلت صهوة جوادها، واستعدت لمعاودة السير. فأصبح السرتونيون يتخيلون عندها ان

(١٥) حيوان مفترس.

النساء اللواتي كن يسافرن مع الطابور ، كن بضعن على ظهور الجياد ، وكان أولادهن يأتون إلى العالم وهم يحسنون المشي ، وبعد عدة شهور من ولادتهم يحملون البندقية .

ولكن البائعة المكللة بالأسرار ، والتي كان اسمها يتنقل من فم إلى فم بين الجنود والحكوميين ، كانت تياماريّا ، الزنجية الهرمة اليابسة ، ذات العينين اللامعتين ، التي لقيت ميتة فاجعة في العذاب . وكان يُقال بانها ساحرة الطابور ، وبانها ، عشية المعارك ، عندما كانت شبّابة « فافورينو » تأخذ مكان الطبول ، كانت تبتهل ، وقد تعرّت أمام الرشاشات الثورية ، إلى الهة الماكومبا السود ، إلى أوشوسي ، آله الحرب ، إلى كنغو ، آله الصاعقة والرعد وإلى أوغن أوشوليفان ؛ وبفضلٍ من ذلك ، كانت القذائف العدوة تفقد القدرة على اختراق أجساد جنود الطابور . وكانت هذه الاسطورة تسير من فم إلى فم ، وكان جميع الجنود الحكوميين يعرفون اسم تياماريّا ويكرهونه كعدوٍ مخيف ، يستعمل قوى جهنمية ، قوى الالهة السود ، القادمين في زمن العبودية من غابات أفريقيا ، من أراضي أيوكا ، إلى غابات البرازيل ، إلى أراضي اللانهاية .

وأسرت تياماريا عقب معركة بيانكو . وكان الحكوميون يكرهونها أكثر مما يكرهون رقباء وجنود الطابور . وشد ما عُذّبت . لقد أُمرت بأن تحفر حفرتها بنفسها ، بان تحفر القبر الذي سيُلقى بجسدها فيه بعد قتلها . وكجندي من جنود الطابور ، رفضت البائعة ماريّا ، الزنجية الهرمة اليابسة ، تنفيذ الأمر . وجُلدت بضربات العصا ، كهؤلاء الجنود وشتَمت ، مثلهم ، الأشقياء الذين يعذبونها ؛ ومثلهم مُزقت إرباً إرباً ، بهدوء ، بضربات سكين . ان عذاب الموت البطيء الذي لاقته ، يفوق حد التصوّر . ومع هذا لم يضعف صوتها لحظة واحدة . وبينما كانت تُعذّب ، كانت تبتهل إلى آلهتها وتدعوها إلى ملاحقة أعدائها واعداء وطنها . وماتت وهي ترسل آخر شتيمة من فمها الالطع كزنجية ، كهرمة . على هذا النحو كانت تياماريّا ، يا صديقتي .

يا لبائعات المؤن في الطابور ، يا لهؤلاء النسوة البرازيليات ! ان دمهن يملأ

أرض الوطن. ان ابتسامتهن تتلألأ فوق الانهار، وتتصاعد آهات حبهن في الحقول! لقد كن يمتطين صهوة الجياد، يساعدن الرجال، يعتنين بجراحهم، يحملن على كتفهن بندقية الجندي الذي يحببن، ليتحن له ان يأخذ قسطاً من الراحة. لقد سكبن دماءهن، ووهبن حياتهن. وفي ملحمة الطابور، كن جديرات ببرستس. وتملأ اليوم اسماؤهن وكنياتهن أغنيات العميان في الشمال الشرقي. إن ذكراهن، وقد وضعن منديلاً أحمر على شعرهن، ووردة خلف أذنهن، لا تزال باقية. إيه يا بائعات المؤن، إيه يا زهرات البرازيل!.

- ٦ -

في الثالث والعشرين من حزيران، دخل الطابور الغواياس. لقد كان قادماً من البارانا، فبعد اتصال قوات برستس بقوات ميغيل كوستا، اجتاز الطابور أراضي الباراغواي وماتوغروسو. وكان متوجهاً نحو الشرق بطريق سهول البرازيل الوسطى. لقد كان البحر بعيداً، وكان برستس يحمل الثورة إلى وسط البلاد نفسها، يا صديقتي، إلى قلب بلاد الذهب المغلفة بالأسرار، إلى أراضي «الماتي»[١٦] المملوءة بالادغال، إلى بلاد الأحجار الخضراء التي طالما أثارت الأوهام في رؤوس البانديرانتي[١٧].

ماتوغروسو وغوياس، مناطق غير مطروقة، أراض لامتناهية، ممتلكات كبيرة بقدر بلاد، حيث كل شيء هو بدائي، بربري ومجهول. لم تكن القوانين قد وصلت إلى هناك، حتى ولا تلك القوانين الشوهاء السارية المفعول في العواصم والولايات الساحلية الأكثر تمدناً. فهناك كان الأسياد الاقطاعيون قد صنعوا قوانينهم الخاصة، قوانين بربرية، وحشية. على هذه الأراضي لم يطبق قانون الغاء الرق مطلقاً؛ لقد كان الفلاحون لا يزالون أرقاء، وكان بضعة رجال فقط أسياداً للأرض. وفيما لو وضعنا، يا زنجيتي، في كل من هذه الممتلكات أحد بلاد أوروبا، لظل هناك فراغ واسع أيضاً.

في ماتوغروسو وغوياس تخص «لاتيفنديا شركة الماتي لارنجييرا» أسياداً اقطاعيين؛ ويعيش الرجال عليها كأشقى العبيد، مجردين من أقل الحقوق،

---

(١٦) Mate.

(١٧) غزاة تغلغلوا في داخلية البرازيل في القرن السادس عشر، مفتشين عن المعدن الثمين. وقد قتلوا الهنود أو حولوهم إلى أرقاء - (المعرّب).

لا يحميهم أي قانون. إن هذه اللاتيفنديا (١٨) تشكل رؤيا دانتية (١٩).

في الوقت الذي انتهى فيه لويس كارلوس برستس من اجتياز ماتوغروسو ليدخل إلى الغوياس ويبدأ سيره نحو الشمال، كان قد عرف أن بالبرازيل حاجة لثورة عميقة، وأن أمامه عالماً بمشاكل لم تكن لتخطر له ببال، وهي تعترضه الآن ليس من خلال قراءة لذيذة لكتاب، أو لإحدى الخطب الأنيقة الملقاة في مجلس النواب، والتي نستمع إليها جلوساً مرتاحين، بل من خلال الحياة نفسها. وأمام هذه الرؤيا المخيفة شعر لويس كارلوس برستس كم كانت نداءات الثوريين غامضة. كيف كان هؤلاء ينظرون إلى الأشياء، ما الذي كانوا يطلبون؟ إن المشاكل التي كانت تغلي في المدن الساحلية، كانت أقل خطراً بما لا يُقدّر. وكان الثوريون يطلبون اصلاحات إدارية صغيرة. ذلك كان السبب الذي جعل حركة المدن الساحلية الثورية لا تهز شعب الداخل المستعبد. فأمام عبوديته، ماذا كان يعني الانتخاب السري؟

إن العسكري الشاب، الذي كان لا يزال يدرس وكان قد بدأ حياته كضابط، سمع، كما سمع زملاؤه جوريس، كوستاليت، سيكيرا كامبوس وادواردو غومس، الصراخ الذي كان يتصاعد من لحم البرازيل المعذب وخفق قلب هؤلاء الرجال غضباً وقرروا أن يضعوا سيفهم في خدمة البرازيل. ولكنهم لم يكونوا قد لمسوا قعر الشقاء الذي كان يسبب هذا النحيبَ الهائل. إنهم لم يكونوا قد رأوا سوى السلسلة الأولى من المشاكل ـ وكانت أكثرها عمقاً قد غابت عن شعاراتهم الثورية. وتكشّف هذا الأمر على حقيقته أمام لويس كارلوس برستس عندما اجتاز ماتوغروسو، يا صديقتي! وقليلاً ما كان يهمه الآن أن يزحف على ريودي جانيرو، أن يقلب أرثور برناردس ليضع مكانه سياسياً ينشر بعض القوانين، ويغمض العينين ويسد الاذنين أمام المشاكل التي كان لويس كارلوس برستس قد اكتشفها، تعرف

---

(١٨) La Tifundia القطاعية كبيرة من الأرض.

(١٩) نسبة إلى الشاعر الايطالي المشهور دانتي.

إليها وكابدها. وفي أحد الايام، في المنفى، عندما انتهت ملحمة الطابور، قال برستس، يا صديقتي، بصوته الصافي:

ـ «عندما قررنا الزحف نحو شمالي البلاد، كانت أهداف الطابور العسكرية، حتى من الناحية التكنيكية، قد أصبحت في الدرجة الثانية من الأهمية».

وأضاف مفسراً عباراته هذه بما يلي:

ـ «إن ما كنا نهدف إليه بصورة خاصة، هو أن نوقظ جماهير الداخل، أن نرفعهم من حالة الجمود المتردين فيها والتي جعلتهم لا مبالين بمصير البلاد، يائسين من ايجاد علاج لأوجاعهم وآلامهم. لقد كانت تلك هي عملية ذات طابع سياسي واجتماعي قبل كل شيء... وإن كل الدلائل تشير إلى أن ما استهدف قد حُقق على أحسن الوجوه».

إن هذه الأهداف قد حُققت، يا صديقتي. فبالنسبة للأناس اليائسين في الداخل، بالنسبة لهؤلاء الناس المحنيي الظهور تحت نير العبودية، كان مرور الطابور يترك وراءه فيهم ذهنية جديدة.

ذلك كان السبب الذي دعا إلى تسمية قائد هذا الطابور: بـ **«فارس الأمل»**. فمن على سرج حصانه، ومن على حد سيفه، كان يحمل الأمل إلى البؤساء، إلى ملايين البؤساء: إلى شعب البرازيل. وعند اجتيازه لماتوغروسو، لأنهارها المغلفة بالأسرار، للاتيفندياها الواسعة، حوّل لويس كارلوس برستس ثورة سان باولو وريو غراندي العسكرية إلى ثورة اجتماعية. وصنع بذلك ما يشبه التمديد لانتفاضته وانتفاضة ميغيل كوستا. لذلك لم يكن لقلب الحكومة بالقوة واستبدالها بمعارضةٍ تستند على القوى الاقتصادية التي انتخبت الرئيس الآخر، أية جدوى. كان يتوجب إثارة الشعب من أجل الدفاع عن حقوقه، وجعله يعي مشاكله، ويخلق رؤساء قد يرتبط مصيرهم بمصير هذه المشاكل، لا رجالاً يناقشون القضايا السياسية المحلية، في البرلمان وفي الصحف. تلك كانت فترة حاسمة في حياة برستس، يا صديقتي، فترة

تعطي فكرة عن مستواه الذهني وعن كفاءته كقائد. وخلال معركة بارانا، عرض برستس منهجه على المارشال ابزيدورو، وكان قوام هذا المنهج الزحف على ريو دي جانيرو، بعد قلب الحكومة. ولكن برستس تخلى عنه بعد قليل من ذلك.

لقد كان برستس قد انتهى من اجتياز داخلية البرازيل، من اجتياز البارانا وماتوغروسو، وشاهد المشاكل والفواجع، والمأساة التي لا شبيه لها. ولم تكن الأسباب التي دعته إلى التخلي عن منهجه في الزحف على ربودي جانيرو، بهذه السرعة، ذات طابع عسكري. فبفضل عبقرينه الستراتيجية، التي طالما فرضت نفسها، كان باستطاعته، دون شك، أن يقود هذا الزحف إلى نهايته الفضلى. ولكن برستس كان يفكر بأن أكثر ما كان يهم، هو أن تُحمل الثورة إلى الشعب، وأن يُدفع هؤلاء اليائسون إلى وعي حقيقة مأساتهم، وتفهم وسائل حلها. لقد كان يحمل الثورة إلى الشعب.

لقد قلتُ لك، يا صديقتي، إن برستس كان قد بدأ بمرحلة السير الكبير، قبل أن يدرس في الكتب الحلول التي اقترحها ماركس ولينين. كان قد شاهد الاستثمار الوحشي للانسان على أراضي الزمرد في ماتوغروسو وغوياس. وعندما تعرّف، في المنفى، إلى الماركسية، لم يكن لسروره من حدود. لقد كانت الحلّ لكل المشاكل. وإذا ما كان السير الكبير لم ينته، يا صديقتي، إلا في سنة ١٩٢٧، فذلك لأن برستس، الذي كان شرف المبادىء والعمل، بالنسبة إليه، شرطاً للحياة، لم يكن يودّ خداع الشعب. كان عليه، هو نفسه أولاً، أن يجد حلاً لمشاكل البلاد. وعندما يجده، يحمله إلى الشعب! وخلال السير الكبير، مثله في ذلك مَثل اوكليدس دكوين أمام نضال السرتون، ومَثل كاسترو ألفيس أمام استعباد الزنوج أيام الامبراطورية، كان برستس ماركسياً دون أن يكون قد درس الماركسية بعد. لقد كان لهذا اللواء الرؤى العبقرية والنبويّة للشعراء. وشعره، لقد كان يكتبه مع جنوده، بسيفه، بالرشاشات، مع بائعات المؤن للعساكر، كان يكتبه بشجاعته وكفاءته. لقد كتب هذا الرجل، ولا يزال، أجمل القصائد

الأميركية. اسمه هو أروع عنوان لقصيدة. وإن قصيدته حول السير، هي قصيدة الأمل، حيث سار الفارس لويس كارلوس برستس على رأس طابوره.

وأطلقت على جنود الشعب جميع الاسماء: طابور الموت، طابور الفينيكس [٢٠]، طابور لم يُقهر، طابور برستس. ولكن الشعب عندما كان يقول طابور برستس، كان يقول أيضاً طابور الأمل. وكان لويس كارلوس برستس، فارس الشعب، فارس الأمل، بلحيته الطويلة، وعينيه المشتعلتين، ووجهه الهادىء، وقد افترّ ثغره عن ابتسامة حزينة إنما مملوءة بالثقة، يسير على رأس الطابور.

منذ أيام ماتوغروسو، منذ أيام غوياس، أمام المشهد الرائع لهذه الأرض الخضراء، الفياضة الغنى والخصب، والتي تستطيع اطعام العالم، وأمام المشهد المتناقض للفقر ـ الفقر اللامتناهي، ـ للفلاحين الذين يموتون جوعاً على أغنى أراضي العالم، ـ بدأ برستس يقدّم العدالة. لقد كان يعرف جيداً، يا صديقتي، أنه، بإتلافه السجلات التي سجلت فيها الضرائب الفادحة على الطبقات الفقيرة، بتحريره المساجين الأبرياء، ضحايا قسوة أسياد الأرض، بالغائه المحاكمات الوحشية، لم يكن يحل مسألةً تفتقر إلى الحل. ولكنه كان يعرف أيضاً أن كل سجل ضرائب أتلف، كل سجين بريء حُرر، كل جريمة قتل أوقف تنفيذها، كل فم جائع أطعم، كل حكمٍ أُحرق، كل قاض عُزل، كان يعرف أن كل عمل مما ذُكر كان يقدم درساً رائعاً للشعب، درس ثورة ودرس أمل. وعندما كان يعطي الأمر للدكتور لورنسو موريرا ليما، المحبوب والفاتن، والملقب بـ «حامل البكالوريا الضاري»، لأن يدرس الحيل القضائية التي استطاع بواسطتها الأسياد الاقطاعيون تغطية أعمال السلب، والاتهامات الموجهة ضد الفلاحين الفقراء الذين ناضلوا دفاعاً عن

(٢٠) Phenix: طائر الفينيق وهو طائر خرافي وحيد من نوعه، عاش خلال عدة قرون وسط الصحارى العربية وقتل نفسه على كومة حطب مشتعلة، ثم بعث حياً، من خلال رماده ـ المعرّب.

قطعة أرضهم الصغيرة، عند ذلك كان ألوف الفلاحين يفهمون بأن النضال من أجل الأرض كان عادلاً. وعندما كان يأمر، أمام الشعب، بتمزيق السجلات التي تحتوي الضرائب الفادحة التي تغني أسياد الحكم، كان يعلّم الشعب بأن يثور ضد ضرائب وقرارات وقوانين العبودية. إن هذه الجماهير المفتقرة إلى الغذاء، والتي تموت جوعاً وسط غنى لا يُصدّق، لم تكن قد ناضلت مطلقاً من أجل طعامها. فكان برستس يقدم لها هذا الدرس، كل يوم، بتقديمه العدالة.

كان يحمل الثورة بين جنبيه. ولم يكن يعرف تماماً أية ثورة هي هذه. عندها، يا صديقتي، بدأ يقرأ. وخلال السير، وفي وسط المعارك، أثناء اجتيازه على ظهر حصانه الدروب التي كان قد افتتحها بين الأدغال، كان يقرأ، مفتشاً في الكتب عن حلٍ للمشاكل التي كانت تعترضه. ولكن الكتب كانت نادرة على طريق الطابور. ولم يتلق من المعجبين به مكتبة ماركسية كاملة، كهدية في عيد ميلاده، إلا في ما بعد، في منفاه في غايبا.

وبالرغم من أيام الطابور المثقلة بالعمل، حيث كان عليه أن يضع خطط المعارك، وكان عمله كقائد يأخذ منه جلّ وقته، وعمله كرئيس أركان الحرب يتطلب منه توضيب الأعمال، ابتداء من تخمين عدد الزوارق الواجب تهيئتها لاجتياز الانهار الكبرى، حتى وضع الخطط والتصاميم، بالرغم من كل ذلك، كان برستس يجد وقتاً للمطالعة. وصنع برستس خلال سير الطابور، مخططاً جديداً للبرازيل، وضع عليه أسماء انهار وجبال كانت لا تزال مجهولة حتى ذلك الحين. لقد كان لواءً، مهندساً، جغرافياً، طبيباً ـ وبالأحرى أية مهنة لم يتقنها خلال هذا السير؟ أية تفاصيل معارف انسانية غابت عن عبقريته العظيمة؟

إنه الآن على أراضي الغوياس، حيث مرّ قبله «البنديرانتيون» خلال مطاردتهم للهنود، وبحثهم عن الزمرد في المياه الخضراء لهذه الانهار السحرية، وافتتاحهم للطرق وبنائهم للمزارع. لقد كانوا قادمين من ماتوغروسو ـ لغز العالم، فتنة المغامرين والعلماء، بهنودها المتوحشين، بصيادي حيواناتها

المفترسة، بعلمائها المختفين إلى الأبد. وتشكل الغوياس جزءاً متمماً لأسرار غابة ماتوغروسو. إن النجد المتوسط يثير الأسرار الغامضة لنباتاته وحيواناته. انهار خضراء محملة بالزمرد والذهب، ترافقها سهام الهنود ومسدس الأبيض المثير.

وفي الثالث والعشرين من حزيران، دخل الطابور بوراكاو، في سفح جبال سانتا مارتا. واحتفل هناك بليلة القديس يوحنا ذلك القديس الذي كان يلقي الخطب على الشعب على ضفاف الاردن، خطباً ضد الوالي وسجنه المظلم القذر، وكانت عبارته تتجاوب كاللعنة ضد الحكام العاطلين. ياالليلة القديس النقادة، أكثر ليالي الأعياد شعبية في داخل البلاد. وقبالة البيوت أوقدت النيران وتعالى لهيبها في الفضاء مهمهماً. إنها أيضاً عيد الذرة؛ حيث تؤكل الكانجيكاس[٢١] والمانوس[٢٢] والباموناس[٢٣] والكوسكوس[٢٤] والمانزوكا[٢٥]، وطقطقت السنابل في المجامر. واحتفل الثوريون في هذه الليلة من حزيران، بقديس الاردن، الذي تحدث عن الثورة على شاطىء نهر. وأوقدت النيران في النجد الواسع، وكانت نجوم الأرض تلمع لمعان نجوم السماء. وكان الجنود يرقصون ويغنون على أنغام (مزّيكة)[٢٦] وقيثارات هيئت منها جوقة موسيقية؛ وكانت بائعات المؤن للعساكر يرقصن، وكانت أونسا ترقص؛ وكانت الانغام تذكّر بليالٍ أخرى للقديس يوحنا، في القرية التي ولدنا فيها. وكان لهذا العيد الذي يحتفل به الجنود وسط أسرار النجد، بين المياه الزمردية لأنهار الغوياس، شيء ما، نوراني خارق؛ وكان الرجال والنساء يقفزون من فوق النيران ويسيرون مزدوجين؛ وكانت السماء مشعة بالنجوم وقد أحاطت بها أرض يتوجب السيطرة عليها. وكان الرجال خلال هذه الساعة الشعرية الحنونة التي يحتفلون فيها بالقديس، يذكرون أعياد الوطن اللطيفة الهادئة، وينسون المعارك والسير اللامتناهي بين القذائف، والحسرات والمصاعب. ثم، وقد سيطر عليهم نغم الآلات الموسيقية وغرقوا في

(٢١) (٢٢) (٢٣) (٢٤) (٢٥) نوع من الكعك مصنوع من الذرة يحبه البرازيليون كثيراً.
(٢٦) Accordéon.

بحار الذكريات، تركوا لأنفسهم العنان لترتمي في أحضان حتى الرقص طيلة الليل، إلى أن أعلن النفير، عند الفجر، نداء السير.

واحتُفل بمرور السنة الأولى على ثورة سان باولو بعد ذلك بوقت قليل؛ وصادف ذلك، الذكرى السنوية الثالثة لثورة حصن كوبا كابانا. وألقى جوريس وبنبيرو ماشادو بالما خطباً، وأقام أحد الكهنة قداساً، وانضم كاهن آخر إلى الطابور، هو الأب مانويل دي ماسيدو.

خلال هذه السنة من السير، اجتازت الثورة طريقاً طويلاً. وهي لم تجتز داخلية البرازيل، ولم تتآلف مع مشاكلها فقط، بل أعطت كذلك الأمل للشعب. وخلال هذه السنة، أصبح الاسم المجهول سابقاً لنقيب الفرقة الفنية، لويس كارلوس برستس، اسماً للـواء لـويس كـارلـوس بـرستس، رئيس الطابور، الذي يحمل الثورة خلال البرازيل. إن سيكيرا كامبوس، الذي كان قد عاصر وعاش الصباح الملحمي لرجال كوبا كابانا الثمانية عشر، والذي كان يفهم الثورة «كانتفاضةٍ» تسمح بقلب الحكومة بالقوة، يعرف الآن أن الثورة بدون الجماهير تعني استبدال رجل بآخر. إن الضباط والجنود يفيدون من درس برستس. والعشب يقترب الآن من الطابور بينما أخذ الحكوميون يواجهون كثيراً من الصعوبات خلال تجنيد طوابيرهم من «المتطوعين». ومن أعمق أعماق داخلية البلاد، كان الفلاحون يفدون لمشاهدة اللـواء لـويس كارلوس برستس، لمشاهدة الرجل الذي يجعل من سجلات الضرائب والاحكام الجائرة وقوداً للنار. يفدون لاستشارة ضباطه، لمشاهدة سيكيرا كامبوس، الذي اقترب منه سوريٌّ متأثر ودود، وقبّل منه اللحية بحركة مودّةٍ شرقيةٍ مضحكة.

وكتب الفلاحون رسالات إلى برستس، ليحيطوه علماً بأنهم يطلقون اسمه المحبوب على مواليدهم، وأنهم، لما كانوا لا يستطيعون اطلاق هذا الاسم على الساحات العامة، فهم يطلقونه على حدائق منازلهم الفقيرة. وأضحى الشعب يتوجه إلى الـرؤساء الثوريين مقدماً إليهم طلبات محددة. إنه يثق بهم.

ذلك كان مثال سكان مدينة أنـابوليس، مثلاً. فعندما كان الطـابور

ـ وهو يتابع سيره ـ قد وصل في وقت ما إلى مسافة لا تبعد أكثر من ثلاثة فراسخ عن المدينة، جاء السكان يطلبون إليه أن لا يدخل المدينة لكي يتجنب معركةً مع القوات العدوة، المنتظر وصولها. لقد كان هذا طلباً محدوداً وتحذيراً في الوقت نفسه: لقد أضحت حياة الطابور شيئاً يهم الشعب. وقبل برستس الطلب وتوجه الطابور نحو الشمال.

وما كاد الطابور يعاود السير، حتى رأت فصيلة كورديرو دي فارياس نفسها، وقد انتهت من اجتياز أحد الأدغال، بصفتها فصيلة الطليعة، تواجه قوات كلينجر المعادية. وكانت صبيحة العراك هذه ضد القوات الحكومية في الغوباس، صبيحة حاسمة. كان كلينجر وقواته يسيرون على الطريق الرئيسية، أمام الهضبة غير البعيدة عن تلك التي تقبع فوقها مدينة أنابوليس، تلك المدينة التي كان من الممكن أن تصبح ساحة للعراك، فيما لو لم يُحذّر برستس من قبل الشعب. لقد كانت الساعة هي العاشرة صباحاً عندما بدأ كورديرو دي فارياس القتال مع كلينجر. واحتل جوان ألبرتو منعطف الطريق لكي يسد على العدو سبيل الهرب. واستمر القتال حتى الساعة الرابعة بعد الظهر. ولم يستطع الافلات سوى سيارة واحدة، تقل طبيب القوات الحكومية. أما شاحنات كلينجر، تلك الشاحنات التي ضحى الملازم مودستو وكثير من الجنود حياتهم في معركة «أنفرنا دازيكالوبس» من أجل الحصول عليها، قد استولي عليها الآن. واحرز الطابور انتصاراً عظيماً على قوات كلينجر، وأجبرها على التوغل في الدغل، مخلّفة وراءها شاحنات وسلاحاً وذخيرة وعدداً من الأسرى والقتلى.

ومن خلال الامطار العرمة والحرائق التي أحدثها الجنود، تقدم الطابور نحو الشمال. إن السكان يتجمعون الآن، يا زنجيتي، حول الطابور، يتعلقون به، في المناطق البائسة، تلك التي كانت إلى الأمس القريب مناطق الذهب، حيث كان المغامرون القادمون من كل النواحي يلقون بأنفسهم في بحار حمّى الربح. وهناك كاهنان زنجيان هرمان كانا يقرآن القداديس من أجل انتصار السير الكبير. وكان جوريس يتحدث مفسراً للشعب ماهية الثورة. وكان

الرجال يقبّلون يد ميغيل كوستا ، القائد ، بينما كان الثأر يستحوذ عليهم أمام برستس ، اللواء العظيم. وكان الأمل يسبق الطابور . وحيثما كان يذهب هذا ، كان يلاحظ أن وجوده قد خلق الأساطير . وكان يجد في كل مكان الثقة التي بعثها في الناس ، يجد الأمل ، يجد الأمل يا صديقتي . وكان الناس يتدفقون من كل الجهات لرؤية **فارس الأمل**، لمشاهدة الطابور لم يُدحر مطلقاً ، لمشاهدة اندلاع اللهيب في سجلات الضرائب .

وتابع الطابور سيره نحو مارينياون . ودحر سيكيرا كامبوس شرطة غوياس المندفعة لمطاردة الطابور . ووصل هذا الأخير إلى نهر بالما ، فاجتازه ، ودخل مدينة ناتيفيداد ، وتوجه بعد ذلك شطر بورتو ناسيونال ، حيث صدر أحد اعداد الـ « اوليبر تادور » ، جريدة الطابور . ومن بورتو نـاسيـونـال ، سـار الطابور باتجاه حدود مارينياون . وطلبت القبائل الوطنية ، المحاطة بظروف عيش فظيعة ، والمضطهدة من الجميع ، حماية الطابور ، وذهب الشافنتس (٢٧) والجافاس (٢٨) لمقابلة برستس في جبال بيابانا . حدثوه عن تعاساتهم ورافقوا الطابور في سيره بضعة أيام . وفي بدرو الفونسو اجتازوا نهر سونو ، ومشت طلبعة الطابور باتجاه مارينياون . وحاذى القسم الأكبر من الطابور في سيره شواطىء التوكانتنس ، ليصل في اليوم الحادي عشر إلى نهر مانويل ألفيس غراندي ، متغلغلاً بذلك في ولاية مارينياون . لقد سار برستس ، يا صديقتي ، بحملة غوياس ، نحو نهاينها المظفرة ، فدحر فِرق كلينجر وأثارَ شعب هذه الولاية .

إن التعطش للثورة وطعم العدالة ، اللذين أثارهما الطابور في هذه الشعوب خلال مروره ، ظلا ثابتين ، ثبات الاطمئنان إلى أن حياةً أفضل كانت ممكنة ، وأن من الواجب العمل للحصول عليها . وبقي البذار الثوري في هذه الحقول ، في منطقة نجادِ وانهار غوياس ، بين أناس غارقين في بحار العبودية .

لقد امتلأ قلب بـرسنس، ألماً ، يـا صـديقتي ، لملاحظتـه استمـرار عصر

---

(٢٧) (٢٨) هنود من اكلة لحوم البشر .

العبودية في ماتوغروسو وفي غوياس. لقد شاهد العبودية في البراري في أقذر مظاهرها. شاهد في اللاتيفنديا، الأسياد، أرباب المهن، رؤساء الورش، حاملين السوط في يد، والمسدس في يد، وشاهد في وسط المزرعة أدوات التعذيب، والمخزن الذي تباع فيه البضائع بأسعار فاحشة، لقد شاهدت عيناه كرجل هذا المنظر. ومنذ ذلك الحين، ظل يسيطر على ابتسامته أثرٌ لحزنٍ كبير، وعلى وجهه ارتسمت بثبات أعظم عزيمة الثورة. وفي الليالي المنجمة، حيث كانت تلمع الحباحب، شاهد جموع «البابودوس»[٢٩] الغفيرة التعيسة، وفي غوياس، طالعه المنظر الفاجع للبؤساء المصابين «بمرض الشاغاس». في هذه الأرض الخضراء، حيث يتدفق الزمرد، كان عدد الحباحب يفوق عدد النجوم. لقد كانت هذه الأرض الغنية الجميلة، يا صديقتي، أكثر الأراضي فقراً بالقياس إلى الانسان الذي كان يسكنها، وكانت أفجعها أيضاً. في هذه البلاد المهجورة من قبل الاطباء، من قبل الحكومة، من قبل الوزارة وأمانة سر الصحة العامة، كان مرض الشاغاس - أكثر الأمراض خطورة - يقوم بجولاته المخربة. الوزارة كانت تفكر بالخطب الجميلة التي سوف تلقيها. وكان أمين السر يفتش عن وسائل تزوير الانتخابات. ما الذي كان يهمهما من مرض الشاغاس؟ ما الذي كان يهمهما من «بابودوس» الداخل الذين يموتون بالعشرات؟ وفي مدخل سان باولو دي بندوكا، في بلدةٍ تقع على حدود ميناس وغوياس، وجد برستس جميع الأهالي مصابين بمرض الشاغاس. لقد كانوا زنوجاً مهجورين من العالم كله. إنه جنس كان يزول، إنها مدينة كانت تموت، بعيدين عن كل مدنية، دون أدوية، دون أطباء. لقد كان مشهداً لموتٍ جماعي. ولقد عاش زنوج «البابودوس» خلال أشهر وسنوات، مجردين من أي أمل. لقد كانوا ينطفئون ببطء، وكان الصمت يستولي قليلاً قليلاً على المدينة. وبعد هذا المشهد ازداد وجه برستس الطلق قساوة، وازدادت ابتسامته حزناً، يا صديقتي. وشعر برستس مجدداً بأنه أكثر بعداً عن الرؤساء السياسيين الثوريين في المدن الكبرى، الذين كانوا يظهرون

(٢٩) مرضى مصابون بمرض الشاغاس المخيف.

له شبيهين بالرؤساء الحكوميين. وأحس باطراد أنه قريب من الشعب. لقد كان يقدم العدالة، يعلم نفسه، يعيش، وقد بدأ يفكر بيوم الثورة الكبرى.

وعلى ضفاف النهر، يا صديقتي، شاهد الهنود يأتون إليه، شاهد السافانس والجافاس، المجردين من كل شيء، المطرودين كالحيوانات المفترسة، المضطهدين كالمجرمين. لقد كانوا يطلبون إليه، هو، لواء الثورة، الحماية وتقديم الأدوات للعمل في الأرض. وشاهد في بورتو ناسيونال الزنجي جوان فرنسيسكو، المسربل بالقيود منذ أربع سنوات، والذي تعرض قبل ذلك، وخلال سبع سنوات، لضروبٍ من العذاب المرعب. وكان القاضي الذي لفظ حكمه بايداعه السجن طيلة ثلاثين سنة، ثملاً عند اصداره الحكم، ولم بكن قد سمع اعلان المحلفين براءة المتهم. ولم يهتم المحامي باستئناف الحكم لأن موكله لم يكن يملك مالاً يدفع به أجره. وهكذا قُدّر على الزنجي الهرم البريء جوان فرنسيسكو، الذي لم يكن قد ارتكب جرماً، والذي برّأه المحلفون، أنٍ يدفع من حياته سبع سنوات جحيم وأربع سنوات تكبيل بالسلاسل، «بالرجلين وباليدين»، ثمن عادة السكر لدى قاضيه. هكذا كانت، ولا تزال، تقدم العدالة، يا صديقتي، في داخلية البرازيل.

وامتلأت عينا برستس بالكآبة أمام كل هذه المظالم وهذه التعاسة، أمام هذا الألم وهذا البؤس! وفي داخلية نفسه كانت تتجاوب بقوة أصداء هذه الفكرة: إنه لن يكون أبداً في صف أولئك الذين كان تفكيرهم لا يزال غير واضح المعالم وغير حازم. إنه من الآن وصاعداً سيكون في خدمة الشعب، السائر بأملٍ، بشجاعته المطمئنة، نحو اليوم الذي سوف تنتصر فيه العدالة.

وخلّف الطابور، يا صديقتي، في ماتوغروسو وفي غوياس، كما كان قد خلّف في ربوغراندي دوسول، في سانتا كاتارينا وفي بارانا، ذكرى مرور **فارس الأمل**، ذكرى لويس كارلوس برستس متقدماً على رأس طابوره، ثابتة ثبوت الأمل.

وفي جميع البيوت الفقيرة، يا صديقتي، في بيوت أولئك الذين كان

يُرفض تقديم العدالة إليهم، في بيوت الجياع، كانت تقوم إلى جانب صورة القديس روك وصورة القديس بينيديتو وصورة العذراء، صورةٌ، هي أشبه ما تكون بصورة قديس، مقصوصة من جريدة، للضابط الشاب الملتحي، الرزين، المكتئب بعض الشيء، ذي العينين الملتهبتين والمتطلع نحو المستقبل. وكما لو كان الأمر يتعلق بقديس، كان الناس يشعلون شمعتين تحت الصورة، ويصلون أمام ذلك الذي كان عليهم أن يضعوا فيه أملهم. وفي كل بيت فقير، في كل ضيعة، في كل ناكمبو[٣٠]، وفي كل مكان كان يُتنشق فيه عبير الحرية، كانت صورة لويس كارلوس برستس معلقة، يا صديقتي، كلوحة تمثل الأمل: في أسفلها تقوم شمعتان، وفي ما حولها يشع الأمل.

وكان على الطابور أن يبدأ الآن حملة مارينياون وبياوي، ومن ثم يهبط نحو الشمال ـ الشرقي، مجتازاً سيارا، ريوغراندي دونورتي، بارابيبا، برنمبوكو وباهيا. وكان عليه أن يربح معارك، يقاتل ويتقدم باطراد. وكانت عائلات بكاملها تغادر المزارع والبلدان والمدن، لتشاهد، مغلفة بالفرح، مرور جنود برستس، كما لو كان الأمر يتعلق بيوم عيد؛ وكانت تحمل معها البن والحليب وكعك الذرة والأدوية للجرحى. وسوف يستمر عرض هذه المشاهد كل يوم من الآن فصاعداً. لقد كانت ماهية الطابور قد وضحت، كما كانت قد عُرفت أسباب وجوده وأسباب نضاله. وكان قد عُرف من هو برستس وماذا كان يريد، وماذا كان يعمل. وكان اسمه قد أصبح أكثر الأسماء شعبية في جميع انحاء البلاد. وبالرغم من أنه قد حُدد ثمن في ربو للاتيان برأس برستس، فإن السرتونيين الشماليين، كانوا يحملون الزهور والما كل إليه وإلى جنوده. ووسط مظاهر هذا التضامن الشعبي المثير، يا صدىقتي، جرت حملة بياوي مارينياون.

واجتازت مفرزة جوان البرتو، بصفتها فصيلة الطليعة، إلباسو كوديرو نحو مارينياون. ولم يمر القسم الأكبر من الطابور إلا فيما بعد. وفي الثالث عشر

(٣٠) بيت مدلع الفقر يسكنه عمال.

من الشهر، تقدمت مفرزة كورديرو دي فارياس، نحو مدينة كارولينا، في الشمال، حيث كان جوريس تافورا. وتوجه قسم آخر من الطابور شطر سان انطونيو داس بازاس، ومن ثم توجه نحو سان رايموند وداس مانغابيراس، ودخلها في التامن والعشرين من الشهر. وكان جوان البرتو قد ذهب ومفرزته نحو غراجو. وكانت مهمته أن يحرر الليوتنان كولونيل باولو كروجر، الذي كان ميغيل كوستا وبرستس قد ارسلا به بمهمة سياسية لمقابلة زعماء المعارضة في مارينياون فأسرته القوات الحكومية ونقلته إلى عاصمة الولاية قبل وصول جوان البرتو وقواته. وفي الثاني من كانون الأول، احتل الطابور قرية لوريتو على حدود بياوي. وستنضم إليه، في ري شون، مفرزة كورديرو. وسيطر «دجلها دوترا» على بلدة سان فيليكس وبدأ معركة ليست بذي بال. ووصل الطابور إلى مورادور في السابع من الشهر. وتقدم باطراد في ولاية مارينياون، نحو الشمال، بغية تهديد مدينة تيريزينا، عاصمة بياوي، الواقعة على حدود مارينياون.

وبأسر كروجر، أخفق منهج قيام ثورةٍ كان عليها أن تقدم الولاية لقوات الطابور. فقرر برستس، بالاتفاق مع ميغيل كوستا وجوريس، مهاجمة سيارا. ولكن، بما أن هذه الولاية محروسة جيداً من قِبل قوات برناردس، فقد خطر لبرستس أن يحرّض قوات الحكوميين على مطاردته، بفضل حملة سريعة في مارينياون وبياري وفيما إذا تأخر في هاتين الولايتين، مهدداً المدن، متنقلاً بصورة سريعة من ناحية إلى أخرى، فسوف تتدفق القوات الحكومية لمطاردته، ويصبح بالامكان عندها اجتياح السيارا. وحقق برستس هده الخطة بصورة رائعة. وكانت قوات الطابور في أول كانون الأول معسكرة في لوريتو، على بعد ثلاثة عشر فرسخاً من نهر بازاس. وتقدمت مفرزة جوان البرتو وحدها من غراجو نحو ميرادور.

كانت القوات الحكومية البالغ عددها الاجمالي ألفاً وخمسمئة رجل ـ فوج من الجيش، الفوج الثالث والعشرون من قوات شرطة سيارا ومفارز الكانغاسيروس المأجورين للحكومة ـ كانت كلّ هذه القوات معسكرة في

« بينيديتو لايتي » وفي « اوروسوي »، وهما مدينتان من مدن بياوي. ومن هناك تقدم الطابور نحو ميرادور. وقد خدعت دجلها دوترا، وهي تتقدم بصورة موازية للقسم الأكبر من الفرق، العدوّ بأن حوّلت نحوها الانتباه البرناديسيين. وكانت في كل الأيام تتبادل معهم إطلاق النـار، إلى أن تـرك العدو « بينيدبتو لايتي » و « اوروسوي ». عندها توجه الطابور نحو فلوريانو بيشوتو، إحدى مدن بياوي. وخلال هذا الوقت أرسل برستس مفرزة جوان البرتو، القادمة من غراجو، نحو ضفاف البارانا.

وفكر برستس باحتلال مدينة فلوريانو بيشوتو، ولكن العدو غادرها، كما غادر أمارانتي، المهددة من مفرزة سيكيرا. ووصل جوريس، الذي كان تابعاً لهذه المفرزة، في العشرين من الشهر إلى أمارانتي، حيث كان برستس قد وصل قبل عدة ساعات من ذلك. وأقيم مركز اركان الحرب في فلوريانو بيشوتو بينما توجه دوترا وجوان البرتو، بقيادة جوريس نحو تيريزينا، باتجاه الضفة الشمالية للبارابيبا، كما سار كورديرو دي فارياس وسيكيرا كامبوس على محاذاة الضفة الشمالية بقيادة اللواء برستس المتقدم مع مفرزاته. أما ميغيل كوستا، فقد كان يدافع عن مواقع فلوريانو مع قسم من الطابور. وهكذا كانت مهاجمة عاصمة بياوي قد بدأت، يا صديقتي.

وفي الثالث والعشرين من الشهر، وصل تافورا إلى سان بدرو، وتحدث في يوم عيد الميلاد إلى برستس في رياشون سيكو؛ وفي الثامن والعشرين منه، اتصل بالعدو. وفي هذا اليوم نفسه وصل برستس إلى فلورس. وكان ثلاثة الاف رجل يدافعون عن فلورس وتيريزينا بقيادة غوستافو بنتومولر. وكان اللواء جوان غومس هو القائد الأعمى للقوات الحكومية في الولايتين. ومن مركز أركان حربه في سان لويس دي مارينياون، كان يقود سبعة آلاف رجل. وكانت القوات السائرة لمواجهة الثلاثة آلاف حكومي، مؤلفة من ثمانمئة رجل، أربعمئة منهم بقيادة برستس، وأربعمئة بقيادة جوريس.

وبينما كان جوربس يهاجم تيريزينا، انقض برستس، بدوره، على مدينة فلورس، وقطع مواصلات السكك الحديديـة مع الكـاشيـاس. إن عمليـة

برستس هي الآن في أهم مراحلها. وها هي الحكومة، وقد خشيت أن تسقط عاصمة البياوي بين ايدي الطابور، ترسل إلى هذه الولاية بجميع القوات التي تملكها في السيارا. وجُردت السيارا بصورة ضمنية من جميع قواتها. وأعطى برسس الأمر برفع الحصار عن تيريزينا وفلورس، وتوجه، بين دهشة الحكوميين العظيمة، نحو السيارا. وهكذا وجد العدو نفسه أداة طيعة تماماً بيد الطابور، بفضل خطة اللواء الثوري.

ووسط هتافات الجنود، عُيّن برستس لواءً في العشرين من شهر كانون الثاني، من قبل ميغيل كوستا. وأصبح جوان ألبرتو وسيكيرا زعيمين. وبعد أن اجتاز الطابور الكاتنغا وغابات الكارنوبيراس [٣١]، واجتاز سيارا غراندي، وصل إلى بلدة بيوشيز، على حدود السيارا. وفي الثاني والعشرين من الشهر دخل هذه الولاية، ارتاح في إحدى المزارع، ثم سار فوراً نحو أرنْيروس، على نهر جاغواريبي، واجتازها في الخامس والعشرين منه. أما جوان البرتو، فقد تغلغل وفرقته أكثر إلى الشمال، شطر مدينة أيبو، التي تسيطر على قسم من سكة حديد سوبرال، مهدداً بذلك هذه المدينة وعاصمة الولاية. وما كادت قوات الطابور تعاود تجميع نفسها، حتى واصلت سيرها في السيارا نحو ريو غراندي دو نورتي. وفي التاسع والعشرين من الشهر، اجتازت خط سكة حديد باغوريتي، واحتلت محطة سوسويارانا. وفي الواحد والثلاثين منه اتصلت بالعدو. ووصلت في الثاني من شباط إلى بوانيستا. وكانت نطمح إلى دخول ولاية برنمبو كو، حيث يُنتظر قيام ثورة كليتو، وهو ضابط في الجيش كان قد توصل إلى الاتصال ببرستس، وأطلعه على خطته للقيام بانتفاضة في برنمبو كو وفي بارابيبا. توجه برستس إذن نحو هذه الولاية لكي يؤازر الانتفاضة. وفي الرابع من شباط، اجتاز الحدود الفاصلة بين السيارا وولاية ريو غراندي دو نورتي، من منحدر مييونس.

إن صعود هذا الجبل على صراط جهنمي، تحت وابل من نيران العدو

(٣١) شجرة كبيرة من أشجار الغابة العذراء.

القابع في القمم، هي واحدة من أعظم بطولات الطابور. وكانت دماء الرجال، وقد اضطروا إلى التقدم بطريقة الخط الهندي، تسيل عندما كانت أجسادهم تصطدم بالصخور المحيطة بالصراط. لقد كان نقل المحامل فظيعاً، وحفّت بنقل الرشاشات متاعب لم تكن بالقليلة. ومن أعالي جبال مييونس، كان العدو يمطر الطابور بنيرانه الرشاشة. ولكن لم ينتب جنود برستس أي يأس، يا صديقي. فلقد طردوا العدو من معاقله، احتلوا قمة المنحدر ودخلوا ريو غراندي دونورتي.

اجتاز الطابور منذ خروجه من غوياس ثلاث ولايات: مارينياون بياوي وسيارا. ووسط حمى المعارك والخطط الموضوعة خلال السير احتفل برستس بأكثر من عيد ميلاد. لقد سُمي لواءً، وفقد مؤازرة جوريس؛ وبفضل قوته المعنوية، استطاع أن ينتصر على تمرد بينيسيو دي سانتوس. لقد كان هذا الأخير كوشياً قرر مرافقة الطابور منذ ريو غراندي دوسول، مع رفاق له. وكان النظام العسكري، القاسي العنيف، أثقل من أن يتحمله هذا الرجل، الذي اعتاد العيش بحرية في البامباس. في ليل الثالث من كانون الأول، وجّه برستس، بينما كان يحتفل بعيد ميلاد ميغيل كوستا، تنبيهاً إلى أحد الرقباء لمخالفته النظام. ولما قابل هذا ما وُجه إليه بقلة احترام، أوقف كما أوقف عدة جنود. وعندما علم برستس بأن تصرف هؤلاء الرجال قد حصل بناء لأوامر بينيسيو، منع ميغيل كوستا من معاقبتهم، وأرسل بهم إلى مفرزتهم. ثم ذهب برفقة مساعده في المعسكر، لاندروسي، إلى فوج بينيسيو. واستدعى هذا إليه، ووضع نفسه على رأس فوجه وقرر القيام بسير طيلة أربع وعشرين ساعة مع أولئك أنفسهم، الذين حاولوا قتله بالأمس. وكان برستس ولاندروسي يسيران في الطليعة، يتبعهما بينيسيو والرقيب الذي سبق له، بناء لأوامر بنيسيو، أن شهر مسدسه على برستس. واجتازوا أراضي مغطاة بالأدغال، وانهاراً. وسرعان ما أخذ الندم يتآكل بينيسيو والرقيب والجنود. واستولى عليهم برستس بهذا الشكل. على هذا النحو كان برستس المستقيم الشجاع، يا صديقي، على هذا النحو كان يحوز على تقدير واحترام واعجاب رجاله.

خلال حملة الولايات الثلاث هذه، كان برستس في صراع مع الملاريا. ولقد انقضّ الجرب، في أول الأمر، على الطابور؛ وكان الرجال الملنحون الكثبفو الشعر، يحكّون جلودهم كقافلة عظيمة من السعادين. وخلال اجتياز البياوي، في فترة الامطار الغزيرة، انقضت الملاريا على أربعمئةٍ من رجال الطابور. وكان برستس يمشي مع الحمى، التي لم ينج من براثنها أي ضابط. ولكن هؤلاء الرجال ما كانوا يشعرون بالحمى، فما كان بمقدور المرض أن يُلحق بهم الهزيمة. وكانت الحمى تقودهم إلى القيام باعظم الاعمال البطولية. ولم نكن بالامكان أن يُحطّم هذا السير الخيالي بوباء بسيط من الملاريا. وكان الرجال المفتقرون إلى الكينا والأدوية، يرتجفون من الحمى؛ ولكنهم حتى في هذه الحال، كانوا يمشون وهم يقاتلون. ولم تكن ساعات هذيان الملاريا اليومية، في تتابعها الرتيب، شيئاً كليّ الجدة بالقياس لهؤلاء الجنود والضباط، ولهذا الرئيس. وكان سير الطابور في حد ذاته، حلماً مضطرباً. لقد كان شيئاً يعتبره الكثيرون مستحيلاً، ولكن الجنود كانوا يحققونه وسط الدهشة العظيمة لأكثر مراكز اركان الحرب فهماً في جيوش العالم كله. ماذا كان بمقدور الملاريا أن تعني بالقياس لهؤلاء الرجال؟ في البياوي استوطنت الملاريا الطابور ورافقته حتى بوليفيا. ولم ينقطع الجنود عن الاحساس بالحمى؛ ولكنهم اعتادوها وأصبحت لا تُعد مرضاً بالقياس إليهم.

على أراضي السيارا القاحلة هذه، حيث كانت الشمس تشكل أخطر الأعداء، انخفض الوباء. وكان القليل من الرجال يموتون: ستة من كل أربعمئة مريض. وعلى أثر الأمطار الطوفانية، عرضت عليهم السيارا مناظرها التي أقفرها الجفاف. وكانت ريح محرقة ترفع في الفضاء رمالاً تلمح فيها الشمس لمعانها في مرآة. لقد كانوا يمشون كما لو على نار، وقد اشتعلت منهم الأقدام وجفت الحناجر. وعقب أسرار غابات ماتوغروسو العذراء، عقب البراري، عقب نجد الغوياس وأمطار البياوي، جاء الآن دور أتون السيارا، حيث فنيت أجيال من أهالي الشمال ـ الشرقي على أثر الجفافات الموسمية وفي وسط الحر المخيف، كان الطابور يتقدم داحراً الشمس والريح النهّاشة، كما

كان قد دحر الملاريا، ودحر الكانغاسيروس.

كان لامبيون قد عرض خدماته على برستس، ولكن اللواء رفض العرض. ولقد بقي لامبيون، خلال فترة طويلة جداً، سيد ولايات الشمال ـ الشرقي؛ فإن مظالم أسياد الأرض والقوانين البربرية الموجهة ضد الفقراء، دفعته إلى الانتقام من الكانغاسو. ولكن ثورة لامبيون كانت قد أصبحت لصوصية، نهباً، عنفاً وموتاً. وجندت الحكومة لامبيون لمقاتلة الطابور؛ وكما لو أنها كانت تريد إهانة الجيش ـ إهانة إضافية في عصر الاستبداد هذا ـ منحت لامبيون رتبه نقيب. ولم يكن لامبيون وحيداً من نوعه؛ فلقد استعانت الحكومة بجميع كانغاسيروس الشمال ـ الشرقي وألقت بهم ضد برستس، وخاصة رجال الأب سيسيرو. وكان أهالي الشمال ـ الشرقي، المؤمنون بأعاجيب الأب سيسيرو وتعاطفه مع العذراء، يقطعون الفراخ لتلقيّ بركات هذا الرجل. وكان الأب سيسيرو يقطن جوازير في السيارا، تلك المدينة التي كانت تشكل في الوقت نفسه مدينته وحصنه، لأن إليها كان يلجأ الكانغاسيروس. وكان الأب سيسيرو عرّاب لامبيون، وكان يعد جميع البؤساء بأنه سوف تهبط اعجوبة من معطف العذراء الممتلىء بالنجوم. وكان يقول: سيأتي يوم تنشلهم فيه أعجوبة من تعاسة العيش. ولم يقبل الأب سيسيرو أن يسهم في النضال ضد برستس. ولما كان يريد مساعدة السرتونيين، وما كان ليستطيع أن يقدم إليهم سوى الاعجوبات، وكان يجهل المسالك التي يمكن أن تؤدي بهؤلاء الرجال إلى حياة أفضل، فلربما يكون قد شعر وسط جنونه الصوفي وطيبته التائهة، بأن برستس كان يحمل لهؤلاء التعساء من السرتونيين خلاصهم الحقيقي. لقد رفض الاسهام في النضال ضد برستس، ولكن جميع «الفلوروبارتولومو» الذين كانوا يستثمرون، تجاه أهالي الشمال ـ الشرقي، احترامه كقديس خرافي، تقبلوا بطيبة خاطر الأموال ورتب الجيش التي عُرضت عليهم فسلحوا الكانغاسيروس، ولما لم يتوصلوا إلى دحر الطابور، جعلوا ينهبون المدن والقرى، البلدان والمزارع. وأخذت تعترض الحكومة صعوبات مطردة، يا صديقتي، أثناء تشكيلها لأفواج

« المتطوعين » . وكان هؤلاء « المتطوعون » يُطردون بواسطة الانشوطة [٣٢]، من قبل الأسياد الاقطاعيين وملاكي اللاتيفانديا في ماتوغروسو وغوياس. وكانت صحافة برناردس، الخاضعة لرقابة جاكسون الاكليريكية، تصور هؤلاء العبيد، الذين كان يُلقى بهم ضد الطابور، كمواطنين متطوعين بحرية للدفاع عن « النهج السوي ». إن نشاط الطابور العسكري والاجتماعي، وواقع كونه يقدم العدالة خلال مروره، منع مطاردة « المتطوعين » من قبل « الرؤساء » السياسيين. وكان الأهالي يفرون من الجندية لكي لا يشتركوا في النضال ضد برستس. واضطرت الحكومة إلى طلب مساعدة الكانغاسيروس، اللصوص المحترفين، مرعبي السرتاوس، لكي تؤلف الفرق لمقاتلة الطابور. وعلى هذا الشكل، أصبح فيرغولينو، الذي كان قد ازيل نفوذه قبل عدة سنوات من ذلك على ضفاف سان فرنسيسكو، نقيباً، يا صديقتي. وأصبح النقيب فيرغولينو فربر لامبيون واحداً من رجال برناردس، وأخذ بقاتل ضد برسنس. لقد كان الحكوميون يصلّون من أجل لامبيون، الذي كان يغتصب النساء، بقتل الأبرياء، يخصي الرجال، ينهب الاغنياء والفقراء كانوا يصلون من أجله « أبانا » و « السلام ».

لقد دحر لويس كارلوس برستس الملاريا، دحر الشمس، الغابات العذراء والأنهار، ودحر كذلك الكانغاسيروس. وكان أسمه يتموج في سماء البلاد كطلقة نار اندفعت لتستقر في وجه اعداء الشعب في الصميم. في البيوت الفقيرة، في الأكواخ، في الما كومبا، في « سنزالس » البلاد، كانت النساء ذوات الوجنات المجوفة، والأولاد المرضى، والرجال الأرقاء، يبتهلون إلى السماء، إلى الآلهة البيض، إلى الآلهة الهنود، والآلهة السود، من أجل انتصار **فارس الأمل**. ومن الكاتنغا المحرقة كذلك، كانت تتصاعد صلوات أخرى نحو السماء، يا صديقتي.

---

(٣٢) Lasso.

- ٧ -

دخل الطابور، يا صديقتي، أراضي الشمال ـ باتجاه نهر سان فرنسيسكو. وكان على جنود برستس أن يجتازوا ثلاث ولايات أخرى: ريو غراندي دونورتي، البارايبا وبرنمبو كو. واشتركوا، خلال هذا السير، في معركة بيانكو الدامية، حيث تكللت هامات كورديرو دي فارياس وجنوده بالغار، وحيث تجاوز البرناردييسيون جميع فظائعهم السابقة، بتعذيبهم، حتى الموت، الثوريين الذين سقطوا بين أيديهم. وخلال هذا السير كذلك، وعندما حاولت ثلاثة طوابير حكومية أن تحاصر الطابور المعسكر في مزرعة بوينوس أيرس، الواقعة على سلسلة جبال سيبرّا ليغرا، استطاع بـرستس، بفضـل عبقـريتـه العسكرية، أن يحقق واحدة من أجرأ مناوراته. كان قد سبق لحاكم برنمبو كو أن أخبر ريودي جانيرو بأن القوات الثورية كانت محاصرة ومقضياً عليها بالفناء، وبأنه لم يبق عليها إلا أن تتلاشى عند محاولتها اجتياز السييرّا. وكان خمسة عشر ألف رجل يهيئون أنفسهم لانهاء قضية طابور برستس، لتصفية الثورة السائرة عبر البلاد. وكان برستس يتأخر في تلك الأماكن، بانتظار تلقي اخبار ثورة كليتو كمبيلو، التي كان عليها أن تندلع في رسيفي. وكان فشل هده الثورة، الذي لم يكن قد وصل إلى مسامع برستس، قد زاد في سرعة استعدادات الحكوميين. ولم يُعرف أمر تطويق الطابور إلا خلال بعد ظهر يوم الثاني والعشرين من الشهر. وسرعان ما رجع برستس على أعقابه، ثم اجتاز، وهو يفتتح لنفسه طريقاً صعبة المسالك في الكاتنغا ثلاثة وعشرين فرسخاً، مفتتحاً الدروب في منطقةٍ لم يكـن الكـانغـاسيروس أنفسهـم قـد اجتازوها مطلقاً. وبينما كانت الطوابير الحكومية تتابع تطـويقهـا لمزرعـة بوينوس أيرس، وتجهد نفسها لكي تحصر جنود برستس بين هذه المزرعة وبين سيرا نيغرا، كان الطابور يتقدم تحت وابلٍ من مطر جهنمي، سائراً

ليل نهار بمعدل ثلاثة عشر فرسخاً في اليوم. وبعد أن سار برستس بشكل فوس دائرة، وصل إلى نهر سان فرنسيسكو باتجاه باهيّا. ولم تجد الفرق الحكومية أقل أثرٍ للطابور في مزرعة بوينوس أيرس. وخلال هذه المناورة، التي كانت من أروع ما قام به هذا اللواء البالغ من العمر سبعة وعشرين ربيعاً، أثناء سيره عبر البرازيل، دحر برستس دروب الكاتنغا الصعبة، التي كان عليه أن يسيطر عليها، ودحر الأراضي الموحلة التي لم يكن قد غامر أحدٌ باجتيازها، وحيث كان الجنود يمشون في وحلٍ يصل إلى بطونهم. وكانت الحمالات المملوءة بالجرحى والمرضى، تُحمل حتى نهاية المطاف، بالرغم من المصاعب، بالرغم من غوص الخيول في الوحل، بالرغم من الكانغاسيروس الدين كانوا ينتظرون رجال الطابور، لتصفية أمرهم، في أطراف الكاتنغا، حث لم يكونوا، هم أنفسهم، قد تجرأوا مطلقاً على الدخول. لقد كان ذلك سيراً مرعباً خلال الليل والنهار.

كان الجنود يتقدمون في بحر من الوحل، وكان يبدو أن لم يكن لآثار السير العميقة من نهاية. وخلال الليل، الذي لا تنتهي ساعاته، كان الطابور يتقدم، ورئسة في الطليعة، غارقاً في القناذورات حتى الكتفين. وكانت أشواك الكاتنغا تمزق من جنوده الأجساد. وكانت حيوانات الليل تضيء بعيداً، كنومٍ دبّ فيه الرعب. وأخذت ضفدعة تنق في فم صلّ، بينما ظل الجنود يتابعون سيرهم، وظلت الأراضي الموحلة لا تتعرف إلى نهاية. وكان المرضى المتأرجحون على حمالاتهم، يخنقون تأوهاتهم. وكانت الليالي مجردة من القمر، والسماء خالية من النجوم. وكان الرجال يحملون في الفم زفرة مؤلمة، بينما انقبض منهم القلب ضيقاً. ليس بمقدورهم النكوص على أعقابهم؛ فلقد أحاط الحكوميون الخمسة عشر ألفاً بالمزرعة التي كانوا قد غادروها. وأخذ الرعب يسيطر على الكاتنغا، بينما كان الجنود يتطلعون إلى السماء القاتمة، التي جُردت ولو من نجمٍ واحد لهدايتهم. لقد كانوا يسمعون نقيق الضفادع المرتعبة، ونعيب البوم. إنهم وقد غرقوا في حمأة الوحل، كانوا يتطلعون إلى أمام، وكان نجمهم، يا صديقتي، هو هذا الرجل الذي كان يتقدمهم مفتتحاً

المسالك الضيقة الموحلة، هو لويس كارلوس برستس. وكان المرضى يخنقون زفرات ألمهم، والجنود يطردون الخوف من قلوبهم. ووصلوا بعد يومين من ذلك، إلى ضفاف سان فرنسيسكو. وبذلك كانوا قد اجتازوا الطريق الجهنمية، حيث لم يكن لامبيون، الذي ولد في الكاتنغا، مع هذا، ويسكنها منذ الأبد، ليجرؤ متللقاً على وضع قدميه. ولقد أنقذ برستس، بسيره عبر هذا الدرب، رجاله من الموت. لقد أنقذ الطابور من الهلاك.

لقد كانت هذه المناورة هي الأخيرة، يا صديقتي، في حملة الولايات الثلاث. وكان الطابور قد انتهى من اجتياز منحدر ميبونس تحت وابلٍ من نيران العدو. وفي مدخل ريو غراندي دونورتي، في بلد سان ميغيل، صفّت مفارز اري وجوان البرتو، أمر قوات «الوطنيين»، المؤلفة من الكانغاسيروس المأجورين للدولة. وفي الخامس من شباط، اجتاز الطابور سرّاً لويس غومس ودخل القرية الحاملة للاسم نفسه، على حدود البارايبا. لقد دخل هذه الولاية، حيث أرسل جوان البرتو لمحاولة الاتصال بالملازمين «سيرويا دامونا» و «سوزا دانتس»، اللذين كان عليهما أن يحاولا، عند اندلاع الانتفاضة في برنمبو كو، اشعال ثورة في العاصمة بارايبا. ولكن هذه الثورة باءت بالفشل. فبعد مقاومة بطولية، إثر الهجوم على أحد عشر ثورياً من قبل أربعمئة رجل، سقط «سيرويا» و «سوزا» أسيرين. وفي البارايبا، اجتاز الطابور جبال «بوافيستا»، «بدرا سيرادا» و «بيتو مبيراس»، كما اجتاز عدة أنهر. وفي الثامن من الشهر كانت مفرزة آري في «بوكيبرايو دي كوريما» حيث دحرت العدو، وفي التاسع منه سار الطابور باتجاه بيانكو؛ كوردبرو دي فارباس في الطليعة، هو ومفرزته. وفي مكان غير بعيد عن القرية، استقبل كوردبرو برصاص جنود شرطة بارايبا ورصاص الكانغاسيروس. وكان الكاهن اريستيدس فريرادا كروز، نائب الولاية، يقود القوات الحكومية. وفي الوقت الذي هوجم فيه كورديرو، كان هذا يهبط مع رجاله المنحدر المؤدي إلى مدينة بيانكو. واستمرت المعركة التي اندلعت، ثلاث ساعات، وتميزت بكثير من آيات البطولة. وقُتل وجُرح كثير

من ضباط وجنود الطابور. ولكن بيانكو كانت قد سقطت تحت سيطرة كورديرو دي فارياس.

وانضم جوان البرتو، الذي كان قد حاول الاتصال «بسيرويادا موتا» و «سوزا دانتس»، إلى الطابور. وكان قد هاجم في ما سبق القوات العدوة في قرية مالتا، حيث كانَ قد غنم سلاحاً وذخيرة. ودخل الطابور برنمبو كو. وفي الرابع عشر من الشهر، قضى دوترا وجوان ألبرتو على قوات شرطة برنمبوف، التي يقودها الزعيم جوان نونس، والتي ما لبثت أن تشتت أيدي سبأ، مخلفة السيارات والشاحنات والسلاح والذخيرة. وتقدم الطابور نحو مزرعة سان بويافنتورا. وكان ينتظر، بين حين وحين، وصول اخبار عن انتفاضة كليتو كمبيلو. وفي الخامس عشر من الشهر، دخل الطابور سان كاتانو، بينما احتل سيكيرا بمفرزته بيتانيا، وطرد منها شرطة برنمبو كو. ورأت مفرزة جوان البرتو أن نوكل لنفسها مهمة الاتصال بكليتو كمبيلو. وقاتل سيكيرا في مولوغو، وقاتل جوان البرتو في كامبو اليغري. وتقدم الطابور على دروب صعبة، حيث كان المطر غير المنقطع يحوّل المسالك الضيقة إلى مستنقعات موحلة. ووصل في الثاني والعشرين من الشهر إلى مزرعة سيبو. وهوجم من قبل العدو في اللحظة نفسها التي وصل فيها. لقد هاجمته فرق الجيش والشرطة، وهاجمه الكانغاسيروس. وأوقف كورديرو دي فارياس بطليعة الطابور تحت وابل من النيران، العدوّ، بينما اجتازت معظم فرق الطابور المزرعة. وكانت مفرزتا سيكيرا كامبوس ودجلما دوترا، أكثر من تعرّض للقتال. وفي وقت من الأوقات، دبّ الهلع في جنود سيكيرا كامبوس، وقد شاهدوا العدو يزداد قرباً منهم باطراد. وابتدأ التشتت. فجمّع سيكيرا فريقاً صغيراً من الرجال الثابتين، وتقدم نحو العدو. وعندما أحس الجنود الهاربون بخطة قائدهم الجريئة، استداروا مهاجمين وهزموا الخصم. وعندما غادر الطابور مزرعة سيبو، رافقه كورديرو وقاتل العدو، مانعاً إياه من التقدم. وبعد عدة ساعات من ذهاب الطابور، وصلت مفرزة آري إلى المزرعة، فواجهتها القوات الحكومية المعسكرة فيها. فقاتلتها وتوصلت إلى الانسحاب

والالتحاق بالطابور في مزرعة بوينوس أيرس. ومنذ الفترة التي كان رجال الحكومة الخمسة عشر ألفاً قد اقتربوا فيها، كان برستس قد بدأ مناورته خلال الكاتنغا. فقطع عندها ثلاثة وعشرين فرسخاً بشكل قوس، ليمر بمزرعة بريجينيو، على مسافة ثلاثة فراسخ من سان فرنسيسكو. وأطلقت مفرزة سكيرا كامبوس من هناك كفصيلة للصدام، وتحولت للهجوم في الخامس والعشرين من الشهر، وحاصرت، حتى السادس والعشرين منه، قرية جاتوبا، على ضفاف سان فرنسيسكو، حيث كانت تعسكر القوات الحكومية. وخلال هذا الوقت، اجتاز الطابور النهر ودخل ولاية باهيّا. وحصل الاجتياز من بلدة فارزيبا ريدوندا، على مسافة فرسخ ونصف من جاتوبا، حيث طوق سيكيرا العدو. ولقد اجتاز الملازم برازيل وعددٌ من الرجال شاطىء باهيا، على أحد القوارب، واستولوا على زورقين شراعيين، استطاع الطابور بفضلهما اجتياز سان فرنسيسكو.

كان الليل قد غذ في السير عندما نشرت المراكب، التي تحمل رجال طابور برستس، أشرعتها على النهر. وكان القمر - قمر باهيّا الكبير الأصفر - يلمع، بينما كان رجال برستس قد بدأوا يجذّفون على المياه التي تسيطر عليها يَامنجا، سيدة جميع بحار، جميع بحيرات، جميع شلالات وانهار الولاية السوداء.

لم تكن يامنجا في تلك الليلة، يا صديقتي، منتصبة فوق صخرتها التي تعلو أرصفة باهيا، لم تكن تتطلع إلى القمر الكامل، ولم تكن تغري بشعرها المنشور البحارة الهائجين. لا، لقد كانت في تلك الليلة تبحر على شعاع من أشعة القمر نحو مياه نهر سان فرنسيسكو، لكي تشاهد اللواء برستس فوق مؤخرة أحد المراكب، تدرو لحيته الريح، وتتفحص عيناه الليل، وقد خفق قلبه من أجل جميع زنوج وجميع بؤساء هذا النهر الفاجع. وبردّت يَامنجا النسيم بنفحةٍ من نفسها، ونشرت شعرها على المياه لكي تظل هذه ساكنة هادئة، وقادت بيدها الاميتنين، أمانة البوصلة، المراكب التي تحمل جنود الطابور. وثبّتت عينيها الخضراوين ببرستس الذي يعرف طريق أراضي السعادة، برستس

الذي لا بشكل أباً للجنود وللسرتونيين فقط، بل هو أيضاً أبو جميع البحارة، يا صديقتي.

- ٨ -

لقد كانت الأساطير تظل ثابتة بعد مرور الطابور، يا صديقتي، بل وكانت تستبقه أيضاً. على أرض الخرافات هذه، المملوءة بالروايات، على أرض السرتون القاسية، تنطلق الأساطير في كل لحظة، وبمناسبة أي شيء وإن داخل البرازيل كله لمملوء بالأشباح؛ فالأدغال تنتج الخرافات، والشعر يسيل متدفقاً من شفاه العميان عازفي القيثار، والقصاصين الزنوج، والزنجيات الهرمات اللواتي يسهرن على رقاد الأولاد البيض والخلاسيين. على هذه الأراضي، يا صديقتي، يصبح الشعراء أبطال المغامرة، ولا يُتاح لأي انسان مطلقاً أن يعرف أين كانت تبدأ حدود الحقيقة ولا أين كانت تبدأ حدود الخيال. ولقد جاءت الأساطير الزنجية من إفريقيا إلى جوانب باهيًا وبرنمبوكو، جاءت الأساطير الهندية من الغابات العذراء في غوياس وماتوغروسو. وكان الطابور قد اجتاز هذه المناطق. وكان مرور هذه القبضة من الجنود الشجعان يولّد الأساطير. وكان الطابور يحمل البطولة والعدالة، ولكنه كان يحمل الشعر أيضاً، يا صديقتي. لقد كانت الأساطير تظل ثابتة بعد مرور الطابور، ولكنها كانت تتقدمه أحياناً.

لقد سبق أن قلت لك إننا ما إذا أخذنا بأقوال السرتونيين، فإن جنود الطابور كانوا لا يأكلون سوى قوائم الحيوانات الأمامية، وعلى هذا الشكل استطاع الطابور أن يمتلك ناصية سرعة التحرك الرائعة في السير الكبير. إن القوائم الأمامية تدفعك إلى أمام؛ وتجعلك القوائم الخلفية تدورين حول نفسك في الموضع نفسه. وتحتفظ القوائم الأمامية بسر السير السريع. ذلك ما كان يقوله السرتونيون (٣٣) الذين أدهشتهم سرعة حركة الطابور.

(٣٣) سكان الصحاري الواسعة في البرازيل.

كانت الأساطير تولد بسبب حركة دوريات البوترياذور الجريئة، وكانت تولد أيضاً بفضل شجاعة بائعات المؤونة، وبطولة الضباط وعبقرية برستس. وبالقياس لسكان الداخل، كان الطابور شيئاً في تمام الجدة، لم يسبق له أن نظر، ولم بكن يُتوقع ظهوره. وكان السكان قد اعتادوا على الكانغاسيروس، الذين كانوا ينهبون، يحرقون، يجتاحون، يغتصبون النساء والأملاك. وكان هؤلاء السكان قد اعتادوا كذلك على الشرطة التي كانت تلاحق الكانغاسيروس ولكنها لم تكن لتختلف عنهم بشيء. إن كل فريق من الرجال المسلحين، كان يشكل دائماً بالقياس لفلاحي الداخل، تهديداً ضد حياتهم، ضد عائلتهم، ضد أملاكهم الفقيرة. وكان وجود الفرق المسلحة يزيد دائماً من التعاسة الضاربة الأطناب؛ وكانت العصابات تحمل معها قوانينها، التي كانت كذلك أشد قسوة من قوانين العبودية المسيطرة. ويجب أن يُضاف إلى قانون اللصوص، قوانين الشرطة الملاحقة للصوص. وبالإضافة إلى الفيضانات التي كانت تخرج خلالها الأنهار عن مجاريها وتحمل معها الزروع والماشية، وبالإضافة إلى الجفاف المفترس للمزروعات والمستنزف لقوى الحيوانات، كان الكانغاسيروس والشرطة يشكلون مورد تهلكة يومياً للسرتون.

أما الطابور، فكان شيئاً آخر. إن هؤلاء الرجال المسلحين الذين كانوا يقاتلون في كل يوم، هؤلاء الرجال الملتحين، الكثيفي الشعر، القذرين والخلقي الثياب، المرتدين للجلد كالكانغاسيروس (٣٤) وكرعاة البقر، هؤلاء الرحال الذين كانت تتآكلهم الحمّى خلال السير، وكانت الملاريا تنقضّ عليهم وتتخذ لها فيهم مستقراً، ما كانوا يحملون الموت ولا السرقة ولا الجريمة ولا العنف. لقد كانوا يحملون شيئاً ما، لم يكن يعرفه السرتون، شيئاً لم يكن قد شوهد في المحاكم ولا في الإدارات العامة ولا لدى مراقبي المالية ولا في النزعات الاجتماعية. كان الطابور يحمل العدالة، وكان هذا الأمر بعيدا عن التصور، يا صديقتي.

(٣٤) اللصوص.

ولكن عندما كان السرتونيون يطمئنون إلى أن الأمر حقيقة لا ريب فيها، وأن هؤلاء الرجال المزيلين جاءوا ليقدموا لهم العون، كانوا يتناولون قيثاراتهم و «اكورديوناتهم» ويؤلفون أساطير الطابور. وفي هذه الأساطير لم يكن هناك من حديث حول التعاسات، كما في أناشيد الكانغاسيروس أو في روايات رجال الشرطة. إنها أغنيات لدنة، تظهر بطولة الطابور، وتبرز أعماله الخارقة البطولة، وتصور وجه رئيسه، الذي لم يبق وجه رجل بل أصبح وجه إله للغابة العذراء، لمجاري الأنهار، يقرأ أفكار الفانين البسطاء، ويؤلف جسده كياناً واحداً مع القذائف.

وكان يُروى، يا صديقتي، بأن النار كانت تنطلق على طول الدروب التي كان الطابور يفتتحها بضربات الفؤوس في الأدغال وفي الكاتنغا لتحمي الجنود من اقتراب العدو. وإن النيران التي كانت تشتعل بسبب لفافة تبغ ألقيت دونما حذر، أو بسبب الشمس المحرقة التي أضرمت النار بقطع الخشب الجافة، كانت تصبح حمايةً سماوية لفارس الأمل. وفي أحد الأيام، يا صديقتي، كان أعمى في أحد الأسواق يُبرز غناءً، على هذا الشكل، وجه لويس كارلوس برستس:

«عند مغادرته لجنوده
كان يجتاز النهر على قدميه،
وتصبح المياه تحتها أرضاً.
لقد كان يظل قرب النار،
والنار كانت تحرسه.
وكانت تنطفيء جذوة الجمر الملتهب،
عندما كانت تطأه قدماه».

تلك كانت فضائل برستس بنظر السرتونيين. وكان بنظرهم جديراً بالقيام بكل الأعاجيب. مياه الأنهار «كانت تصبح جامدة»، كانت تتحول إلى أرض صلبة عندما كانت تطأها قدماه. النار كانت تحرسه، وكان الجمر الملتهب ينطفيء عند مروره. على هذا الشكل كانوا يتصورون البطل،

يتصورون الرجل الذي كان، كالساحر، يريهم أشياء كانت السرتون قد فقدت حتى ذكراها، أشياء بعيدة بُعد العدالة، يا صديقتي.

وفي إحدى المرات، يا زنجيتي، التقى كورديرو دي فارياس بهرمين ـ أب وإبن ـ أحدهما في الخامسة والثمانين من عمره والآخر في الستين. وطلب كورديرو إليهما أن يرشداه إلى قوارب لاجتياز النهر، من الضفة التي كانا يقفان عليها. فرسم الهرمان إشارة الصليب وقد أدهشهما السؤال. لمَ القوارب! وقد كان من المعلوم أن الطابور كان يحمل معه أداة « ماكمبية »، يجتاز بفضلها الأنهار. وحدثا كورديرو أيضاً عن « شبكة » كان الطابور يستعملها لالتقاط الناس، ولم يكن بمقدور جنود الحكومة أن يفلتوا منها حتى ولا بأعجوبة.

لقد كان هؤلاء الناس يحترمون الكهنة، لأن رجال الاكليروس الفقراء تبنوا، في وقت من الأوقات، أمر الدفاع عن مصالحهم. ولكن بعد ذلك، كان قسم كبير من الكهنة قد انضم إلى صف الأغنياء، وأصبح أداة للسيطرة الاستعبادية. وظلت ذكرى الكهنة الطيبين، مع هذا، ثابتة في أذهان أهالي السرتون. وعندما كان الطابور يصل إلى ناحية ما، كان الفلاحون أحياناً يقبلون يد ميغيل كوستا؛ ورغبةً في منحه لقباً سامياً، كانوا يدعونه بالكاهن. وبالشكل نفسه تصوروا بأن إحدى بائعات المؤن هي النبيلة ايزابيل، التي ظلت ذكراها ثابتة في ذاكرة الفقراء، لتوقيعها على مرسوم تحرير العبيد. أما برستس، فقد كان يشكل سراً أعظم كثيراً أيضاً: لقد كان السرتونيون يعزون لعينيه المتوهجتين المقدرة على التنبؤ. لقد كان يكتشف تفكير جميع الناس. ولم يكن بمقدور أي انسان أن يخفي عنه شيئاً. لم يكن هناك من أسرار بالنسبة إليه؛ ولم يكن بمقدور الحيوانات نفسها والطبيعة، أن تقاومه. لقد كان أكبر من كل شيء، لقد كان عرّافاً.

رجال الطابور كانوا يتابعون سيرهم. وكانت قد وُضعت أثمان لرؤوسهم. وفي صحف ريودي جانيرو، كانت الحكومة، بوقاحةٍ غريبة،

تعرض مبالغ اسطورية ثمناً لرأس لويس كارلوس برستس. لقد كان هذا أمراً لا جدوى منه، والسرتونيون كانوا يعرفون ذلك جيداً. لم يكن هناك من رجل، من جندي، من شرطي، حتى ولا من كانغاسيرو يستطيع دحره. كيف يمكن دحره ما دام هذا ليس رجلاً كبقية الرجال، ما دام واحداً من آلهة الغابة العذراء، ما دام عرّافاً عجيباً؟ وكان السرتونيون يبتسمون عندما يعرفون بأن ثمناً قد وُضع لرأسه. واليوم أيضاً، يا صديقتي، وقد مضى العديد من السنوات على السير الكبير، لا يزال العميان في أسواق مناطق الشمال ـ الشرقي يتغنون بأناشيد لويس كارلوس برستس.

« كانت عيناه تكتشفان
أفكار الناس،
وعندما كان يتطلع في الوجه،
كانت عيناه تربان كل شيء ».

واليوم أيضاً تُرسم صورته ويتحدث عن شجاعاته. لقد بقي ثابت الأثر في قلوب السرتونيين وعلى أوتار قيثاراتهم. ولقد خلّف وراءه الأمل.

« لقد اجتاز السرتون كلها
مفتتحاً طريقه بضربات الفأس.
وحيثما كان يمر،
كانت الأشياء تتغير،
وكان الرجال الصالحون يبقون،
وينتهي الأمر بالأشياء العاطلة إلى الاندثار ».

إن المغنين العميان، إن أهالي السرتون التعساء، إن هؤلاء جميعاً، الذين ترك لهم برستس الأمل وطعم العدالة الرائع، يحلمون بعودته:

سينتهي أمر الظلم
في اليوم الذي يعود فيه.
كما سيزول الجفاف واللصوص

والمجرمون الحاملون الموت.
وفي السرتون المخلَّصة.
سيختفي سوء الطالع
في اليوم الذي يعود فيه.

- ٩ -

لقد ارتاحوا في ساكو، وهي بلدة صغيرة على شاطىء سان فرنسيسكو من ناحية باهيا. وكان الطابور قد بدأ مرحلة جديدة، مرحلة النهر الكبير، حيث كان على عبقرية برستس، يا صديقي، أن تصل إلى ذروة تألقها. لقد كانت سنجرجر خلفها، في سباق مجنون، الجنود الحكوميين التائهين تماماً. إن حملة سان فرنسيسكو مملوءة بالمآثر العسكرية العظمى. وعند دخول الطابور باهيا، كان مجموع عدد أفراده يبلغ ألفاً ومئتي رجل، بينما كان عدد أفراد الفرق الحكومية الممتدة بين باهيا - برنمبو كو وميناس، يبلغ الثلاثين ألف رجل تقريبا. ولقد دُحر ثمانية عشر لواءً وعدة زعماء خلال السير الكبير. واستعملت الحكومة جميع مواردها العسكرية في محاولتها إلحاق الهزيمة بالطابور. ولكن دون جدوى. ولقد لعب برستس بالقوات المعادية للثورة، وصنع بها ما شاء له الهوى: جعلها تتقدم وتتراجع، أجبرها أن تتجمع في ولاية ما عندما كان يريد لها ذلك، أن تذهب إلى ولاية أخرى، أن تقاتل بعضها بعضاً، أن توليّ الادبار في العديد من المرات. وتوصل دائماً إلى تشتيتها. وكان عراف السرتونيين يكتشف حركات العدو دون أن يخطىء أبداً، ولم يكن يترك له مجال استيعاب المفاجأة. لقد كان يقاتله عندما كان يرى ذلك مناسباً، وكان يخدع البرناريسيين في أي وقت يختاره.

وها هو الآن يتهيأ لاجتياز الصحارى الغربية، وهي منطقة من الرمال والحجارة والحصى، أطلق عليها مارتيوس هذا الاسم؛ ومن بعدُ لاجتياز كل الشابادا دامانسينا، وللاقتنال، خلال ذلك، مع كانغاسيروس هو راسيو دي ماتوس. ومن هناك، سوف يهبط حتى ميناس ويعود إلى باهيا، متمماً بذلك مناورة بارعة: «عقدته المنغارية» الرائعة. وسيصعد بعد ذلك من جديد نحو

الشمال، قبل أن يذهب نحو الغرب، لكي يعود إلى الغوياس. سوف يجوب كل ولاية باهيا، من الشمال إلى الجنوب، من الشرق إلى الغرب، وسوف يتعرف هكذا إلى السان فرنسيسكو خبراً من أي انسان.

إن السان فرنسيسكو هو كالشريان الأبهر بالنسبة للبرازيل، يا صديقتي. ومشاكله، ثرواته ومآسيه هي قاعدة مشاكل، ثروات ومآسي البرازيل. إن أدباً كاملاً كتب حول هذه المنطقة. ولقد جُمعت فيها ثروات عظيمة... ولم تكن العبودية لتُعد فيها سوى مأساة تافهة. وسوف يدرس برستس هذه المشاكل، كما سبق له أن درس مشاكل البرازيل الأخرى: خلال الحياة.

واجتاز الطابور الصحارى الغربية في ثمانية عشر يوماً. ومشى أياماً طوالاً في مناطق لا ماء فيها، واجتاز في بعض الأيام مناطق في الكاتنغا مغروسة بالماندا كاروس، بالكيكزاباس، بالكرووواس، بالفافيلاس، بالبالاماتورياس، بالكولومبيس، وبمزروعات شوكية كاملة، كانت تصبح الدروب فيها شيئاً خيالياً مستحيلاً. وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم السادس والعشرين من الشهر، انطلق الطابور من ساكو نحو نهر دو انفرنو، الذي يشكل الحد الجنوبي للصحراء، واجتاز جبال كيمادو وسانتاروزا. وسار الرجال على الأقدام. وتُركت الخيول على الضفة الشمالية للسان فرنسيسكو؛ لقد كانت متعبة أكثر مما يتوجب، ولم تكن تساوي القدر الذي يُمكن أن يبذل للتخلص منها. إن المرضى والجرحى والهرمين وحدهم امتطوا ظهور الجياد. وسار برستس على قدميه، إنه يحب السير الطويل الذي يستطيع خلاله أن يفكر في كل شيء. ووصلوا في الثالث من الشهر إلى بلدة دي فارزيادا ايما، حيث استقبلت طليعة الطابور، التي يقودها النقيب بنيسيودوس سانتوس، بطلقات النار، ولكن هذا سرعان ما أمسك بزمام الموقف. ومنذ هذا الوقت أقلع رجال الطابور عن التقدم سيراً على الأقدام، بل تقدموا ممتطين ظهور الحمير. وأخذ السرتونيون يتطلعون، بفم مفتوح، إلى أبطال الطابور المظفرين، يتأرجحون بشكل مضحك على ظهور حميرهم البطيئة، وقد أخذت مهاميزهم تلمس الأرض. وفي السادس من الشهر، اجتازوا جبال

دو كيلمادو ، وفي الثامن منه عسكروا على مسافة خمسة فراسخ من اويا اويا ، وهي مدينة كان ستمئة من رجال الشرطة ينهبون السكان فيها . وعندما علم الملازم هرمينيو ، الباهي الأصل ، بالجرائم التي ارتكبتها الشرطة ضد مواطنيه ، ذهب مع ستة جنود ومع بائعة المؤن ألزيرا إلى اويا اويا ، ليجعل أسياد المدينة الستمئة الجدد يقضون فترة سيئة خلال ربع ساعة من الزمن . وبعد تبادل نيران طويل ، لم يفقد سوى ألزيرا ، التي أسرت في طريق العودة .

وفي الحادي عشر من الشهر اقترب الطابور من سانتا روزا ، وهي بلدة صغيرة استولى فيها آري على قافلة ذخيرة ومؤن كانت الحكومة قد أرسلتها إلى الشرطة المعسكرة في اويا اويا ، وتبادل خلال الليل اطلاق النار مع العدو . وتتابع السير بعد ذلك بطيئاً ، وتقدمت المفارز الواحدة تلو الأخرى . واجتازوا على هذا الشكل خط « لست برازيليارا » الحديدي ، وعسكروا في مزرعة سيبو حيث تلقى برستس أنباء فشل ثورة كليتو كمبيلو في برنمبو كو . ووصلوا في الخامس عشر من الشهر إلى شاطىء نهر سلتير . وفي السادس عشر منه وصلوا إلى إنفرنو ، فيكونون بذلك قد خرجوا من الصحارى الغربية بعد أن جالوا فيها عبر مساحة تبلغ خمسمئة وثمانية وخمسين كيلومتراً .

وها هم أمام الشابادا ديامنتينا ، في اتجاه حدودها الشمالية . إن هذه المنطقة الغنية بالماس ، حيث كانت الأحجار الكريمة تغري الرجال ، وكان المغامرون يتدفقون ، هذه المنطقة التي حوّلها الكانغاسو إلى حصن ، ظلت خاضعة خلال سنوات طوال ، لسيطرة الوجه المثير للفضول لهوراسيو دي ماتوس ، سيد المنطقة غير المنازع .

ودخل الطابور مدينة ميناس دو ريو دي كانتاس ، بينما غادرها في الوقت نفسه تقريباً الكاهن ماد سيدو ، ذلك لأنه اعتبر أن كرامته قد حُطّ من قدرها إثر حادث جرى له مع أحد الجنود ، وحكم برستس بأن الحق هو في جانب الجندي . وعرف برستس في هذه المدينة بأن جيرالدوروكا قد عرض على ملاكي اللاتيفندبا في السرتون ، باسم الحكومة ، أن يمنح مكافأة قدرها

خمسمئة « كونتوس دي ريس »[٣٥] لمن « يصفيّ » أمر الطابور. وكان قد سبق لعضو الأكاديمية والكاتب باشيكو أن تقدم بعرض مماثل في البياوي: مئة كونتوس دي ريس مقابل كل رأس من رؤوس قادة الطابور.

ومن ميناس دوريو دي كانتاس، توجه الطابور نحو مدينة كوندوبا، محتلاً خلال سيره البلدان، مجتازاً الأنهار. وفي السابع عشر من الشهر غادر كوندوبا ليدخل ولاية ميناس جيرايس. وبذلك انتهى من اجتياز ألف وثلاثمئة وستة وخمسين كيلومتراً في أراضي باهيا، خلال اثنين وخمسين يوماً.

وكان برستس، بدخوله ميناس جيرايس، يسير وفق خطة مدروسة بعناية. لقد كان يرغب في أن يحمل القوات الحكومية على دخول هذه الولاية، في وقت كانت فيه هذه القوات تعتقد بأن برستس يسير نحو الجنوب، وربما باتجاه ريو دي جانيرو، أي ما كان برستس يريد القيام به بالواقع. لقد كان يتوجب إذن الرجوع نحو الشمال، واختراق أراضي باهيا من جديد. ومن جديد بدأت القوات الحكومية، وقد خدعتها مناورة برستس الستراتيجية، تتعقبه نحو ميناس، ورحّلت جميع جنودها من باهيا. ونقلت هيئة أركان الحرب الحكومية جميع قواتها، بصورة سريعة، إلى شواطىء سان فرنسيسكو، من ناحية ميناس، وهي تعتزم، بصورة خاصة، الدفاع عن سكة حديد ليوبو لدينا. ومن ناحية أخرى، تغلغلت فرق اللواء تورينو ورجال فرنكلين دي البور كركي وهو راسيودي ماتوس وفولني، في ولاية ميناس، لملاحقة الطابور. ولكن برستس أصدر فوراً الأمر لجنوده بأن يزيلوا كل آثار لمرور الطابور في البلاد، بصورة متناسقة مع تقدمهم. وكان اللواء ماريانتي، الذي لم يستطع، كما كان يريد، القضاء على الطابور في الشابادا ديامنتينا، يفكر بأن يدحره في شمالي ميناس جيرايس.

وتظاهر برستس، مخادعاً بذلك العدو، بالتوجه نحو الغرب، كما لو كان يريد أن يتمركز على طول نهر سان فرنسيسكو، حيث كان الحكوميون

---

(٣٥) عملة برازيلية قديمة لا تستعمل اليوم.

بالضبط ينتظرونه، ولكنه غيّر اتجاهه فور، ودخل ولاية باهيا من جديد، ثم اتجه نحو الشمال بموازاة العدو، الذي كان يسير باتجاه الجنوب بشكل دائرة، ويتعقبه: إنها «العقدة الهنغارية» للسير خلال باهيا، وهي مناورة ضللت الفرق الحكومية تضليلاً تاماً. وصعد الطابور بين القوات البرنارديسية التي تهبط. وكانت الدوريات تشاهد مرور العدو المتعقب للطابور. وبعد أن قطع طابور برستس ما يقرب من مئة فرسخ في ميناس جيرايس، متغلغلاً بين التشكيلات العدوة، التي كانت تعتقد بأنها ستجده في الجنوب، دخل ولاية باهيا من جديد في العشرين من شهر نيسان. وأتمّ برسنس بذلك واحدةً من أشهر مناوراته العسكرية، مكنّته من ابعاد الجنود الأعداء عن المنطقة التي كان يود اجتيازها.

وأخذ البرناردبيون، كما في لعبة الاستخفاء لأولاد «شياطين»، يبحثون عن برستس الذي اختفى في ميناس جيرايس. وأخذ الجنود الحكوميون يتطلع بعضهم إلى بعض ويهمهمون في ما بينهم بكلمات الدهشة. إن هذا اللواء ليس رجلاً، إنه ساحر، والطابور مسحور حقيقة، يظهر ويختفي، ولا يدري أحد أين هو. وانتهى الأمر بهذه المطاردة غير المجدية، في خضمّ الأخبار المتناقضة التي كان الجنود الحكوميون، التائهون عن السبل المستقيمة بفضل الأساطير المتناثرة حول الطابور ورئيسه، يغرقون فيها، انتهى الأمر بهذه المطاردة بأن جعلت الهلع يسيطر على هؤلاء الجنود. لقد كان طابور برستس يمثل بالنسبة إليهم الشيء الخارق للطبيعة. وعندما نعلم بأن ألوية الجيش أنفسهم، لم يكن بمقدورهم أن يفسروا حركات الطابور الجريئة، واختفاءاته المفاجئة، وظهوره غير المنتظر كذلك، كيف يكون بمقدور الجنود، الذين تسيطر عليهم الاعتقادات الخرافية، أن لا يرتجفوا رعباً في كل مرة يتوجب عليهم فيها الاندفاع في مطاردة آثار الطابور؟ وأين إذن كانت هذه الآثار التي لم يكن يتوصل انسان إلى اكتشافها على طرق ميناس جيرايس، على شواطىء سان فرنسيسكو؟ إن اللواء ماريانتي مرتبك ارتباك ولد لا يتوصل إلى اكتشاف مخبأ ولد آخر أكثر ذكاء منه. إن السرتونيين،

والكانغاسيروس أنفسهم، المعتادين على تتبع آثار أكثر الحيوانات دهاء في الكاتنغا، وإن رجال فرنكلين وهوراسيو وفولني، الذين تعرف عيونهم جميع أسرار الأرض، لم يتوصلوا هم كذلك، إلى اكتشاف درب الطابور. وانتشروا، كعصابة من النمل فقدت طريق المنملة، في ميناس جيرايس، وقد علقت عيونهم في أراضي الطرق الضيقة، باحثين عن آثار الطابور. وسيطر الاعتقاد على الجنود بأنهم يواجهون حادثاً خارقاً للطبيعة أمام قوى الآلهة السود أو الآلهة الهنود في الغابة العذراء. وبالقياس للسرتونيين كان هذا الطابور، الذي يظهر ويختفي، شبحاً، أعظم الأشباح، شبحاً جديداً في الدغل. وكانوا يرسمون إشارة الصليب ويتطلعون إلى رؤسائهم بحذر. فلن ستطيع مطلقاً لا هوراسيو ولا فرنكلين ولا فولني، بصورة أخص، لن يستطيع لا الألوية ولا الزعماء، ولا ماريانتي نفسه بأسلحته الحديثة، لن يستطيع هؤلاء جميعاً أن يدحروا الطابور. كيف يمكن دحر الخارق للطبيعة؟ وأخذ انحطاط المعنويات يسيطر على القوات الحكومية. وزادت مناورة «العقدة الهنغاربة» إلى حد كبير من الرعب المستولي على العدو. وكان الألوية مرتبكين، والسرتونيون يؤمنون بجميع الأساطير، وجحظت عيون الجنود من الخوف. أما برستس، فقد كان يصعد مع الطابور من جديد نحو باهيا، بينما كان ماريانتي، المندفع في تعقبه، يتلمس الطرق، يا صديقتي، وينقب المسالك الضيقة. ودخل برستس من طريق مديرية كاندوبا، التي سبق له أن اجتازها، إلى أراضي باهيا من جديد. وفي ليلة قمراء، كانت تلمع خلالها مياه الأنهار كالفضة، وتنتحب القيثارات في الأدغال، دخل الطابور أراضي الولاية السوداء.

وكان لبرستس مصلحة في التوقف في باهيا، ذلك لأنه، حسب ما كان مُتفقاً عليه، كان عليه أن يتلقى هناك الأسلحة والذخيرة المرسلة من ايزيدورو ومن الرؤساء المدنيين للثورة. ولكن هذه الأسلحة وهذه الذخيرة لم تصل قط، لأن الأشخاص الذين كلفهم ابزيدورو بهذا الأمر لم يفعلوا شيئاً.

وها هو الطابور في أول أبار يجتاز نهر كافيو ويبدأ بتسلق جبال سنكورا.

إن هذه الجبال وعرة بشكل غريب، ومسالكها مملوءة بالأحجار. الرجال يتسلقونها سيراً على الأقدام، ويقودون الحيوانات باللجم، وقد رُفعت الحمالات على اكتاف الاشداء. وأضيء السير بشموع كارنوبا(٣٦) الصفراء الكبيرة، بينما أخذ السرتونيون، يتطلعون، من أكواخهم الواقعة في سفح الجبال، إلى هذا الصعود الشبحي المخيف. وكان الصاعدون يشبهون حجاجاً يؤدون نذراً مقدساً باجتياز منحدر صلب في ليلة ظلماء، على ضوء الشموع. وكان السرتونيون، من على مسافة عدة أميال، يشاهدون الخط الغريب المضيء اللامع في السماء الليلية. سماء لا قمر فيها ولا نجوم، ولا يظهر فيها سوى هذه النجوم الحمراء التي يتبع بعضها بعضاً، كمجموعة من البروج المجهولة اللامعة على «اللافراس ديامنتيناس». كان طابور برستس، يا صديقي، يتقدم في سماء السرتون.

جنود الثورة يتجولون الآن في حقول باهيا الخضراء. إنهم يدخلون بارادا اسيما، في كوكوس. فرقة من «البوترياردور» تتبادل اطلاق النار مع العدو في سون جسزوس. وبرسل برستس بمفرزة دجلها دوترا إلى مدينة «موكيجيه»، حيث يُحتمل أن تجد السلاح والذخيرة التي يفتقر إليها الطابور. وعلى دوترا، هو، أن يتصل بالقسم الرئيسي من الطابور في غينيا دي سيما، التي كان يقصدها هذا الأخير. واشتركت مفرزة دوترا في موكيجيه بمعركة غير متساوية مع قوات دوكا مدرادو، المعسكرة هناك. ولقد أرسل رئيس الكانغاسيروس هذا، بحيلة دنيئة، بولده لمقابلة برستس، ليعرض عليه مقترحات للصداقة. وهكذا هوجم دوترا في وقت لم يكن معه مطلقاً. ولم يكن قد انتهى بعد من اجتياز المضيق، الذي تشكله الجبال إلى جانب نهر باراغوكي، عندما انهالت على مقدمته، التي يقودها آري، نيران العدو الكامن في أعلى الجبل وفي أولى منازل موكيجيه. إن رجال دوكا مدرادو الأربعمئة ـ من الشرطة والكانغاسيروس ـ يدافعون عن المدينة. وسيطر دوترا على مئتي رجل من الطابور. وقاتل آري ببطولة من الساعة

(٣٦) شجرة في البرازيل.

التاسعة صباحاً حتى المساء. ووصل في هذا الوقت دوترا مع القسم الأكبر من المفرزة... مواقع العدو لا تُنال. العدو يطلق نيرانه من أعالي الجبال على المضيق الذي يقبع فيه رجال الطابور. وأرسل دوترا بالملازم سيلستينو فرّيرا إلى أحد المرتفعات ليطرد العدو منها. وأدى سيلستينو مهمته بنجاح، واجتاز الجبل تحت وابل من النيران. وأصبح هذا المرتفع، بعد الاستيلاء عليه، هدفاً لنيران العدو، ومكّن بذلك الرجال المحاصرين، الذين يقاتلون منذ الصباح، من الانسحاب. وغطى دوترا انسحابهم بقتاله ثم ذهب للالتحاق بالطابور في غينيا دي سيا.

وتابع الطابور طريقه متبعاً شواطىء الكوشو، ووصل أخيراً إلى سانتا ايميليا، في وسط الكاتنغا.

ويبدأ في سانتا ايميليا سير مخيف، خلال الكاتنغا، دون أدلاء ودون طرق، وفي وقت يطوّق فيه العدو الدغل الذي توغل فيه الطابور. ويشكل هذا الحادث مرحلة من أصعب وأطول مراحل السير الكبير. الجاغونسوس، رجال الشرطة والجيش، يحيطون بالكاتنغا وهم موقنون بأن الطابور لن يخرج منها مطلقاً ليس هناك من صراط [٣٧] واحد. وبعمل دائب ليل نهار، بدأ برستس وجوان البرتو بافتتاح مسلك ما للوصول إلى طريق شابادا ديامانتينا، التي بلغاها بالفعل في السابع عشر من الشهر. ليس هناك من ماء، ويكاد الرجال لا يجدون ما يأكلون. وفي أحد الأيام، نُحر ثور لإطعام رجال الطابور الآلف. الماء بعيد المورد، هناك بئر واحدة، يتوجب القيام بعدة سفرات يومية للوصول إليها وارواء الجنود. وكانت الفرق الحكومية على يقين من الانتصار. فإن هذه المنطقة من الكاتنغا لم تكن قد اجتيزت مطلقاً. وكان العدو يعتقد بأن الأشواك والعطش والجوع ستصفّي قسماً كبيراً من الطابور، وسيتكفلون هم بتصفية القسم الباقي؛ وهكذا حاصروا الكاتنغا. ولكن جرأة وثقة ومقاومة الرجال، الذين كان برستس يقودهم، لم تكن تخضع للعرف العام. فعندما أكمل جنود برناردس حصارهم وهاجموا

---

(٣٧) Sentier (المعرّب).

الكاتنغا، كان الطابور قد اختفى بواسطة الصراط الذي كان قد شقه والمؤدي إلى الطريق الكبرى. ومرة أخرى جحظت عيون السرتونيين الثقيلة من الدهشة. إن هذا لسحر، وإن من المستحيل مقاتلة ودحر رجال لا يكنون احتراماً لقوى الكاتنغا التي لا تُقهر، ولا للجوع أو للعطش. على هذا الشكل كان رجال الطابور يا صديقتي.

إن هذا النهار وهذه الليلة من الجحيم، حيث كان الموت يترصد جنود الطابور لدى الخروج من الدغل، وفي الدغل، في الدغل نفسه، بسبب انعدام الماء والطعام، إن هذا النهار وهذه الليلة قد انتهيا. وكانت الأشواك قد مزقت من الرجال الأقدام، وخدشت الأيدي، وكان الرجال قد خرجوا من هذا الجحيم ليقعوا في جحيم آخر أكثر رعباً، هو جحيم سان فرنسيسكو المجليب بالفيضان. واجتازوا بلدان الماس، «بون ـ غوستا» و «بدرنياس»، حيث ارتاحوا من مغامرتهم الأخيرة.

ثم جاءالسير الذي لا يوصف، الذي تخللته شجاعة ومقاومة خارقتان. خلال الاسترادا القاسية «الطريق القاسية». ولقد أحسن اختيار هذا الاسم بلاحو هذه المنطقة الفقيرة بالغذاء، المغطاة بمياه سان فرنسيسكو، التي كانت قد حملت كل شيء معها في فيضانٍ تجاوز قوة فيضانات السنوات السابقة. وفي التاسع عشر من الشهر، وصل الطابور إلى الاسترادا القاسية، وشاهد المنداكاروس، الستيكيزيكركي وأظافر الهر وتيجان الراهب وجميع النباتات المعادية، الشوكية، في الكاتنغا. ولم يكن يوجد هناك سوى شجرة واحدة صديقة للانسان، هي الامبورانا، التي يحتفظ جذعها بالماء الذي يباركه المسافر الظمآن، بينما ينشر الجمال الوانه في النباتات المتسلقة، مخفياً أشواك الكاتنغا تحت أزهار زرقاء وقانية، حمراء كالدم، زرقاء كالسماء. والاسترادا القاسية هي صراط ضيق بشكل غريب تتشابك فيه الأشواك والزهور. وكان مما يدخل العزاء إلى قلوب الرجال، من وقت لآخر، رؤيتهم لإحدى شجرات الامبورانا ومشي برستس، وقد تملكته إرادة لا تتزعزع، في مقدمة رجاله، بخطى سريعة وجسم ملتهب من الحمى، إلى الأمام.

مشوا على هذا الشكل مئتي فرسخ. لقد كانت حيوانات المنطقة تناصبهم العداء، كما كانت نباتاتها عدوة لهم أيضاً، يا صديقتي. فعلى هذه الأراضي اللامتناهية، لم يكن بمقدور أي حيوان أن يعيش فيها عدا الاصلال والعظاءات، الهوام وأصناف مختلفة من أخطر أنواع القمل. وكانت الاصلال تنطلق من جانب الصراط حاملة صفيرها المخيف وقبلنها المميتة؛ وكانت الأوراق اليابسة تصر تحت وطأة أجسامها؛ وكانت هناك عظاءات يعود تاريخ وجودها في تلك الأراضي إلى بداية الكون، وحيوانات من عصر آخر يعود تاريخها إلى ماضٍ نائي البعد. وكانت الأفاعي ذات الأجراس والجارا كوكوس [٣٨] واصلال الدغل، تراقب سير طابور برستس بين تيجان الراهب وأطافر الهر. وبينما كان الرجال يتقدمون، وقد استبد بهم العطش والجوع، كانت الاصلال والكابيسا [٣٩] والبلاتونا [٤٠] تصفّر. وكان الرجال المرتجفون رعباً أمام هذه الهوام السامة، يتابعون طريقهم. وكان برستس يسير في مقدمتهم.

ها هم يتقدمون خلال ضياع بائسة السكان. ولقد أغرقت مياه السان فرنسيسكو، التي فاضت عن مجرى النهر، الحقول، حاملة معها الغلال والمواشي. الطابور لا يجد شيئاً يقتات به. ومن المستحيل أن يستطيع اجتياز السان فرنسيسكو إلى تابوليير وألتو، فلا زوارق هناك؛ وينتشر النهر بعد الفيضان، على مسافة خمسة فراسخ، كبواء [٤١] هائل يرتاح بعد التهامه للغلال والزروع. وقرر برستس عندها أن يسير نحو سانتوسي، وهي سرتون خصبة جداً.

ولكن العدو كان يراقب الخمسة والأربعين فرسخاً التي تفصل تابوليرو عن سانتوسي. لقد كان الحكوميون ينتظرون هناك موت الطابور في الكاتنغا الغارقة في مياه سان فرنسيسكو.

إن انعدام وسائل المواصلات والبواخر التي تقوم بالحراسة على النهر،

(٣٨) (٣٩) (٤٠) (٤١) أفاعٍ سامة جداً.

والبؤس المسيطر على الضفة الشمالية، كل هذا كان يمنع الطابور من اجتياز النهر. وكان العدو يحرس مضيق جبال دوانكليرو، عند مدخل مدينة سانتوسي؛ وسار برستس في هذا الاتجاه، ودخل مع رجاله مياه النهر. وتقدموا خلال مستنقعات حقيقية، في وسط مياهٍ كانت تصل منهم إلى النحور أو إلى الاكتاف، أو وسط أراضٍ واسعة كان الوحل فيها يؤخرهم عن السير. وكانوا لا يكادون يجدون ما يأكلون؛ فلا طحين ولا سكر ولا بن ولا ملح. ولم يكن لديهم إلا القليل من الطعام. وذبحت آخر ثيران الطابور الهزيلة. ولم يبق من اثرٍ للطباق. من الواجب السير بسرعة، بسرعة أكثر من أي وقت مضى. الموت يتعقبهم، وعلى الجنود أن يربحوا هذا السباق. وفي هذه المرحلة، حطم الطابور جميع الارقام القياسية لسير المشاة؛ وضرب جنوده للمرة الأولى رقماً يفوق جميع أرقام حرب الـ ١٤ الكبرى، وتجاوزه بعد بضعة أيام من ذلك. وكان سرتونيو المنطقة، المحيطون علماً بجميع أسرار هده الأرض، يقدرون بأنه لا يمكن لأي انسان أن يجتاز أكثر من أربعة فراسخ في اليوم على أرض كهذه. وتوصل الطابور إلى اجتياز تسعة فراسخ، خلال سير تسع ساعات. وأصبح السرتونيون لا يندهشون من أي شيء. وكانوا ينظرون باحترام غير محدود إلى هذا الفتى الهزيل الذي كان يقود هذه الفرقة. وكانوا يهزون رأسهم بحركة اعجاب عريقة في القدم.

دخل الطابور مزارع وقرى مهجورة. وهوجمت مفرزة دوترا، وقد كانت في ذلك الوقت في المؤخرة، من قِبل قوى عدوة كثيرة العدد. فاشتركت في العراك وردت الهجوم. وهاجم الطابور المعادي هذا، المؤلف من رجال الشرطة ورجال فرانكلين وفولني، طابور برستس، في مكان أبعد أيضاً. وفي هذه الأثناء كانت قوات حكومية هامة تنتظر برستس في بريجينوس، المكان الذي كان يقصده. سيؤخذ بين نارين. فشق برستس لنفسه طريقاً خلال الكاتنغا، وغادرها وبرز في مؤخرة العدو، في ضواحي بلدة سيرين، بالقرب من سانتوسي. وخلال هذا الوقت، تابعت القوات الحكومية، من جهتها، التقدم بالطريق الكبرى، معتقدة بأنها كانت تقتفي أثره. طلت هذه القوات

تتقدم إذن على الطريق الكبرى حتى الفترة التي التقت فيها بالقوات الأخرى لرجال الشرطة، التي كانت تنتظر وصول الطابور إلى بريجينوس. ومرة أخرى ارتكب العدو خطأ فادحاً، فقد قاتلت مفرزتا برناردس كل منهما الأخرى، ظناً منها بأنها تقاتل طابور برستس. إن برستس، وقد انتصر على أقسى الأحوال الطبيعية، وسار في مياه سان فرنسيسكو وقام باعجوبة لا تزال أساطير السرتون تتغنى بها حتى الآن في أسواق الشمال ـ الشرقي، أكمل في الثاني من حزيران سيره المرعب من تابوليبرو ألتو حتى سننوسي، ذلك السير الذي كان السرتونيون أنفسهم يعتبرونه مستحيلاً. أعجوبة للعبقرية، يا صديقتي، أعجوبة لا تُتاح إلا للشعب الذي غذّى جنود ورئيس الطابور.

ها هم الآن من جديد على ضفاف سان فرنسيسكو، عند حدود برنمبوكو. وظهر الطابور أمام القوات المتجمعة لهذه الولاية، التي ما كادت تندفع لمطاردته، حتى كان برستس قد أعطى الأمر بالسير نحو الجنوب، باتجاه مدينة مونتي اليغري، في ولاية باهيا. وهنا أيضاً سوف يجتاح ولاية سبق له أن أفرغها من القوات العدوة. ومن جديد سوف تُخدع القوات الحكومية بمناورة من الرئيس العظيم. وخلال هذا السير رسم الطابور قوساً من سيريا إلى مونتي اليغري. ووصل بعد ذلك باستقامة إلى سيرينيون، لكي يتجه بعد ذلك نحو الشمال، حيث سوف يمر بجوار مدينة جيريمويابو، ويجتاز بعد ذلك حدود رو ويلاس لكي يدخل برنمبو كو الخالية من القوات العدوة. لقد اجتاز برستس هذا القوس الهائل، الذي يبلغ طوله ألفاً وأربعمئة وسبعين كيلومتراً، باثنين وثلاثين يوماً، وتوصل الطابور خلاله إلى أن يجتاز أحياناً ثلاثة عشر فرسخاً في اليوم.

إن المرحلة الأولى، من سيريا إلى مونتي اليغري، قد انتهت في الثامن عشر من الشهر. لقد دخلت طليعة الطابور هذه المدينة في السابع عشر منه، واستُقبل الطابور بسرور من قبل السكان المعيّدين، السعيدين برؤية جنود الحرية. وسيرقد الضباط في الاسرّة للمرة الأولى، في مونتي اليغري. ولقد كانوا قد فقدوا عادة كهذه، لدرجة استعصى عليهم معها الرقاد. وعشية

الوصول إلى مونتي اليغري، تقبّل برستس، الذي كان قد توصل إلى تدبير جيادٍ لمعظم أفراد الطابور، حصاناً أحضره له أحد جنوده. وكان، خلال الشهور الأخيرة، قد قطع ما يزيد على مئتي فرسخ سيراً على الأقدام، وبينما كان الطابور يرتاح في مونتي اليغري، حيث يُحتفل به، غادر برستس المكان كحارسٍ طليعي. وتبع الطابور رئيسه في اليوم التالي وتوجه شطر البحر: لقد كان يقصد مدينة سيرينيون. ولكنه احيط علماً في رياشون بأن ثمانمئة من رجال شرطة باهيا وصلوا إلى سيبرنيون. واندفعت هذه القوات لمطاردة الطابور، ولكن هذا كان قد غادر رياشون واجتاز، في الثاني والعشرين من الشهر، سكة حديد شرقي البرازيل، بين سيرينيون وسلغادو. وتابع التقدم نحو قرية بومبال، واجتاز ايتابيكورو وهزم قوات الشرطة قبل مدة وجيزة من دخوله المدينة. واحتُفل بالطابور من جديد. إن الطابور، صديق الشعب، مقدم العدالة، هو حقاً أمل شعوب السرتون. حُملت إليه الحلوى والثياب، مياه النبع، الأدوية والأطعمة. ولم تعطِ حملة السفالة، التي كانت قد شنتها صحافة برناردس في البلاد ضد الطابور، أية نتيجة. لقد كان السرتونيون يشاهدون الحقيقة، يعيشون ملحمة الطابور ويجدون فيها سبباً للأمل. ذلك كان السبب الذي دفع المغنين ـ المغنين المساكين بآلاتهم غير الموزونة ـ في المدن والقرى، لأن يخرجوا إلى الطرق ويحيّوا جنود **فارس الأمل**. ومن أجل ذلك كانت الصبايا يحملن إليهم الزهور، والنساء يحملن الأدوية والخبز.

ها هم في «بون كونسليو»، ها هم يجتازون «سرا ايتيابا»؛ وفي أحد أسواق قرية غولوزو، انضم إليهم «متطوعون». ودخل الطابور منطقة كانودوس، حيث قام السرتونيون اليائسون بثورة فاجعة قبل بضع سنوات. إن انطونيو كونسليرو، نبيّ السرتون، إبن المجاعة والاستثمار والبؤس، كان قد ثار مع قواته طلباً للعدالة. لقد قاتل جنود الحكومة، ولكنه سُحق في نهاية المطاف. لقد كان لويس كارلوس برستس يجتاز الآن هذه الأمكنة التاريخية، حيث اندلعت ثورة كانت تفتقر إلى التوجيه. لقد كان أولئك الرجال يجهلون كل شيء، فيما عدا تعاسة عيشهم. لقد كانوا يستدرّون عون

السماء ، وعندما حملوا السلاح ، كانوا يجهلون المطالبة بحقوقهم . وبرستس ، هو أيضاً ، كان قد ثار ، وكانت ثورته في مبدئها ، هي أيضاً ، تفتقر إلى اتجاه . ولكنه الآن يعرف لـمَ يقاتل . وسوف يجد غداً الحل لهذه المسائل ويدل الشعب عليه .

وفي الثاني من تموز ، وصل الطابور ، خلال غسقٍ حزين ، إلى ضفاف سان فرنسيسكو ، على بعد كيلومتر واحد من دوديلاس ، على حدود برنمبو كو . وبمقدوره الآن أن يجتاز النهر . فإن قوات حصن برنمبو كو كانت مبعثرة في ولاية باهيا ، تلاحق الطابور الذي لم يكن يتوصل أحد إلى العثور عليه .

وهكذا انتهت حملة باهيا ، التي اجتاز برستس خلالها خمسة آلاف كيلومتر ، وثلاثة وثلاثين نهراً ، وطورد من قِبل ثلاثة آلاف جندي ومن قبل الجوع والعطش ، والحمى ، ومن قبل طبيعة معادية ،وأفاعٍ سامة . وتخلّف مئتان من رجال الطابور في الحقول وفي كاتنغا باهيا ، وقد جُرحوا ، اختفوا او ماتوا . ودُحر العدو عدة مرات ، واصبح ألوية برناردس انفسهم ، عقب مآثر برستس البطولية العسكرية الأخيرة ، لا يؤمنون بامكان التغلب عليه . وكانوا على سبيل العادة فقط ، لا يزالون يبرقون إلى ريو دي جانيرو معلنين بأن الطابور محاصر وعلى وشك أن يُقضى عليه ، ولكنهم أقلعوا هم أنفسهم عن الايمان ببرقياتهم ، يا صديقتي . إن الألوية يا زنجيتي ، تركوا أنفسهم عرضة لأن تتأثر بأوهام الكانغاسيروس . لقد كانوا هم أيضاً يعتقدون بأنهم يواجهون شيئاً خارقاً للطبيعة : لم تكن لديهم جدارة لتقدير عبقرية برستس . لقد كان برستس ، بنظرهم ، شيطان الحرب المراقب لجميع دروب جحيم لكاتنغا . وبنظر السرتونيين كان نجمةً في سماء باهيا .

وفي هذه الليلة من شهر تموز ، على ضفاف سان فرنسيسكو ، جاءت يامنجا مرة أخرى أيضاً لزيارة البطل . لقد كان يتأهب للذهاب إلى مياه أخرى لم تكن مياهه ، إلى ياناس دي غوياس وماتوغروسو . ونشرت يامنجا شعرها على مياه سان فرنسيسكو ، وجعلت النسيم أكثر هدوءاً ، وأوقفت رياح العاصفة ، وأقلع الطابور خلال ليل صافٍ وهادىء . وشاهدته يامنجا يتوغل في الدغل . وكان لويس كارلوس برستس في مقدمة جنوده ، يا صديقتي .

- ١٠ -

في ليل الثاني من أيار سنة ١٩٢٥، يا صديقتي، هاجم النقيب «كوستالاتي»، بصحبة «جنسن دي ميلو» و«ديسيو مندس دي فونسيكا» و«لويس كالسو ايشويا» و«ماريو شافس فريرا» و«ليوبولدونيري» و«فيلاس غاما» واحد الرقباء، الفيلق الثالث، في برايافرمليا النابعة لريو دي جانيرو.

ومن سنة ١٩٢٤ حتى سنة ١٩٢٧، بينما كان الطابور داخل البلاد، تتابعت الانتفاضات والثورات ومحاولات الثورة في كافة انحاء البلاد. إن امثولة الطابور، الحامل لواء الثورة، كانت تدفع إلى العمل جميع أولئك الذين كانوا لا يؤيدون النظام الدكتاتوري المفروض على البلاد. وكانت المؤامرة تحاك في السجون الغاصة بالمعتقلين، في المدن، في الثكنات، في عيادات الاطباء. وكان الضباط والرقباء والجنود والمدنيون، المتتبعون لملحمة الطابور، ينتظرون لحظة حمل السلاح لكي يفتتحوا طريق ريو دي جانيرو أمام الطابور.

وكان كوستالايتي قد أوقف، سنة ١٩٢٤، عندما كان يقوم بمحاولة للالتحاق بالحركة الثورية في تلك السنة، بتهيئته لحركة ثورية في ريو دي جانيرو، وكان عليها أن تندلع في شهر تشرين الثاني.

وكان كوستالايتي قد هرب عقب ارساله إلى إلياغراندي، هو وبضعة ضباط معتقلين اخرين، هم: تاسو تينو كو، اريستوتيلس سوزا دانتس وماريو سالس فريرا. واجتازوا الجون على أحد القوارب وتوغلوا في الدغل. وتلقى رجال الشرطة الامر باعتقالهم «موتى أو احياء».

وكان كوستالايتي قد أصبح شبحاً بالنسبة إلى شرطة البلاد السياسية. وإذا ما صدقنا الشرطة، فهو كان يجتاز المحطات بلباس امرأة ـ امرأة سمراء ناضجة إلى حد ما، لذيذة جذابة، لوّحتها شمس الشواطىء، امرأة سمراء كانت تحمل تحت ثيابٍ مفصلة حسب آخر تطورات الفن الباريسي، مسدسات وجعبات رصاص، وتحمل، بدلاً من الثديين، قنابل جديرة بأن تدمر مدينة كاملة.

في ليل الثالث من أيار، وصل كوستالايتي مع رفاقه السبعة إلى الفيلق الثالث. نزل الرجال الثمانية عن عرباتهم. وكان الهجوم على الفيلق الثالث مرتبطاً باحتمال قيام انتفاضة في حصن سان جوايو وبعصيان طابور من الشرطة معسكرٍ في بوتافوغو. دخل الضباط، وتكلل مشروعهم البطولي، باثارة الفيلق، بالنجاح خلال فترة من الزمن. ولكن بينما كانت الفرق المؤلفة تنتظر السلاح، توصل فريق من أنصار الحكومة إلى السيطرة على بضع نقاط، وأطلق النار على الجنود المجردين من السلاح وعلى الضباط القادمين من الخارج. وأجاب الاخيرون على النار بالمثل. وسقط جنسن دي ميلو جريحاً، ومات بعد عدة لحظات من ذلك في « الكازا دي ساوودي بدرو ارنستو »، وهي نوع من الاركان العامة لجميع متآمري وثائري ذلك العهد. واضطر الثوار إلى ترك الثكنة، وفشلت الانتفاضة ومحاولة الاستيلاء على الفيلق الثالث. وكان مقدراً لهذه الفترة من البطولة الخارقة: تسعة رجال يهاجمون فيلقاً، أن تظل كصفحة من بطولة جنونية، من حماس ثوري، وأن تصبح اسطورية بين قصص الثورة، التي كانت تتنقل من فمٍ إلى فم في البرازيل.

لقد كانت « ٥ دي جوليو »[٤٢] جريدة سرية تنتقل من يد إلى يد. أين كانت تختبىء مكاتبها يا صديقتي؟ أين كانت تطبع هذه الجريدة العنيفة الصغيرة الحجم، التي كان كل عدد من أعدادها يُقرأ من الوف الناس، والتي

(٤٢) « الخامس من تموز ».

كانت أكثر تأثيراً على الرأي العام من كل الصحافة الحكومية المتغنية بامتداح برناردس، والمتقبئة السفالات حول الطابور بلغة جكسون دي فيغيرو القاتمة ولغة نلامسده؟ وفي حياة بدرو موتاليا الصحفية الرائعة، وهو الروائي بالطبيعة، الذي جعلت منه الثورة نقاداً لا يُجارى، كانت هناك فترتان نادرتا الجمال والتأثير. أولاهما الفترة التي ظهرت فيها «٥ دي جوليو»، وكان فيها هذا الصحافي هو الناطق بلسان ثورة «تينلتيستا»، هو صوت طابور برستس المصاعد من السرتونال والمخاطب للمدن. والفترة الثانية هي فترة ظهور «أمنبا»، في سنة ١٩٣٦، تلك الجريدة المقدامة، الشريفة والجديرة بنا جميعاً، حيث كان الناطق بلسان الاتحاد الوطني التحريري، هو الناطق بلسان الثورة من أجل استقلال البرازيل، وكان مرة أخرى أيضاً، الناطق بلسان برستس في البلاد. لقد ظل قلمه عشرين عاماً في خدمة الشعب. إنه من عائلة كبيرة، وجدوده يُدعون «جوزيه دو باترو نيسيو» و «ألسندو غوانابارا» و «ليمرو بادارو» و «رول بومبيا». وهو، كجده الاخير، روائي. ولكنه عند ملاحظته بأن مقالا عابراً هو أجدى للشعب من رواية خالدة، تخلى عن الرواية ليلتحق بالصحافة. وإن «٥ دي جوليو» مثلها في ذلك مثل «أمبا»، ارتبطت خلال أيام سنة ١٩٣٥، بتقليد «كارتاس شيليناس» القديم، حيث كان الشعراء يجعلون من فنهم اداة للنقد الاجتماعي والسياسي، ويدعون الشعب للثورة.

كانت جريدة «٥ دي جوليو» تلهب حماس جماعة الـ «تيننتيستا»، وتؤثر في الشعب. وفي هذه السنوات المحبوكة أيامها بالمؤامرات الدائمة، كانت هذه الجريدة الصغيرة تطلع البلاد كلها على الغليان الثوري. وبينما كانت الصحافة، الخاضعة للرقابة، لا تستطيع أن تقول شيئاً، لا عن فظائع معسكر الاعتقال في كليفيلنديا، (صورة مسبقة تامة لمعسكرات الاعتقال الالمانية)، الذي اقامه برناردس على ضفاف الامازون القاتلة، والذي يشكل العمل الوحيد الذي قام به هذا الأخير في هذه المنطقة من البرازيل - وبينما كانت هذه الصحافة لا تستطيع أن تنفوه بكلمة واحدة عن العصيانات التي

كانت تنتابع في البلاد ، كانت « ٥ دي جوليو » تمنح الشجاعة والثقة لسكان المدن. لقد كانت تتحدث عن العبودية المفروضة على البلاد ، وعن بطولة النّاس الذين كانوا يرفضون أن يظلوا عبيداً.

كانت « ٥ دي جوليو » مضيق الهواء الذي يمكّن المتآمرين القابعين في بيوت « ميربلس »، و « بدرو إرنستو »، و « فيرياتو شهاكر » « التيننتيستية » ـ كانت زوجة هذا الأخير ، كارولينا الشجاعة ، تقوم بالحراسة والمسدس في يدها ، بينما كان « كوستا » و « برسيلوس » يتمان وضع خططهما الثورية ـ كانت المضيق الذي يمكّن هؤلاء جميعاً من الاتصال بالخارج.

وكانت « ٥ دي جوليو » تنشر بصورة مستمرة ، أخباراً عن مختلف الانتفاضات في البلاد. وعندما ثار ميانارغومس على فترتين في سنتي ١٩٢٤ و ١٩٢٦ ، وجرّ معه جميع سكان الولاية ، كانت جريدة موتاليما هي التي نشرت الشعارات ، هي التي تحدثت عن عمق واندفاع هذه الحركات.

وخلال السنوات التي كان فيها الطابور يتنقل في البلاد ، وكان الضابط والمدنيون يتآمرون ، والرقباء والجنود ينتظرون الساعة التي سوف يثورون فيها ، كانت الشرطة تبحث بنشاط عن مكاتب ومحرري هذه الجريدة الصغيرة ، البطلة المناضلة.

وفي كل البلاد ، كانت الانتفاضات تتتابع ، يا زنجيتي. « ريبيروجونيور » و « ماغالاس باراتا » يسيطران على مدينة مناوس ويتقدمان نحو الامازون ، باذريْن هناك أيضاً بذور الثورة ، قبل أن يُدحرا.

ويستقبل في باراييا أحد عشر ثورياً ، بطلقات النيران ، رجالَ الشرطة الاربعمئة القادمين لاعتقالهم. فلقد باعهم خائنٌ للشرطة ، وقد كان على حركتهم أن تندلع بصورة متناسقة مع حركة كليتو كمبيلو في برنمبو كو. وكان « اريستوتيلس دي سوزا دانتس » و « سيرويا داموتا » يترأسانهم. وكان يرافقهم تسعة رجال ، من بينهم أربعة بحارة من سان باولو ، قدموا من مونتفيدو للالتحاق بطابور برستس. واشتركوا معاً في معركة عنيفة مع

جنود السلطة العامة الاربعمئة. وثبتوا طـويلاً. ولقبتهـم الصحـافـة الكبرى بـ «اعداء القانون»، يا صديقتي. اعداء للقانون، نعم، يا صديقتي، إنهم اعداء لقانون أسياد البلاد، لقانون الاستثمار السافل للانسان، للقوانين الموجهة ضد الشعب.

وبالرغم من كون هذه العصيانات ومحاولات الثورة هذه لم تتوّج بثورة حاسمة، فانها كانت تبرهن على الاقل بان سير جنود برستس في الداخل، كان يوقظ البلاد من سباتها. ولدى مرور الطابور، كانت المشاكل تطفو على السطح. ولم يكن برناردس يسيطر على بلاد هادئة. وإن بلاغات وزارة الداخلية المعلنة في كل صباح بأن: «الهدوء يسيطر في جميع انحاء البلاد»، لم تكن تقول الحقيقة. وكان الشعب يعرف ذلك تماماً. الحقيقة، لقد كان الشعب يجدها في الصفحات السرية لـ «٥ دي جوليو»، التي كان يحررها ليما وبرباردو في مخبئها، ناشرين أخبار العصيانات المندلعة في البلاد، كأولى الازهار بعد الشتاء، كتلك الازهار التي تذبل منذ ولادتها، ولكنها تبشر، يا صديقتي، بمقدم الربيع.

- ١١ -

لقد أخفقت الحركات الثورية التي كان عليها أن تساعد الطابور، يا صديقتي. ولما لم يصل السلاح والذخيرة، اللذان وعد بهما ايزيدورو، اضطر الطابور إلى انتزاع سلاحه وذخيرته من العدو. وبعد أن خلق معنى الثورة في داخل البلاد، بعد أن اجتاز أربع عشرة ولاية (٤٣) (من سان باولو ومن ريو غراندي حتى الشمال)، باذراً الامل في كل انحاء البرازيل، معلماً الناس ومتعلماً منهم، بعد كل ذلك قفل الطابور راجعاً في طريق العودة. لقد هب الطابور كريح العاصفة، كالصاعقة، على المظالم والاستثمار والتعاسة. وسوف يؤدي فوق ذلك إلى ولادة العديد من الروائيين، ولادة أدب اجتماعي سيلتهمه الشعب في طمئه إلى المعرفة. وسوف يسمح بقيام انتفاضة التحالف الليبيرالي، في سنة ١٩٣٠، عندما قام الشعب، إبان نضاله ضد الحكومة، بثورة انتزع خلالها السلطة من يدي واشنطن لويس. وسوف يجعل الطابور ورئيسه من الممكن قيام التحالف الوطني التحريري، في سنة ١٩٣٥. لقد فتح الطابور دروب الحرية واستقلال البلاد الاقتصادي. إنه هو الذي جرّد مشاكل البلاد، خلال سيره الملحمي، من دماملها، ومنه وُلدت الثورة البرازيلية. ولن يكون بالمستطاع مطلقاً التغنيّ به بما فيه الكفاية، إن من أجل البطولة الخارقة التي ظهرت في حملاته العسكرية، أم بسبب عمله الاجتماعي الواسع. لقد كان

(٤٣) لقد اجتاز الطابور اثنتي عشرة ولاية برازيلية، واجتاز مسافة ما من أراضي الباراغواي. وهذه الولايات هي: سان باولو وبارانا (اجتازها بواسطة قوات المقاومة من العاصمة سان باولو)، ريو غراندي، سانتا كاتارينا (اجتازها بواسطة قوات برستس التي التحقت بفرق سان باولو في البارانا)، غوياس، ماتوغروسو، بياوي، مارينياون، سيارا، ريو غراندي دونورتي، باراييبا، برنمبوكو، باهيا، ميناس جيرايس (ملاحظة من المؤلف).

الطابور بالنسبة للبرازيل كدم الثورة الجديد.

وفي اليوم الخامس من الشهر، بدأ الطابور سيره خلال برنمبو كو. فبعد معارك عنيفة، توجه نحو حدود باهيا، متبادلاً كل يوم تقريباً طلقات النار مع العدو. الغذاء يبدأ بالتناقص من جديد، الرجال يمشون أياماً كاملة في حقول مشتعلة. إنهم يعبرون جبلاً لا ينابيع فيه، حيث السير يزداد صعوبة بقدر ما يأخذ العطش بتعذيب الرجال. ومن هناك سيدخلون منطقة خصبة حيث تنمو شجرات الليمون والمانغوس والكاجوس[٤٤]. وسوف يُغرق الطابور عطشه فيها. ولكنه سيصل، وهو يتابع سيره نحو الجنوب الغربي، إلى منطقة أشجار بدون أوراق، ونباتات وهمية، ميتة، ضائعة في هذه الصحاري. وبعد أن اجتاز حدود باهيا، سار الطابور بموازاة ضفاف سابايو، التي اجتازها ليدخل ولاية غوياس، ذات الانهار الخضراء وقطعان الماشية العديدة. ويستطيع الآن جنود الطابور، الذين اضطروا حتى هذا الوقت أن يقنّنوا غذاءهم، أن يأكلوا كفايتهم. لقد دخلوا إلى التشاباداداس مانغابيراس، يا صديقتي.

في الغوياس، يا صديقتي، الربيع هو فصل السنة الوحيد. فهذا السهل اللامتناهي لا يعرف لا على برد الشتاء القارس، ولا على حر الصيف غير المحتمل. والخريف لا يحمل أوارق الاشجار، ولا يجعل الاصفرار يسيطر بكآبة على منظر البلاد العام. الخضرة دائمة في هذه الأراضي التي تسقيها عدة أنهار. ففي هذا الربيع الذي يدوم اثني عشر شهراً يجري التوكانتنس والأراغوايا والبارانا وروافد السان فرنسيسكو. وإن المياه التي تجتاز هذه الولاية، هي التي تصنع غناها، لانها جعلت من الممكن تنظيم طريقة رائعة للري. وخلال اجتياز غوياس، تعرف الطابور إلى أيام حلم، يا صديقتي. ومن هناك توجه نحو بورتوناسيونال، ليذهب في ما بعد إلى الجنوب.

وفي أول أيلول، اجتاز برستس مع رجاله خط دفاع البرناردييسيين الأول.

(٤٤) ثمرة استوائية كثيرة العصير.

ولم تستطع الفرق الحكومية ، التي كانت قد حاولت عبثاً أن تحاصر الطابور ، حتى على اجباره على القتال. لقد كان برستس يتنقل بين القوات العدوة دون أن تشعر هذه بوجوده.

لقد حلم برناردس بأن يخنق القوات الثورية في الغوياس؛ فأرسل، من أجل تحقيق هذا الهدف، بشرطة سان باولو إلى هذه الولاية ـ أربعة آلاف رجل يقودهم الزعيم بدرو دياس دي كامبوس، زُودوا بأحدث الاسلحة، رشاشات وبنادق رشاشة، بل وحتى بعددٍ من الطائرات.

وفي هدوء المكتب الوزاري في سان باولو ، كان الزعيم بدرو دي كامبوس قد رسم على خارطة، بين فرح الرؤساء البرناردسيين العظيم، خطة للقتال، كان عليها أن تكون معصومة عن الخطأ. فبواسطة الاربعة آلاف رجل وفيلقي الخيالة، اللذين كانت الحكومة قد وضعتهما تحت تصرفه، سوف يغطي خطين، يمتد كل منهما أكثر من مئتي فرسخ على طول حدود الغوياس. ويمتد الخط الأول من ساو جوزيه إلى دورو في بورتو ناسيونال؛ ويتبع الخط الثاني في سيره اتجاه وادي البارانا. ودون أقل صعوبة، اجتاز برستس الخط الأول، وهو يتابع سيره الآن نحو الجنوب.

وعندما وصل إلى جنوب ولاية غوياس في أول تشرين الأول، أصدر برستس الامر لجوان البرتو لكي يسير نحو الشرق، لمهاجمة ترينكيلو منهيرو، ومن ثم لتهديد مدينة سانتا ريتا رغبةً منه في أن يجذب إليه القوات الحكومية. وفي هذه الاثناء بسير الطابور نحو الغرب، نحو ماتوغروسو. وأتم جوان ألبرتو غارته بنجاح، والتحق بالطابور في ماتوغروسو، بعد أن اجتاز ثلاثمئة وخمسين كيلومتراً.

وعندما علم برستس بأن فرقتين حكوميتين ـ فوج من شرطة سان باولو بقيادة الماجور أرثور الميدا، ومفرزة من الجاكنسوس بقيادة هوراسيو دي ماتوس ـ تحاولان مهاجمة الطابور من عدة جهات دفعة واحدة، قرر أن يلقي بالواحدة منهما ضد الاخرى. وغادر، في هذا السبيل، مزرعة جوان باتيستا

عند منتصف الليل، حيث لم نترك سوى عدة رجال أوكلت إليهم مهمة جذب انتباه قوات ارثور المبدا وهوراسيو نحو هذه النقطة. ومرة اخرى سقط العدو في الفخ. فدخلت الشرطة والجاكنسوس، دخلت الفرقتان البرناردسيبان المزرعة، كلّ من جهة، واخذتا تتبادلان اطلاق النار حتى الساعة الثامنة صباحاً، وهو الوقت الذي تعرفت فيه كل منهما إلى الاخرى، وشعرت بخطئها وبعدد مئتان من القتلى على ساحة المعركة، يا صديقي! وانتحر الماجور ارثور المبدا عندما عرف بواقع الحال.

الطابور يمشي نحو ماتوغروسو برجاله الثمانمئة، الذين فقد مئتان منهم اهليتهم للقتال، فهم إما جرحى أو منهوكو القوى أو مجردون من السلاح؛ ولم يبق، فوق ذلك، من ذخيرة مع الرجال الستمئة الذين يستطيعون أن يقاتلوا، فلم يكن لديهم سوى بنادق هرمة وبضعة مسدسات. لقد انتهوا من اجتياز البرازيل بكاملها. ولقد انتظر الطابور عبثاً أن يبدأ زعماء الثورة المدنيون والعسكريون الحركات الثورية التي وعدوا بها، والتي كان عليها أن تكون نقطة انطلاق لثورة تعم البلاد كلها. كما انتظر عبثاً السلاح الذي وعد به ايزيدورو. عندها قرر برستس أن يرسل دجلما دوترا وموريرا ليما إلى ليبرس، ليبحثا مع ايزيدورو وأسيس برازيل مصير الطابور، وفيما إذا كان على هذا الاخير أن يبقى في البلاد، بانتظار ثورة قريبة، أم يهاجر منها.

وذهب دوترا وموريرا ليما تحرسهما مفرزة سيكويرا كامبوس، التي لن تجد الطابور لدى عودتها، فتقوم بجولة جريئة تقطع اثناءها تسعة آلاف كيلومتر خلال الغوياس وميناس، حتى جمهورية الباراغواي، حيث سيستقر بهذه المفرزة المطاف أخيرا

وفي ماتوغروسو حمل برستس يناور مع الطابور بانتظار الرسل. وليس الوقت الذي سوف يدخل الطابور خلاله إلى بوليفيا ببعيد، يا صديقي. وكان الطابور، وقد تضاءل إلى النصف، وأضنته الحمى، يعيش آخر شهور ملحمته. وكانت الملاريا تصيب من وقت لآخر الرجال السائرين خلال الغابات العذراء في ماتوغروسو.

- ١٢ -

وكالكوكب السيار، المنطلق بسرعة البرق، اجتاز كوشيم سيكيرا كامبوس مع مفرزته خلال خمسة أشهر، ولايات الغوياس، ميناس وماتوغروسو، في سير مدوّخٍ مسافته تسعة آلاف كيلومتر. لقد كان قد ترك الطابور في منطقة كوشيم وواكب موريرا ليما ودجلما دوترا خلال بومين. وكان عليه، حسب ما كان متفقاً، أن يلتحق بالطابور بعد ذلك مباشرة. ولكنه لم يجده، وظل خمسة أشهر يبحث عنه من منطقة إلى أخرى. وكان رجاله يسيرون أحياناً ستاً وعشرين ساعة متواصلة على القدمين أو على ظهور الخيل. ولقد اجتاز على رأسهم ثلاث ولايات، قاطعاً عشرين فرسخاً في اليوم.

ومن بين الرجال الثمانين الذين انطلقوا معه، سقط أربعون في الطريق، موتى أو جرحى، أو استُنفذت منهم القوى. ولكن أناساً آخرين، مجندين أو متطوعين، كانوا يأخذون مكان أولئك الذين لم يستطيعوا الثبات على هذا السير. ولقد احتل هؤلاء الرجال الثمانون، مع قائدهم العجيب، عشرات المدن، ومروا خلال الخطوط العدوة، وقاتلوا في كثير من الاحيان على مسافة قريبة جداً من مقر هيئة أركان حرب الحكومة. وكان من الممكن أن يُقال بأن صاعقة مجهولة القوة تنقضّ على الغوياس، على ماتوغروسو وميناس.

وكان سيكيرا كامبوس، بطل الخامس من تموز، في مقدمة هؤلاء الرجال، يا صديقتي. وكان هذا الرجل، المخاطر بحياته في كل لحظة، بهيئة الفروسية التي يتميز بها، وبالابتسامة الخالدة التي لا تفارق فمه الفتيّ، والتي كان هزؤها المرير يسمّر العدو في أشد الاوقات خطورة، كان صديق برستس المفضل.

وإن مستنقعات تاكواري المجهولة وغير المكتشفة، في ماتوغروسو، قد اجتيزت من طرف لآخر، للمرة الأولى، من قبل رجال سيكيرا كامبوس الذين حققوا هذه البطولة، التي ظلت تعتبر مستحيلة حتى هذا التاريخ. ومشوا خلال أسابيع في مستنقعات لا تنتهي، مشوا بسرعة، منتصرين على هذه المنطقة المخيفة بفضل حيويةٍ لا يمكن تصورها. وكان تريفينو، الذي كان لا يزال ولداً صغيراً وانما جندياً كبيراً، يسير إلى جانب سيكيرا. وفي بعض الايام، كان الجنود يقطعون أكثر من مئة كيلومتر.

ولم يتمتعوا خلال هذه الشهور الخمسة بفترة واحدة من راحة، بفترة واحدة من هدنة. وكان رجال سيكيرا يتركون خيولهم المتعبة عندما تصبح غير قادرة على القدم، ويستبدلونها باخرى جديدة ويعاودون السير، بينما يسير العدو على اعقابهم. وبالنسبة إليهم، كانت الراحة تتحدد بالدقائق الضرورية للانتقال من صهوة الجواد المعتلّ إلى صهوة الجواد الجديد وساروا، بعد اجتياز المستنقعات، على أراضٍ رملية. ولقد اجتاز هؤلاء الأشباح الجدد، الذين كانوا يحيطون بالمدن، بل ويتغلغلون أحياناً في امكنة التجمعات الكبرى، جبالاً وانهاراً.

وإن ماثر الفروسية الحديثة هذه، التي حققها سيكيرا، قد زوّدته بجرأة خارقة، حتى انه اجتاز، بين مدينتي جاتاي وريو فردي، معسكر العدو النائم، لكي يسير بسرعة أكثر. فلقد اندفع رجاله الثمانون، واخترقوا المعسكر الذي اقامه الحكوميون، موقظين الجنود والرؤساء، الذين ما كادت تطالعهم الرغبة في ملاحقتهم، حتى كان الوقت قد فات ولم يفكر أحد في مطاردتهم وهم يسيرون بمثل سرعتهم الجنونية تلك.

وسار سيكيرا من مفاجأة إلى مفاجأة، وجعل يظهر دائماً في المكان الذي كان العدو قلما ينتظر ظهوره فيه، سار متجاهلاً المسافات والمصاعب، صاعداً، هابطاً، مجتازاً السرتونات المجهولة عدة مرات، من طرف إلى طرف. وكان من الممكن أن يتابع سيره الجامح هذا، مفتشاً عن الطابور، لو

لم تصل إلى مسمعه انباء دخول هـذا الأخير إلى بـوليفيـا . وعنـدمـا دخـل الباراغواي ، كان قـد اجتـاز تسعـة آلاف كيلـومتر على أصعـب الطـرق ، وبسرعة قياسية .

لقد سار على طرق سكك حديدية ، على طرق عربات ، ولكنه شق لنفسه كذلك طرقاً جديدة خلال المستنقعات والصحارى . لقد اكتشـف منـاطـق مجهولة ، وكجندي أصبح عالماً بتخطيط رسم الأرض ، أطلق الاسماء على الانهار والجبال . وفيما لو تناولت ، يا صديقتي ، مخططاً للبرازيل مع دليلٍ للسير الكبير ، وقارنته بمخطط يرجع تاريخه إلى ما قبل سير برستس خلال البرازيل ، لشاهدتِ مئات ومئات من الطرق الحديدة التي شقها الطابور عبر البلاد . وفي هذه الايام ، يستعين الخيالة والثيران الهادئة والعربات بهذه الطرق التي أنشأها رجال مدهشون ، أنشأها برستس وسيكيرا ، اللذان اخترقا اسرار مستنقعات ماتوغروسو .

وكان سيكيرا يمتطي جياداً أصيلة ، مأخـوذة مـن مـزارع مـربيّ خيـول انكليز ، أو يسير على قدميه . وفي كلتا الحالتين ، ما كانت سرعة مفرزته ، المؤلفة من ثمانين رجلاً والمطارَدة بالوف الجنود الاعداء ، لتخفّ مطلقاً ، وأصبحت عاملاً من التخيل الصافي ، كما في سفر اسطوري .

سيكويرا كامبوس . . . إن اسمه ليعني بطولة ، شجاعة وسرعة في الحكم . . . إن اسمه يذكّر بكوكبٍ يشق طريقاً هائلاً . لقد كان ، والابتسامة المرحة تعلو شفتيه الرقيقتين ، يواجه العدو في ساعة الخطر بحيلةٍ ما ، يستحق من أجلها الشنق ، ولكنه سرعان ما يعطي أمراً دقيقاً ينقذ الجميع بواسطته على هذا الشكل كان سيكيرا كامبوس ، يا صديقتي .

وعندما كان يسأل شخص ما برستس مع مَن سيكون سيكيرا كامبوس اليوم لو كان حياً ، فيجيب ، يا صديقتي ، وهو الذي عرف سيكيرا تمام المعرفة :

ـ يكونِ معي ، هنا ، في السجن .

وليس بمقدورنا أن نزجي مديحاً أفضل من هذا لسيكيرا يا صديقتي. لا شيء أكثر منه يعطي صورة عن شجاعته، عن ذكائه وعن مزاجه. نعم، لو كان سيكيرا كاميوس حياً، لكان اليوم بجانب الشعب وبجانب بطل الشعب.

- ١٣ -

لقد ذهب الرسل، يا صديقتي، ولكن لم يكن بمقدور الطابور أن ينتظر عودتهم في معسكرٍ هادىء. إن مصير الطابور ومهمته هما في أن يمشي. لقد كان الرجال الستمئة مرهقين، إنما ماذا يهم هذا؟ كان يتوجب اجتياز الغابات العذراء والماتوغروسو والغوياس من جديد، وتجنب العدو قدر الامكان، لان المؤونة أصبحت نادرة. وقاد برستس الطابور خلال مهالك أنهار ماتوغروسو وغوياس. لقد كان يهرب من العدو قدر الطاقة، ويدحره في كل مرة يرى نفسه فيها مضطراً لقتاله.

وفي السادس والعشرين من الشهر، وصلت الطليعة التي يقودها جوان ألبرتو إلى جسر على نهر جورو حيث التقت بالعدو الذي يحتله. كانت الساعة تبلغ العاشرة والنصف صباحاً، وكانت الفرق التي تدافع عن الجسر كثيرة العدد؛ وقاتل جوان ألبرتو حتى الساعة الخامسة بعد الظهر، وهي الساعة التي توصل خلالها إلى حمل العدو على الفرار. وأعطت هذه المعركة المجال لحصول حادث من نوع خاص: تعرّى عشرة رجال، وأخذوا بين أسنانهم عصائب الفشك، واجتازوا النهر سباحة، وكل منهم يعلق في كتفه بندقية من حمالتها، لكي يهاجموا مؤخرة العدو. وفي هذا الوقت، اجتاز برستس بدوره، مع فيلقين بقيادة آري، لكي يهاجم مؤخرة البرناديسيين من الجانب. وتوصل كوردبرو، الذي كان في مؤخرة الطابور، إلى الانسحاب بنظام تام، عندما هاجمته خيالة العدو؛ انسحب، وهو لايكاد يجيب على نيران العدو، بسبب من فقدان الذخيرة. ولقد بذر الجنود العشرة العراة الذعر بين القوات المدافعة عن الجسر، على الأقل؛ وعندما وصل برستس مع فيلقي آري، كان الحكوميون قد بدأوا يقاتلون متراجعين. واجتاز الطابور الجسر، ثم إشعل فيه النار.

سوف يتقدم الطابور من الآن فصاعداً خلال أنهار وغابات ماتوغروسو العذراء. سوف يجتاز منطقةً ماسيّة، يسكنها ثلاثون الفاً من أناسٍ جذبهم إليها الامل بالعودة إلى المدن، بعد مكثٍ يمكنّهم، عقب تجميعهم للثروة، من شراء جميع ممتلكات هذا العالم.

واجتاز الطابور الغوياس بحثاً عن سيكيرا. تغلغل في ممتلكات، اجتاز سواقي وانهاراً، طرقاً ودروباً. وبعد أن اقتنع بأن اخبار وجود سيكيرا في هذه الامكنة كانت مغلوطة، عاد على اعقابه نحو ماتوغروسو.

وخلال المرحلة الأخيرة من السير، كان برستس حريصاً أكبر ما يكون الحرص على الابتعاد عن البلدان والمدن والقرى، حيث كان من الممكن أن يلتقي بالعدو فإن مؤونة وسلاح الطابور لم يكونا ليمكنانه من مواجهة معارك مواصلة. ومع ذلك فقد قاتل الطابور أكثر من مرة قبل أن يدخل الأرض الاجنبية. فبعد أن اجتاز، في الثامن عشر من الشهر، ريوداس غاركاس، اشترك في اليوم التالي بقتال عنيف مع قوات الشرطة. وانسحب العدو، وقد دُحر تماماً، مخلفاً قتلى وجرحى وأسرى، بينهم أحد الملازمين. وفي العشرين منه احتل جوان ألبرتو كولونيادوس تيشوس، طارداً منها فرقة من جنود الحكومة. أما الطابور فقد كان يتقدم باتجاه نهر مورتاتنداد، وفي الرابع والعشرين من الشهر، استولت مفارز كورديرو وآري وجوان ألبرتو، بعد قتال وجيز، على غنيمة عظيمة تركها العدو في ساحة المعركة، تتألف من: ٧٥ بندقية، ١٥٠٠٠ فشكة، ١٤ صندوقاً من ذخيرة الرشاشات، ٦٠ معتاب بنادق تحوي على عشرين الف فشكة، سيارتين شاحنتين، سيارة عادية، خيول وثياب عسكرية.

وفي يوم رأس السنة، كان الطابور في مدينة هاسندا رافائيل، التي ما لبث أن غادرها تحت وابل من المطر العاصف. ولقد احتفل الجنود في هذا اليوم بالذكرى التاسعة والعشرين لميلاد برستس، وبالذكرى الثالثة لابتداء سيرهم عبر البرازيل. ولم يكن برستس في سن السادسة والعشرين، يا صديقتي، سوى

نقيل في فرقة الهندسة سبق له أن لمع في المدرسة الحربية. وعندما عين مهندساً انتصب بعنف، بدافع من شرفه، ضد التصرف الفاضح بالأموال العامة. وفي سن الثامنة والعشرين ظهر أن برستس قد خُلق للاعمال المكتبية. ولقد كان قبل كل شيء رياضياً، بناء طرق ومصانع كهربائية. وإن الذين كانوا يعرفونه، كانوا أبعد ما يكون عن التصور بأن بمقدور برستس أن يتجلبب بجلباب لواء، فيضع تصاميم المعارك وخطط الهجوم والانسحاب. وفي درس الستراتيجية العسكرية كان يناهض استاذه، ولم يكن ينال سوى علامات هزيلة، لان طريقته في حل المسائل كانت تختلف عن طريقة معلمه. وبعد ثلاث سنوات من ذلك، أصبح برستس أشهر الألوية في أميركا اللاتينية: فلقد نجح بالقيام بأعظم هجوم خيالةٍ في العالم، ولقد دحر ثمانية عشر لواءً مشهورين، واجتاز ثلاثة آلاف كيلو متر عبر أراضي البرازيل المجهولة، غير المخترقة والبربرية، وظهر كعبقرية لا مثيل لها في هذا الجزء من العالم. ودُرس سير الطابور بدهشة بالغة، ليس فقط من قبل اساتذة برستس الذين شكوا بمواهبه الستراتيجية، بل وكذلك من قبل هيئات أركان الحرب في بلاد أميركا واوروبا. ولقد حطم جميع الارقام القياسية لسير المشاة، خلال سيره من تابو ليبيرو ألتو إلى سانتوسي: بواسطة رجاله الالف والخمسمئة، الذين اصبحوا خمسمئة في نهاية السير. لقد قاتل ضد الجيش، ضد شرطة مختلف الولايات، ضد الكانغاسيروس المنظمين. ولقد انتصر عليهم جميعاً، كما انتصر على الطبيعة المعادية، على الحميات والحيوانات، على الكاتنغا والغابة العذراء. وأعلن ألويةُ الحكومة عشرين أو ثلاثين مرة نبأ هزيمته. وبينما كان يتقدم وهو يقاتل، وقد بلغت درجة حرارته المئوية التاسعة والثلاثين، كانت الحكومة قد وضعت ثمناً لمن يأتيها برأسه. وطُوّق طابوره مرات عديدة، وكان في كل مرة يفك الطوق. فلقد كان هذا الطابور يُحوّل الانكسارات الأكيدة إلى انتصارات بفضل عبقرية رئيسه. ولم يكن يحس بالحمى مطلقاً حتى عندما كان يسير في الاماكن الموحلة، راجلاً، بعد أن يكون قد تخلّى عن حصانه لجندي جريح أو منهوك القوى. ولقد كان يحمل في بلاد واسعة يستبد بها الضيقُ والتعاسه، الاملَ بمستقبل أفضل. ودفع الشعب إلى النهوض،

يا زنجبيتي، ورسم دروب الحرية للبرازيل.

وكان أكثر الاوقات إثارة للرعب في سير الطابور، الوقت الذي دخل فيه هذا الاخير منطقة المستنقعات القريبة من حدود بوليفيا. لم يبق هناك أيّ حصان. ومن بين الالف والخمسمئة رجل الذين غادروا شواطىء البارانا، بقي خمسمئة فقط يحيطون برئيسهم، بينما فني الالف الآخرون في الولايات الاربع عشرة التي اجتازها الطابور. إنهم لم يكونوا سوى خمسمئة، وكان من بينهم كذلك كثير من الجرحى والمرضى والنساء والهرمين والاولاد. وكان لا يكاد يوجد لديهم اية مؤونة، أي سلاح، أي طعام، أي حصان؛ وكانوا يمتطون الثيران القليلة الباقية، التي كان عددها يتناقص باستمرار يوماً بعد يوم، لانهم كانوا يذبحونها ليقتاتوا بها وكانوا يأكلون، فيما عدا اللحم الهزيل لهذه الثيران المتعبة، «البلميتو»[٤٥] الذي كانوا يجدونه من وقت لآخر على طول الطريق. لقد كانوا يسيرون حفاة؛ فلم يبق لديهم أحذية، ولم يبق لديهم ثياب؛ ولقد كانوا يرتدون أسمالاً بالوان غير محددة، مغطاة بالوحل، بوحل المستنقعات. وكان البعض منهم لا يضع سوى خرقة يستر بها عورته، خرقة اقتطعها من بقايا دثار. وكان آخرون يرتدون أشياء تذكّر «بالكلاسين» أو بالسراويل. وكان البعوض، الحامل لمختلف أنواع الحميات بخراطيمه الحادة، يطوف في الليل حول الطابور. ولم يبق لديهم شيء من التوابل من أجل الطعام. ولقد كانوا يأكلون القليل من اللحم المتبقي لديهم دون ملح. وكعصابة هائلة من القرود، كان الرجال يضطرون إلى تسلق أعلى أغصان الاشجار لكي يرتاحوا.

ولكن حيويتهم لم تكن لتتراخى أبداً. فعندما كان برستس يقول: «إلى الامام!»، كان الرجال يندفعون سائرين خلال الوحل، يساعد بعضهم بعضاً. وكان برستس يسند جندياً لم يبق بمقدوره التقدم، بينما يتخلى كورديرو دي فارياس إلى جندي آخر، متعب أكثر منه وأقل مسؤولية، عن

---

(٤٥) قسم من نوع من النخل، يؤكل في البرازيل.

الثور الذي يمتطيه، ويحاول جوان ألبرتو أن يجد طريقاً سالكة في هذا البحر من الوحل، ويعتني آري باحد المرضى. وكانت النساء يحملن، خلال ساعات طويلة، بنادق الرجال لكي يتمكن هؤلاء من الاستراحة، ولم يكن الاولاد يتصرفون تصرف الرجال، بل تصرف الابطال. وكالعادة، كان برستس في الطليعة.

ولم يكن هناك أيةُ طريق ولا أية درب بين نهر سييوتوبا وبين كاباسال. وافتتح برستس مع جنوده صراطاً من مئتين واربعة كيلومترات في ثمانية أيام. وإن هذا العمل المضني، بالقياس لرجال أصحاء، متمتعين باعظم راحة واحسن غذاء، قد قام به ببهجة وسرور، رجالٌ منهوكو القوى يكادون لا يجدون ما يأكلون.

وفي الثالث من شباط سنة ١٩٢٧، في الساعة الخامسة والنصف صباحاً، بينما كان الفجر يرسل أول أشعته على ماتوغروسو، وكان الرجال يتهيأون لمعاودة السير، هدر صوتٌ آمراً:

ـ تقدموا!

تطلع الرجال إلى أمام؛ لقد كانوا قد وصلوا إلى حدود بوليفيا، وخلّفوا البرازيل وراءهم. ولم يكن هؤلاء الجنود، يا صديقتي، يعرفون بوضوح ما سق لهم القيام به. لقد رافقوا برستس، وهم يعرفون أنهم يناضلون من أجل الحرية ومن أجل حياة أفضل. ولكنهم كانوا يجهلون أنهم غرسوا إلى الابد بذرة الثورة على الأرض البرازيلية.

لقد كانوا يسيرون ببطء الآن. وإن هؤلاء الرجال الذين لم تتعرف مآقيهم إلى الدمع مطلقاً، يا صديقتي، هؤلاء الذين صُلب منهم العود بألوف المعارك، كانوا يتركون الآن المجال لدموعهم لان تنهمر على أسمالهم ولحاهم وصدورهم العارية، وهم يغادرون أرض الوطن. وكما كانت عادتهم كلما استبدت بهم فكرة ما، فتشوا بعيونهم عن اللواء **لويس كارلوس برستس.** تطلعوا إلى أمام، حيث كانوا يجدونه عادة. ولكن برستس في هذا اليوم،

يا صديقتي، كان في المؤخرة. إنه الاخير الذي سوف يغادر أراضي البرّازيل. وشاهده أحد الجنود بوجهه الهادىء وهيئته الساكنة وعينيه المتوهجتين، ففهم ما يعتمل في داخليته من عزم. وصرخ عندها مخاطباً الآخرين بصوت مرح كصوت البوق:

ـ سنعود في يوم من الايام...

وبعد ذلك كان المنفى، يا صديقتي.

- ١٤ -

لقـد قال رومان رولان في أحد الايام، بصوته العظيم الارتفاع، ياز نجيتي، بان الاجيال ستحتفظ إلى الابد بذكرى ملحمة الطابور [٤٦] ولقد كتب حول الطابور هذه الكلمات الصادقة: «إن وحدة الجنس والروح في البرازيل قد صُنعت من خلاله». نعم يا صديقتي، بفضل الطابور عاشت البرازيل خلال ثلاث سنوات في جو من الملحمة، من أناشيد الحرية وحب الوطن والناس، ذلك الجو الذي كان يخلقه خلال مروره.

سأحدثك، يا صديقتي، عن الضباط والجنـود، عـن الكبـار والصغـار. سأحدثك عن أولئـك الذيـن انتصروا في المعـارك، انتصروا على الحميـات والرذيلة، على الطبيعة المعادية، على الجوع والعطش والانهار والجبال.

وفي البياوي... مرّ الطابور أمام كوخ جدرانه من لبن وسقفه من قش، بسكنه شخص من السرتونيين يُدعـى جـو وال، ويشبـه الوف السرتـونيين

(٤٦) كتب رومان رولان في ندائه حولَ طابور برستس، في سنة ١٩٣٦، ما يلي: «ان دكتاتوريي البرازيل الذين يعتقدون انهم بفضـل مـال أسيـادهـم - رأسماليي أوروبـا وأميركا - وبفضل الصمت المأجور لصحافة محرمة، يستطيعون ان يطمسوا أخبار بطل الاستقلال الفتي، يخطئون خطأ بالغاً في تقدير الصدى العالمي لملحمته، والحب الذي يحيط بوجه «فارس الأمل» الأسطوري. لقد دخل لويس كارلوس برستس حياً في المعبد المقدس للتاريخ، وستتغنى الأجيال بأنشـودة البطـولـة لـرجـل الطـابـور الخمسمئة، ولسيرهم طيلة ثلاث سنـوات عبر البرازيـل الواسعـة، مـن البـارانـا إلى الأطلسي. ولقد صنعت من خلالهم، وحدة الجنس والروح في البرازيل. ومجانين هم أسياد البرازيل إذا لم يقدروا انهم بتوجيه ضرباتهم إلى لويس كارلوس برستس، انما يوجهونها إلى شعب البرازيل نفسه. بل وأكثر من ذلك أيضاً ان لويس كارلوس برستس مقدس بنظرنا، وهو يخص الانسانية كلها. وان من يوجه إليه ضربة ما، يوجهها إلى الانسانية بأسرها». (ملاحظة من المؤلف).

الآخرين في البرازيل. واراد هذا الرجل أن يقدم للطابور هدية ما، معبراً بذلك عن تقديره لجنود الحرية. وتقدم جو وال من لويس كارلوس برستس حاملاً جرة ملأى بالطحين. لقد كان هذا كل ما يملكه من طعام. وقال:
ـ خذ هذا الطحين يا لوائي، فانه كل ما املك في كوخي من طعام... أعطه للجنود...

ولكنه، عقب محاكمة أجراها بينه وبين نفسه، رجع إلى كوخه وهو واثق بأن ما قدمه غير كاف. وكان في البيت حمار صغير، فجرّه من لجامه وتقدم من جديد نحو برستس:

ـ إليك بهذا الحمار الصغير يا لوائي، إنه الشيء الوحيد الذي يمكنني من كسب العيش... خذه وأقلع عن السير راجلاً من الآن فصاعداً...

وعندما رجع إلى كوخه مرة جديدة كان لا يزال موقناً بأن ما قدمه غير كاف، يا صديقتي. ولكن لم يبق لديه أي شيء ليهديه، لم يبق لديه أي شيء على الاطلاق. لا، لا يا صديقتي، إنه لا يزال يملك شيئاً آخر، إنه يملك حياته التي يستطيع أن يهبها من أجل الحرية. وعندما تقدم من جديد، والابتسامة تعلو شفتيه، نحو برستس، لم يكن يحمل شيئاً في يديه الخلاسيتين:
ـ لقد أعطيتك يا لوائي ما أملك، أعطني الآن بندقية ومكاناً في طابورك...
ذلك كان شأن تطوع الجندي جو وال في طابور برستس في أعالي سرتون بياوي.

سوف أحدثك، يا صديقتي، عن ميغيل كوستا، اللواء القائد. سوف أحدثك عن كورديرو دي فارياس، عن سيكيرا كامبوس، عن جوان ألبرتو، عن دجلما دوترا، عن موريرا ليما، عن جواريس تافورا، عن تريفينو كوربا، عن آري فريري، عن مانويل ليرا، عن باولو كروجر، عن البرتو كوستا وعن اينالو لاندروسي، ذلك الايطالي الذي كان مساعد برستس العسكري، عن فرجيليودوي سانتوس، عن الملازم هرمينيو وعن الملازم

سوزا، عن هؤلاء جميعاً الذين تتجاوب أسماؤهم تجاوب أصداء قصيدة من الشعر. سوف أحدثك كذلك عن أولئك الذين بدأوا السير وهم جنود ورقباء، وأنهوه وهم ملازمون ونقباء.

ولكنني أريد أن احدثك الآن عن موريرا ليما، ذلك المحامي الذي دبجت يراعه أخبار التشابابيف في أميركا الجنوبية، والذي هجر مركزه كأمين سر للطابور ليصبح نقيباً، والذي ترك البندقية جانباً ليدرس ملفات الدعاوى التي أقامها الملاكون العقاريون ضد شغيلة الأرض، والذي أعطى الامر باتلاف وثائق المحاكمات. ودُعي بـ « حامل البكلوريا الشرس » لشجاعته في المعارك، وهو لقب يعادل وساماً. ولم يكن بمقدور العدو مطلقاً أن يفكر بأن هذا النقيب، الذي لا يعرف الخوف قلبه، الشجاع المتمرس بالحروب، كان رجل أدب لا عسكرياً ممتهناً.

سأبدأ به يا صديقتي، لانه ترك لنا كتابات مفصلة عن السير الكبير لطابور برستس. لقد كان مثقف الطابور، وكان يحمل السلاح على كتفه، بينما ينبض قلبه من أجل الشعب. لقد كان يهيم إعجاباً أمام منظر جميل، ويرسل بالاهاجي المقذعة ضد العدو، ويروي ببساطة أعظم مراحل الملحمة تأثيراً. ولقد أخطأ عديداً من المرات عند محاولته تحليل الوقائع الاجتماعية، ولكنه في كل مرة تحدث فيها عن الطابور، تحدث صواباً. إنه، وهو جندي من جنود برستس، وهو نقيب الحرية إلى جانب برستس في الاتحاد الوطني التحريري لسنة ١٩٣٥، قد خرج من السجن ليموت بعد ذلك بقليل. ولم يكن بمقدوره، في أيام التعاسة تلك، التي كانت تجتازها البرازيل، أن يتحمل رؤية لوائه موقوفاً ومعذباً في سجون ريّو. لقد كان رجلاً نموذجياً في الطابور. إن الانحطاط الخلقي والطعن المستمر بالكرامة الإنسانية، اللذين تميزت بهما سنوات « العهد الجديد »، جعلاه يتداعى خجلاً وقرفاً. وعندما كتب إليه برستس، في سنة ١٩٣٥، حول الاتحاد الوطني التحريري ـ وكان لا يزال في ذلك العهد نقيباً في الطابور ـ أجابه، يا صديقتي، بما يلي: « انني على ثقة بانك إذا ما دخلت البرازيل على رأس الطابور، ستنهار البطانة

المستولية على الحكم بمنتهى السهولة». وإن هذا هو الرجل نفسه الذي كتب «مارشاس أي كومباس» ذات الأفكار المشوشة، إنما الملأى بالحرارة والحيوية. ولقد تطورت مفاهيمه الثورية تطوّر مفاهيم برستس والطابور. لقد تطور اليسار عقب السير الكبير. ولقد كتب ابن الشعب في المنطقة الشمالية الشرقية، هذا الرجل الذي يحسن استعمال القلم والبندقية وارتداء ثوب المحاماة والثوب العسكري، كتب لورانسو موريرا ليما، المحامي والنقيب في الوقت نفسه، إلى برستس، يا صديقتي، يقول: «إلى اليسار! إنها الكلمة التي ترددها جميع الافواه».

وأقدّم لك الآن يا صديقتي بطلاً آخر مات هو أيضاً: أقدم لك سيكيرا كامبوس، بطل الابطال، الذي كانت حياته قصيده من الشجاعة، والذي قضى بحادث طائرة. لقد كان يسافر من أجل ثوريي سنة ١٩٣٠، بعد أن كان قد تآمر في سان باولو، حيث كان قد اختبأ في بيوتٍ صديقة. وكان اسمه وحده كافياً لادخال الرعشة إلى قلوب رجال الشرطة، وكان خبر وجوده يقوّي عزائم الجميع، يشجع الضعفاء، يسكب الامل في نفوس أولئك الذين كانوا لا يؤمنون بالنصر. وتحطمت الطائرة التي كان يسافر فيها من براتا إلى سان باولو، في البحر. واختفى جسده في البراتا، في يوم ارتدت فيه البرازيل كلها ثوب الحداد. وإن بائعات المؤن المرافقات للطابور، اللواتي كن يرمينه بمختلف النعوت لينتقمن من معارضته لالحاقهن بمفرزته، قد بكين هن أيضاً في هذا اليوم عند تفكيرهن بالقائد الشاب. ولقد كان في مقدمة الرجال الذين ساروا على الرمال في الخامس من تموز، وكان يغلّف صدره بقطعةٍ من علم. وكانت القذائف أضعف من أن تودي بحياته. فلقد ذهب إلى المستشفى بجسم منخور بالقذائف، ولكنه خرج منه بعد ذلك ببضعة شهور. وعندما تشكل الطابور كان هو معه. إن سيكيرا، الذي كان يحوز على ثقة برستس كلها، كان رئيساً يقود خلفه جنوده في كل الظروف. وكان نبله مثالاً يحتذى. وبعد برستس، كان هو وميغيل كوستا من أكثر أبطال الطابور قرباً من قلوب الشعب. إن هذا القائد الشاب، الذي يبلغ الرابعة والعشرين من

عمره، الشجاع إلى حد المجازفة، السريع في اتخاذ المقررات، كان سريع الخاطر في فهمه أدق المواقف وأكثرها غموضاً، وفي تقرير ما يجب القيام به في أصعب الظروف، بسرعة فائقة.

لقد كان أفضل رمزٍ لنبل الجيش. وهو بعينيه المتوقدتين نشاطاً وبفمه الصارم، كان دوماً على استعداد لارسال نكتة ما، وكان يملك الموهبة لاضحاك برستس. لقد كان مرحاً، ولكن لم يكن هناك أي ضابط يُحسن خيراً منه النظام واحترام هذا النظام وخلال اجتياز برنمبوكو، عند اندلاع المعارك العنيفة التي كانت مزرعة سيبو مسرحاً لها، في ذلك الحين، وقد هاجم رجال الشرطة والكانغاسيروس وفرق الجيش، الطابور، جاء وقت دب فيه الهلع في الفيلق الخامس من مفرزة سيكيرا، بعد أن هوجم بقوات تفوقه عدداً بمقدار عظيم، وتفرق الجنود أيدي سبأ وهم لا يفكرون إلاَّ بإيجاد مخبأ يحتمون به، عندها تقدم سيكيرا على رأس عدد من الجنود الصامدين، نحو العدو، بصدر مكشوف، وأخذ يطلق النار من مسدسه، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة من سخرية، واشتعلت عيناه باللهيب. وشاهد جنود الفيلق الخامس من مخابئهم الامينة، سيكيرا والملازم سادي ماشادو يتقدمان مع الرجال القلائل الذبن يتبعونها، نحو موتٍ عنيف. وكان لهذه الرؤية تأثير أشد عنفاً من الخوف، يا صديقتي. وكان سيكيرا بصدره المكشوف، يتقدم مزهواً، بينما كانت القذائف تصفر من حوله، وكان الجنود الاعداء يتساقطون صرعى امامه؛ وبرباطة جأش تابع تقدمه وقد سيطر عليه هدوء كان بمثابة نداء للرجال الذين استبد بهم الخوف، ودرس لاولئك الذين آثروا الفرار. وكانت هذه اللوحة أقوى من الخوف، يا صديقتي. وعاد الجنود الفارون إلى قواعدهم. وخرجوا، واحداً واحداً، من خلف الاشجار، وتجمعوا، وبعد عدة دقائق كان الفيلق الخامس بكامله مشتركا في القتال، وقد امتلأت منه البردتان من جديد بالشجاعة والجرأة. ودُحر الحكوميون بفضل بأس رجال الطابور. إن قوة تأثير رئيس الكوبا كابانا وابتسامته اللامبالية بين القذائف، وهدوءه أمام الموت، كل هذا كان أقوى من الخوف، يا صديقتي.

وفيما لو قصصت عليك، يا صديقي، مرحلةً مرحلة، وحادثةً حادثة، جميع مآثر بطولة سيكيرا كامبوس، لكان علينا أن نبقى على الارصفة إلى أن يبدأ البدر القادم من البرازيل بالتقلص ويصبح قمراً لايام حزينة. إن حياة سيكيرا القصيرة، الجليلة الشأن، هي قصيدة حربية، تتخللها معركة عند كل بيت، وقتال مسلح عند كل مقطع، يا صديقي.

إن جوان ألبرتو ودجلما دوترا وآري سلغادو قد تكللت منهم الهامات، هم كذلك، باكاليل الفخار. ولقب جوان ألبرتو بـ « مبعوث العناية الالهية »، لانه كان يظهر دائماً في أصعب الاوقات. لقد كان يتميز بشجاعة خارقة. وكان، بصفته مواطناً من برنمبوكو، يتمتع بجميع صفات مواطنيه: ومن بينها عدم التأثر أمام المخاطر. لقد كان يمر بين القذائف، ويقترح الحلول غير المتوقعة لأعقد المشاكل وأكثرها حدة. وكان رجلاً جديراً بالقيام بأي شيء خلال سير الطابور، وكان قائداً ومهندساً، طبيباً ورجل مدفعية، يسير لتأدية مهمته، لا فرق لديه إن كان راجلاً أو ممتطياً صهوة حصان، ولا تمييز عنده بين أيام الانتصار وأيام المجاعة.

على هذا الشكل كان دوترا وآري، يا صديقي، وعلى هذا الشكل كان أيضاً تريفينو، شجاع ذلك العهد وكل العهود، وكذلك لاندروسي وكروجر وموريرا وليرا وجميع الآخرين.

لقد مات كثير من هؤلاء الاشخاص، يا صديقي، ولكنهم لا يزالون أحياء في قلب الشعب. ولقد اتبع آخرون طريقاً هي ليست طريقنا. ولكنني أقول لك، يا صديقي، بأن علينا أن لا نيأس من الرجال الذين كانوا مع الطابور. ففي قلوبهم تنطبع علامة عميقة. وإذا ما كان طابع الخيانة والشقاء قد ناء بكلكله على أولئك الذين خانوا الطابور في سنة ١٩٢٤، والذين لا يُنتظر منهم القيام باي عمل، فإن علينا مقابل ذلك أن لا نتخلى عن كل أمل في أن نرى أولئك الذين ظلوا مع الطابور، والذين اتخذوا اليوم مواقف نعتبرها خاطئة أو خطرة، بان يغيروا اتجاههم هذا. وعلينا أن لا ننسى بانه مهما كانت فداحة اخطائهم، فإن الشعب كان علماً لهم وإن نداء الشعب

لأقوى من جميع النداءات. لقد سمعوه مرة، ومن الممكن أن يسمعوه الآن أيضاً، وقد بلغ الألم الشعبي ذروة لا يمكن لها وصف.

إن رجال الطابور الالف والخمسمئة هم أبطال الشعب البرازيلي. ولقد جُرح أكثر من ثمانين بالمئة منهم مرة واحدة على الاقل. ولقد اجتازوا ستة وعشرين ألف كيلومتر في قرابة ثلاث سنوات، وإن أكبر راحة منحوها لانفسهم خلال مدة توقفهم، لم تتجاوز مُطلقاً الثماني والاربعين ساعة. ومات منهم ستمئة جندي وسبعون ضابطاً. واستُعمل مئة الف حصان في سير الخيالة هذا، الذي يظل أعظم سير تعرف إليه العالم. وذُبح ثلاثون الف ثور. وحصلت ثلاث وخمسون معركة مهمة وألوف المناوشات.

آه! يا صديقتي، ستكون الليالي قصيرة جداً إذا ما أردت أن أقص عليك جميع مآثر الجنودالبطولية، مأثرةً مأثرة، وإذا كان علي أن أحدثك عن الجنود، واحداً واحداً. ليس هناك أي جندي ولا أي عريف ولا أي رقيب ولا أي ملازم في الطابور لم يقم بمأثرة بطولية. إن الطابور الذي كان يقوده رئيس عبقري، كان عملاً جماعياً، كان نتاجاً لألوف المآثر البطولية المتشابهة. ولم يكن الرؤساء يغمطون أبداً حق الفرد من التقدير، وكان الرجال يقدرون تماماً ما كان يُنتظر منهم.

ولقد اجتاز زيه فيوفو، الذي جُرح في ساقه، مرحلة كبيرة من السير على حمالة. وشاهد، وهو متمدد ومحمول من قبل رفاقه، العمل الذي كان كل مريض يقدمه للآخرين. وكان يعرف أيضاً بأن الطابور لم يكن يترك خلفه جرحاه، ولا الرجال الذين فقدوا القدرة على القتال؛ لقد كان يحملهم معه، وكان بذلك ينقذهم من تعذيب يحمل لهم في طياته موتاً محتماً. وكان زيه فيوفو يعرف كذلك بانه لم يكن بمقدور أي مريض أن يترك الطابور، أن يهجر الكنّ الذي استولى عليه. إنه، وهو العاجز، لم يترك حمالته إلا ليمتطي ظهر حصان. لم يكن بمقدوره السير. فصنع لنفسه عكازتين استطاع بواسطتهما أن يجرجر نفسه وهو يسير. وفي أحد الأيام ذهب لمقابلة برستس وطلب إليه

أن لا يدعه بين العجزة، وأن ينيط به القيام بعمل ما. وكان برستس يعرف الناس، ولم يكن في قلوبهم سر يخفى عليه. فابتسم لزيه فيوفو وأعطى الامر بأن ترد إليه بندقيته. وأصبح زيه فيوفو، والسلاح في يده، يقوم بحراسة الطابور عندما كان هذا يعسكر، وكان يضع عكازتيه بالقرب منه، يأخذ بندقيته بين يديه ويجلس بين الادغال، لأن ساقه الوحيدة لم تكن تمكّنه من البقاء واقفاً. ولم يكن هناك من حارس موثوق أكثر من زيه فيوفو. وويل للعدو الذي يخاطر بالاقتراب من المعسكر في أيام الحراسة هذه! وكان السلاح المرتكز على ساق زيه فيوفو العاجزة لا يخطىء اصابة الهدف مطلقاً. ولم يتعرض الطابور لأي هجوم مفاجىء خلال ساعات حراسته. على هذا الشكل كان العجزة يستطيعون خدمة الطابور، يا صديقتي.

وجُرح أغري كولا باتيستا أربع عشرة مرة، وبالرغم من ذلك تابع السير حتى بوليفيا، التي دخلها حاملاً شرائطه كنقيب. ولقد تلقى ثلاث قذائف في الساق نفسها، وبالرغم من ذلك كان يقوم بألاعيب يستحق من أجلها الشنق ويتحدث عن بتر ساقه. على هذا النحو، يا صديقتي، كان جنود الطابور.

وكان هناك أيضاً رجال من أمثال لويس كريتيريو الذي لم يترك خلفه سوى النساء من عائلته. وجاء إلى الطابور مع أخيه وأولاده الثلاثة. وماتوا جميعاً، ولم يصل أي واحد منهم إلى بوليفيا. لقد سقطوا الواحد تلو الآخر، وكان هو آخر الضحايا، وصُرع بالقرب من بيانكو. لقد كان هرماً ووهب دمه ودم أولاده الفتي.

ولقد قدم عامل الطباعة العملاق بيراسيسابا من سان باولو، وهو يقاتل بشجاعة. ولم يكن يطمح في سذاجته الفخورة إلا أن يُدرج، على سبيل المكافأة، نبأ موعد عيد ميلاده في جريدة «الليبرتادور»، وهي الجريدة التي كان ينشرها الطابور من وقت لآخر، ساعة دخوله احدى المدن أو عند عثوره على مطبعة. وتمّ له ما أراد فشعر بانه كوفىء على الدماء التي سكبها. على هذا النحو كان هؤلاء الرجال، يا صديقتي.

وكان الزنجي بلدوبنو ، الهرم الابيض الشعر ، البالغ من العمر سنين لا يمكن عدها ، قد سبق له أن حارب في سنة ١٨٩٣ مع ببنييرو ماشادو ، وهو برافق الآن بينييرو ماشادو آخر يسير مع الطابور . وكان بمقدور هذا الرجل ، الذي هو معلم له ، أن يكون له ابناً . وكان بلدوينو يوبخه ، وكان دائماً إلى جانبه . وفي أحد الايام اشتركت كتيبة ببنييرو في معركة غير متساوية ، وطوق العدو القائد . عندها تقدم بلدوينو من بينييرو وأصدر إليه الامر ، بسلطته كزنجي هرم ، لأن يفتش لنفسه عن ملجأ يحتمي به . ثم ترجّل عن حصانه وأطلق صرخة حرب الغابات العذراء الافريقية ، وواجه العدو والمسدس في يده . وعندما نفد منه الرصاص ، استل حسامه ـ حساماً برجع عهده إلى معارك ١٨٩٣ ـ واندفع في قلب المهاجمين حتى سقط صريعاً ، وقد اخترقت جسده ألوف القذائف وطعنات الحراب . وهكذا انقذ بلدوينو في هذا اليوم حياة زبه بينييرو ، يا صديقتي .

إن فافورينو بنتو الذي فقد القدرة على القتال بسبب تقدمه بالسن ، والذي سبق له أن قاد الحركات الثورية بين الكوشيين ، بقي في الطابور لمرافقة ولديه واسداء النصبحة إليهما خلال المعارك . وكان بومبيكو ، ساحر السوق ، بقوم بتمنيل روايات مسرحية أمام الجنود ، أبام التوقف ، وتصدر عنه أعظم آيات البطولة بين المقاتلين ، أيام القتال . ولم يكن للزنجي كاستورينّو ، القوي الضخم كاحدى شجرات الغابات العذراء ، من يماثله بالشجاعة . لقد خلف ذكرى خالدة عميقة في السرتون ، ورقي إلى رتبة رقيب بفضلٍ من شجاعته . لقد كان يحب القتال وحيداً ضد المئات من الاعداء . وعندما غادر الطابور بيكوس عاد على اعقابه ، وتوقف في وسط أحد الحقول ، والابتسامة تعلو شفتيه ، وأخذ يطلق النار على جنود مدينة بيكوس . وكانت طلقات الرصاص تقطع الاعشاب وتدوّي من حوله . ومات كاستورينو في الشابادا ديامانتينا . لقد قاوم وحده عصابة من الجاغونسوس ، في معركة أخرى مشابهة . وسقط صريعاً ، بعد أن أودى بحياة كثير من الاعداء ، يا صديقتي .

ولقد رُقيّ عدد من الاولاد ، يا صديقتي ، إلى رتبة عريف ،

كـ « جاغونسينيو » ، ومات عدد غيرهم من التعذيب الذي استهدفوا إليه على يد الحكوميين، كـ « ألدو » . وكان هذا الأخير ابناً للنقيب هيلديبرندو دي أوليفيرا ، وعندما شاهد أباه يموت في أحد خنادق العدو ، لم يصدر عنه أي صراخ ، ولم تظهر في عينيه ابة دمعة يأس. وبالرغم من انه لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، كانت الشهور التي قضاها في الطابور برفقة ابيه قد أكسبته خبرة عدة سنوات من التجارب . فأخذ سلاح ابيه بين يديه وتقدم إلى الخندق الذي كان فيه ، وجعل يقاتل مكانه .

على هذا النحو كان رجال الطابور يا صديقتي ، وعلى هذا النحو كان الاولاد الذين أصبحوا رجالاً خلال السير الكبير . إنني لم احدثك إلا عن بضعة أفراد منهم ، يا صديقتي . ولكن مآثر الطابور الفاجعة البطولية ، تُعد بالعشرات وبالمئات . فلم يمر يوم دون أن تجري به حادثة بطولية . وكان لكل من هؤلاء الرجال عمل رائع شبيه بالأسطورة . وعلى الليل أن يتمدد إلى ما لا نهاية ، وعلى القمر أن لا يتعرف إلى الرقاد ، لكي استطيع أن أروي لك ولو قسماً بسيطا من مآثر هؤلاء الرجال .

أنظري إليهم : هذا واحد فقد ساقه إلى الابد ، وآخر قد ذهبت احدى القذائف بذراعه إلى غير رجعة ، وثالث قد شوّه الرصاص منه الوجه ، ولكنهم جميعا يتقدمون والابتسامة تعلو منهم الثغور . إنهم جرحى وعجزة ومرضى ، ولكنهم لا يزالون جميعهم جنوداً ، لقد قاتلوا دون أن يستسلموا ، وتقدموا دون أن تفتر منهم العزيمة وكلهم ثقة بالمستقبل . لقد كان هؤلاء الرجال صورة للثورة يا صديقتي .

- ١٥ -

وعندما كان أحد الجنود يشعر بانه لم يبق لديه سوى بضع دقائق للتمتع بنور الحياة، وقد جُرح جرحاً بالغاً، كانت لا تتردد على شفتيه سوى هذه الكلمات:

ـ أريد رؤية اللواء قبل أن أموت.

تلك كانت رغبة المحتضرين في الساعة الحاسمة. لقد كان بهم شوق لرؤية برستس وهم يموتون. وقد زالت من ذهنهم كل صورة للاراضي العدوة وللشعوب الجائعة التي تحدروا هم أنفسهم منها. وزالت كذلك صورة التعاسة الحاضرة. وكانت عينا برستس المشتعلتان تمثلان بالنسبة إليهم مستقبل الحرية، الذي سيصبح مستقبلاً للبرازيل كلها. إنهم كانوا يحلمون باليوم الذي ستصبح فيه الاراضي الغنية الخصبة في البلاد مفتوحة أمام الجميع... سيتعرف الناس عندها إلى الحرية والسعادة، وسيعملون على أرض هي أرضهم وبآلات هي آلاتهم.

من أجل هذا السبب أجاب أحد المحتضرين عندما اقترب منه أحد الضباط وسأله، بصراحة فظة، إذا ما كانت به رغبة لأن يكتب كلمة ما إلى خطيبته، لأن يرسل مالاً إلى أهله، لأن يدخن لفافة أو يشرب كأساً.

فأجاب المحتضر:

أريد رؤية اللواء قبل أن أموت.

وكان برستس يقترب، وقد علت شفتيه ابتسامة ودودة، وانبسطت يداه، واشتعلت عيناه باللهيب. وكان المستقبل يأتي معه. كان يجلس قرب سرير المحتضر، ويتحدث الاثنان، يتحدث اللواء والجندي عن الماضي، عن

المعارك، عن المسافات المجتازة وعن الانتصارات. وكانا يتحدثان كذلك عن المستقبل، عن المستقبل الذي يولد من دم الجنود الصرعى. كان الجندي يعرف جيداً بأن رجال المستقبل سيتحررون من الألم والتعاسة. ألم يكن وجه برستس الهادىء وعيناه المشتعلتان، وابتسامته الحارة، اللدنة، ألم يكن كل هذا بالقرب منه لكي يؤكد له هذا الامر؟

وكان الجندي السعيد يبتسم، يا صديقتي، وكان يموت سعيداً في الغابة العذراء أو في الكاتنغا، وهو يتطلع إلى وجه لويس كارلوس برستس المحبوب. هذا ما تحدثنا به الاخبار الشفهية يا زنجيتي، وهذا ما يرويه العميان في المنطقة الشمالية الشرقية.

- ١٦ -

عندما طهر الطابور، يا صديقتي، في سنة ١٩٢٤، ساعة اندلاع الثورة في ربو عراندي وفي سان باولو، كان الرؤساء المدنيون والعسكريون لا يعرفون سوى بعضٍ من الاسباب التي كانت تدفع الشعب إلى الثورة. ولم يكن هؤلاء الرؤساء يقاتلون إلا من أجل اصلاحات سطحية. ولم يكن يصل إلى آذانهم سوى صدى فاتر للصخب الهائل من اليأس المتصاعد من قلب البرازيل. ولم تكن تطالع عيونهم سوى صورة المشاكل المحلية. لقد كانوا يجهلون المشاكل الكبرى في البرازيل. وكان سكان الداخل غير المعروفين، العائشون على شواطىء الأنهر الكبرى في اللاتفنديا، يخضعون لنظام من العبودية لم يكن له قربن إلا في روسا القيصرية.

ولقد تعرّف رؤساء الثورة، وفي مقدمتهم برستس، إلى حقيقة البرازيل اتناء السير الكبير. لقد كان للطابور أثران مهمان يا صديقتي. فلقد حمل الامل إلى الشعب، وزوّد قادته بالتجربة التي كانت تنقصهم. لقد كان على الرجال الذين اندفعوا من الشواطىء البحرية المتمدنة، من المدن الكبرى، من ربو، من سان باولو، من بورتو اليغري، أن يواجهوا شيئاً بعيداً عن حدود التصور. وكان أول ما لاحطوه هو أنهم يجهلون البرازيل جهلاً تاماً. وإذا ما كانت المساكل السياسية والاجتماعية التي واجهتهم في المدن قد حملتهم على القيام بالتورة، فإن نظرة واحدة يلقونها من الآن فصاعداً على مشاكل البلاد الرئبسية، تجعلهم يفهمون بأن الثورة التي فكروا فيها لم تكن سوى شيء سطحي

من أجل ذلك كانت ثورات سنوات ١٩٢٢ ـ ١٩٢٤ وانتفاضات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦، التى لم يكن لها جذور شعبية، هي أشبه ما تكون

بالانتفاضات البسيطة منها بالثورات ولكن سير الطابور سوف يغير الوضع. فلقد تعلم أشياء جديدة وعلمّ أشياء غيرها. وبالرغم من انه لم يكن في أول الامر سوى فريق من جنود نجوا بحياتهم عقب انتفاضة فاشلة، فهو قد حمل الثورة إلى الشعب. وفي نهاية السير الكبير، أصبح الطابور يمثل الثورة السائرة في البلاد، ولقد ألّب الشعب حول منهجه. ولم يكن بمقدور ثورة سنة ١٩٣٠ التي سبقتها ورافقتها حركة شعبية هائلة، ان تتعرف إلى الوجود، لو لم يوقظ الطابور وعي الجماهير وينشيء لها قادتها. وفي سنة ١٩٣٠ سوف يفيد التحالف الليبيرالي من كل ما علمه الطابور إلى الثوريين ومن بذرة الحرية التي غرسها في أوساط الشعب. وإن الناطقين بلسان ثورة ١٩٣٠، الذين ـ كما توقع برستس ـ قد خانوا بمعظمهم قضية الشعب وانقلبوا ضده، لم يستطيعوا الاستيلاء على الحكم إلا بفضل منهج من مطالب حقيقية. هذا المنهج الذي سوف يتخطاه برسنس بمراحل كبيرة، في سنة ١٩٣٥، عندما سيقف أمام الشعب الذي خانه قادةُ سنة ١٩٣٠، ويخلق التحالف الوطني التحريري. أما في ما يتعلق بالتحالف الليبيرالي فلقد كان يتأرجح بين المطالب الشعبية وبين التعهدات التي قطعها رؤساؤه السياسيون للاستعماريين الذين كانوا يمولونهم. ولم يكن التحالف الوطني التحريري مقيداً بأي تعهد، بل كان يمثل فقط مصالح الشعب.

إن نظرة واحدة للحدود التي تفصل بين هاتين الحركتين، تمكننا من رؤية الطريق التي اجتازها برستس والرجال الذين تبعوا، في سنة ١٩٣٠، التحالف الليبيرالي. لقد شاهد هؤلاء الرجال، مثلهم في ذلك برستس، المشاكل وعاشوها، وحملوا في نفوسهم آثارها التي لا تمحى. ولكنهم قد تقبلوا، وهم يهيئون انفسهم سلفاً للخيانة، الحدود التي كان يضعها السياسيون الماهرون للمطالب الشعبية. في نهاية السير كان برستس قد تجاوز حتى هذا المنهج نفسه. وكان هناك شيء واحد يستأثر باهتمامه: لقد كان يريد ايجاد السبيل الصالحة التي تمكّن من حل مشاكل البرازيل بصورة حقيقية. ولم تبق الثورة بنظره مغامرة يجب اغتنامها كلما سنحت الفرصة. لقد اصبحت تشكل

استجابة لحاجات الشعب، استجابة حقيقية ايجابية، وليس استبدال حكومة بحكومة أخرى. لقد كان على الثورة أن تقدم الحلول الحقيقية لآلام البرازيل.

ولقد تحدث برستس حول الطابور فقال:

« إن ما كنا نهدف إليه بصورة رئيسية هو ايقاظ وعي الجماهير في الداخل وانقاذها من الغفلة المتردية فيها، من اللامبالاة بمصير البلاد ومن اليأس من ايجاد علاج لأوجاعها وآلامها ». وإن هذا هو ما توصل برستس إلى القيام به، وهذا ما حققه الطابور بصورة رئيسية.

ولكن كان للمسألة وجه آخر: فعندما شاهد ممثلو الشعب آلام الشعب، تعلموا كثيراً من الأشياء. لقد فهموا مقدار ما كانت عليه المناهج الثورية لحركات سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٤، من السطحية. ومنذ ذلك الحين بدأت فكرة « التيننتيستا » تتحول إلى فكرة « الوطنية التحريرية ». وبينما كان كل شيء بدل أن « التيننتيسمو » قد بلغت الذروة في سنة ١٩٣٠، كان القسم الذي لم بتطور من « التيننتيسمو » هو الذي تمركز كنظرية في سنة ١٩٣٠. وإن « التيننتيسمو »، الممثلة للتقدمية، كان قد سبق لها أن تطورت إلى فكرة أوسع. وتحدث برستس في المنفى، بعد التراجع الذي كانت قد حملته إليه السنوات المنصرمة، عن المظهر الثاني، وسجل التطور السريع « للتيننتيسمو »:

« ليس هناك من حل ممكن للمشاكل البرازيلية في حدود القوانين الشرعية المرعية الاجراء. إن الامر لا يتعلق بالرجال، بل بالاعمال، أي بمنهج وبنظام. إن أي حكومة، مهما كانت تحركها أشرف الدوافع في العالم، لن تستطيع، في حدود القوانين الحالية، أن تحل المشاكل الوطنية، بأي شكل من الاشكال. فعلى الحل أن يكون نتاجاً لتحول جذري في جميع الحقول الاجتماعية لا في الحقل السياسي فقط: يجب إعادة تنظيم البلاد على أسس جديدة. يجب إعطاء أسس اجتماعية واقتصادية جديدة للعلاقات بين الناس الذين يسكنون هذه الارض الكبيرة ويشتغلون فيها. يجب أن نحطم، بصورة جازمة، السلاسل التي تقيد البرازيل وتمنع تطورها وانطلاقها المثمر الوهاج ».

لقد تعلم برستس هذا الامر، خلال السير، بفضل الطابور. لقد قدم

الشعب لرجال السير الكبير مشهداً جديداً للحياة البرازيلية. لقد انهى الشعب صناعة قائده، وطبعه بصورته، وعمّده بنيران مشاكله. وخلال السير، تحدث برستس عن «تقسيم اللاتيفنديا». ولكنه بعد انتهاء حوادث الطابور، انتصب يناهض الاستعمار، وارتفع صوته متوجهاً إلى جميع بلاد أميركا اللاتينية يدعوها إلى الاتحاد ضد العدو المشترك: الاستعمار. إن قائد الشعب البرازيلي يبدأ مهمته كقائد لاميركا كلها. وذلك لانه تعرف في داخل بلاده إلى المشاكل التي هي في الوقت نفسه مشاكل البلاد اللاتينية الاميركية كلها.

تطلعي، يا صديقتي، إلى هذه الثورة كيف تعاظمت! فلم يكن منهجها يحوي، في سنة ١٩٢٤، أية كلمة عن اللاتيفنديا، عن المسألة العمالية، عن الاستعمار. وكان ايزيدورو، يخشى، في هذه السنة، أن يتقبل معونة عمال سان باولو. وفي نهاية السير الكبير، أخذ صوت برستس يرن على شكل آخر. فلقد أصبح هذا الصوت، بعد اتصاله بالشعب، أعظم قوة، وأخذ يتجاوز حدود البرازيل ليصبح حادثاً أميركياً، ذلك لان مشاكل البلاد الاميركية اللاتينية متشابهة كلها وليس هناك سوى طريقة واحدة لحلها، جميعها، يا صديقتي.

وبالرغم من المرض الذي كان ينهش برستس، ومن الحمّى التي كانت تتآكله، كانت توجه إليه النداءات من أربعة انحاء البرازيل، وكانت الاحزاب تدعوه لأن يصبح رئيساً لها. لقد كان الجميع يريدون استثمار الاحترام الذي يتمتع به. وتوجهت إليه كذلك أحزاب بلاد أميركا الاخرى. وأحاطت باسمه هالة من البطولة الاسطورية. إنه أمل شعبه. ولكن الجميع يريدون استعماله من أجل مصالحهم الخاصة. ولكن برستس، يا صدبقتي، كان لا يهتم بكل هذه النداءات ولا بكل هذه العروض، لقد كانت به حاجة لشيء واحد: لقد كان يريد أن يجد حلاً لمشاكل بلاده. وسوف يستعمل فترة المنفى، التي ستلي ذلك، للتفتيش عن هذا الحل بصورة لا يفتر لها نشاط. ولن يدخل البرازيل من جديد إلا وقد تركّز في ذهنه شيء واضح دقيق في ما يتعلق ببلاده.

القسم الثالث

دروب المنفى

« ... إنه يسكن كوخاً حقيرا ويأكل قليلاً. ولكن هذا الرجل الهزيل، الشاحب، الفقير، الذي تنهشه الملاريا، هو أمل وقوة الشعب البرازيلي!».

« اوكتافيو برانداو »

« ... لقد أضحى أصدقاء برستس القدامى لا يفهمونه؛ فهو ينظر الآن إلى الأشياء على شكل آخر، وأصبح يتميز من أصدقائه هؤلاء بأن إيمانه بطريقته القديمة في التفكير قد تزعزع. إنه يفتش عن دروب أخرى...»

« رودولفو غيولدي »

- ١ -

إن دروباً جديدة تنفتح الآن أمام برستس ، هي : دروب المنفى . وسوف يتطور تفكيره خلال مراحل المنفى الثلاث : الغايبا ، البراتا ، والاتحاد السوفياتي ؛ ويجد هذا التفكير لنفسه مستقراً . إن هذا الرجل الذي انتهى من اجتياز عتبة الخلود على رأس طابوره ، لم يكن بمقدوره أن ينام على أكاليل غاره ؛ فهو لم يقم بالسير الكبير ليرتاح في وسط الاعجاب الذي يحيطه به المعجبون بمآثره البطولية . لقد انتهى من القيام بثورة . ولكنه يريد أن يجد الثورة الجديرة بحل المشاكل الهائلة التي رآها وأحسها . وهو الآن ، وقد انتهى من تلمّس التعاسة التي تسيطر على الحياة في داخل البرازيل ؛ يفتش ، بالمثابرة العظيمة التي يتميز بها ، في الكتب ، عن أجوبةٍ للأسئلة الحادة التي وجهتها إليه شعوب السرتونات الجائعة .

في الغايبا يا صديقتي ، كان الطابور هو الذي لا يزال يستأثر باهتمامه ؛ فإن الجنود الخمسمئة الذين يرافقونه يستأثرون بكل مشاغله اليومية . ألم يهجروا الأرض والراحة ، البيت والعائلة ، الزوجات ، الأولاد ، الأمهات والخطيبات ، ليرافقوه في هذا الحج المميت خلال البرازيل ؟ وبينما كان معظم ضباط الطابور يتوجهون إلى أراضٍ أخرى أكثر مدنية ، مفتشين عن رغد العيش ، عن الأدوية ، عن الصحة والهدوء ، وعن كل ذلك الذي حُرموا منه خلال ثلاث سنوات ، ظل برستس مع جنوده في الغايبا . كان يشعر بأنه مسؤول عنهم . فإن الحس بالمسؤولية كان منهجه الثابت في الحياة . سيعيدهم إلى بلدانهم واحداً واحداً ، وهو لن يدخلهم البرازيل فقط ولكنه سيرسل بهم إلى المدينة ، إلى القرية ، إلى البلدة ، إلى المزرعة التي انطلقوا منها ليتطوعوا في الطابور . إنه لن يرسل بجنود الطابور إلى بلدانهم فقط ، بل سيرسل بهم إلى بيوتهم . وهكذا

يقدم اليهم أقصى ما يستطيع، وهو بذلك يبعث أيضاً برسل للتورة إلى أربعة أنحاء البرازيل؛ فإن الرجال العائدين إلى بيوتهم سيروون ما قاموا به في الطابور، سيقولون إلى أى حدٍ كانت الثورة ضرورية للبرازيل.

لقد وصل جنود وضباط برستس إلى الغايبا يرتدون أسمالاً أحقر من أسمال المتسولين. ولقد امتلأوا قملاً وطال شعرهم إلى درجة هائلة، وتجوّفت منهم الوجنات وغارت العيون. وكانت الحمى التي رافقت هؤلاء الرجال خلال سير السنوات التلاث، هذه الحمى التي كثيراً ما استمدوا منها القوة الضرورية للقيام بواحدة من أشد مآثرهم البطولية جرأة، كانت تنهكهم الآن، وقد أصبح ذهنهم لا يتطلب من جسدهم أن يقدم كل ما يستطيعه من جهد. وكانت هذه الحمى قد انقضّت على الطابور، قرب ضفاف الأنهار الكبرى المحاطة بالمستنقعات؛ لقد انقضت عليه بهذيانها وأوهامها الشبيهة بهذيان وأوهام الكوكايين، وسيطرت على أربعمئة من الرجال مات ستة منهم فقط، بينما تابع الآخرون التقدم وهم يحملون هذا العبء الإضافي على اكتافهم الهزيلة؛ بل لقد استمدوا من الحمى نفسها القوة للتقدم، حتى أن بعضهم لم يكن يشعر بأن الملاريا تستأثر به. فإن جو الحمى هذا كان هو جو الطابور الاعتيادي. أما في ما يتعلق ببرستس فلقد اجتاز القسم الأكبر من السير الكبير وهو مصاب بحرارة تتراوح بين ٣٩ و ٤٠ درجة مئوية. وكان الرجال، وهذه حالهم، وقد أخذوا يرتجفون من الملاريا، يسيرون، يحاربون ويهزمون العدو. وكادت الحمى، خلال السير، أن لا تكون مشكلة هامة بالقياس اليهم.

ولكن في الغايبا، حيث توصل الطابور إلى إكمال السير الكبير، أخذت الملاريا تضغط على الرجال بثقل هائل من الحمى والهذيان. وكان الرجال المنهوكون ستسلمون إليها. وكانت تتراءى لهم في ساعات الهذيان المستبدة بهم، صور السير الكبير، صور الأيام المجيدة الماضية. وإن أول معركة شنها برستس في المنفى هي معركته ضد الملاريا؛ فلقد أصبح، مع دجلها دوترا الذي ظل بجانبه، الطبيب والممرض لجنوده. لقد كان يؤاسيهم إنْ بوضعيته

الودودة أو بكلماته، وكان يمنحهم الشجاعة. وبالرغم من أنه هو نفسه كان يرتجف من الحمى، لم يكن ليفتر لحظة طيلة اليوم. لقد كان يهتم بإيجاد عمل لجنوده، ويهتم في الوقت نفسه بإعادتهم إلى بيوتهم.

كانت الحكومة البوليفية قد منحت شركة انكليزية امتيازات عقارية كبرى في المنطقة التي لجأ إليها برستس وجنوده؛ وبالواقع، كانت عدة أقسام من البلاد قد مُنحت للاستعماريين الأجانب. وكانت مكاتب شركة «بوليفيا كونسيشن» في لندن. ولم يكن على الأرض البوليفية سوى بضعة أفراد انكليز يناقشون في الغابيا، حول اقداح الوسكي، الوسائل التي تمكنهم من استثمار هذه الأراضي. واقترح عليهم برستس أن يعمل معهم هو وجنوده. وبالرغم من معارضة المهندسين الانكليز الموجودين في المنطقة، اقترحت الشركة على برستس، بناءً على تعليمات وردت من لندن، أن يعقد معها اتفاقاً شخصياً. فرفض. لقد كان يريد الحصول على عقد لفريقه كله. وأخيراً كُلف باصلاح هذا القسم من البلاد وبجعل الغابات العذراء صالحة للزراعة، وببناء الطرق. وأخذ عدد من رجال الطابور يعملون تحت إدارة الشركة المباشرة. وكان من بينهم لاندروسي النقيب السابق، المثير للفضول، في مدفعية الجيش الإيطالي. وكان هذا النقيب قد هاجر إلى البرازيل، وقد عافت نفسه تحمّل جو الفاشية الآسن، حيث التحق بالثورة في سنة ١٩٢٤، وعُين في ما بعد مساعداً عسكرياً لبرستس خلال معظم سير الطابور. وكان الآخرون يعملون مع برستس، الذي حصل لهم على عقود وقعتها الشركة. وقاموا جميعاً بأعمال كبرى.

وبعد توقيع هذه العقود، جمع برستس رجاله ليحدثهم عن ظروف العمل وعن أجر كل منهم. وكان، وهو اللواء، ينال كأقل شغيل منهم دون زيادة أي قرش. لم يكن هناك من مُناظر للعمل. إذ ما جدوى ذلك ما دام كل إنسان يعي مسؤوليته ويعرف بأنه يتلقى أجراً لما يعمل؟ لقد كانت الثقة هي التي تسيطر بين الرئيس والشغيلة. وكان هناك عمال وفنيون، ومن بين الأخيرين كان هناك واحد عبقري.

وهكذا بدأ برستس عمله الثاني الكبير الجماعي. ولقد التفتَ، كما في السير

الكبير، عبقرية لويس كارلوس برستس وقوة الشغيلة.

وكان الجنود القدماء، الذين اصبحوا عمالاً، يعرفون بأن برسس لا يقودهم ليغتني بأتعابهم ولا ليستثمرهم. إنهم يعرفون بأنه يسكن كوخاً مزرياً كما يسكنون، ويرتدي الأسمال نفسها التي يرتدون، ويأكل الطعام نفسه ويتناول الأجر نفسه، بل وهو، حتى من هذا الأجر الضئيل، يوفر شيئاً ما يقدمه للأشخاص الذين اقتصدوا المال اللازم لاعادتهم إلى وطنهم. وهم يعرفون أنه رفض أن يأخذ ولو قرشاً واحداً من المال المرسل من ريو على اثر التبرعات التي جُمعت لمساعدة الثوريين. فلقد وُزع هذا المال على جميع الثوريين باستثناء برستس. ويعرف الجنود القدماء، الذين أصبحوا عمالاً، بأن برستس يقاسمهم جميع مصاعبهم وظروف عيشهم، وأنه، فوق ذلك، يعمل أكثر منهم، أكثر كثيراً منهم، وبأن له عدداً أعظم بمراحل من المشاغل، وبأنه يقود كل شيء، وبأنه لا ينام لأن ليس لديه وقت لذلك، وبأنه لا يعتني بنفسه، وبأنه قد فقد كل أسنانه، وبأن الحمى تنهشه. إن برستس لم يبق رجلاً، إنه شعلة من الحب تحرق نفسها لتنير للآخرين دروبهم، يا صديقتي.

إن القول بأنهم يعبدونه لا يفي بالمراد، يا زنجيتي. فإن برستس بالقياس لعمال «بوليفيانس كومباني ليمتد»، بالقياس لرجال الطابور كما بالقياس للبوليفيين الذين ينظرون إليه يعمل ويحيا، كان أكثر من رئيس، أكثر من عبقرية، أكثر من لواء، أكثر من دليل. إنه والد، إنه والد ودود لا يحيا إلاّ من أجل رعاية أولاده. ويشعر رجاله نحوه بحب رائع لا يمكن تقديره.

وبدأ عمله باصلاح القسم الهائل من أراضي المنطقة الشرقية البوليفية. وتوصل إلى اقتطاع أشجار غابات عذراء كاملة وطرد الملاريا منها. ثم افتتح دروباً وأصلح أراضي وحفر آباراً. وكان تقدير الشركة له، في لندن، يتعاظم يوماً بعد يوم. ولكنه كان يشعر، في المكان الذي يعمل فيه، بالحرب الباردة التي يشنها عليه أولئك الذين يستثمرون العمال. وكان العمال البوليفيون

يتركون العمل تحت الإشراف المباشر للشركة، لينضموا إلى المهندس لويس كارلوس برستس، إلى اللواء برستس سابقاً.

وعندما وقّع برستس عقوده في الغايبا، كان العامل يقبض «بوليفيانو»[1] واحداً في اليوم. فرفع الأجور إلى ثلاثة وأربعة أضعافها، وتوصل إلى تخفيض أسعار المواد الضرورية للعيش بالمقدار نفسه. وحتى ذلك الحين، كانت مخازن الشركة أو المخازن التي تخص أشخاصاً تحميهم الشركة، تبيع البضائع بالدين وبأسعار فاحشة الغلاء. وكانت الشركة، بناءً على تصميم مدروس، تجعل العمال يغرقون في الديون لكي تتمكن من إحكام سيطرتها عليهم. وكان هذا الشكل من الاستعباد يسيطر من الأمازون إلى خط الاستواء، ومن سهول الجنوب في شيلي إلى مزارع الكاكاو في باهيّا، ومن مزارع البن في سان باولو إلى مزارع الارجنتين. وأمام هذا الوضع، افتتح برستس مخازن للعمال؛ لم يفعل ذلك ليستعبد العمال، يا صديقتي، بل ليسهّل لهم سبل العيش. وبعد أن فتح له تجار الكورونبا اعتماداً، قرر أن يبيع في مخازن المستعمرة هذه، بضائع بأسعار أقل بأربعة أضعاف من أسعار البضائع في مخازن الشركة وحلفائها. ولقد غيّر وجود برستس في الغايبا الحياة بصورة عميقة في هذه المنطقة. ولقد لاحظ البوليفيون المستعبَدون النتائج المتحدرة من نبله واهتمامه الإنساني.

وأتمّ برستس ورجاله، خلال ثلاثة أشهر، الأعمال التي كان المهندسون قد قدروا لإنهائها فترة سنتين. وكان مقاتلو الطابور القدماء مبعثرين في منطقة تضم الغايبا بورتو سواريز، فيتوريا وسانتو كورازون. وكان ميغيل كوستا يعمل مع عدد من رفاقه في ليبرس وكان برستس، وهو الرئيس، المقاول، المهندس، القاضي، التاجر، العامل. المنظِّم، يجد، مع هذا، الوقت للقيام بدراسة عميقة لخط الحدود البرازيلية البوليفية، ويرسل تقريراً بنتيجة عمله إلى وزارة الخارجية. وهكذا كان هذا الثوري، المنفي، بالرغم من قيامه بعمل

---

(١) عملة بوليفية.

مضن، يجد الوقت للدفاع عن مصالح بلاده. ومن البرازيل، توصل المعجبون به إلى تزويده بمكتبة كاملة تحتوي على مؤلفات علمية وأدبية، وتحتوي بصورة خاصة على مؤلفات اجتماعية، ابتدأ برستس يتوصل بفضلها إلى إيجاد جواب عن مشاكل البرازيل.

ولقد ملأ المنطقة الشرقية البوليفية بالطرق: دروباً للمشاة، طرقاً معبدة، طرقاً دولية. ولقد حفر الآبار وفلح الأراضي وأصلح الأرض المملوءة بالادغال، وجعل الامراض تفر من هذه المنطقة. لقد جعل من هذه المنطقة في الغايبا، البربرية المجهولة، مستعمرة متقدمة. وإن هذا الثوري، الذي سبق له أن ظهر كواحد من أعظم الألوية في أميركا، أخذ يتكشّف عن كونه من أعظم المنظمين. وبفضله أصبحت هذه المنطقة عامرةً آهلة.

وكان اهتمامه الرئيسي يتركز على إعادة جنود الطابور إلى بلدانهم. وفي كل يوم تقريباً، كان فريق منهم يغادر المنطقة في هذا الاتجاه. وأخذ عدد المهاجرين يتناقص يوماً بعد يوم. وكان برستس قد قرر بأن لا يغادر الغايبا إلا بعد أن يكون آخر جندي من جنوده قد دخل الأراضي البرازيلية. وكان معظم الضباط قد أصبحوا في بوينوس ايرس؛ وكانوا يطلبون إليه أن يلتحق بهم ولكنه بقي بالقرب من جنوده لكي يقودهم في عملهم، لكي يعمل معهم ويساعدهم على دخول البرازيل. وسوف يظل في الغايبا طيلة سنة ١٩٢٧ وقسماً من سنة ١٩٢٨، إلى أن يتمكن جميع الرجال، الذين كانوا قد تطوعوا في الطابور، من دخول البرازيل. عندها فقط سوف يفكر بصحته، وسط الفاقة المربعة التي يتردى فيها. وهو لن يكرس لنفسه سوى قسم من الليل ينكبّ فيه على كتبه، بينما تتراءى له ذكرى البرازيل التي اجتازها، والصورة المرعبة للسرنونيين الجياع. وكان يفتش في الكتب عن جواب للأسئلة الموجهة خلال السير الكبير. وكان الوقت الذي لا يكرسه لحياة جنوده، يمضيه في الدراسة، في الدراسة من أجل البرازيل.

ما كان يهم هذا الرجل من الحمى ومن انعدام وسائل الراحة؟ إن عظمة النفس وحس المسؤولة والتعطش للمعرفة، كل هذه الأشياء كانت لديه

أقوى من المرض، من قذارة كوخٍ لا يمكن العيش فيه، من انعدام وسائل الراحة، ومن التعاسة التي تحيط به. إنه يصمد بفضل هذه القوة الداخلية التي تصنع القادة والقديسين والأبطال. إن لواء الطابور الأسطوري هذا، الذي كان يكره الشهرة كرهاً عميقاً، لن يذهب به الأمر، في نهاية سيره العظيم، إلى أن ينقبل، في المدن الكبرى التي يمر بها، مدائح العسكريين المدهوشين، وهتافات الجماهير المأسرة، وعروض رجال السياسة الذين كانت بهم حاجة إليه. وكان ممثلو معظم الأحزاب السياسية البرازيلية، يظهرون الواحد تلو الآخر، في كوخه. وجاء إليه كذلك صحافيون ومعجبون. وأجيبوا جميعاً بأن برسنس لم يكن نقدّر بأن مهمته كرئيس للطابور قد انتهت. ولم تكن الغابيا سوى فصل إضافي من الملحمة الخالدة. إن مهمة برستس لن تنتهي إلا عندما يعود آخر جندي إلى وطنه، ويتمتع بالسرور والسعادة بين عائلته. هذا ما قرره برستس، يا صديقتي!.

أي تأثر كان ينتظر كلاً من هؤلاء الرجال عند سفره! إن مقاتل الطابور الذي رافق لواءه عبر البرازيل الغامضة، والذي قاتل وجرح وسار راجلاً أو على صهوة حصان أو على ظهر حمار أو تور انهكه التعب، الذي استبدت به الحمى وشفي منها، والذي تخلص من الموت ألوف المرات، والذي واجه جميع المخاطر دون أن بشوب نظرته أي تردد، والدي لم يتعرف إلى الخوف مطلقا، إن هذا الرجل كان يرتجف الآن، كان يتردد ويبكي في هذه اللحظة التي سوف يغادر فيها رفاقه، ويودع خلالها لويس كارلوس برسنس.

وكان هذا المقاتل يتقدم بخطى وئيدة، وقد وضع جرابه على كتفه، وتسمرت عيناه بالأرض. وفي نهاية بعد طهر يوم العمل، كان الرجال الباقون ينتظرونه لنوديعه. آه، يا صدبقتي! إن توديع هذا المقاتل للطابور هو أشبه ما يكون بتودبع الإنسان لامرأة ما، بنودبعه للمرأة التي تعادل منه الروح! إن الجندي الذي سوف بذهب. كان يتقدم وقد انطبعت على جبينه ذكريات الوطن الحبيب، صورة العائلة التي تنتظره، وصورة الأم والخطيبة. إنه سوف بغادر الطابور والرجال الذين رافقوه خلال ثلاث سنوات من البطولة...

سوف يبتعد عن الرجل الذي قادهم، الذي سار في مقدمتهم وانتقل بهم من نصر إلى نصر، والذي اعتنى بهم كالوالد، وعلمهم كثيراً من الأشياء وأحاطهم بكثير من الحب... آه! يا صديقتي، لم تكن تتردد في حناياه في تلك اللحظة سوى رغبة واحدة: هي البقاء.

★ ★ ★

وكان اسم الجندي الذي سوف يذهب يتجاوب صداه على الأرض البوليفية، تحت سماء الغسق. وكان رفاقه يهرعون إليه من كل ناحية، ويبدأ الجميع بإثارة الذكريات الماضية.

ـ أتذكر ذلك اليوم حيث...

وكان هو بتنقل من شخص إلى شخص ويردد:

ـ إلى اللقاء، أيها الرفاق...

ـ نتمنى لك حظاً سعيداً...

وها هي ساعة الوداع تأتي مهرولة، ويأتي معها عناق اللواء، وكلماته التي تنضح بالطيبة. وكان الجندي الذي سوف يذهب إلى وطنه، ذلك الشجاع الذي لم يرتجف له قلب في وطيس المعارك الحامية، ولم يتطرق إليه الخوف في أصعب المواقف وأشدها قسوة، ذلك الذي انتصر على الحمّى، على الحيوانات، على الغابة العذراء.

- ٢ -

وفي يوم من الأيام، كان آخر جندي من جنود الطابور قد غادر المكان. وبعد أن أعيد الجميع إلى أوطانهم، ذهب لويس كارلوس برستس بدوره إلى الارجنتين.

وكان ثوريو البرازيل، والأحزاب السياسية البرازيلية، وثوريو أميركا اللاتينية كلها، ورجال السياسة في كل أميركا، ينتظرونه بنفاد صبر. لقد كان في ذلك الوقت يمثل الرمز الكامل للقلق الذي تتردى فيه جميع شعوب أميركا اللاتينية الثائرة ضد الاستبداد. ولكن سبق له أن كان رمزاً لأكثر من قلق لا هدف له، يا صديقتي. إنه يبحث الآن عن مخرج من المفترق الفاجع من المشاكل التي لم تكن طبقته جديرة بأن تجد لها حلاً. ولم يكن ثوريو أميركا الجنوبية، الذين اشتركوا بالانتفاضات المسلحة في بلادهم، يفكرون إلا بالقيام بانقلابات جديدة. ولم يكن الأمر كذلك بالقياس إلى برستس. لقد كان يفكر متسائلاً عن سبب فشل جميع هذه الثورات. وما دامت المشاكل التي تتطلب الحل عظيمة السعة فلم كانت المناهج والشعارات محدودة وضيقة بهذا الشكل؟ ولم كنا نلاحظ، بعد عدة شهور من انتصار ثورة ما، أن شيئاً لا يميز الثوريين الذين استولوا على الحكم، من رجال السياسة الذين أبعدوا عنه؟ ماذا يكمن خلف كل هذا الأمر؟ أية فلسفة حياتية، وأي مذهب سياسي، كان بمقدورها أن يقدما أجوبة لهذه الأسئلة، وحلولاً لمشاكل الشعب؟ على الكاتنغا، وعلى الفيضانات، والذي اجتاز الأنهار والجبال والسهول التي استل منها الجفاف صلاحها وخصبها، والذي تعرّف إلى جفاف الصحراء، ذلك الجندي الذي لم تسل من مقلتيه قط دمعة عند رؤيته لرفاقه يتساقطون صرعى من حواليه، كان الآن يترك لنفسه الحرية في أن تصعد الزفرات وترسل العبرات على هواها، عندما كانت تحين اللحظة التي سوف

يودّع فيها لويس كارلوس برستس. ولن يتردد في ذهن هذا الجندي، العائد إلى وطنه، طيلة حياته، سوى رغبة واحدة: هي في أن يرى برستس من جديد. وعند منعطف الدرب الأخير، كان للمرة الأخيرة يتطلع خلفه، ليلقي على برستس، وقد بلّل الدمع منه العينين، نظرة طافحة بحب عظيم...

لم يكن برستس يريد الاستيلاء على الحكم، لقد كان رجلاً يفتش عن السعادة لشعبه. وأوثق الثوريون وأنصار الانقلابات والمعارضون والابريسناس [٢] في البيرو، والمغامرون البوليفيون، وفوضويو الباراغواي، كل هؤلاء أوثقوا علاقاتهم به. لقد كانوا يعتبرونه الرجل الموعود لإذكاء جميع هذه الحركات في أميركا كلها. إنه يتحدث، يناقش، يفسر ويوضح، ولكنه لم يكن يتقبل أي عرض، ولا يربط نفسه بأي التزام. وبينما كان الجميع يحيطون به، كان هو، يا صديقتي، بصفته القائد واللواء، بصفته أعظم وجه ثوري أمركي، لا يعتبر نفسه مستعداً للثورة. إنه لا يعرف حتى الآن، حقاً، ماذا عليه أن يقوله لشعبه، للشعوب الأميركية. إنه يبحث، إنه يبحث بعناد ومثابرة. يجب أن يكون هناك طريق ما. أين؟ أية طريق هي؟

وكان يحيط به ممثلون عن كل الأحزاب البرازيلية. وكان رفاقه في الثورة، المنفيون مثله، لا يفارقونه، وكان هو أيضاً الذي يعتني بهم، فيبحث لأحدهم عن عمل ما، بينما ينصح آخر بنوع معيّن من المطالعات. ومن البرازيل بعث إليه أولئك الذين يتآمرون ويعتقدون بأن الوقت مناسب للإنقلاب، برسولٍ إلى بوينوس ايرس، يسألونه نصحاً، وكان هذا يحمل تقريراً قرأه برستس ونصح بعدم القيام بالانقلاب المقترح. إنه أصبح لا يؤمن بهذه الثورات الباردة، بالانتفاضة من أجل الاستيلاء على الحكم. وهنا كانت تكمن عظمته، وكان يكمن تفوّقه المعنوي على جميع المتآمرين الذين كانوا يتقبلون وجهة نظره دون نقاش. وتجمّع حوله ثوريون من جميع الاتجاهات. لقد كانت جميع الأحزاب تفهم أهمية تبنّي برستس لأفكارها.

---

(٢) اعضاء الـ A.P.R.A.، وهي منظمة سياسية نصف فاشية في البيرو.

فإن أيةً من هذه الثورات بمقدورها أن تنال قوة جديدة بفضله. ولكن برستس، اللامبالي بالنداءات، يمضّي الوقت في الدراسة والتنقيب في كتبه.

وكان يعمل أيضاً لكي يؤمن لنفسه ولرفاقه، في المنفى، العيش. واستطاع، بصفته مهندسا كبيراً اختصاصياً فنياً مرموقاً في مهنته، الحصول على عقود للعمل. وفي سنة ١٩٢٨ ذهب إلى سانتافي، في داخل الارجنتين، حيث أشرف على إنشاء شارع في عاصمة الريف. ولحق به الثوريون الأميركيون إلى هناك. ومن ذلك التاريخ ابتدأت صداقته مع أوسكار كريدت الباراغوباني [٣] الذي كان هو أيضاً، في ذلك الوقت، يفتش عن طريق جديدة. وهرع كريدت إليه، كالآخرين، خلال بحثه عن قائد للثورة الأميركية اللاتينية. لقد كان قائداً من باراغواي منهوكة، جائعة، تعج بالانتفاضات والانقلابات ومحاولات الثورة. ومنذ مرور الطابور، كان اسم برسنس معروفاً هناك. وكان هذا الاسم الذي طاف في أميركا كلها مكللاً بالبطولة، ومغلفاً بالأساطير. وكان صغار البرجوازيين، الثوريين الأميركيين، يرون فيه القائد الكبير الذي طال انتظارهم له. وكان في هذا الحج نحو برستس ما يذكر بالحج نحو المسيح في الزمن الماضي. وكان كريدت، كبقية الآخرين، كالمغامر ماروف، كالأبريستيسيين في البيرو، يشعر كما يشعر المذكورون جميعاً أمام هذا الشاب الهزيل، الذي يشبه استاذاً أكثر منه لواءً، بأن برسنس كان يرفض أن يكون مسبحاً، وكان يناضل بعنف ضد الميل لخلق مبدأ جديد هو البرستيسية، التي لم تكن بعرفه سوى كلمة مجردة، لا تحمل في طياتها أي حل لأية مشكلة. وشعروا بأنه كان يفتش في الكتب وفي دراساته للمشاكل الارجنتينية وللاحزاب، التي كانت تقترح الحلول لهذه المشاكل، عن الطريق الصالحة، عن طريقه، عن طريق شعبه والشعوب الأميركية. وكان قد انتهى من اجتياز المرحلة المسيحية للثورة، من تخطي الانتفاضة المجردة التي تضع مصيرها بأعنة القدر والظرف المؤاتي. ولم يكن

(٣) نسبة إلى الباراغواي.

يعزو مطلقاً سبب فشل ثورتي ١٩٢٢ و ١٩٢٤ إلى أسباب سهلة وموقتة، بل وحتى لم يكن يعزوها إلى عوامل عسكرية غير مؤاتية. لقد كان يفهم أن لهذا الفشل أسباباً أكثر عمقاً.

وأدهش هذا الموقف الثوريين الأميركيين. وسوف يتطور بعضهم أيضاً ويجدون الطريق الصالحة. وهذا ما حدث لكريدت. فبالقياس إليه، كان مثال لويس كارلوس برستس، اللواء المظفر والقائد غير المنازَع، ـ الذي كان يعترف بصراحة بأنه لا يزال يفتش عن طريقه، ـ أكثر الأمثلة إفادة له. إن مثال برستس سوف يساعد هؤلاء القلقين جميعاً على التخلص من زهوٍ غير مجدٍ، ويفتح أعينهم على مشاكل بلادهم من أجل إيجاد حل لها.

وكان برستس قد بدأ في ذلك العهد قراءة الأدب الماركسي، باندفاعٍ وحماسٍ من يكتشف شيئاً جديداً. وكان أول هذه الكتب قد وصل إلى الغايبا. وفي الارجنتين استغرق في قراءتها وأخذت تتفتح أمام عينيه معالم عالم جديد. ولكنه مع هذا لم يكن يحب الاندفاع والتسرع في هذه الطريق الجديدة، وكان يريد أن يدرس بطريقة بطيئة حكيمة. لقد كان يود أن يرى إذا ما كان سيجد حقاً حلاً للمشاكل جميعها.

وتعرّف، بعد سنة من ذلك التاريخ في بوينوس أيرس، إلى رودولفو غيولدي. وسوف تلعب هذه الصداقة دوراً هاماً عجيباً في تكوينه الفكري.

سأحدثك عن رودولفو غيولدي، يا صديقتي. من ذا الذي لا يعرف هذا الرجل؟ من ذا الذي لم يسمع بهذا الاسم، وقد طفحت نفسه سروراً، في المعامل والأرياف الأميركية؟

وإنهم ليتغنون بهذا الاسم، بالطريقة نفسها التي يتغنون بها ببيت من الشعر الغنائي أو البطولي! ولقد تعرفنا، نحن البرازيليين، إلى غيولدي في زمن الارهاب. لقد ناضل معنا من اجل سعادة وطننا. ولم يكن هناك من هو أحب إلى القلوب في سجون البرازيل من هذا الارجنتيني، ذي العينين الصافيتين النفاذتين، والصوت اللطيف الودود. وكان صوته العميق الصافي،

يرتفع عالياً وقد امتلأ ثقة وإيماناً بالمستقبل في ليالي التعذيب في سجون ريو. وربما كان تلقيبه بـ « الهندي » يشير إلى أي حد كان مرتبطاً بالأرض وبالمشاكل الأميركية. لذلك دُعي بهذا الاسم العام في كل البلاد الأميركية. لقد كان يحيط بالمعرفة المكتسبة من الكتب وبتلك المكتسبة من الحياة. لقد ناضل، منذ الطفولة، ودرس منذ الطفولة أيضاً. ولم تُفقده الكتب هذه المقدرة الإنسانية: الفهم. ولم يكن هناك من هو أكثر إنسانية منه، ولا أكثر مطالعة. ولم يكن هناك من يتمتع بموهبته في عيش المشاكل الكبرى وتفهمها، وفي تفهم وعيش المشاكل الخاصة الصغرى في الوقت نفسه. ولقد وصفه أحد الشعراء بأنه محاط بـ « هالة زرقاء ». وإن الشعراء لمصيبون دوماً، يا صديقتي، وإن من كتب هذه الكلمات لشاعر كبير، إنه صوت الشعب الارجنتيني. لقد كان كمن أحيط بـ « هالة زرقاء ». وإن هذا الرجل الذي ثبت غرسه في أرض الواقع، وصُنعت جذوره من ألم الناس، كان محاطاً بـ « هالة زرقاء ». ولم يكن هناك مَن هو أجدر منه بفهم برستس وبأن يُفهم من برستس.

وسوف تظهر بعد قليل الخلافات في وجهات النظر بين برستس وبقية المنفيين، وسوف تزداد هذه الخلافات بعد ذلك خطورة. وأخذ برستس يتباحث في كل يوم سبت مع غيولدي وغيره من الشيوعيين. فكانوا يعرضون المفاهيم والمشاكل البرازيلية ويناقشون، ويستخلصون النتائج. وكان برستس يقرأ كثيراً وبفهم عظيم. وعندما كان يعود من عمله، ـ ذلك لأنه كان لا يزال يتابع مهمته كمهندس وكمنظم لموارد المنفيين الهزيلة، ـ كان يندفع نحو الكتب. وفي تعطشه للمعرفة، كان ينسى الطعام والراحة والتسلية. وكان يود أيضاً أن يقرأ الآخرون. فوزع الكتب واستشهد بالمقاطع؛ إنه يتقدم في الطريق التي رسمها لنفسه بالدقة التي جعلت منه لواءً كبيراً ومهندساً كبيراً.

وكانت الحركة العمالية الارجنتينية معيناً استمد منه برستس الشيء الكثير. إنها حركة قديمة يا صديقتي. فقد سبق لانجلس، منذ الأممية الأولى، أن تراسل مع القادة البروليتاريين في براتا. ودرس برستس مطولاً الأحزاب

الرادكالية والاشتراكية والشيوعية، أثناء دراسته لجميع مظاهر السياسة الارجنتينية. ودرس فوق ذلك التجربة السوفياتية. وجعلته هذه المحادثات والتحليلات والأبحاث والدراسات، يفهم أهمية الطبقة العاملة في الثورة، وأهمية دورها كطبقة ثورية بشكل عضوي. وفهم بأن الدور الطبيعي لقيادة الثورة يعود للبروليتاريا، وبأن على البورجوازية الصغيرة والمتوسطة، بل وعلى البورجوازية التقدمية كذلك، إذا ما كانت تريد أن تنقذ نفسها في هذه المرحلة التاريخية، أن تنظم صفوفها إلى جانب الطبقة العمالية وأن تسير معها. واكتشف تفكيره آفاقاً جديدة، يا صديقتي.

وكانت سنتا ١٩٢٨-١٩٢٩ سنتي دراسة عميقة بالقياس إليه. فانكب على المشاكل، على الحوادث وعلى الكتب. ولم يكن يمنح نفسه أية فترة من الراحة، فهو يشعر بالمسؤولية العظيمة الملقاة على عاتقه. فلقد علقت به عيون الشعب البرازيلي وأخذ صخب البرازيل يصل إلى اذنيه متدافعاً متتالياً. إنهم يثقون به. إنه بطل في الثلاثين من عمره، إنه أمل شعبه.

وبدأ التحالف الليبيرالي في البرازيل يتحرك، في ذلك الحين. وكان هذا التحالف نتاجاً لما قام به الطابور. واختار رئيس الجمهورية، واشنطن لويس، ممثلَ مصالح أصحاب مزارع البن والمرتبط بالاستعمار الانكليزي، حاكمَ سان باولو، جوليو برستس، ليخلفه في منصبه.

ولم يكن مربو الماشية في ميناس وريو غراندي، وصناعيو المنطقة الشمالية الشرقية، ومن ورائهم استعمار الولايات المتحدة، يرضون عن هذا الترشيح. وأثيرت عندها مسألة ترشيح جيتوليو فارغاس، وكان هذا ساعتئذ حاكماً لريو غراندي دوسول، وهو المنصب الذي شغله بعد منصبه كوزير للمالية في عهد واشنطن لويس. وكانت الجماهير القلقة، المضطهدة، تتابع تطورات هذا الترشيح الذي يؤيده التحالف الليبيرالي. وكان فارغاس وسياسيو الغاووشوس الذين تحالف معهم، في ميناس وباراييا، وهم: انطونيو كارلوس، ارثور برناردس، ميلو فرنكو، باتيستا لوزاردو، جوان بسّووا، سيبرا، يعرفون

جيداً كل معالم الآلة الانتخابية، التي طالما أفادوا منها، ويعرفون تماماً بأنهم لن ينتصروا مطلقاً في الانتخابات، حتى ولو شنوا حملة انتخابية حازمة وقاموا بدعاية عظيمة. ففي البرازيل كانت الحكومة هي التي تنتصر في الانتخابات، بصورة تقليدية. وهكذا بدأوا فوراً بالاستعداد للقيام بثورة. لقد كانوا يملكون المال والرجال ـ وهم أعضاء الشرطة العسكرية للولايات الثلاث التي كانت المعارضة تشرف عليها، كما كانوا يعتمدون على مؤازرة الوول ستريت. ولم يكن ينقصهم سوى الشعب. فتوجهوا إليه بمنهج واسع يتضمن المطالب الدقيقة للجماهير، بما فيها جماهير الشغيلة. واستعملوا اسم برستس كضمان لتحقيق هذا المنهج. فلم يكن ثوريو سنة ١٩٣٠، في اجتماعاتهم ومقالاتهم وأحاديثهم، يتقدمون إلى الشعب باسم فارغاس، أو باسمي انطونيو كارلوس وبورغاس ميديروس. فلقد كانت هذه اسماء مهترئة، تتردد على مسامع الشعب. إلى جانب اسماء برناردس وواشنطن وجوليو برستس.

لقد تقدموا وهم يحملون اسم لويس كارلوس برستس، بالرغم من أنه لم يجر بينهم وبين رئيس الطابور سوى محادثات في منتهى البساطة. وعندما عمد برستس إلى فضحهم بصورة عملية، في بيانيه اللذين صدرا في أيار وتموز سنة ١٩٣٠، تابع «الاوتوبريستاسيون» (٤) استعمال اسمه المشهور في جميع انحاء البلاد، بصورة غامضة مبهمة. وبفضل هذا الاسم، استطاعوا أن يجمعوا الشعب البرازيلي حول التحالف الليبيرالي. ولم يكن الضباط الثوريون: جواريس تافورا، وادوار دو غومس، وجوان البرتو، وكورديرو فارياس، يُقدمون باسمائهم المجردة فقط. بل كان اسم جواريس يُذكر مرفقاً بلقب رئيس أركان حرب الطابور، ويذكر اسما كورديرو وجوان البرتو بصفتهما من أبطال السر الكبير؛ لقد كان الجميع يُقدّمون على اعتبارهم حائزين على ثقة برستس. إن استثمار رجال السياسة البارعين هؤلاء، لهؤلاء الضباط الذين

---

(٤) أعضاء حركة سياسية كانت تجمع حولها صغار البرجوازيين الأحرار عند قيام ثورة سنة ١٩٣٠.

كانوا يساندون التحالف الليبرالي لخلافهم في ذلك الوقت مع النهج الذي اختطه برستس، (لقد كان هذا يرفض التحالف مع ثورة سنة ١٩٣٠ لأنه لم يكن يؤمن بانتصارها)، يبرهن مرة أخرى على الاحترام العظيم الذي يتمتع به برستس في وسط الجماهر البرازيلية. وبالرغم من البيانات التي نشرها برستس عن هؤلاء الأشخاص، عمد السياسيون الذين يديرون الثورة، عند اندلاعها، إلى نشر شائعة في البلاد تؤكد بأن برستس هو قائد الحركة العسكري وأنه يترأس الفرق الثائرة.

وكان برستس قد اجتاز درباً طويلة خلال سنتي ١٩٢٨ و ١٩٢٩. فلقد أضبح يملك ثقافة ماركسية، وأضاف إلى فهمه الثوري عناصر جديدة هي: البروليتاريا وحزبها الطليعي والجماهير. وكان، حتى قبل إذاعة نبأ انتسابه إلى الحزب الشيوعي البرازيلي، يظهر بصورة علنية مع قادة الحزب الشيوعي الأرجنتيني، ويأخذ مكانه على المنصة إلى جانبهم. وأسهم في اجتماعات عصبة مقاومة الاستعمار: وازدادت الخلافات بين برستس وبين رفاقه في الثورة حدة وعنفاً. فلقد كان الأخيرون يؤمنون بحركة التحالف الليبيرالي كحلٍ حقيقي لمشاكل البرازيل.

وعند ابتداء الاستعدادات لثورة سنة ١٩٣٠، كان برستس على اتصال مع «الجيتوليستاسيين»[٥]. ولكن سرعان ما تكشفت له حقيقة الفكرة الوهمية التي كوّنها عنهم؛ فلقد كانوا يتملصون من الإجابة بصورة واضحة عن الاقتراحات الحسية التي قدمها حول الثورة المناهضة للاستعمار، محاولين باستمرار تأجيل النقاش حول المنهج الحقيقي للثورة. فيئس برستس منهم وأذاع عندها بياناً، في أيار سنة ١٩٣٠، اعلن فيه انتسابه إلى الحزب الشيوعي، مشيراً إلى أن دور الثورة القيادي يعود للبروليتاريا.

وبالرغم من العبارات المتطرفة التي كان بيانه في ذلك الحين مملوءاً بها، كان يفهم بأن الوقت لم يحن بعد للقيام بثورة سوفياتية، وجُل ما يُطلب الآن

---

(٥) أنصار جيتوليو فارغاس، الذي أقام نظاماً دكتاتورياً فاشياً في البرازيل.

هو ثورة ديموقراطية بورجوازية. ومن هنا انبثقت محاولته إنشاء حزب سياسي يجمع قوى البروليتاريا والفلاحين والبورجوازية الصغيرة والبورجوازية التقدمية. وفي بيانه الذي أذاعه في تموز سنة ١٩٣٠، أعلن نبأ تشكيل عصبة العمل الثوري، وهي حزب أراد بواسطته أن يوقف التأثير المتزايد للتحالف الليبيرالي ـ الذي استمر على استغلال اسمه بين الجماهير ـ وأن يهيّء الثورة.

وبلغت خلافاته مع «التيننتيستيين» الذروة. وفي مونتيفيدو، رفض برستس بصورة حازمة، الاسهام في ثورة التحالف الليبيرالي. ثم دعا رفاقه المنفيين من أعضاء ثورة الطابور، إلى اجتماع شرح لهم فيه الوضع على حقيقته. ولم يحمل أي واحد منهم على السير معه: فمن يريد ذلك فليفعل بمحض اختياره. أما هو، فسوف يتابع السير في الطريق الجديدة التي اختطها لنفسه. فلقد وجد أجوبة الأسئلة التي كان قد وجهها لنفسه، ولم يكن من المنطقي، بالقياس اليه، أن يحاول، مرة أخرى، القيام بمغامرة يائسة. ومع هذا انضمت أكثرية «التيننتيستيين» الساحقة إلى التحالف الليبيرالي. وذهب جواريس تافورا إلى شمال شرقي البرازيل، حيث سيتولى قيادة ثورة ١٩٣٠. وذهب سيكيرا كامبوس إلى إثارة الناس في سان باولو، وصُرع بحادث طيارة. أما جوان البرتو وكورديرو دي فارياس، فقد التحقا بميغيل كوستا، في ريوغراندي دوسول، حيث سيتولون قيادة القوات الثورية.

ولقد أيد بضعة أفراد فقط من ثوريي سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٤ العصبة الثوربة، ولكن كان مقدراً لهذه العصبة أن تفشل. فالحزب الشيوعي لا يثق بها، إذ ما دام هناك منظمة طليعية لقيادة نضال البروليتاريا، فما الفائدة من خلق منظمة أخرى؟ ومن ناحية ثانية كانت الجماهير تؤيد التحالف الليبيرالي، الذي كان يقوم بدعاية وتحريض هائلين، بينما كانت العصبة، وهي التي لا تملك صحافة خاصة بها، مقاطعة من قبل جميع الجرائد، وكان من المستحيل عليها أن تعقد اجتماعات، كما كانت قيادتها في الخارج مجهولة من قبل الناس؛ بل وأكثر من ذلك، كانت الجماهير على ثقة بأنها إذا ما أيدت التحالف الليبيرالي فهي تؤيد برستس في الوقت نفسه. واندلعت ثورة سنة ١٩٣٠،

وانتصرت، وسرعان ما خان السياسيون المتالّ الأعلى الثوري، الذي أعلنوا أنهم يسيرون على هديه. وأخذ برستس من مونتبفيدو، حيث كان إذ ذاك، يكشف النقاب عن هذه الخيانات الواحدة تلو الأخرى. وعمد إلى تحليل الوضع في البرازبل في بيان أصدره في ذلك الحين.

(لقد اضطر برستس إلى مغادرة بوينوس ايرس بسبب حديث كان قد افضى به إلى وكالةٍ صحافبة اميركية حول حركة ٦ أيلول في الارجنتين، نعت فبه مؤيدي الاستعمار السابقين بالرجعيين. ولم يُنشر الحديث، ولكن الشرطة تلقت نسخة عنه، مما اضطره إلى السفر إلى مونتيفيدو).

ووجه من هذه المدينة رسائل متشابهة إلى أصدقائه ورفاقه، الذين سبق لهم أن ناضلوا معه. وشرح لهم فكرته: من الآن فصاعداً أصبح الماركسي هو الذي بتكلم. وبدأ برسنس يتحدث بلغة جديدة. إن هذه السنوات من الدراسة والتجربة والنقاش والأخطاء، هذه السنوات التي استُنفدت للتفتيش عن طربق، قد جعلت منه ثورياً واعياً. إنه يعرف الآن ما يحتاجه الشعب البرازيلي. وهو بدعو في تحاريره تلك جميع اولئك الذين يودون التعاون معه من أجل تهيئة التورة البرازيلية، إلى المجيء إلى مونتيفيدو.

وفي موننيفيدو أخذ يفسّر، يدرس ويحرّض. وأخذ البرازيليون الذين بدأت تتبخر أوهامهم حول ثورة سنة ١٩٣٠، يحيطون به. وتوافدت الرسل من البرازبل. وكان برستس، بعد قيامه بمحاولته في عصبة العمل الثوري، يعمل الآن بالتعاون مع الحزب الشيوعي البرازيلي. وأخذت جماهير البورجوازية الصغرى والجماهير البروليتارية تطلب إليه أن يضع لها شعاراتها: وأن النشعار الصحيح الوحيد الممكن، هو تقبل خطة الحزب الشيوعي البرازيلي، ومؤازرته ورصّ الصفوف من حواليه.

سوف يجد طريقه، يا صديقتي. فإن هذا الرجل، الذي يعتبر الشرف الأدبي قاعدة رئيسية في الحياة، لا يتردد أبداً في ولوج الطريق الشائكة التي انفسحت أمامه. وهو يرى بأن هذه هي الطريق الوحيدة الصالحة التي يمكنها

أن تسير بالبرازيل نحو تحررها ونحو المستقبل. وهو لم يتردد مطلقاً، خلال السبر، من ولوج صراط صعب العبور، عندما كان هذا يشكل الطريق الوحيدة التي يتوجب عبورها. وهذا ما يحدث الآن أيضاً، يا زنجيتي. إنه يعرف جيداً بأن أصدقاءه السابقين سينقلبون إلى أعداء الدّاء عندما يرونه يتبع الطريق الصحيحة للثورة، إلى جانب الطبقة العاملة. وإنه، وهو الذي كان بمقدوره أن يصل إلى اسمى المراكز العسكرية والسياسية في ملاكِ ثورةٍ لم تكن تستهدف سوى استبدال أشخاص الحاكمين، يعرف الآن تماماً بأن هذا المستقبل قد أقفل ابوابه في وجهه، منذ اللحظة التي انتسب فيها إلى الحزب الشبوعي. وهو بعرف أيضاً بأن الناس الذين كانوا يهتفون له كلواء وكرئيس، سوف يرمونه بمختلف التهم. ولن يتأخر هذا الأمر كثيراً! فسرعان ما اتهم بأنه تصرف على هواه بالأموال التي وُضعت تحت تصرفه،

ولكن ما هو مصدر هذه التهمة؟ إن الحكاية تتلخص في ما يلي: لقد تلقى برستس من جيتوليو فارغاس، في اليوم الذي تلا رفضه الاسهام في الثورة التي هيأها التحالف الليبيرالي، صندوقين من ولاية ريوغراندي دوسول، يحتويان على ألف كونتوس دي ريس. فوضع برستس هذا المال في مصرف الارجنتين. لقد كان بفكر بأن أموال الصناديق العامة، سوف تُكرّس لمؤازرة ثورةٍ لن تحمل في طياتها أية فائدة حقيقية للشعب البرازيلي. وإعادة هذا المال إلى فارغاس، تعني تبذيره والتصرف به في النضال من أجل إيصال هذا الرجل إلى الحكم.

لذا وضع برسنس هذا المال في أحد المصارف، وهو لن يتصرف بأي فلس منه لا من أجله ولا من أجل رفاقه؛ ولن يُمسّ هذا المال مطلقاً حتى سنة ١٩٣٥، حيث سيُنفق من أجل تمويل التحالف الوطني التحريري، أي في السبيل الذي بفيد شعب البرازيل منه، هذا الشعب الذي يملك وحده حق التصرف به.

وكان برسنس، عند انتسابه إلى الحزب الشيوعي، يعرف بأن الكره الذي يمور في حنايا السادة في العالم أجمع، سوف ينصب عليه. ولكنه، وقد ارتضى

الماركسية منهجاً له في الحياة، ووجد الأجوبة للأسئلة التي كانت تتردد في ذهنه، لن يجد الترددُ ولو مرتعاً ضئيلاً في أعماق نفسه. فإن هذا اللواء الذي كان، لفترة قريبة، يستعير دروباً تقشعر منها أوصال رفاقه، قد وجد الآن الحقيقة، وستبعها.

وفي مونتيفيدو أخذ يهيّىء رحلته إلى الاتحاد السوفياتي، إلى بلاد الشمال البعيدة هذه، حيث كان الناس الجدد يبنون مدنية جديدة. لقد سار هؤلاء الناس على الدرب الذي يعبرها، هو، الآن. إن عالماً جديداً تُحل فيه جميع المشاكل، يولد اليوم.

لقد درس برستس النظرية الثورية، وسوف يحيط الآن علماً بالنتائج العملية لهذه النظرية. واتجه اهتمامه وتفكيره في المنفى، يا زنجيتي، في الطريق الصالحة. لقد درس في الكتب، وسوف يتلقى بعد ذلك الدروس من الحياة الجدبدة، سوف يشاهد الحياة الاشتراكية في طريق البناء، في وطن الاشتراكية.

وكانت البرازيل، خلال الفترة الواقعة بين سنتي ١٩٢٨ - ١٩٣١، وهي الفترة التي نُفي فيها برستس، تفتش عن نفسها هي أيضاً. وكانت قد انتهت من القيام بتجربة سنة ١٩٣٠. وسيرتفع من جديد صخبٌ من اليأس والتعاسة مطالباً بالعدالة. ومن جديد سيُهيّىء برستس نفسه للإجابة عن هذا الصخب، يا صدبقتي، وسيقف من جديد في طليعة شعبه.

- ٣ -

الاتحاد السوفياتي، يا صديقتي، هو وطن شغيلة العالم، وطن العلم والفن والثقافة، وطن الجهال والحرية. إنه وطن العدالة الإنسانية، إنه حلم للشعراء حوّله العمال والفلاحون إلى حقيقة رائعة.

كان الناس، في الماضي، عبيداً في هذه الأراضي البيضاء من الثلج، السوداء من النفط، الشقراء من القمح، كانوا عبيد الحقول والمعامل، وسجناء الجامعات والمكتبات. لقد كان هذا الشعب يعيش حياة تعيسة، فلم تكن النساء تضحك تحت حكم القياصرة وكبار الدوقات، ولم تكن وجوه الأطفال الجياع تتعرف إلى الحبور. وكانت تهب على سهوب روسيا ريح من المجاعة والاضطهاد. فالناس كانوا يُضربون بالسياط، بينما كان يخنق صراخَ الجماهير أزيزُ طلقات الرشاشات المنظفة للساحات العامة. وكان ملايين الأشخاص يعملون من أجل قلة ضئيلة، وكان الفجر في روسيا تمدداً لليلٍ رهيب، يبزغ في سماء عبودية مجردة من النجوم، ويتكشّف عن نهارٍ لا شمس فيه ولا أمل. ولم يكن سكان روسيا، البيض منهم والصفر والنحاسيو اللون، يرون نجمة واحدة في السماء. لقد كانوا يعيشون في ظلام أبدي، متحدر من ماض يعود تاريخه إلى ألوف السنين، ويبدو أبدياً كالأرض وكالبحر. وهناك أيضاً، كما في سهول البرازيل، يا صديقتي، كان الفلاحون المترددون في الأوهام يقولون:

- إن مصير الانسان يتقرر هناك، في الأعلى...

ويشيرون بأصابعهم إلى السماء التي تناصبهم العداء ويستنتجون:

- ليس باستطاعة أي انسان أن يفرَّ مما قُدر له!

آه، يا صديقتي، المصير هو شيء تُنسج معالمه على الأرض، بواسطة أسياد

الأرض. إن أسياد المال والحياة، هم الذين يخطون في دفاتر صناديقهم المصير التعس للعمال، للفلاحين وللحرية أيضاً. المصير، إنهم يكتبونه بأحرف من ذهب.

وفي أحد الأيام، يا صديقتي، جاء رجلٌ يقول بأن المصير لم يكن مكتوباً في السماء، وأن القوانين التي تسوس حياة الناس مصنوعة على الأرض، من قبل اناس لهم فيها مصلحة. وكان هذا الرجل يدعى كارل ماركس، وكان يقرأ بلراك ويدرس تاريخ حياته. وجاء رجل آخر، وُلد في ليل روسيا المظلم، وقال بأنه إذا ما كانت الأقلية قد صنعت هذه القوانين ضد مصالح الأكثريه، فإن بمقدور هذه الأكثرية أن تصنع قوانينها بنفسها، أن تصنع مصيرها، وعندئذ يتبدد الظلام ويبزغ الفجر وينير العالم. وكان هذا الرجل يدعى فلاديمير ايليتش اوليانوف، ولكن اسمه الحركي لينين، اجتاز روسيا من طرف لآخر، كريح الأمل، يا صديقتي، كذلك الأمل الذي يدعى برسس تحت سماوات البرازيل. واكتشف العمال والفلاحون والفنانون والعلماء والجنود والبحارة، برفقته، يا صديقتي، أن مصير الأسياد هو بين أيدي الشغيلة، وكتبوا بأحرف من دم مصير الناس الجديد على الأرض. وكان مصيراً من السعادة والحبور، من الخصب والحب.

إن روسيا القيصرية، يا صديقتي، هي بلاد الضغط والكراهية، بلاد النعاسة والجوع، رغم امتلائها بحقول القمح، بلاد كانت تنقصها الثياب، بينما كانت المصانع فيها تعمل باستمرار، ناسجة الجوخ والكتان. وكانت أجناس كاملة ترزح فيها تحت نير العبودية، وقوميات كثيرة تحني ظهرها ضرباتُ سياط السيد وبعض النظار. على هذا الشكل كانت روسيا، يا صديقتي، منذ زمن لا يزيد عن عشرين وبضع سنين، وكان يبدو أن هذا الوضع سيستمر إلى الأبد.

إن مصير العالم مكتوب بأيدي الشغيلة. هذا ما قاله لينين، ودعا بعده الناس، من الرعاة إلى حافري الآبار، إلى الحصادين، إلى الخياطين وخدم

المقاهي، إلى عمال المناجم ومصانع اللعب، إلى الشعراء ومؤلفي كتب الزراعة والتعدين، إلى الأطباء والأساتذة، إلى مؤلفي الروايات وبحارة الفولغا، إلى الضباط والجنود، دعا جميع تعساء الأرض، وجميع من تثيرهم التعاسة، إلى القضاء على هذا المصير المجرد من الجمال، وإلى خلق السعادة على الأرض. لقد دعا العالم كله إلى الثورة، إلى ثورة تنطلق من ارادتها أعياد الفقراء.

وهكذا أقلعت هذه البلاد، يا صديقتي، عن أن تكون روسيا المجاعة والعبودية، لتصبح الاتحاد السوفياتي، بلاد الخصب والحرية، بلاد المرح والحب.

إن الاتحاد السوفياتي اليوم يا صديقتي، هو بلاد الشعوب الحرة، بلاد الأوطان والأجناس الحرة والناس السعداء. لا يوجد فيه أغنياء ولا فقراء بل أشخاص كاملون، أكفاء، أسياد لمصيرهم. ولقد بنى هؤلاء الناس، خلال عشرين سنة، عالماً جديداً. إن الأولاد السعداء، في ريف ومدن الاتحاد السوفياتي، لا يفتر ثغرهم مطلقاً عن الضحك، وهم لن يتعرفوا أبداً، يا صديقتي، إلى بؤس الولادة في أحضان العبودية. واليوم، يا زنجيتي، تنقضّ جحافل الاستعباد على بلاد السعادة الانسانية. إن أسياد الحياة والمال يخطون مصيرهم على الأرض. ولكنهم لن يتوصلوا مطلقاً إلى القضاء على الاتحاد السوفياتي، يا صديقتي، لأن الشعب السوفياتي، الذي عرف كيف يبني السعادة، يعرف أيضاً كيف يدافع عن حقه في هذه السعادة، ولأن حب الحرية ينبض دفّاقاً في صدره الفولاذي، صدره المصنوع من فولاذ ستالين، شمس العالم الجديد.

نحو هذه البلاد، يا صديقتي، نحو بلاد الحرية التي حُلت فيها جميع المشاكل الانسانية بشجاعة وحزم، توجه لويس كارلوس برستس، ذلك الرجل الذي كان يريد أن يجد حلاً لمشاكل بلاده وشعبه، والذي انصت لنداء فلاديمير ايليتش في عيد الثورة. لقد درس هذه النظريات، وسوف يعمل على ضوء هذه الحقيقة. ومن الواجب على هذه البلاد وهذا الرجل أن

يتفاهما. ألا يهدفان كلاهما إلى نشر حرية وسعادة الإنسان على الأرض؟.

إن السنوات التي قضاها برستس في الاتحاد السوفياتي هي سنوات سعيدة بالقياس إليه، وهي كذلك سنوات لها أثرها في حياة البرازيل. وكان برستس، وقد سيطر عليه التفكير ببلاده وبشعبه المستعبدّين، يدرس ليل نهار بلا هوادة. وفي اليوم التالي لوصوله إلى موسكو، باشر العمل بصفته مهندساً في الـ (Tsentralny Solouzstroy). وبفضل هذه المنظمة، التي كانت تشرف على مؤسسات تعمير بلاد السوفيات، والتي عرفت كيف تستغل مواهبه كمهندس كبير، استطاع أن يسافر عبر الاتحاد السوفياتي، وأن يتعرف إلى البلاد بالتفصيل، ويرى كيف كانت توضع مناهج ومعضلات العمل وكيف كانت تُحل. وبصفته مهندساً في الـ (Tsentralny Solouzstroy)، عمل في إنشاء كثير من المصانع في منطقة موسكو الصناعية، وفي مناطق أكثر بعداً، وفي تلك القريبة من الأورال.

ولكي يتغلب على قلة كفاءته باللغات الأجنبية، تعلم الروسية بشكل سريع، لأنه كان يريد أن يستوعب التجربة السوفياتية على أكمل وجه ممكن. ووضع لنفسه منهجاً قاسياً للدراسة. فدرس الماركسية، ودرس التجربة السوفياتية. وكان درسه لهذه الأخيرة مفصلاً كاملاً، بصفته مهندساً يسهم في أعمال البناء، وبصفته رجلاً يعرف الحياة في الريف البرازيلي. ودرس دراسة عميقة، بصفته لواءً، تنظيمات الجيش الأحمر، جيش الشعب هذا، الوحيد من نوعه في العالم، الذي ينتصب اليوم وسط عالم أدهشه بانتصاراته على الوحش الهتلري.

ودرس كذلك التنظيمات السياسية. فزار مختلف الجمهوريات السوفياتية حيث شاهد عبقرية الشغيلة السياسية. لقد درس، دون توقف ودون هوادة، نتاج التجربة السوفياتية، واختزن المعلومات من أجل شعبه.

إن هذا الرجل، يا صديقتي، لم يصنع شيئاً مطلقاً وهو يفكر بنفسه فقط؛ لقد عمل وعاش دائماً من أجل شعبه، من أجل سعادة هذا الشعب. وكذلك

كان شأنه خلال الأيام الممتلئة حماساً، التي امضاها في الاتحاد السوفياتي.

إن برسنس، وهو رئيس الثورة البرازيلية وقائد العمال والشعب، قد أصبح الآن يجد الحلول واضحة بيّنةً لجميع مشاكل بلاده. وهو يعرف بأن من الواجب، في الوقت الحاضر، القيام بثورة ديمقراطية بورجوازية، بثورة تحرر وطني. وعندما انتخب، في المؤتمر السابع، عضواً في اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية، وأصبح أحد قادة البروليتاريا العالمية، إلى جانب ستالين وديميتروف ومانويلسكي، كان قد اجتاز درباً طويلاً. إنه، وهو الذي كان بالأمس نقيباً في الجيش، وكان لواءً في ثورة أميركية جنوبية ومهندساً في بوينوس ايرس، لا يتحدث الآن الى المحرومين في البرازيل، كما كان يفعل في زمن الطابور، ولا إلى المحرومين في أميركا، كما كان يفعل خلال نفيه على ضفاف البراتا: إن صوته، كبطل وكرفيق، يتعالى من أعلى منصة للمضطهدين، من منصة اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية، مخاطباً جميع المعذبين في الأرض. وان هذه الطريق التي اجتازها لم تكن طريقاً لمغامر، يا صديقتي. لقد كانت طريق عبقري تآلف منه الذكاء مع الطبع. إن لويس كارلوس برستس، الذي تعرضت عبقريته لكثير من التجارب والذي لم تكن نزاهته مطلقاً عرضة لأي شك، هو أحد قادة البروليتاريا العالمية.

ولكن لويس كارلوس برستس، يا صديقتي، هو قائد وبطل شعب. وفي موسكو، حيث كان يعمل ويدرس بشكل محموم، كانت تصل إلى مسامعه أصوات التعاسة البرازيلية. لقد كان شعبه يدعوه، لقد كان بهذا الشعب حاجة اليه، إلى وجوده، إلى شجاعته، إلى حزمه، إلى نزاهته، إلى معارفه وإلى عبقريته.

وكان في الاتحاد السوفياتي في ذلك الحين، خونة سوف يحاكمهم الشعب في ما بعد. كان هناك أناس لا يفكرون في سعادة شعبهم، ويريدون، وقد استبدت بهم شهوة الحكم، بيع بلادهم السوفياتية من أعداء الإنسانية. إن هذا الشعب الذي بنى بلاده وسط اهازيج عيد، أهازيج عيد العمل، عرف

كيف يناضل ضد الخونة بين صفوفه، كما يناضل في أيامنا ضد السفاكين النازيين، وبالعزم نفسه والجرأة نفسها. واشترك لويس كارلوس برستس بهذا النضال. فعندما أرسل مع بعثة من الفنيين لدراسة سوء الحالة في بعض الأعمال في منطقة مملوءة بالمستنقعات في ضواحي ايجفسكي، عاصمة ولاية فوتياكس ذات الاستقلال الذاتي، اكتشف منهجاً كاملاً للتخريب. فلقد كان يتوجب، نظراً لطبيعة الأرض المملوءة بالمستنقعات، أن تقوم البنايات على دعائم. وعندما كان يصل البناء إلى علو معين كان ينساقط وينهدم. وتكرر الأمر مرتين، مما كبّد الدولة السوفياتية مصاريف باهظة عظيمة. ودرس برستس القضية بالعناية نفسها التي كان قد بذلها، في أول عهده بالمهنة، عند تقديره لمصاريف انشاءات الثكنات في جنوب البرازيل. وتوصل إلى الاستنتاج بأن في الامر تخريباً منظماً دقيقاً. ولم يكن رئيس البعثة، وهو مهندس روسي عاش طويلاً في الخارج، من رأيه؛ فلقد أعلن بأن ليس هناك أي ذرة من تخريب، وعزا سوء حالة الأعمال إلى المعدات واليد العاملة وإلى تنظيم الأعمال نفسه في الاتحاد السوفياتي. وأصر برستس على وجهة نظره. وفي ما بعد، عندما وضح الأمر، وثبت وجود التخريب، بدا المهندس الرئيس في صورته الحقيقية: صورة المخرب وعدو الشعب.

وعاش برستس خلال هذه السنوات إلى جانب الشعب السوفياتي نفسه، وقاسمه حياته، وتعلم منه أشياء كثيرة، وساعده جهد طاقته: فبصفته مهندساً أسهم في إنشاء البنايات، وبصفته عسكرياً ساعد في دراسة تنظيم الجيش الأحمر. واشترك في «أيام السبت الحمراء»، وقدم عونه في الاعمال ذات المنفعة العامة، في ساعات الراحة غير المحدودة. وعندما كان المتطوعون الآخرون يفدون، وقد امتلأت نفوسهم سروراً لتمكنهم من تقديم المساعدة المجانية من أجل بناء الاشتراكية، كان برستس، البطل الأسطوري الأميركي، عضو اللجنة التنفيذية للأممية، قد سبق له أن بدأ يهتم في تمهيد الأرض في نفق لمترو قيد الإنشاء، وفي تصنيف البطاطا في البرادات الكبرى، وفي انتقاء وتصنيف الأدوات القديمة في المعامل. لقد كان سعيداً في وسط

السرور الدافق. على هذا الشكل كان لويس كارلوس برسنس، يا صديقتي.

لقد اجاز دروب المنفى وهو ينضح بالشجاعة والثقة بالمستقبل، اللتين تميز بهما في البرازيل. وعندما بدأ، في سنة ١٩٣٤، بتهيئة عودته إلى وطنه، كان قد وجد طريقه: لقد تخلصت نفسه نهائياً من عناء البحث عن حلول. إنه يعرف الآن ما يحتاج إليه شعبه، ويعرف بأن حل مشاكل هذا الشعب هو اليوم بمنتهى السهولة؛ ولقد وجد، وهو بعيد عن بلاده، السبيل التي يتوجب على الشعب البرازيلي أن يسلكها. وبالطريقة نفسها التي افتتح بها برستس دروباً في المجاهل المعادية، في مناطق البرازيل الداخلية، هذه الدروب التي تسير عليها اليوم العربات والخيول والسيارات، كان يعمل خلال سنوات النفي هذه، على افتتاح الدروب لتفكير البرازيل السياسي.

إن فترة الثورات التي حركت البرازيل خلال سنوات ١٩٢٢-١٩٣٢ ثورة سنة ١٩٢٤ الفاشلة، ثورة الطابور من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٧، ثورة سنة ١٩٣٠ المنتصرة، نضال سنة ١٩٣٢ - قد اظهرت أن البرازيل كانت تفتش عن نفسها حتى ذلك التاريخ: إن فترة جديدة أخذت تتفتح الآن أمام هذه البلاد هي: فترة برازيل تعرف ماذا تريد، وتثور وقد وضعت لنفسها شعارات واضحة محددة. وفي سنة ١٩٣٥، سنة التحالف الوطني التحريري، كانت الثورة ستبدأ في تشرين الثاني، يا صديقتي. ومع ابتداء نضال شعب ضد الاستعمار ومن أجل تحرر الوطن الاقتصادي، ستتفتح براعم عصر جديد.

وأرسلت النداءات من مختلف انحاء البرازيل إلى برستس. لقد كان الغائب العظيم، ولكنه كان يرتع في جميع القلوب. وفي البيوت الفقيرة، في المنطقة الشمالية الشرقية، كانت شموع الأمل لا تزال مشتعلة حول رسمه. وأطلق اسمه على المواليد الجدد. فدعي ألوف الأولاد بلويس كارلوس، في البرازيل، حيث كانت القلوب تلتهب حباً وأملاً من أجل البطل. وفي وسط التعاسة المسيطرة، كان الرجال والنساء الذين يحلمون بمستقبل أفضل

لأولادهم، يرسلون إليه النداءات تلو النداءات. وانتزعه صخب هائل، يا صديقني، من قلب شوارع موسكو المشعة، ليضعه في قلب ريو دي جانيرو، حيث سيعمل في الخفاء. إن بشعبه حاجة إليه. وإن نداء الاستغاثة الذي أرسلـه إليه هذا الشعب يرن في قلب لويس كارلوس برستس، يا صديقتي.

القسم الرابع

نشيد التحالف الوطني التحريري

« نريد وطناً حراً! نريد بلاداً برازيلية متحررة من عبودية الاستعمار! نريد تحرراً اجتماعياً ووطنياً للشعب البرازيلي! »

(من منهج التحالف الوطني التحريري في البرازيل).

« برستس هو بطل معارك الشعب البرازيلي الاسطورية ».

« دولورس ايبارّوري »
(باسيوناري)

- ١ -

في سنة ١٩٣٥ البطولية، يا صديقتي، تذكر الشعب البرازيلي بيتاً من الشعر لكاسترو ألفيس. فلقد قال هذا الشاعر في أحد الأيام «ان الشارع هو ملك للشعب». ففي الشارع يتحدث الشعب عن قلقه وعن يأسه، ومن هناك يبدأ دائماً ثوراته. وفي سنة ١٩٣٥، قام الشعب البرازيلي بتظاهراته في الساحات العامة، وهو يحمل علم التحالف الوطني التحريري.

أتذكرين، يا صديقتي، تلك الاجتماعات والتجمعات، التي لم تتعرف البلاد إلى قرين لها في الماضي، كما لم يحدث ما فاقها في الأيام التي تلت ذلك. لقد كان الجمهور يتدفق من الملاعب نحو الساحات العامة في الشوارع، ويعلن بحماس تأييده وأمله المتعاظم في كل عبارة يتفوه بها قادته الشعبيون. وكان عدد قليل نادر من الناس يعرف بوجود لويس كارلوس برستس في البرازيل، يا صديقتي، ولكن كان يبدو كما لو ان هذا الأمر قد اكتشف، إذ أن الوجوه كانت تطفح ببشر يخفي وراءه أملاً بانتظار سعيد.

آه! ليجرأن أي إنسان على القول، يا صديقتي، بان الشعب البرازيلي لا يحب بطله! لا يحبه حباً يقرب من العبادة، حباً نُسجت معالمه من العرفان بالجميل ومن الأمل. انها لقريبة تلك الأيام التي كان فيها ألوف الرجال يندفعون بحماس ليستمعوا إلى أصوات الحقيقة تُعلن في اجتماعات التحرر الوطني، حيث كان سيُسمع صوت برستس. أي هذيان انتاب هذه الجماهير عندما أعلن عن اسمه، في الوقت نفسه الذي أعلنت فيه الشعارات من أجل تحرر البلاد، هذا الهذيان الذي كان يبرهن للناس بان الحركة التي كان يدبرها هذا الرجل لم تكن حركة مغامرين وخونة. لقد كان الشعب بكامله يندفع في الشارع ليهتف باسم بطله، وليصفق لافكاره. وكانت القلوب ملأى

بالأمل، بالرغم من انها قد خينت العديد من المرات من قبل رجال السياسة الذين وضعت فيهم ثقتها، إذ أن هذه القلوب كانت تعرف بان برستس لم يكن رجل سياسة، بالمعنى الضيق لهذه الكلمة، بل كان قائداً للشعب، ناطقاً بلسان المضطهدين، كما كان قلب الشعب يخفق مع قلبه.

إن اجتماعات التحالف، يا صديقتي، والجماهير الضخمة التي كانت تشترك فيها، والصحف السرية، كل هذا كان يشكل منظراً رائعاً للغيرة الوطنية البرازيلية، يشكل فترة رائعة من وطنية هذه البلاد. لقد كان الوطن في خطر، لقد كان مباعاً، مخاناً، مستعبداً. ووضع برستس شعاراً لانقاذ الوطن، شعاراً ضد الاستعمار واللاتيفانديا واستعباد الريف والمدن، من أجل انقاذ الشعب البرازيلي. واندفعت الجماهير في الشوارع هاتفة لهذا المنهج، مناضلة من أجله، وسائرة خلف أحب الألوية إليها وأحب قادتها. وكان هذا اليوم عيداً لا يمكن مقارنته بأي عيد آخر. قدّري كم كانت مرحة مسألة الضغط على الأيدي المجهولة وسط اجتماع مليء بالتأثرات، واحتضان اشخاص لم يسبق لنا معرفتهم، ولكنهم رفاق بالقرب منا يتحركون. لقد كان عيداً مرحاً يشبه صباحاً مشعاً انبثق من بين غيوم ليل حزين، لا قمر فيه ولا نجوم، صباحاً من الحرية، صباح عيد بالقياس إلى البرازيل.

إن هذا الشعب الذي ينضح بالأناشيد والبطولة، هذا الشعب الذي يرزح تحت وطأة الاستعباد منذ العديد من السنين، قد أخذ بكلمة الحرية، الحرية هي صوت التحالف، صوت لويس كارلوس برستس. لقد خرج الشعب إلى الشارع، سارع إلى الساحات، يهتف وقد ضم قبضته ورفعها في الهواء وحطم أغلاله.

ان علمَ التحالف الوطني التحريري، وقد نُشر مرة جديدة في سنة ١٩٣٥. كان في الوقت نفسه علم التيرادنتس نفسه أيام الأنكونفيدنسيا، علم الكرامة أيام التعذيب وعلى درجات المشنقة. لقد كان علم زامبيدوس بالمارس السائر في مقدمة العبيد المنطلقين إلى الجمهورية الخالدة التي شكلها الزنوج، علم

بنجمين كونستان وايجابيبه عند فجر الجمهورية، علم فُراي كانيكاوفرّابوس، علم جمعبة خط الاستواء، علم فلوريانو بيشوتو المرتفع من أجل الدفاع عن الشعب. لقد كان علم طابور برستس موزعاً العدالة.

تطلعي، يا صديقتي، ان مليوناً ونصف المليون من الرجال يسيرون في ظل هذا العام. هناك ضباط ورجال جيش، هناك رجال بحرية. هناك أجيلدو وسيّسون، اغلبيرتو وكاسكاردو، هناك جنود وبحارة، عمال وفلاحون، كهنة وتجار، أطباء ومهندسون، سائقو سيارات وعمال تفريغ، هناك أشخاص من كل الطبقات، اغنياء وفقراء، وهناك كل أولئك الذين يحملون في حناياهم قلباً شريفاً يخفق بحب البرازيل. ويسير معهم، يا صديقتي، أبطال الماضي، الرجال الذين ناضلوا من أجل الشعب ضد الارهاب في الزمن الذي كانت البرازيل مستعمرة فيه، خلال سنوات الامبراطورية والجمهورية، كان معهم: فيليبي دوس سانتس، الذي رُبط إلى ذيل حصان وجرجر في شوارع فيلاريكا، وتيرادنتس الذي رُفع على خازوق في إحدى ساحات ريو دي جانيرو، وفراي كانيكا الذي قتل رمياً بالرصاص وقد اسند إلى أحد الجدران، وكان معهم زمبي الذي اندفع من أعالي أحد الجبال لكي يتخلص من الاسترقاق، وكان يرافقهم كذلك بدروإيفو على حصانه الأسود، وبنجمين كونستان وهو يلقي محاضراته على تلامذة المدرسة العسكرية، وفلوريانو مرتدياً ثياب مرشال الشعب العسكرية. كان هؤلاء جميعاً يسيرون، هم أيضاً، تحت لواء التحالف التحريري في سنة ١٩٣٥ البطولية. وأمام الجميع كان يسير برستس، كان يسير لويس كارلوس، **فارس الأمل**.

على هذا الشكل يا صديقتي، جرى هذا العيد، أجمل أعياد البرازيل، وأكثرها شعبية ومرحاً. لقد كان عيداً للحرية في الشوارع والساحات، وكانت الوجوه والقلوب تطفح سعادة وبشراً.

وفي هذه الايام، يا زنجيتي، كان أنصار الاستبداد والعبودية والتجويع، الذين يخونون الشعب، يرتجفون على كراسي الحكم. وخلال اجتماعاتهم السرية المكتنفة بالفزع، كان لون وجوههم يتحوّل إلى الاصفرار. وفي الخارج كان

الجمهور يحطم قيوده. وكان الطغاة يرتجفون في قصور الحكومة. وكان صوت الشعب الذي يصرخ باسم برستس في الساحة العامة، يلقي برودة الموت في قلوب أعداء الوطن. كانت سنة ١٩٣٥، يا صديقتي، سنة بطولة وأمل.

- ٢ -

كانت الأمواج تضرب بفتور هيكل السفينة ، يا صديقتي ، وتغلفت سماء المناطق الاستوائية بالنجوم وبأشعة القمر لتحيي أولغا زوجة لويس كارلوس. كانت أراضي البرازيل قد أصبحت قريبة ، وكان الليل قد أصبح ليلاً برازيلياً يحمل صليب الجنوب ، الذي لا يكاد يتميز من أنوار الصواري المتأرجحة. وكان لويس كارلوس وأولغا ينظران إلى السماء من على ظهر الباخرة. لقد كان بودهما لو يخترقان الظلام ، كي تتراءى لهما من خلفه الأرض ، أرض وطنهما المضمّخة بالعديد من الألوان ، تلك الأرض التي بشعران انها أصبحت منهما قريبة. ومن خلال هدير الأمواج كان يخيل إليهما بأنهما يسمعان أنغام الموسيقى البرازيلية : أنغام السمباس[١] والكوكوس[٢] والمودينياس[٣] والكاتيريش[٤] ، والتنهدات الرخيمة لجنس جُبل بالآلام وذاق منها أمرّها. وكان لويس كارلوس يحدثها عن البرازيل ، كان يحدثها عن مدن البرازيل وريفها ، عن صوت هذه البلاد العميق ، عن الرجال الذين شاهدهم في الطابور ، على ضفاف سان فرنسيسكو ، عن بطولتهم غير المحدودة ، عن حماسهم العظيم. وعند تحدث لويس كارلوس عن هؤلاء الرجال الأبطال الممتلئين حماساً ، كان يروي لأولغا مآثر الحوادث التي شاهدها في سهول السرتونات النائية وفي منفى الغايبا. وتحدث عن بائعات المؤونة للطابور ، اللواتي كن يحملن بندقيات الرجال ، وعن النمساوية الشقراء إرمينيا ، التي تزوجت من الزنجي فيرمينو تحت سماء البرازيل السحرية.

ولم يفكر لويس كارلوس برستس بالحب ، الا بعد أن ناضل كثيراً ، بعد ان اجتاز البلاد بكاملها ، وبعد ان وجد ، عقب اندفاع محموم قلق في

(١) (٢) (٣) (٤) أغان ورقصات برازيلية شعبية.

التفتيش، الطريق التي يتوجب على شعبه اتباعها. ولم يفتش برستس بيأس، يا صديقتي، كما نفعل نحن جميعاً، عن امرأة حياته في أجساد النساء. لقد كان له من اهتمامه بالبحث عن دروب الحرية، عن دروب السعادة لشعبه، ما يستأثر بكل وقته.

وفي أحد الأيام شاهد في إحدى المدن الأوروبية، فتاة ألمانية شابة. وأحس فوراً بان هذه المرأة سوف تصبح زوجة له، سوف يخفق قلبه من أجلها، سوف تكون أماً لأولاده، تسهر عليه وتريح نفسها على كتفه؛ فيعمل بالقرب منها من أجل البرازيل، وتكون له زوجة ندية العود فهيمة. وتحابا في ربيع أوروبي، وكانت الأزهار تحنو عليهما مرحبة، والأطيار تزقزق فرحة بمقدمها، والربيع يتنقل من مدينة إلى مدينة ويقودهما عبر أوروبا نحو السفينة التي ستحملهما إلى البرازيل. وسيرافقهما الربيع حتى المرفأ، ثم يعهد بهما إلى البحر الجميل لكي يسلمهما هذا بدوره إلى البرازيل الساحرة.

وحدثها على سطح السفينة عن الوطن، عن وطنه هو، الذي أصبح الآن وطناً لأولغا بيناريو برستس. وكانت هذه المرأة، التي أغرمت برجل يشكل مصيره مصيراً للبرازيل نفسها، تشعر بأنها مرتبطة بشكل عميق، وباعجاب وسر شعريين، بأرض زوجها: فمنذ ما اقترنت بلويس كارلوس برستس أصبحت البرازيل وطناً لها.

وأخذ الاثنان يتحدثان عن البرازيل. وها هي أرض هذه البلاد قد اقتربت: ها هي الشواطىء الرملية البيضاء، والسرتونات من الحقول الخضر، والسماء الزرقاء المشوبة بلون الرماد. وكان البرازيلي والألمانية الشابان يحاولان اختراق ظلام الليل الدامس، بعيداً: ليكتشفا الشواطىء البرازيلية، بعيونهما المملوءة بالتأثر. وكان، هو، يشير بيده كالبوصلة نحو مسافات بعيدة، وكانت، هي، تبتسم ابتسامة حارة ودودة. وتطلعت طويلاً إلى وجهه الهادىء وعينيه المشتعلتين. ان الرجل الذي اكتشفته، في يوم من أيام الربيع في إحدى المدن الأوروبية، هو بطل شعب كامل. وها هي تضغط به على صدرها كما

لو كانت تريد ان تحميه من الأخطار المستقبلة. وسقط شعاع من أشعة القمر على الزوجين الحديثين. انه قمر البرازيل يداعب لويس وأولغا.

ولم يكن شهر عسلهما شهراً كبقية شهور العسل. فهما لن يهجرا الناس ليعتزلا في مكان ما، ويعيشا أياماً هادئة مضمَّخة بالحب. بل سوف يذهبان إلى البرازيل، حيث مُنع برستس من الدخول، وحيث سيناضل بالقرب من شعبه، في طليعة شعبه، من أجل تحرير الوطن. سيذهبان ليعيشا حياة الخارج على القانون، بينما يتعقب خطواتهما رجال الشرطة والاعداء. ولن يتأثر خطواتهما مفتشو الشرطة البرازيلية فقط، بل وكذلك رجال الغستابو والانتلجانس سرفيس. على هذا النحو كان شهر عسلهما يا صديقتي: كان شهراً منسوجاً من المخاطر التي تعرضا لها وسط شعبهما في زمن التحالف الوطني التحريري، ابّان ثورة شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٥.

لن تتعرف هذه الفتاة الصبية الألمانية، التي وهبت قلبها للواءٍ برازيلي، بعد الآن إلى أي يوم من الراحة والهدوء. وسيخفق قلبها من الآن فصاعداً من أجل زوجها. وفي الليل سيكون رقادها خفيفا بانتظار عودته. وسيأتي وقت تفقد معه القدرة على هذا الانتظار، فرافق لويس كارلوس برستس لكي تحرسه. فهي تعرف جيداً بانه إذا ما كان محبوباً، كما لم يُحب أي إنسان، من الشعب البرازيلي، فهو في الوقت نفسه مكروه ومرهوب الجانب أكثر من أي إنسان آخر من قبل أعداء الشعب. سوف تذهب معه في ظلام الشوارع التي أعطى فيها مواعيد لمقابلاته، وسوف تكون بالقرب منه وتحيطه بمودتها وعزمها.

انها أشبه ما تكون بأنيتا غاريبالدي، التي وُلدت في سهول البرازيل ورافقت غاريبالدي في جميع المعارك. ان أوروبا تدفع للبرازيل على هذا الشكل دينها القديم. وبالطريقة نفسها التي وجد فيها البطل الايطالي زوجةً له في البرازيل، وجد رفيقةً تحرسه بكل قوة حبها، وجد بطلُ البرازيل الزوجة والرفيقة في أوروبا، المرأة التي سوف تحرسه في أيام الثورة، امرأة، كأنيتا،

ستكون إلى جانبه في أدق المراحل وأصعبها. أنيتا غاريبالدي وأولغا بيناريو برستس! اسمحي لي، يا صديقتي، ان اجمع في ما بين هذين الاسمين! فكل منهما يطلق الرنين نفسه، ولكل منهما المصير نفسه، مصير الزوجات البطلات نفسه، مصير النساء المقترنات برجال وهبوا حياتهم من أجل الحرية.

إن نساء اخريات، يا صديقتي، يمتلكن أزواجهن بصورة كاملة، يمتلكن منهم الجسد والقلب والتفكير والحياة كلها. وهنّ لا يشاركن أحداً في هذه الملكية. ولكن حذار، يا صديقتي، للنساء اللواتي يقترنّ بالأبطال وبالشعراء، فهنّ لن يمتلكن من أزواجهن سوى لحظات. فالحرية والشعر حاسدان غيوران للناس، يستوليان على البطل وعلى الشاعر، إلى الأبد. إن مصير البطل هو في أن يذهب إلى ساحة المعركة. فعندما تناديه الحرية يعلو صوتها بقوة تفوق قوة أي صوت نسائي. إذن يتوجب على المرأة ان تملأ صدرها فهماً، وأن تعرف أن تعيش حياة زوجها. فلتهيّىء نفسها لأقسى ساعات العذاب، ولتتحلّ خلال هذه الساعات بكفاءة زوجها نفسها. تماماً كما عرفت ان تفعل أولغا بيناريو برستس، التي يرجع بها النسب إلى عائلة أنيتا غاريبالدي. ولا يبدو الحب بالقياس إلى نسوة كهؤلاء تحت مظاهر خارجية من السعادة. انه يتغذى من نفسه، وعليه ان يكون ضخماً كالعالم، خالداً كالبحر، لكي يقاوم ضربات التعاسة. وكان حب أولغا للويس كارلوس يتغذى من نفسه، يا صديقتي.

يا له من شهر عسل غريب! انهما يسيران نحو النضال، نحو الاجتماعات السرية، نحو التآمر ونحو الثورة. انهما لا يهيئان أقل مشروع من أجل حياة هادئة، من أجل سلام عائلي رائق. ان بانتظارهما أكثر المصائر عدم استقرار، بانتظارهما جميع أنواع المخاطر: الحياة بصورة سرية، الاختفاءات الموقتة، ليالي الانتظار. قليلاً ما يهم كل هذا، يا صديقتي؛ فمنذ ما كان العالم، كان الحب أقوى من جميع المخاطر ومن جميع التعاسات.

إن ليل البرازيل يهدهد السفينة كالشبكة. وتتساقط أشعة القمر على لويس كارلوس وأولغا كأنما هي هدية من الشعب، هدية عرس. وفكرت أولغا،

بحدّس النساء المحبات ، بالأيام السوداء المقبلة . ولكنها ابتسمت مع هذا ، يا صديقتي ، وهي تطفح بالسعادة . ثم احتضنت ذراع لويس كارلوس ، فالحب أقوى من جميع التعاسات . ومن خلال ضياء الفجر ، انطلقت ، عند الشواطىء ، شجرات جوز الهند البرازيلية .

- ٣ -

كـان انتصار ثـورة سنـة ١٩٣٠ يحمـل في اردانـه تنـاقضـاً سيمكّـن جيتوليوفارغاس من المقاومة ومن البقاء في الحكم. فلقد أسهم في ثورة سنة ١٩٣٠ يـا صـديقتي، « التيننتس »، وأبطـالُ سنـوات ١٩٢٢ و ١٩٢٤ و ١٩٢٦، ورجالُ الطابور؛ وكان هؤلاء يمثلون القوة الثورية لسنة ١٩٣٠. وأصبحت « التيننتيسمو »، بعد الانتصار، ايديولوجية كتبت حولها الكتب ودُبجت المقالات؛ ثم انشئـت النـوادي كنـاديـي « ٥ تموز » و « ٣ تشريـن الأول ». ولكن كان في صفوف هذه الثورة كذلك قوى عظيمة من الأقلية الرجعية في ميناس، يمثلها بعض رجال السياسة من أمثال برناردس وانطونيو كارلوس، كما يمثلها الغاووشوس واشخاص من المناطق الشماليـة الشرقيـة، وبعض كبار الصناعيين من أمثال ليما كافلكنتي. وكان تحالف هذه القوى التي كانت تحاول الاستيلاء على الحكم بواسطة ترشيح جيتوليوفارغاس، ـ هذا التحالف الذي انتج الثورة ـ ، يرتكز، من كلا الطرفين، على رغبة كل منهما في خداع الآخر، كما يحدث في بعض الزيجات: عندما تكون الخطيبة واثقة بأن الخطيب من أصحاب الملبارات، بينما يكون إيمان الخطيب وثيقاً بأن أهل خطيبته يرقدون على سرير من المال. وكان « التيننتيسمو » يفكرون، من أجل الوصول إلى الحكم، باستعمال القوى السياسية التي تحدثتّ عنها في ما سبـق، ثم يعمدون إلى تصفيتها بعد ذلك؛ بينما كانت هذه القوى تريد أن تستخدم الاحترام العسكري والشعبي الذي يتمتع به « التيننتس ». وكان يكمن خلف هذه القوى الاستعمار الأميركي، الذي كان يموّل صناديق الثورة بقروض في ربو غراندي ووول ستريت، ويفكر في توجيه ضربة قاصمة إلى سيطرة السيتي التي كانت تبرز بوضوح في سان باولو. لذا كانت ثورة سنة ١٩٣٠ تبدو

أحياناً على شكل نضال ضد سيطرة سان باولو على الاقتصاد الوطني. وبالحقيقة كان الوول ستريت والسيتي يتنازعان السيطرة على مستعمرة غنية.

وكانت المرحلة الأولى من الثورة من نصيب «التيننتس». فلقد كان هؤلاء يسيطرون على الجنود وعلى جميع الظروف اللازمة للاستيلاء على الحكم. وظهر كأنما الجماهير قد نسيت جيتو ليوفارغاس. ولم تكن التظاهرة التي استقبل بها في ريو، بالقياس إلى تلك التي استقبل جواريس تافورا رئيس القوى الثورية في الشمال، سوى نزهة لا أهمية لها. لقد كان الرجال المحبوبون من الشعب هم: ميغيل كوستا، جواريس، جوان البرتو، إدواردو غومس وكوردبرو دي فارياس. ولم تكن صورة جيتوليو هي التي تعلق على جدران المنازل، وإنما كانت تعلق نسخة عن اللوحة الرائعة التي تمثل رجال حصن كوبا كابانا الثمانية عشر، يتقدمون على الرمال، نحو الموت.

لقد أسهم رجال السياسة في الثورة تحدوهم الرغبة للإفادة منها. لقد كانوا يعرفون ان قيامها أمر حتمي، وكان أكثرهم ذكاء يعرف تماماً بأن الطابور قد حرك البلاد وزرع بذرة الثورة بين الشعب المستثمَر. لذا وقفوا في الصفوف الطليعية للثورة املاً باستخدامها من أجل الدفاع عن المصالح التي يمثلونها. وأحرزوا أعظم النتائج.

ومن سنة ١٩٣٠ حتى سنة ١٩٣٢ اشترك «التيننتس» في الحكم مع القوى السياسية الاستعمارية ومع كبار ملاكي الأراضي العقاريين، ولكنهم كانوا يشكلون، حتى في ذلك الوضع، العدد الأكبر في قلب الحكومة. وكان ذلك الوقت هو الذي كان يطلق فيه خلال الاجتماعات الخاصة، لقب «السوفيات» على وزارة فارغاس. وفي ذلك الوقت أعلن جوزيه أميريكو نضالاً لا هوادة فيه ضد شركة لايت، ودافع فيه ايرينو جوفيلي عن الأموال العامة ضد جشع رجال السياسة. انها فترة تعرفت فيها حرية الانتقاد والاعتقاد والتفكير إلى الوجود. بل لقد وصل الأمر بالتيننتيستيين الحاكمين إلى التحدث بأنفسهم عن ضرورة وجود برستس في البلاد. فلقد كانوا يشعرون بانه الرجل الذي

يستطيع ان يجد حلاً مرضياً للوضع. وكانت الحكومة ساعتئذ سائرة في اتجاه مصالح الشعب.

وكانت القوى الرجعية ترتجف من الرعب في ذلك الحين. وكانت قد وجدت لنفسها سنداً مباشراً في شخص جيتوليوفارغاس، المرتبط بالتعهدات التي منحها للوول ستريت وبتلك التي قدمها إلى رجال السياسة، والذي كان في الوقت نفسه يغازل الأقلية الرجعية الحاكمة في سان باولو. وبدأت سياسة من الاهمال تذر قرنها في البلاد. وشُن الهجوم ضد التيننتيستيين حتى قبل اندلاع تورة سنة ١٩٣٢. ووضع أمامهم جميع ما يمكن تصوره من العراقيل، وصنع كل شيء من أجل القضاء على معنوياتهم. وقليلاً قليلاً قليلاً استطاع الرجعيون ان يؤمنوا لأنفسهم الأكثرية في قلب الحكومة. وأمدت المناورات الفاشية بالمساعدة، وجرت مفاوضات مع «الحكوميين» السابقين.

وكان مغامرو جميع الثورات وجميع الحكومات تائهين لا يعرفون أي سبيل بسلكون. فإن بلينيو سلغادو، وهو صيدلي عاصر عطاءات كبار الملاكين العقاريين في الحزب الجمهوري في سان باولو، قد بلغ به الأمر إلى امتداح برستس في إحدى رواياته: لقد كانت قوة «التيننتيسمو» تبدو له بكامل عظمتها، حتى خبل إليه بأن «حل برستس» أضحى قريباً. وعندما لاحظ في ما بعد بأن ورود هذا الحل قد تأخر، باع نفسه من المصرف الالماني ليؤسس الحزب الذي كان بالنازية الألمانية حاجة إليه كقاعدة للتغلغل بصورة أكثر حزماً في البلاد. وكان قد سبق ذلك عدة استعراضات قامت بها «الفرق الثوربة» و «القمصان السمر» التي يقودها فرنسيسكو دي كامبوس، القادم من جبال ميناس، في شوارع بيلوهوريزونتي، بين وابل من صخب الجماهير وسخريتها. وكانت محاولته تلك محاولة فاشلة. ولقد أحبطت لأن دي كامبوس أراد أن يوفق بين السياسة وبين شهواته الريفية المفترسة، التي كانت تجعل لعابه يسيل عند رؤية أية امرأة جميلة في شوارع العاصمة الأنيقة. وكانت قوة «التيننتيسمو» لا تزال أقوى من ان تسمح «لفرق» دي كامبوس الموسولينية بالازدهار. فاضطر هذا إلى العودة إلى

أبيات الشعر التي كان يكتبها بالتعاون مع أوغستو فيديريكو شميدت، الشاعر الضخم البدين. وبين القصائد المقدسة التي كان هذا المدّاح البدين يهديها إلى الصبايا الناشزات، وبين النضال الذي قام به للاستيلاء على إحدى الوزارات، ضد عدو شخصي يقف، والسوط في يده، على سلم المجلس البلدي القديم، ويمنعه من فرض « قوانينه » في مادة التربية، بين هذين الأمرين تداعت الفرق وتحطمت ارباً ارباً. وعندما توصل دي كامبوس، هذا الشاعر اليوناني الحديث، هذا الرئيس الفاشي، أخيراً، إلى الاستيلاء على الوزارة التي كان يريد، أصلح وزارة المعارف في البلاد بواسطة مرسوم، هو أول مرسوم أصدره، منح نفسه بموجبه حتى الانتقال من كرسي الحقوق في جامعة ميناس إلى كرسي في جامعة ريو دي جانيرو، حيث صرف وقته في الاسترخاء والاغفاء وفي قياس الاشعار بالامتار، وهذا شيء لم يكن بمقدور شميدت القيام به إطلاقاً.

وإن مرحلة « التينينتيسمو » هذه، حيث نزل الشعب القلق إلى الشارع مطالباً باتخاذ التدابير الحازمة، وحيث جهد الرجعيون في تصفية الثورة، هذه المرحلة التي تشكل تكراراً للمرحلة التي سبقت قيام الجمهورية، حيث هبّ الايجابيون لمقاومة أسياد العبيد، وسار الشعب إلى جانب فلوريانو، وحيث تآمرت الأقلية الحاكمة واستعملت جميع الأسلحة، إن هذه المرحلة هي، دون شك، أكثر المراحل إثارة للفضول في تاريخ البرازيل الحديث. وكان القلق العام المسيطر يشكل أرضاً خصبة لتفتّح براعم جديدة من الأدب الجديد. واختفى « الحديثون »، من شعراء وكتاب، كانوا يعملون في خدمة البورجوازية الكبيرة والاستعمار، ويمتدحون، بشكل فلسفي، الاقلية الحاكمة، اختفى هؤلاء جميعاً من على مسرح الأدب. وفي الوقت نفسه الذي انطفأ فيه نجمُ من يدعى فرنسيسكو دي كامبوس، زال من الوجود صوت « الحديثين »، المخنث في كثير من الأحيان، والمخطىء في كل الأحيان تقريباً. وكفرنسيسكو دي كامبوس، لن يعاود « الحديثون » الظهور إلا في سنة ١٩٣٧. وسوف يحمل عندئذ فرنسيسكو دي كامبوس الدستور

التعاوني، لـ « الدولة الجديدة »، وسيكون « الحديثون »، كما كانوا في سنة ١٩٣٠، « الكتاب » الرسميين.

وفي زمن « التيننتيسمو »، وقد كان الشعب يريد ان يجد حلاً لمشاكله، انطلقت من جميع انحاء البلاد أصوات كتاب جديدة، أصوات شريفة، ستحاول ان تصف المعالم الفاجعة للحياة البرازيلية. فافتتح « جلبرتو فرير » و « ارثور راموس » و « أديسون كارنيرو »، طريقاً جديدة للدراسات الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية. وقص جوزيه لينس دوريغو حياة الشعوب العاملة في صناعة السكر. وكان قد سبق لجوزيه اميريكو ان كتب قصة الجفاف. وكشف راكيل النقاب عن السيرا، وروى ديو نيليو ماشادو وأريكو فيريسيمو طرق الحياة في ريو غراندي دوسول، وأخذ أماندو فونتيس يدرس المعامل في أراكاجو، بينما سما غراسيليانو راموس بالرواية الوطنية إلى ارتفاع كان مجهولاً حتى ذلك التاريخ. وان هذا الأدب الجديد الذي ألقت ضده الرجعية بالرواية « التحليلية » ـ التي تشكل نتاجاً للروائيين المهتمين بالحيوانات السحرية، منتهجين بذلك خطط بروست ـ سيحظى، في سنة ١٩٣٥، بمساندة الجماهير في حركة التحالف الوطني التحريري، ويمكّن جوزيه لينس بواسطة كتابي « البنخ » و « أومولِيك ريكاردو »، ويمكن غراسيليانو راموس بواسطة كتاب « انغوستيا »، واريكو فريسيمو بكتاب « كامينيوس كروزادوس »، يمكن هؤلاء جميعاً من انتاج أروع آثارهم الأدبية.

على هذا الشكل كان الوضع في البرازيل عندما قررت الرجعية، التي بدأ خوفها من قوى الشعب الثورية يتعاظم يوماً بعد يوم، القيام بثورة سنة ١٩٣٢. فرفعت عندها علماً رائعاً، علم المجلس التأسيسي. ولكن الأمر لم يكن بتعلق، والحق يقال، بمجلس تأسيسي يعقب ثورة أقلية منتصرة. ولم يحاول الرجعيون حتى القيام بحملة تطالب بالدستور. وفيما لو كانت قد جرت هذه الحملة في ذلك الحين، لكانت قد اتخذت اتجاهاً شعبياً واسعاً؛ فاهتمت بمطالب جماهير الشعب، وبصورة خاصة بالأماني التي تمثلها حركة

« التيننتيسمو ». والبرهان على ذلك نجده في المجلس الثوري الذي ترأسه جواريس ، والذي كانت نتائجه إيجابية تماماً بالرغم من البلبلة ، وبالرغم من تسلل بعض أفراد من الطابور الخامس ، مثل بلينيو سلغادو ، إلى صفوفه ، لقد كانت الأقلية الرجعية الحاكمة تريد الدستور ، ولكنها كانت تريد أولاً ان تدحر القوى الثورية. ولكن كان من الصعب اخفاء هذا المظهر العميق ، المعادي للثورة ، في ثورة سنة ١٩٣٢. فلقد كانت هذه الثورة تريد أن تصفّي أمر « التيننتيسمو » بواسطة السلاح ، بالرغم من إسهام كثير من « التيننتيستيين » فيها. ويمكّن هذا المظهر الجزئي من الحكم على البلبلة التي كانت تسيطر في ذلك الحين. ولم يكن « التبننتيستيون » ، في الواقع ، قد توصلوا إلى تحويل « التيننتيسمو » إلى نظرية. فلقد كانت « التيننتيسمو » تشكل كلمة وبعض الحوادث. ذلك هو السبب الذي مكن كثيراً من « التيننتيستيين » ، من القيام بانقلاب سان باولو تحت شعار : « الدستور » ! وكانت تختفي خلف كل ذلك المصالح الانكليزية ، التي كانت تحرك « الدستوريين » بأصابعها كالدمى ، املاً في احتلال المواقع نفسها التي كان اليانكي قد احتلوها في ثورة سنة ١٩٣٠.

ولكن جيتوليو ، بالحقيقة ، سبق له في سنة ١٩٣٢ ، عند اندلاع الثورة ، ان كان بصورة كاملة ، تحت سيطرة القوى الرجعية وكبار ملاكي الأراضي العقاريين والاستعماريين. وتوصل « التيننتيستيون » إلى الخروج منتصرين مَن ثورة سنة ١٩٣٢. ولكن هذا الانتصار تحول إلى هزيمة. فلقد هرع « الدستوريون » إلى مختلف المذاهب من أجل تأييد ثورتهم ، حتى إلى مذهب الانفصاليين. وكان واضع الأسس الإيديولوجية الحقيقي لثورة سنة ١٩٣٢ هو رجل انفصالي. فلقد فهم فارغاس ، ببراعته كسياسي حسّاب. بدقة ، القوة الاقتصادية والسياسية التي يمثلها كبار ملاكي الأراضي العقاريين المسلحين. ومن ثم اغتنم فرصة الضعف النظري والانقسام المسيطرين على « التيننتيستيين » ؛ ولقد كان يعرف بأنه إذا ما انتصر هؤلاء الأخيرون ، فلن يبقى أمام البلاد سوى انتهاج خطة واحدة وولوج طريق واحدة : برستس

والثورة الشعبية. وهو عند إحرازه الانتصار العسكري على « الدستوريين »، لم يلجأ إلى « التيننتيستيين »، بل لم يحاول حتى أن يطلب مساعدته، وعلى العكس رضخ لجميع مطالب الأقلية الحاكمة. وأعلن عفواً عاماً ودعا المجلس التأسيسي إلى الاجتماع. ولكن التأثير الذي كان « التيننتيستيون » لا يزالون يتمتعون به في ذلك الحين، منع مجلس سنة ١٩٣٤ التأسيسي من اتخاذ خطة ذات اتجاه رجعي كامل. فلقد كان الاتجاه لتحرريٍ، بهذه الشرعة الدستورية، نتاجاً لانتصار « التيننتيستيين » العسكري في سنة ١٩٣٢، ولتحركات الجماهير، وللتربية الشعبية التي تآلفت، بفضل الأدب الجديد، مع مشاكل البرازيل، ولضعف القوى الرجعية. ولقد قام فارغاس بمفاوضات مع هذه الأخيرة، طيلة فترة قيام المجلس التأسيسي. ولم يتوصل « التيننتيستيون » واليساريون إلى التحالف. ولقد مُثلت القوى الديمقراطية واليسارية في المجلس التأسيسي بمختلف الاتجاهات السياسية، من الأحرار إلى الاشتراكيين والشيوعيين. ولما كانت هذه القوى غير متحدة، انتقل فارغاس إلى صف كبار الملاكين العقاريين المدحورين بالأمس. ولم يكن رجال جيتوليو فارغاس، وهم أكثر أعضاء المجلس التأسيسي نشاطاً، من « التيننتيستيين » الذين دافعوا عن حكومة فارغاس بقوة السلاح، بل كانوا من « البادليستاس » الذين سبق لهم ان ناضلوا ضد هذه الحكومة. وما يكاد فارغاس يُنتخب رئيساً للجمهورية، حتى يعمد إلى تصفية « التيننتيسمو »، وإلى تجريد جواريس من سلطته كحاكم مطلق في الشمال. ويرضخ فارغاس لشركة رايت، ويرى جوزيه أميريكو نفسه مضطراً إلى التخلي عن وزارة المواصلات في سان باولو وإلى وضعها بين أيدي الرجال الذين رفعوا راية التمرد في سنة ١٩٣٢. وسقطت إدارة الشرطة بين يدي رجل من عملاء الألمان، يُدعى فيلينتو مولر. وفي جميع الولايات، سار « التيننتيسمو »، المنقسم على نفسه، في طريق الانحلال. واتحدت القوى الرجعية من أجل القضاء عليه. وباع كثير من « التيننتيستيين »، من أولئك الذين كانوا مغامرين قبل أن يصبحوا ثوريين، أنفسهم، واحتفظوا بذلك ببعض السلطة أو ببعض الوظائف. وتغير المشهد الآن، واصبح شبيهاً بذلك الذي كان

يسيطر في ظل الجمهورية. وبعد مغادرة فلوريانو الحكم، أصبحت وزارة العدل لا تمثل المكرة الثورية لسنة ١٩٣٠. وفي ما بعد، سيُملي فيسانتي راو، أحد رؤساء ثورة سنة ١٩٣٢، «القانون ـ الوحش»، الذي سيحاول بواسطته ان يصفي كل ما تبقى من ديمقراطية ومن «تيننتيستا» في الشرعة التأسيسية لسنة ١٩٣٤.

وأينعت «الأنتغرالية» في البرازيل، بعد أن سُقيت جذورها بالأموال النازية وتمتعت بحماية رجال الشرطة. ووجد الاستعمار الألماني لنفسه مرتعاً جديداً في الأرض البرازيلية. وعندما كان هتلر وأسياده يهيئون لحرب سيعم لهيبها العالم، كانوا يحولون نظراتهم نحو البرازيل، بمستعمراتها التي يديرها الألمان في سانتا كاتارينا، في البارانا وفي ريو غراندي دوسول. ولم يكفهم شراء رئيس شرطة العاصمة وبعض رجال السياسة. بل واتخذ الطابور الخامس في البرازيل لنفسه مظهر الحزب السياسي: العمل الأنتغرالي في البرازيل، و «القمصان الخضر» برئاسة بلينيو سلغادو. وكانت الحكومة تتستر على أمثال هذه المنظمات، أملاً في ان تفيد منها في الوقت المناسب، كما حدث في سنة ١٩٣٧. وكانت تصفية «التيننتيسمو» احدى مراحل سياسة المناورات هذه. والمرحلة الثانية كانت مرحلة انتشار «الانتغرالية». وان من المثير للفضول رؤية «الانتغرالية» تتمتع بمؤازرة الممثلين المباشرين للوول ستريت وللسيتي، وتحظى بالتأييد الحماسي من قبل فيلينتو وأولئك الذين كانوا يمثلون هتلر. ولم يكن تلينيو سلغادو أكثر من خادم لفيلينتو ولفون كوسل. وكان هذا الأخير، المتمركز في ريو، في الوقت نفسه، رئيساً لمصالح الجاسوسية الألمانية وللحزب الوطني الاشتراكي. وكان بلينيو سلغادو متردداً في أول الأمر، إذ لم يكن يدري من أية جهة ستُفتح أبواب الحكم بصورة أسرع. ثم أخذ في سنة ١٩٣١، وقد تجلبب بثياب الفوضوي، يتحدث عن برستس، ولما لم يجن أية فائدة من ذلك، هرب وهو يحمل صندوق المال لجمعية يانصيب أوكلت إليه بسذاجة مهمة أمانة صندوقها. ثم سرعان ما ألبس نازيي الجنوب وجميع الناس غير الشرفاء في البلاد، ثياباً خضراً، وقد خلب منه

اللب بـريـق مـاركـات المصرف الألماني. وانجذب بعـض الثـوريين ببريـق « الانتغرالية » الخلّب. وفي ما بعد فقط تكشفت لهم حقيقـة حـزب بلينيـو، فهجروه عندما تعرّف التحالف الوطني التحريري إلى عالم الوجود. وكانت الانتغرالية مزيجاً من نظريات كتاب « كفاحي » ومن الاستفزازات المعادية للشيوعية ومن أكاذيب الافراط في حب الوطن. وشكل هذا الأمر مهزلة بينةً فاتمة، كانت فيها قلة الشرف تتنقل بحريّة عبر الشوارع، وكانت الشرطة خلالها تحمي النزهات الانتغرالية الملونة بالأخضر.

ولم يحدث في أية بقعة من بقاع العالم، حتى ولا في ايطاليا الفاشية إبّان عهد « فوتيريسم » مارينتي، بل ولا في المانيا عهد ظهور النظريات الآرية للنازية الألمانية، ان طهر هذا القدر من السخافـات والتفـاهـات، وان تعـرّف إلى الوجود أدبٌ بمثل رداءة الأدب الذي ظهر في البرازيل ابّان الانتغرالية. وكان بلينيو سلغادو، فوهـرر المسرحيـات الغنـائيـة، ومسيـح التمثيليـات الرخيصة، يحمل في نفسه جرثومة الأدب الرديء. وبعد ان انتحل لنفسه، دون نجاح، أشعار اوزفالدو دي اندرادي، اقتنع بانه لم يخلق لسرقة الأدب الجيد، فأخذ يقلد اسوأ ما في العالم من أشياء مطبوعة، فجاء أدبه أسخف ما يمكن لانسان ان يتصور.

وعندما ظهرت « الانتغرالية »، أخذ « المثقفون » الرجعيون، المتحـدرون من « المودرنيسم »، مثل مينوني دل بيشيا، وأولئك الذين برزوا في سنة ١٩٣٠، مثل « داموازو أوتافيودي فاريا »، والمحتال سانتياغو دانتس، أخذ هؤلاء جميعاً يهزأون من بلينيو ومن حزبه: فلقد كانوا يجدون فيهما مظهراً من السخف الكامل. ولكنهم لم يضحكوا طويلاً؛ فسرعان ما اكتشفوا انه يكمن خلف بلينيو، فيلينتو وفون كوسل وهتلر، يكمن مال الاستعمار، تكمن الرجعية المناهضة للشعب. عندها أخذ جميع الاناس الشبيهين بسانتياغو وبأوتافيو وبتاسودا سيلفا، يتغنون، والسبحة في يدهم، وعيونهم قد سمرت بهتلر، بامتداح الرئيس الوطني، بالشعر وبالنثر، وقد انهك التعب حناجرهم

اللدنة الشبيهة بخناجر أولاد رائعي الجمال يهذون، لكثرة ما رددوا وهم يصرخون عبارة «أنوويه»، عند مرور هيكل بلينيو العظمي وردفي غوستافو بروسو الضخمين. وبفضل التقارب الذي جعلته الماركات الذهبية في حدود الامكان، امتزج هؤلاء «الارستقراطيون» بأمثال فيفيروس دي كاسترو ماديراس دي فريتاس وكارلوس مول، هذه الحثالة الأدبية الفاشلة التي طالما احتقروها في السابق. ولم يكونوا الوحيدين في انتهاج هذا المسلك؛ فان المتشككين الذين كانوا ينظرون إلى الحياة بابتسامة احتقار، و «الحياديين» الذين كانوا يثرثرون في المكتبات، ان هؤلاء جميعاً بدأوا يجدون بلينيو أقل سخفاً مما كانوا يتوقعون... فاخذوا، هم أيضاً، يضربون على صدورهم علامة الندم والاستغفار...

ولم تكن الانتغرالية تتردد عن القيام بأي استفزاز. وجعل النازيون بواسطتها يسلحون الألمان في جنوب البرازيل. وكان أدهها البوليسي والاستفزازي يوزّع بواسطة المؤسسات الرسمية. وفكر بلينيو بسنّ قوانين زجرية ضد الحرية وضد الشعب، فسارع «الدستوري» رووا إلى تدبيجها. وكان رجال الحكومة ينظرون بمودة وحنو إلى استعراضات القمصان الخضر، التي كانت تسير أمامهم في الشوارع. وكان المال يسيل باندفاع، وكان بمقدور أي انسان الحصول عليه ما دام على استعداد لبيع نفسه.

وكان أمر «التينينتيسمو» قد صُفي، فأقفلت نوادي «التينينتيستيين»، وأبعد أهم قادة هذه الحركة عن المراكز الحكومية. وكان أولئك الذين قبلوا ان يبيعوا أنفسهم يُشرون بصورة منهجية؛ أما أولئك الذين قاموا بثورة سنة ١٩٣٠، فقد زال أثرهم نهائياً من على مسرح السياسة. وكان جيتوليو فارغاس ساعتئذ قد انتهى من تعديل وزارته للمرة الأولى. وهو الآن لم يبق مستنداً إلى مؤازرة الشعب، بل إلى مؤازرة الملاكين العقاريين والاستعماريين والفاشيين. وكانت السنوات الأربع التي مرت كافية لتغيير معالم الثورة. وكما في سنوات الجمهورية الأولى، عاد أسياد العبيد إلى استلام الحكم، وصفي أمر

« التينتيستيين » كما كان قد صفي أمر « الايجابيين » في الماضي ، وخينت الثـورة .

ولم يكن الشعب وأفراد « التننتس » ، الذين لم ينقلبوا إلى صفوف الرجعية بدافع من الرغبة في الحكم ، يرون أمامهم سوى طريق واحدة. وتردد أحد الاسماء على جميع الشفاه في جميع انحاء البرازيل. لقد كان هذا الاسم علماً خفاقاً ، وكان يحمل في طياته المخرج الوحيد وسبيل الخلاص الفرد . وجعل الشعب ، من جديد ، ينادي « **فارس الأمل** » ، ذلك الذي كان قد خمّن ما سوف يجري ، فرغب عن الانضمام إلى صفوف أعداء الشعب ، ورفض ان يحكم ضد إرادته ولم يبع نفسه ، وظل الأملَ الوحيد للناس الذين كانوا يفكرون بمستقبل البرازيل .

وأصبحت حالة البلاد المالية في تدهور تام . لقد كان ذلك هو عهد القروض المجمدة والماركات المعوّضة . إنه العهد الذي أحرق فيه البن ، وبلغ مستوى المعيشة فيه حداً خيالياً ، بينما كانت الأجور في درك يرثى له من الانخفاض . وأخذت الانتغرالية تهتم في بيع البلاد من الألمان ، بينما جعل الاستثماريون يتناحرون في ما بينهم ، وقد رغب كل منهم في نيل حصة الأسد من ثمن بيع البلاد بالمزاد العلني .

وأمام الوضع الذي كانت تجتازه البلاد ، أمام خطر الفاشية ، أمام تصفية الدستو بصورة منهجة بواسطة راوْ ، أخذ أكثر أعضاء « التيننتس » وعياً ، أولئك الذين كانوا يشعرون بالطريق التي تسلكه الثورة ، يتحدون مع قوى اليسار الأخرى ، مع الديمقراطيين الحقيقيين ، مع الشيوعيين ، واقاموا أسس حزب سياسي واسع وشعبي ، معاد للاستعمار وللملكيات الكبرى .

وكجواب على صخب الشعب الذي كان يُخان باستمرار ، وعلى المخاطر التي كانت تتهدد البلاد ، برز التحالف الوطني التحريري . وانتخب هذا التحالف في مؤتمره التأسيسي ، وسط الهتافات العظيمة لشعب يستعيد ثقته ، لويس كارلوس برسنس رئيس شرف له .

وهبت من جديد نسمة من الأمل في جميع الصدور ، وأخذ الخونة يـرتجفـون .

- ٤ -

كان الجمهور الصامت يتدافع داخل مسرح جوان كاتانو. وكان الناس الجالسون وأولئك الذين يتدافعون وقوفاً في الممرات، قد حظوا جميعاً بحظ خارق، يا صدبقتي، لأنهم تمكنوا من دخول القاعة. وكان جمهور يفوق هذا بعدة مرات أيضاً ينتصب واقفاً في ساحَة نيرادنتس، وينتظر، وقد ران عليه الصمت هو أيضاً. وكان هناك أشخاص من كل الألوان: بيض وسود وسمر وخلاسيون. وكان هناك أناس فقراء، ورجال تركوا عملهم المضني في المعمل، وفلاحون قادمون من الضواحي، وجنود وبحارة وطلاب ومثقفون. وكان الجميع يراقبون ما حولهم بصمت. فلقد دعا الشعب فريق من «التينينتس» ومن اليساريين، لحضور حفلة تأسيس حزب سياسي جديد، كان بالأحرى جبهة واسعة من كل أولئك الذين يرغبون في تحرير الوطن والشعب.

وفي داخل القاعة كان يُقرأ على المسرح، بيان الوطنيين التحريريين، وكان صوت الخطيب الواضح، الملتهب، يُدخل الأمل إلى قلوب الجميع.

ومن شهر تشرين الأول سنة ١٩٣٠ إلى شهر آذار سنة ١٩٣٥، كانت الثورة المنتصرة في الظاهر، قد بيعت. وأصبحت الحكومة المركزية لا تعتمد على مؤازرة الرؤساء الثوريين ولا الرجال الذين منحهم الشعب ثقته. ولقد تبخرت جميع الامال التي ازدهرت في سنة ١٩٣٠، عقب الثورة، على أثر البذرة الثورية التي غرسها الطابور عند مروره. وكانت الانتغرالية، المؤيدة من قبل الشرطة، العدوة للشعب، العدوة للحرية وللثقافة، للجمال وللحب، قد أخذت تنتشر كخطر جديد على البلاد، أكثر عنفاً وقبحاً من كل الأخطار السابقة. ولكن في هذه الفترة الخطرة، في هذه الفترة التي كان فيها الخطر يزداد ويتعاظم، كان شعب البرازيل، من الشمال إلى الجنوب، من الشرق إلى

الغرب، من غابات أمازونيا العذراء إلى بامباس الغاووشوس، من الأطلسي إلى نجد ماتوغروسو المركزي، يفكر، يقول ويصرخ باسم واحد: **لويس كارلوس برستس.**

وكان أفراد «التيننتس»، أولئك الذين فهموا المناورات التي كانت تتبع لتصفية الثورة، وأولئك الذين ظلوا أمناء لهدفهم الأعلى ولم يبيعوا أنفسهم للقوى الرجعية، يعمدون، بمؤازرة الغاووشوس الذين كانوا يشعرون بقدوم الخطر الفاشي، إلى خلق جبهة واسعة لتأييد الديمقراطية، إلى خلق قوة سياسية تُبعد عن البرازيل الخطر الفاشي. وكان الشعب يتدافع في مسرح جوان كاتانو، ويفيض على ساحة تيرادنتس وكان الخطيب يقول:

«إن للتحالف الوطني التحريري منهجاً واضح المعالم محدداً. انه يطالب بالغاء الديون الاستعمارية، بتأميم المشاريع الاستعمارية، بالحرية بأوسع مداها، بان يتمتع الشعب بحرية التظاهر، باعطاء اللاتيفنديا إلى الشعب الشغيل الذي بزرعها، بتحرير جميع الطبقات المزارعة المستثمرة بواسطة نظام من الأتاوات الاقطاعية، بالغاء جميع الديوان الزراعية، بالدفاع عن الملكية الصغرى والمتوسطة ضد المرابين، وعدم الاستيلاء عليها بواسطة الرهونات العقارية».

ولدى قراءة كل مطلب، كان البيان يقاطع بعاصفة من التصفيق. فلقد كان هذا البيان يحدّث الشعب عن حاجاته، يحدثه عن مشاكله. ووجد الشعب أخيراً منهجاً لثورته التي كانت قد أُخذت بصورة منهجية. وكان انضمام «النيننتيسمو» إلى أكثر القوى الشعبية وعياً في حركة التحالف الوطني التحريري، يشكل خطوة عظيمة إلى امام. وكان الجمهور يشتعل حماساً لدى قراءة كل مقطع:

«نريد أنْ تُستعمل المبالغ الهائلة التي تذهب من البرازيل لتملأ صناديق السادة الأجانب، لمصلحة الشعب البرازيلي نفسه، ان تستخدم من أجل استثمار ثرواتنا وتطور قوى الانتاج في بلادنا، وان تسمح بتخفيض الضرائب عن كاهل شعبنا النشيط، وان تخفّض اسعار المواد الضرورية للعيش وان

تساعد تجارتنا، وان تزيد في أجور العمال والمستخدمين والموظفين، وان تجعل للضمانات الاجتماعية للشغيلة قوة فعلية، وان تؤمن تصنيع البلاد على مستوى واسع».

وفي وسط وابل من الهتافات، كان كل شعارٍ ينتقل من فمٍ إلى فم، حتى يصل إلى الباب، حيث كان يُستقبل بحماس عظيم. وكان الهتاف والتصفيق يذهبان بعيداً جداً، يذهبان ويزعجان رقاد أولئك الذين تاجروا بالثورة. وكانت الجموع البشرية العظيمة، المتجمعة في ساحة تيرادنتس، تظل صامتة طيلة قراءة البيان في دأخل القاعة، ولكن ما ان تصل إلى مسامعها الشعارات التي كان الخطيب يطلقها، حتى تدب فيها الحركة وتهب لتأييدها. ووصل البيان إلى نهايته:

«اننا نريد وطناً حراً»!.

نعم، نريد وطناً حراً. ومنذ اجيال يناضل الناس في البرازيل من أجل وطنٍ حر. وتحمل الساحة التي يجري فيها الاجتماع اسم واحد من أول المناضلين من أجل الحرية: تيرادنتس، ملازم ميناس، ذلك الذي تعرَّف إلى تعاسة حياة الشعب في ظل نير البلاط البرتغالي، واراد هو أيضاً ان يحرر بلاده، ودفع ثمن حلمه هذا على مشنقةٍ في ريو دي جانيرو. وسال دم الشهيد زارعاً الشجاعة والأمل.

«نريد برازيلَ متحررة من العبودية الاستعمارية»!.

نعم، متحررةً من العبودية الحديثة. ولقد ناضل فلوريانو «والتيننتيستيون» من أجل هذا، مضحين بدمهم وبحياتهم. ومن سنة ١٩٢٢ حتى سنة ١٩٢٤، ناضل «التيننتيستيون» في هذا السبيل مع سيكيرا على شاطىء كوبا كابانا، مع ميغيل كوستا في شوارع سان باولو، مع برستس في بامباس الجنوب، ناضلوا من أجل السبب نفسه، بالرغم من تشوش افكارهم النظري، إذ أنهم كانوا يفتشون ساعتئذ عن طريق الخلاص للبرازيل. لقد اجتازوا البلاد كلها مقاتلين. ثم عادوا إلى الظهور في سنة ١٩٣٠. ومن جديد

عاد رجال السياسة إلى بيع البرازيل وتسليمها إلى السادة الأجانب.

«نريد تحريراً اجتماعياً ووطنياً للشعب البرازيلي»!.

ان هذا هو حلم اليوم وواقع الغد. كان الجمعُ يصرخ، يا صديقتي. لقد انتصب معلناً موافقته، معلناً رغبته في ان يناضل.

ولكن الجمهور بطالب اليوم، وهو يُدعى للعمل، بضمان، يطلب كفالة رجل، كفالة اسم، الاسم الوحيد الذي يمثل ضماناً لأن تكون المناهج والشعارات والوعود حقيقة واقعة. وفي قلب القاعة وفي وسط الساحة، بدأ الجمهورُ يطلق صراخه الحربي:

ـ برستس! برستس! برستس! لويس كارلوس برستس!.

وقال شخص ما، من على المسرح:

ـ نقترح انتخاب اللواء لويس كارلوس برستس رئيس شرف للتحالف الوطني التحريري!.

واستقبل الجمهور المحموم هذا الاقتراح بوابل لا ينقطع من الهتافات. لقد كان واثقاً الآن بان هذا الحزب لن يخان ولن يباع، وبأن منهجه سوف ينفذ، وبأن الثورة التي سيقوم بها ستكون عميقة جذابة. لقد كان الشعب يجد من جديد لواءه، رئيسه، بطله، يسير في مقدمته. وفي شوارع ريو دي جانيرو، بين الجمهور الذي كان يتفرق وقد امتلأ سروراً وحماساً، كان اسم برستس يخفق خفقان قلب الوطن نفسه!.

★ ★ ★

وكان على التحالف الوطني التحريري، الذي تأسس في آذار سنة ١٩٣٥ يا صديقتي، بواسطة بيان وقّعه «التينينتيستيون» واليساريون، ان يتمتع بحياة شرعية في منتهى القصَر، ولكنها ذات أهمية قلّما تعرّف إليها تاريخ البرازيل

السياسي. فخلال الشهور الأربعة من الشرعية، أصبح فيها هذا التحالف أعظم الأحزاب البرازيلية وأكبرها على الإطلاق؛ فلقد استجاب لندائه إلى الاتحاد مليون ونصف مليون من البرازيليين، وتوحدت حول شعاراته جميع أحزاب اليسار السياسية، من الشيوعيين إلى الاشتراكيين إلى الديمقراطيين. واتخذت جماهير اللاحزبيين الواسعة، تلك الجماهير التي ثقفها الطابور، مراكز لها في صفوف التحالف. وحظي بمساندة الكتّاب. وانضمت النساء المناضلات من أجل تحقيق مطالبهن إلى الحركة الكبرى التي يرأسها برسنس. وأنشىء أكثر من خمسمئة مركز للتحالف، في أقل من أربعة أشهر، في جميع انحاء البرازيل؛ وفي أيام التسجيل الأولى، بلغ ضغط الجماهير حداً، في ريّو، لم يتوصل معه المسؤولون إلى تسجيل جميع طلبات الانضمام إلى التحالف. وتسجل خلال بضعة أيام خمسون ألف عضو في ريو دي جانيرو وفي سان باولو، حيث وقف ميغيل كوستا في طليعة الحركة، صفّى التحالف أمر الأنتغرالية، وتحول إلى حزب سياسي قوي بما لا يُقدر. وفي مدينة صغيرة كبتروبوليس، وهي مركز اصطياف، سجل ألفان وخمسمئة شخص اسماءهم فوراً في صفوف التحالف. وكانت قافلة التحالف التي تطوف المنطقة الشمالية ـ الشرقية، والمنطقة الشمالية، تُستقبل استقبال الفاتحين في كل مدينة تجتازها. وكان المثقفون الممثلون لحقيقة مشاعر البلاد، يساندون التحالف بواسطة « نادي الثقافة الحديثة ». وأنشئت الجرائد والمجلات؛ وأخذت الكراسات والكتب تنهمر على كافة انحاء البرازيل. لقد كان التحالف الوطني التحريري يحمل في اردانه الحرية والثقافة. وكان موتاليا يدير « آمانيا »، أكثر جرائد البرازيل شعبية؛ وفي سان باولو كان برازيل جرسون يهتم بجريدة « آبلاثيا »، وكان روبان براغا يشرف في رسيفي على انطلاق جريدة « فوليا دوبوفو » (ورقة الشعب) الشُجاعة العنيفة وأعلن نواب « تيننتيستيون » في ذلك العهد، تأبيدهم لمنهج التحالف. ومنح الثوريون الذين كانوا لا يزالون في الحكم، هذه الحركة عطفهم. وغادر رجال شرفاء عديدون، كانت الديماغوجية الأنتغرالية قد خدعتهم، صفوف حزب بلينيو سلغادو لينضموا إلى صفوف التحالف.

وحمل بيانا برستس، اللذان اذاعهما في ١٣ أيار و ٥ تموز خلال اجتماعا رائعة خالدة، إلى الجماهير، الأمل بمستقبل البرازيل. ان التحالف يقوم بعم سياسي رائع، لا تزال نتائجه ملموسة حتى الآن.

وانطلق الشعار الذي كان يهدف إلى تشكيل حكومة وطنية ـ ثورية، قلب الجماهير نفسها التي انضمت إلى التحالف. انه النتاج الطبيعي للمنهج. مجهودات الرجعية من أجل الاستمرار في الحكم والقيود التي كانت تفرض يوماً بعد يوم على دستور سنة ١٩٣٤، والاحترام الذي كانت تكنّ للأنتغرالية التي كانت تشكل حربة مسلطة على عنق الشعب، والصلة ال كانت تزداد توطداً يوماً بعد يوم بينها وبين مختلف أنواع المستعمرين، الانكليز إلى الألمان إلى الأميركيين، ومناوراتها السياسية التي كانت تزد قذارة باطراد، كل هذا جعل الجماهير لا تؤمن بامكانية تحقيق أقل مطالب بدون تشكيل حكومة جديدة؛ حكومة يرأسها رجل لم ينحن مطلقاً، ر منح حياته للشعب، للنضال من أجل مصالح الشعب: حكومة برستيسية.

لقد كان جيتوليو فارغاس يستند إلى ثالوث فاجع: راوْ، فيلينتو وبلي سلغادو. اللاتيفنديا، الاستعمار والفاشية. وكان منهج الحكومة الشعبية الوط الثوربة هو فعلاً منهج ضد اعداء الشعب هؤلاء. ولقد كان برستس يعد يلي:

«إلغاء وعدم الاعتراف بالديون الأجنبية».

«فضح المعاهدات اللاوطنية المعقودة مع الاستعمار».

«تأميم أهم المصالح العامة والمؤسسات الاستعمارية التي كانت ترفض الخضوع لقوانين الحكومة».

«يوم عمل من ثماني ساعات على الأكثر، ضمانات اجتماعية، منع إلخ...؛ زيادة الأجور على أساس (أجر متساو للعمل المتساوي)، ض الحد الأدنى للأجور، لتحقيق جميع حاجات البروليتاريا».

« النضال ضد ظروف العمل المتحددة من عهد العبودية والاقطاعية » .

« توزيع الأراضي على فقراء الشعب ، من عمال وفلاحين ، واستعمال خزانات المياه في أوقات الجفاف دون أي تعويض للاستعماريين ولا لكبار الملاكين المغرقين في الرجعية ، بما فيهم الكنيسة ، الذين كانوا يناضلون ضد تحرير البرازيل وتحرير شعبهم » .

« إعادة الأراضي المنتزعة بالقوة من الهنود إلى أصحابها » .

« أوسع الحريات الشعبية ، التصفية الكاملة لكل تمييز يتعلق بالجنس أو باللون أو بالقومية ، حرية دينية كاملة وفصل الكنيسة عن الدولة » .

« النضال ضد كل حرب استعمارية ، التعاون الوثيق مع جميع التحالفات الوطنية التحررية في بلاد أميركا اللاتينية الأخرى ، ومع جميع الطبقات والشعوب المضطهدة » .

هذا ما كان ينص عليه منهج حكومة لويس كارلوس برستس يا صديقتي ، وهذا ما كان يعد به الشعب عندما أطلق في اجتماع الخامس من تموز هذا الشعار : « كل السلطة للتحالف الوطني التحريري » .

شعار أضاف إليه الشعب العبارة التالية :

« برئاسة لويس كارلوس برستس » .

★ ★ ★

إن حماس الشعب لحركة التحالف الوطني التحريري ، والقوة التي كانت تنطلق من هذه الحركة ، كانا يحملان على الاعتقاد يا صديقتي ، بان قيام حكومة ثورية شعبية أصبح في حدود الإمكان . ولقد انخفض بصورة مدهشة ، نشاط الانتغرالية المحموم ، الذي وُجد نتيجة للتأييد الحكومي ، ولعدم فضح هذه الحركة بما فيه الكفاية . وقُدّر للانتغرالية ، بعد قيام التحالف ، ان تزول

من على مسرح السياسة في فترة وجيزة جداً. وكانت قوى اليسار و « النبننيستاس » والقوى الديمقراطية، تزداد، يوماً بعد يوم، التفافاً واتحاداً حول التحالف وحول برستس. وكان المغامرون والانتهازيون، الذين يفتشون دوماً عن المكان الذي تهب منه ريح الانتصار، قد بدأوا يضربون صدورهم بوضاعة، ويحاولون التقرب من التحالف. وقد القت حيوية الشعب البرازيلي الثورية، الرعب الكامل في صفوف الرجعية، ولجأت الشرطة إلى استعمال وسائل عنف كانت مجهولة حتى ذلك التاريخ. وكان ذلك العهد هو عهد اغتيال المناضلين الثوريين، اغتيال تجهد الشرطة اليوم في القاء تبعته على المعتقلين السياسيين، وكان عهداً يُعتقل فيه الناس في كل لحظة. ولكن شيئاً من كل هذا لم يكن يستطيع ان يمنع الحركة من التطور والانتشار يوماً بعد يوم: كانت جماهير عظيمة تسهم في الاجتماعات الثورية، وكانت بيانات برستس تنتقل من يد إلى يد، وتقرأ في كل زاوية من زوايا البلاد بتأثر وانفعال. ولم يبق بمقدور اللجنة الوطنية للتحالف ان تؤمن عمل المنظمة المرهق. فخلال أربعة شهور من وجوده الشرعي قام التحالف بالتربية السياسية للجماهير البرازيلية، ولا تزال مظاهر هذه التربية تبرز اليوم أيضاً في القوة التي تقاوم بها الجماهيرُ « الدولة الجديدة » ذات النمط الفاشي. وإذا ما كانت البرازيل لم تُسلمّ إلى الألمان، فان سبب ذلك يعود، بصورة رئيسية، إلى الجماهير التي قاومت ببطولة ارتماء البلاد في احضان الفاشية وتسليمها إلى النازيين. ولقد خلّف التحالف قوة عظيمة ديمقراطية ومعادية للفاشية، عظيمة لدرجة ظلت معها محتفظة بفاعليتهاحتى أثناء السنوات القاسية التي كانت فيها الرجعية المنظمة تسوم الشعب باستمرار سوءاً وفساداً.

ولم يبق الطابور الخامس، هو أيضاً، جامداً. فامام التطور العظيم لقوى التحالف، أمام الحماس الذي كان يؤيد فيه الشعب تشكيل حكومة شعبية تورية، عمدت الحكومة، بواسطة راو، إلى اتخاذ الاجراء الوحيد الذي يمكنه ان يوقف بشكل فعال حركة التحرر الوطني: أعلنت عدم شرعية التحالف الوطني التحريري بمرسوم مؤرخ في ١١ تموز سنة ١٩٣٥. وطُبق « قانون

الأمن» أو «القانون الوحش». وأخذ اعداء الشعب يقاومون أحزاب الشعب، بقاومون إرادة هذا الشعب. ويسجل إعلان عدم شرعية التحالف بداية لنظام خُنقت فيه الحريه بصورة كاملة. وبدأت البلاد تُحكم بصورة دكتاتوربة، وأصبح الدستور شيئاً لا معنى له ولا جدوى منه، بعد تطبيق قانون الأمن؛ فلم يبق له من وجود عملي. وذهبت احتجاجات النواب حول هذا الموضوع ادراج الرياح. ان هذا الجو سوف يزيد في سرعة وقوع الحوادث ويقود الشعب إلى القيام بثورة تشرين الثاني.

★ ★ ★

كان برستس قد دخل إلى البرازيل في شهر نيسان وتوجه مباشرة إلى ريو دي جانيرو. وكما جرى في جميع حوادث تحرير البرازيل الكبرى، كان يقف إلى جانبه بعض الأجانب من أصدقاء الحرية: النائب الألماني السابق آرثور أرنست أيورت، القائد العمالي الارجنتيني رودولفو غيولدي، ليون فاليه، المواطن الأميركي بارون الذي سوف يغتاله رجال شرطة ريو، بدفعه من على شرفة في الطابق الرابع.

وان الحملة التي شُنت حول وجود هؤلاء الثوريين الأجانب، الذين منحوا عونهم حركة تشرين الثاني، كانت حملة تافهة لا تستند إلى أي أساس صحيح. وجهدت الشرطة، ولكن عبثاً، إلى تحويل عطف الشعب، بهذه الوسيلة، عن حركة التحالف، كما لو ان مساندة الأجانب لحركاتنا الوطنية التحررية الكبرى كانت شيئاً جديداً في تاريخ البرازيل! فخلال «الانكونفيدانسيا» كان وجه البرتغالي توماس انطونيو غونزاغا يبرز في صف الرعيل الأول من رجال السياسة. وخلال الاستقلال كان بترو الأول برتغالياً، وكان اللورد كروشان، بطل البرازيل والشيلي، انكليزياً، وكان اللواء لاباتوت فرنسياً. وكان الطلاب البرازيليون الذين حلموا، حوالي سنة ١٧٠٠، بالاستقلال، مرتبطين بالولايات المتحدة. وكان أول زامبي في جمهورية بالمارس، أفريقياً. وكان ليبيرو بادارو ايطالياً، كجيوسبي

غاريبالدي . وفي الطابور ، كان لانـدروسي ، النقيب السابق في الجيش الايطالي ، مساعداً عسكرياً لبرستس . وابان ثورة سنة ١٩٢٤ كان في سان باولو فوج الماني . لمَ كان يتوجب على حركة سنة ١٩٣٥ وحدها ان ترفض مساعدة الأجانب المحبين للحرية ؟ ان منهج الحكومة الوطنية الثورية نفسه كان يتحدث عن إزالة كل الفروق في « الجنس واللون والقومية » . ولم يكن بمقدور اصدقاء الحرية ، والذين ناضلوا من أجلها في بلدان عديدة ، ولا بمقدور القادة الشعبيين ، كالألماني أيورت والارجنتيني غيولدي ، الذين كانوا في البرازيل في ذلك الحين ، إلا ان يمنحوا حركة تحرير الشعب البرازيلي عطفهم ومعونتهم . وان تاريخنا كله ، على اعتباره تاريخاً شعبياً ، قد امتلأت سطوره باسماء الأجانب الذين سكبوا دماءهم إلى جانب دمائنا من أجل الحرية . وان اسماءهم لترتع بالمكان الأقدس من قلوب الشعب إلى جانب اسماء الشهداء البرازيليين . ولن تُنسى غداً كذلك ، يا صديقتي ، اسماء أولئك الذين ناضلوا من أجل حرية البرازيل في سنة ١٩٣٥ . إنهم هم أيضاً أبطال لحرية البرازيل : ايورت ، الذي كان يدعى « برجيه » والذي أعطى أكثر من حياته ، قدم تفكيره كله من أجل خير البرازيل ؛ غيولدي الذي تعذب في السجون القذرة . ان اسمي هذين كليهما قد سجلا في تاريخ البرازيل إلى جانب اسماء غاريبالدي وليبيرو بادارو وجميع أولئك الذين حلموا بالحرية من أجل وطننا ومن أجل شعبنا . انهم منا ، ودمهم قد سكب من أجل خير بلادنا . وان أية مناورة قومية لا يمكنها ان تمنع البرازيليين من المطالبة بتحرير « برجيه » ، ومن منح حبهم شخص رودولفو غيولدي . إن ذكرى هؤلاء جميعاً ، الذين عمدوا إلى مساعدة برستس في عملية تحرير البرازيل ، ستظل محفورة إلى جانب **فارس الأمل** ، بين اسماء أكثر البرازيليين شجاعة وكرامة من بين أولئك الذين ناضلوا وتألموا من أجل الوطن .

وتجمع ألمع ضباط الجيش الشباب ، أولئك الذين رافقوا برستس خلال ملحمة الطابور ، من جديد حوله : كان هناك ألوية من أمثال ميغيل كوستا ، وزعماء كغيليبي موريراليما ، ورجال كانوا قد اسهموا في كل الثورات منذ سنة

١٩٢٢. وكان هناك أيضاً أولئك الذين برزوا، في سنة ١٩٣٠، في طليعة «التينتس». وكان إعداد الثورة يجري وسط أعظم الحماس ووسط تأييد الشعب الحار. وظل التحالف حياً وقوياً رغم جو اللاشرعية الذي كان يعيش فيه.

لقد سبق وقلت لك، يا صديقتي، بأن قليلاً من الناس كانوا يعرفون بوجود برستس في البرازيل. ولكنني قلت لك أيضاً إن الشعب في أيام سنة ١٩٣٥ هذه، كان بمقدوره ان يفهم بأن البطل لم يكن بعيداً. لقد كان اسمه على جميع الشفاه، وكان يُلفظ كاسم الرجل الذي سوف يمنع الوطن من التردي في الدناسة، يمنعه من ان يباع ويخان. لقد كان يسيطر في جميع أنحاء البلاد جوٌّ شبيه بجو العيد: ان البرازيل تتهيأ لصنع مصيرها.

لقد حرك التحالف الوطني التحريري الجماهير الواسعة وقام بالتثقيف السياسي، وأوقد في قلب كل انسان شعلة حب الوطن وحب الشعب. تلك كانت المهمة التي أنجزها التحالف. وانها لمهمة عظيمة لا نزال حتى اليوم نحسّ بآثارها، يا صديقتي. وان أيام الحماسة هذه قد أعطت البرازيل كثيراً من القدرة على المقاومة، من الكرامة من أجل أيام التعاسة والشقاء التي سوف تجتاح البلاد في ما بعد والتي لا تزال مسيطرة حتى الآن. وإذا ما كانت البرازيل، بعد عدة سنوات من ذلك، لم تقدّم، وقد أُوثقت منا اليدان والرجلان، غنيمة باردة لهتلر وموسوليني، فمعظم الفضل في ذلك يعود لحركة التحالف. وإذا ما كانت قد انضمت إلى صف الديمقراطيات، فبفضل التحالف الوطني التحريري جرى هذا الانضمام، يا صديقتي.

- ٥ -

لقد عمل لويس كارلوس برستس، أو بالأحرى انطونيو فيلار البرتغالي، بلا هوادة ولا تلكؤ خلال الفترة السرية للتحالف، يا صديقي. وأخذ الارهاب البوليسي ينشب مخالبه في البلاد؛ ولم تكن الأنتغرالية، وقد دبّ الهلع في صفوفها أمام تصاعد وتطور حركة الشعب الثورية، لتتردد في القيام بأي استفزاز. وكان اعتماد فارغاس على كبار الملاكين وعلى الاستعماريين، يزداد يوماً بعد يوم. وبالرغم من جو اللاشرعية الذي كان يعيش فيه التحالف، لم يتطرق إليه أي ضعف مطلقاً. وكانت حياة البلاد السياسية لا تزال تتركز حوله. وكان يسير بخطى واسعة نحو تشكيل حكومة ثورية شعبية؛ إذ سوف تؤمن له أولُ انتخاباتٍ تجري أكثريةً مطلقة، دون شك.

وحاز التحالف على انتصار كاسح في الكونغرسو، بواسطة نوابه، بتبنيه لمشروع قرار ينص على منع الانتغرالية، باعتبارها حزباً معادياً للديمقراطية. ونال المشروع التحالفي هذا، الموافقة، ولكن فارغاس ووزير عدليته تجاهلاه، لأنهما كانا يعتبران الانتغرالية في ذلك الحين أفضل سند للرجعية. وتهيأت الانتغرالية للقيام بأحط الأعمال: فأخذت تقوم بالتجسس، بالوشاية، بالتخريب، وتنظم مختلف أنواع الاستفزازات. وأخذ الشعب الذي كان قلقه يزداد باطراد، ينادي ويهتف في كل وقت باسم برستس، وأصبح يفكر بحكومة شعبية ثورية تقود البلاد نحو أيام سعيدة.

واستجاب ضباط برسنس لندائه. فإن لواءهم، هذا الرجل الذي توّج، بأكاليل الانتصار، الجيشَ الوطني، بفضلٍ من مآثر الطابور البطولية، هذه العبقرية العسكرية الأميركية، هذا العالم والرجل الشريف، كان يجد بين الرجال الشرفاء، بين العسكريين الذين ظلوا امناء للتقاليد الديمقراطية

والشعبية لجيش فلوريانو وكونستان، انصاراً وأعواناً.

وتوصل الخونة والمباعون إلى خلق أسطورة حول الجيش البرازيلي، يا صديقتي. وكانوا بربدون، بواسطة هذه الأسطورة، ان يبعدوا الجيش عن الشعب. إن الجيش الذي كان دائماً طليعة الحرية بالقياس إلى البرازيل، والذي كان أحسن وأقوى المدافعين عن الشعب، والذي طالما تُوج بأكاليل الغار في ساحات المعارك إلى جانب الشعب في ثوراته، والذي أحيط دوماً بحب الجماهير وكان أكثر الجيوش شعبية في أميركا، لا يمكن ان يُحكم عليه بناء على استثناءات عاطلة. فلقد ولد هذا الجيش من قلب النضال في سبيل الاستقلال، واستنفذ قواه في ساحات المعارك، ورفض ملاحقة العبيد الهاربين، وانشأ الجمهورية مع الايجابيين، وناضل ضد أسياد العبيد، وقام بثورات سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٤، ومشى مع الطابور خلال سيره الملحمي عبر البرازيل، وانتفض ثائراً خلال سنتي ١٩٣٠ و ٩٣٥. انه جيش الديمقراطيين الذي يقف اليوم في وجه المباعين والخونة. انه جيش مانويل رابيلو، الذي امتدح الديمقراطية في قلب «الدولة الجديدة». انه جيش برستس الذي انصت للسجين الساحر الفاتن الذي حوكم بناء على جرم عسكري مزعوم، وحكم ببراءته بشرف وكرامة. ذلك هو الجيش، جيش البرازيل الكبير الحقيقي، صديق الشعب، الذي يقف إلى جانب الشعب ويتمتع باحترام وتقدير هذا الشعب. لا يا صديقتي، لن نُصدر حكماً سريعاً على هذا الجيش الذي يشكل شرف وكرامة الوطن.

وفي سنة ١٩٣٥، أخذ التحالف يجمع صفوفه لخوض معركة الانتخابات، من أجل الاستيلاء على الحكم بالطرق السلمية. ولم تستطع السريّة ان توقف منه النشاط. وكانت مراكز التحالف تتابع انطلاقها، وكانت صحفه والصحف المناصرة لمنهجه تحظى دائماً بأعظم رواج في البلاد. لقد كان اسم برستس امل شعب كامل. وسيطرت موجة من الاضرابات على البلاد، كعلامة للاحتجاج ضد الرجعية. وكان التحالف وبرستس يشكلان علم هذه الاضرابات، هذه الانتفاضة الواسعة، هذا الحماس المتعاظم. وعندما فرّق

الجمهور عدة استعراضات للانتغراليين، بالرغم من حراسة رجال الشرطة الخاصة لها، أصبح هؤلاء لا يملكون الجرأة على الخروج مجدداً إلى الشارع. عندها عمد بلينيو، راو وفيلينتو، إلى القيام بالاستفزازات المعادية للشيوعية، وقاموا، مرة أخرى أيضاً، بحملة قذرة مجردة من الكرامة. ان التحالف هو جبهة واسعة ديمقراطية وثورية. انه «تينيتيسمو» متطور وجد لنفسه قاعدة نظرية ايديولوجية تتآلف مع أكثر القوى الديمقراطية وعياً. ووقفت قوى اليسار، من اشتراكيين وشيوعيين، إلى جانبه. وأبرز تأييدُ هذه القوى، بصورة أفضل، القواعد الديمقراطية للتحالف. وكان الشيوعيون ـ وقد قبل حزبهم بمنهج التحالف ـ يناضلون من أجل سياسة تحرر وطني تتفق تماماً مع منهجهم. إنهم يعملون على تحويل البلاد إلى الدروب الشعبية الثورية. وعمدت الانتغرالية إلى استعمال أقدم الحجج واسخفها. فأخذت تتحدث عن ذهب موسكو، بينما كان الجميع يعرفون بان مالية التحالف مكونة من المال الذي كان فارغاس ـ زمن ولايته على منطقة ريوغراندي ـ قد أرسل به في سنة ١٩٢٩ إلى بوينوس ايرس لمحاولة الحصول على تأييد لويس كارلوس برستس. وأخذوا يكررون باستمرار بان برستس عضو في الحزب الشيوعي وواحد من قادة الأممية الشيوعية. وتناسوا بان الشعب نفسه، الذي هو بطله، هو الذي هتف باسمه كرئيس شرف للتحالف. وتناسوا أيضاً بان التحالف الليبيرالي قد سبق له ان قام، بكل ما يستطيع في سنة ١٩٣٠، لكي يضع على رأس جيوشه الرجل الذي سبق له ان أعلن شيوعيته بشكل سافر. لقد كانوا يتحدثون عن الأممية في وقت كان فيه الشعب البرازيلي يقاتل، جسماً لجسم، العصابات الانتغرالية والبوليسية، المأجورة من الألمان. ويتحدثون عن الأجانب، بينما كان عملاء الانتلجانس سرفيس يعملون في شرطة ريو، وكان عملاء رجال الشرطة أنفسهم «ينخرطون» في الغستابو. كان نازيو الجنوب الألمان هم الذين يتحدثون، بصورة خاصة، عن «الأجانب». وان في هذا لاستفزازٌ دنيء تافه، رفسه الشعب بأقدامه. وتابع التحالف سيره المطمئن نحو الحكم، وسط الحماس الشعبي العارم.

ولكن هذا السير سيتوقف، مع هذا، ليدافع عن مصالح الشعب.

وانظري يا صديقتي ، كيف قامت الحكومة الرجعية في ولاية ريوغراندي دي نورتي ، على أثر الاضراب العام الذي أعلنه عمال ناتال ، بارهاب بلغ الذروة من العنف ، فسرحت الحرس المدني كله ، ذلك الحرس الذي كان ديمقراطياً ، وكانت له صلات وطيدة بالشعب ، وابعدت كذلك رقباء وعرفاء طابور القنّاصة المحلي . عندها حمل الشعب السلاح وقام بثورة شهر تشرين الثاني . وسيطر الثائرون على المدينة وعلى الولاية ، وأخذوا يطالبون ، بواسطة الراديو ، بتأييد التحالف الوطني التحريري وبتأييد برستس . لقد كانوا يأملون أن لا تتخلى عنهم الحركة التحريرية ، وأن لا يتخلى عنهم برستس . واستجابت رئاسة التحالف في الولاية لنداء الثوريين ، وأنشئت حكومة شعبية ثورية . ولم تدم سيطرة هذه الحكومة أكثر من أربعة أيام ، ولكنها أظهرت بصورة واضحة ، مرة جديدة أيضاً ، بان معنى الثورة هو التحرر الوطني . ان حكومة الأيام الأربعة هذه كانت : « شعبية ، وطنية وثورية » . وانحصر عملها كله في نطاق الكلمات الثلاث الوارد ذكرها ، ولم تحد مطلقاً عن هذا النطاق ، فأحاط بها الشعب ومنحها تأييده .

وفي ليل السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ ، أصدر لويس كارلوس برستس الأمر ، في ريو دي جانيرو ، يا صديقتي ، للحاميات العسكرية بان تثور من أجل الدفاع عن الشعب .

- ٦ -

بالرغم من الخيانات، وبالرغم من الاجراءات الاحتياطية التي اتخذتها الحكومة، استجاب الضباط والرقباء والجنود لأوامر لويس كارلوس برستس. ولم تنفجر الثورة في عدد كبير من الوحدات، لأن الضباط كانوا قد اعتقلوا قبل ذلك بقليل، وانقطعت الاتصالات عقب هذه الاعتقالات. وبالرغم من جميع المصاعب، يا صديقتي، أخذ قادة التحالف بين أبديهم أمر الدفاع عن الناس المناضلين في الشمال الشرقي، من أجل قيام حكومة ثورية شعبية. حقاً ان فشل هذه الحركة الثورية المتسرعة سوف يمنح الرجعية قوة جديدة، ولكن لم يكن بمقدور التحالف الوطني التحريري ان لا يهب لمساعدة الشعب، الذي كان يقاتل، والسلاح في يده، من أجل الحرية في المنطقة الشمالية الشرقية. ولم يكن بمقدور برستس، إذا ما كان لا يريد أن يخون الثقة الممنوحة له، ان لا يستجيب لنداء الثوريين في ناتال وريسيفي.

وفي فجر السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٥، ثار النقيب آغلي برتو فييرا دي آزيفيدو في مدرسة الطيران، وحمل هذه الأخيرة على الثورة معه. وفي الوقت نفسه استولى نقيب آخر، اجليدو باراتا، تابع للفيلق الثالث، على قيادة هذا الفيلق في برايافزمليا. وكان يؤازر آغلي برتو ضباط آخرون من المدرسة، كما آزره جميع الرقباء، من تلامذة وجنود.

واستمرت المعركة، يا صديقتي، طيلة ليل وصباح السابع والعشرين من الشهر. ولم تستطع الطائرات الاقلاع لفقدان الوقود، وأحيطت مدرسة الطيران بقوى كان عليها ان تثور. وأحيطت مباني الفيلق الثالث أيضاً، بقوات الحكومة التي أضرمت فيها النار. وفي الساعة الواحدة من بعد الظهر، كانت المعركة قد باءت بالفشل. ولقد ظل ضباط مدرسة الطيران يناضلون

حتى آخر رصاصة ،ثم توجهوا شطر طريق ريو ـ سان باولو ،حيث يقوم مبنى المدرسة. أما ثائرو الفيلق الثالث، فلقد اندفعوا، بصدر عال، وبابتسامة على الشفاه، لمقابلة الألوية الذين سوف يعتقلونهم.

وهناك مشهد، يا صديقتي، يصور لنا حالتهم تلك؛ فلقد مشوا متشابكي الأيدي، والابتسامة تعلو منهم الثغور، نحو الرشاشات المصوبة إليهم. وكان الشعب يستقبل مرورهم بالهتاف والتصفيق. وكانوا يضحكون. إن هذه الثورة التي انتهى بها الأمر إلى الفشل ما كانت إلا بداية لحركة التحرير الوطني. وان حركة «تيننتيستا» كانت قد بدأت، هي أيضاً، في سنة ١٩٢٢، لكي لا تنتصر إلاّ في سنة ١٩٣٠. وكان المتمردون، وقد تشابكت منهم الاذرع وتفتح الوجه وتعرى الصدر، يضحكون، لقد خاطروا بحياتهم من أجل الوطن. وكان اجيلدو، اجيلدو الشجاع، الذي خاطر بحياته ألوف المرات، يسير في طليعتهم.

أريد أن أحدثك، يا صديقتي، عن قائدين عسكريين، عن اجيلدو باراتا، قائد الفيلق الثالث، الذي أصبح أول فيلق في جيش البرازيل الشعبي، وعن آغلي برتو فيبرا دي آزيفيدو، رئيس مدرسة الطيران. إنهما الآن يدفعان ثمن حركتهما الثورية ضد خيانة الوطن، في جزيرة فرناندو دي نورونيا، وهي سجن قذر ضائع في وسط المحيط الأطلسي. لقد كانا قد أسهما في الثورات الأخرى. وكانا، وهما ضابطان يتمتعان بشجاعة وثقافة مهنية عظيمتين، يعرفان أن برستس وحده هو الجدير بقيادة البرازيل نحو مستقبلها العظيم. فانصتا إلى ندائه في ليلة من ليالي ريو واستجابا إليه، ودفعا رجالهما إلى الثورة. وسوف ينقض عليهما الطغاة كالغربان السود، وقد امتلأت نفوسهم حقداً ورعباً. وكان على آغلي برتو أن يُحكم بالسجن سبعاً وعشرين سنة، وكان على آجيلدو ان يحكم بعشر سنوات. ولكن اسميهما، بعد يوم ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ هذا، قد أصبحا خالدين في قلوب الشعب. وفي الساعات الرديئة، في ساعاتُ اليأس والارهاب والشقاء، كان يُهمس باسميهما مع اسم برستس، على اعتبارهما رمزاً للمقاومة والشجاعة والكرامة. لقد

أصبح اجبلدو وآغلي برتو علمين خفاقين، يا صديقتي، إنهما علمان ارسلا تموجاتهما فوق البرازيل في صباح يوم السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ المظفر. وكان برستس، وهو أشبه ما يكون بنجمة سيارة، يلمع فترة فوق رؤوس الناس، قاطعاً الليل ومنيراً سماء الوطن ومظهراً له طريق المستقبل.

- ٧ -

الليل أكثر كثافة الآن منه في أي وقت مضى، يا صديقتي. الرجعية تتحول إلى إرهاب. اولغا تحيط لويس كارلوس بحبها، وتتابع عيناها كزوجةٍ أقل حركاته، بينما ننقّب رجال الشرطة بيأس كل مكان بحثاً عنه. الخطر في منتهى القرب، يا صديقتي. ولكن لويس كارلوس برستس لا يفكر بالهرب، بالهجرة، فهو لا يؤمن أن التورة قد أخفقت. وفي وسط الارهاب البوليسي، يهمس الشعب باسمه ويمنحه ثقته. وتشاهده اولغا يذهب لحضور الاجتماعات السرية، وترافقه إلبها في معظم الأحيان، وقد جعل قلبها يخفق خوفاً على زوجها وعلى الجنين الذي أصبحت تحمله في أحشائها.

وبينما كانت السجون تمتلىء بالنازلين، كان برستس يعيد تنظيم الملاكات الثورية، وترتيب الاتصالات، ويهيّىء من جديد الجنود والضباط والشعب للنضال ضد حكومة الضغط والارهاب. وصرف أياماً كاملة من أجل تحقيق هذه المهمات. وفي هذه الأثناء، كان رؤساء التحالف في السجن، وكان رجال الشرطة قد اعتقلوا القادة الثوريين، وأبعد الضباط، الذين كانوا مثار شبهات الحكومة، عن مراكزهم. وكان برستس يستنفد قواه كلها من أجل سد جميع الثغرات، والحفاظ على الحركة الثورية من الانهيار والتبعثر. وهبّت ريح من الأمل في سماء البلاد. التحالف الوطني التحريري لا يزال موجوداً، وهو يعمل وبضع الخطط. وهناك، في ليل الارهاب هذا، كان رجل لا يرتجف قط ولا ينفك لحظة عن العمل. فهو يحمل مسؤوليات جساماً: انه الرئيس، انه الرجل الذي وضع فيه الشعب ثقته وأمله. ان اياماً سوداً من التعاسة تنقضّ على البلاد وتحيط بها، ولكن الأمل لا يموت، لان برستس لا يزال طليقاً حراً، ولان الشعب يثق به ويعرف بانه، ما دام طليقاً، فان البرازيل ستتابع

النضال من أجل تحررها، وتستعد من أجل تحطيم القيود، والسير قدماً نحو السعادة.

ويحيط طيفُ أولغا، لويس كارلوس، بوابلٍ من حنوه؛ فهو يشجعه، يحرسه بابتسامته، بوجوده وبحبه. والشعب يحيط، هو أيضاً، بلويس كارلوس برستس، يا صديقتي، ويضع أمله فيه. ان شيئاً ما لم يضع ما دام طليقاً. وما دام كذلك، فان صبيحة السابع والعشريـن من شهر تشرين الثاني لن تكون سوى أول شعاعٍ من الفجر الذي سيبزغ قريباً. هذا ما كان يفكر فيه الشعب، يا صديقتي، في الوقت الذي كان الارهاب يسيطر فيه على البرازيل.

- ٨ -

واوقف، يا صديقتي، واقتيد إلى السجن، وعُذب واحتجز وحكم. ولكن، حتى في ذلك الوقت، لم يفقد الشعب لا أمله ولا ثقته. وعلقت عيناه بالسجين العظيم، فهو يعرف أنه الرجل الذي سوف يغير مصير البرازيل. وطيلة جريان الحياة في عروقه، يا صديقتي، ستتابع البرازيل، هي أيضاً، العيش. ستعيش من خلال كرامتها السجينة، من خلال بطولتها المتألمة، وسترسل بالاحتجاجات مدويّة من فمها، أمام المحاكم، حيث تصفع كلماتها القاطعة كالحقيقة، اللاسعة كضربات السياط، جلادي الشعب. ان ايام سنة ١٩٣٥ ليست سوى فجرٍ ليوم الحرية. وانه لقريب، يا صديقتي، ذلك اليوم الذي سيُحطِم فيه هذا السجين سلاسله، سلاسله هو وسلاسل شعبه، ويحمل من جديد الشمس إلى سماء البرازيل، ويضع حداً لليلِ التعاسة. ويعرف الشعب، يا صديقتي، بأن مصير البرازيل لا يمكن ان يُكتب بيد الخونة. ان مصير الوطن مكتوب على يد الشعب، على يد برستس. وعلى هذا الشكل ذاته مكتوب مصير الطغاة، يا زنجيتي. وما دام هو حياً، فالحرية لم تمت بعد، وسوف لن تتأخر طويلاً عن تمزيق حجب الليل الداكنة. هذا ما يفكر فيه الشعب، يا صديقتي، الشعب الذي لا يخطىء أبداً لأنه مزود بعبقرية الشعراء وقوة الأبطال. الحرية هي وراء القضبان، في السجن الذي يُحتجز فيه لويس كارلوس برستس. ولكن سيأتي يوم تحطّم فيه الحريةُ هذه القضبان.

القسم الخامس

فارس الأمل

« نداء إلى العالم! نداء إلى الشعوب!
لننقذ لويس كارلوس برستس! »
« رومان رولان »

- ١ -

إتكئي برأسك على كتفي، يا صديقتي. سأحدثك الآن عن أشياء كئيبة، عن رجال صغار، عن رجال في منتهى الصغر، لدرجة فقدوا معها كل معالم الرجولية ومشاعرها؛ انهم كديدان الأرض، بغيضون، محتقرون، مقيتون وخطرون. سأحدثك عن سنوات السجن والتعذيب وفقدان الكرامة الإنسانية، عن تلك السنوات التي انسكبت على البرازيل كسيل من الوحل. سأحدثك عن الأناس الذين استحموا في هذا الوحل، الذين ملأوا نفوسهم به لكي يقوموا بكل ما يهين ويذل الكائن الانساني. سأحدثك عن أشياء كئيبة، يا صديقتي، عن أناس يجعلوننا نشك بمصير الانسانية، عن أناس يعذّبون، عن أناس مجردين من القلب، وُلدوا من تواصل الديدان بالضواري، واعتمروا بقناع الكائن الإنساني ليس إلا.

لقد اخطأت التعبير، يا صديقتي، عندما قلت بانهم يجعلوننا نشك بمصير الإنسانية. إنهم كانوا قد توصلوا إلى ذلك، يا صديقتي، لو لم ينتصب قبالتهم أناس آخرون، يتحملون جميع أنواع التعذيب التي يفرضونها عليهم: لو لم ينتصب المساجين والمعذبون والشهداء، وقد شعّت نفوسهم بالعظمة والكرامة الإنسانية، والذين بلغت قوتهم المعنوية الذروة من السمو إلى درجة جعلتنا نؤمن، أكثر من أي وقت مضى، بالإنسان، وبمصيره على الأرض.

سأحدثك عن القتلة، يا صديقتي. عن أولئك الذين يقتلون ببرودة وبطء ويتلذذون بجريمتهم. عن أولئك الذين يعذبون، وعن الذين يأمرون بالتعذيب، والذين بهذا وذاك كما لو كانوا في السرير إلى جانب المرأة التي يحبون. سأحدثك أيضاً عن أولئك الذين لم يستطيعوا مقاومة التعذيب وخانوا. وإن هذه لاشياء كئيبة يا صديقتي، مُذِلة، وصغيرة، إنها أشياء

حقيرة كجميع تلك التي لها علاقة بالطغاة وبالعبودية. سأملأ قلبك بالكآبة وأنا أروي لك هذه التعاسات وأصف هذه القذارة.

ولكنني، يا زنجيتي، يا زنجيتي الجميلة، سأحدثك أيضاً عن الرجال الذين تحملوا التعذيب من أجل سعادة شعبهم، الذين ماتوا من أجل هذا الشعب، ومن أجله استلت منهم الروح ببطء في السجون القذرة. سأدلك على الناس الصغار كالديدان، المتعطشين للدماء، الوحوش. ولكنني سأريك أيضاً أناساً في كامل عظمتهم، جبابرة بقلوبهم ونفوسهم، سامين بكراماتهم، انقياء كالنجوم المشعة في الليل، لامعين كالضوء الذي لا يدنسه شيء والذي يبدو دائماً جميلاً رائقاً. إن الناس لم يهبطوا مطلقاً إلى الدرك الذي انحطوا إليه في هذه السنوات، يا صديقتي. ولكنهم لم يكونوا مطلقاً في مثل هذا السمو أيضاً، في مثل هذه العظمة والجمال، لم يكونوا أعظم كرامة وبطولة منهم في هذه السنوات.

إن بغضك للقتلة سيكون شيئاً تافهاً بالقياس إلى الحب والاعجاب اللذين ستمنحينهما هؤلاء الناس. إن هذا البغض لا يُعد شيئاً إلى جانب الحب الذي ستحيطين به أولئك الذين انتصبوا في وسط الدناسة، بقلب نقي لا يلطخه شيء، واخذوا يرسلون شعاعاً عظيماً فوق هذا المستنقع الدنس. وسوف تكرهين الجلادين وتحتقرينهم.

إن حقيقة الناس لا تتكشف عن عرائها مطلقاً كما تتكشف أيام التعاسة، يا صديقتي. فهم يتجردون في مثل هذا الوقت من كل عواطفهم السطحية، ولا يبقى فيهم سوى العميق والجوهري منها. ولن يبقى في ساعة التعاسة، من لويس كارلوس برستس ومن الآخرين الذين سوف أحدثك عنهم أيضاً، سوى عظمتهم وكرامتهم، سوى مجدهم الانساني.

أي زهوٍ عظيم يتملكنا عندما نفكر باننا رجال، وبان لويس كارلوس برستس ورفاقه هم رجال أيضاً! إنهم يشرّفون نوعهم، يشرفون الانسانية.

أحني رأسك على كتفي، يا صديقتي. إنك تشاهدين القمر الاصفر يسبح

في أعالي السماوات، وتشاهدين سفينة سوداء تمخر عباب اليم في الظل الذي يعكسه على سطح الماء. سوف تعلمين، يا زنجيتي، كيف يتغلب الرجال على أيام التعاسة، كيف يستطيعون أن يكونوا سعداء، وأن يسعدوا غيرهم بالمثال الذي يقدمون في ساعة الطغيان والموت والتعذيب. سوف تشاهدين النور يلمع فوق الوحل، يا صديقتي.

من أعالي الهضبة، كانت تتراءى أنوار المدينة. ومن خلال التطريز الذي كانت تنسجه مصابيحها الكهربائية على صفحة البحر الخضراء، حيث يسبح نور القمر الفضي، كانت ريو دي جانيرو تبدو بهية جميلة. وكان صخب المدينة المتموّج ـ صوت ابواق السيارات، صراخ باعة الصحف، عويل صفارات المعامل، ضجيج القاطرات الكهربائية التي تعج بالناس، أصوات الرجال البعيدة، رنين بعيد لضحك امرأة ـ كان صخب المدينة كله يصل إلى مسامع أوغستا. فتوقفت لحظة لتعبُّ النفحة الحية التي كانت ترسل بها إليها ريح المدينة. وكانت أوغستا، بوجهها الغريب الذي لا يكاد يُعرف، والمملوء بآثار الضرب، وبعينيها السوداوين وشعرها المبعثر، تكاد تبتسم. ولكن الرجال دفعوها بقسوة فعاودت صعود الطريق. إنها لم تعد ترى المدينة التي كانت تنتشر في الاسفل تحت عينيها، ولا تسمع الصخب الحي الذي كان يتصاعد من لارغو دا كاريوكا. وبعد هذه اللحظة الوجيزة، التي تمتعت بمشهد الحياة خلالها، غرقت من جديد في واقعها. إنها تجرجر قدميها الآن عبر الطريق الصغيرة الوعرة. وكان الامر صعباً، إذ أنها كانت منهوكة القوى، وكانت كل خطوة تقوم بها تؤجج الآلام المستوطنة جسدها. لقد كان كل شيء يؤلمها، وهي لم تتوقع مطلقاً أن تحس بألم بهذا العمق، بهذا العنف. كل شيء كان يؤلمها، قدماها تبدوان في منتهى الضخامة، وكانت تشعر بأنها قد كبلتا بالسلاسل. وكانت تقوم بمجهود يائس، كما لو أنها ترفع شيئاً في منتهى الثقل. إن سيرها يتباطأ وجسدها كله ينضح بالالم؛ إنها لم تعد ترى لا أنوار المدينة ولا ضوء القمر على البحر، ولم تعد تسمع أي صوت. إن الاحساس الوحيد الذي يطالعها هو ألم جسمها وثقل قدميها اللذين أقلعا عن

الحركة، كما لو كانا من رصاص.

حاولت التقدم من جديد. تقلص وجهها وتحول إلى فرجةٍ مؤلمة. وأخذت الريح تتلاعب بالاسمال التي ترتديها، وشعرت أن قلبها سيتوقف عن الخفقان. وعلى هذا الوجه الخلق، الذي كان لعدة أيام مضت صافياً رائقاً، ارتسمت ابتسامة من سرور. سيضع الموت حداً لكل هذا، إذ انه سيحمل معه راحة رقاد لا ينتهي. حاولت مرة أخرى، ولكن قدميها جامدتان. وكان الالم وحده هو الذي ينتقل في كافة انحاء جسدها، وقد بدا في منتهى قوته. وتقدم رئيس الشرطة. وتقدم الرجال من جديد أيضاً، لقد كانوا من أفراد الشرطة الخاصة. وضربها واحد منهم على كتفيها، ودفعها إلى أمام:

ـ تقدمي!

إنها لم تكن تحسن لغة البلاد، إلا بالقدر الذي تفهم معه الكلمات التي توجه إليها. وقامت بمجهود جديد أعظم من السابق، أعظم كثيراً. فتشعب الالم، حاداً عنيفاً. والتوى جسدها إلى أمام، ولكن قدميها لم تتحركا، وسقطت وهي تضرب الارض بوجهها. وامتلأ فمها، نصف المفتوح، بالوحل والعشب اليابس. وصاح الرئيس قائلاً:

ـ إنها مهزلة تمثل! لتنهض!

فانقض رجال الشرطة على أوغستا وأوسعوها، بقبضاتهم المضمومة، ضرباً على رأسها وكتفيها وخاصرتيها. وكان واحد منهم، أعظمهم قوة، يوجه ضرباته إلى الخاصرتين. وكان آخر يوجهها إلى الردفين. اقترب الرئيس مرة جديدة فأصبح أمامها، ووجه إليها ضربة من قدمه على أم رأسها وهو يقول:

ـ انهضي أيتها العاهرة!

لقد كانت تحسّ بجميع الضربات، ولكنها أصبحت لا ترى جميع الرجال الذين يوجهون هذه الضربات إليها. لقد كانت تحس بالألم يتنقل في جسمها: هنا يجب أن تكون الضربة قد وُجهت إلى الخاصرتين، لـمَ تشعر بهذا الألم العظيم في عنقها؟ ما هو هذا الثقل الذي كانت قد أخذت تنوء تحته فجأة؟

لقد كان يركلها عشرة رجال، يا صديقتي، وكانوا يرمونها بشتائمهم صارخين. أيمكن أن يكون قد وُجد في الاسفل مدينة حية، ورجال يمشون ونسوةٌ يضحكن ويبكين؟ هنا كان يبدو كما لو أننا في عالم آخر: كانت امرأة متمددة على الأرض بينما يمطرها عشرة جنود بوابلٍ من ضربات عصيّ البامبو، بينما كان الرئيس الجامد، الأنيق المبتسم، يسحق وجهها بقدميه المتدثرتين بجزمة ضخمة. وكانت الشتائم والاهانات تعلو فوق الصخب الحي المتصاعد من المدينة.

ـ انهضي!

وطالعت مخيلتها عندها صورة غامضة لما حدث. فلقد استطاع عقلها، بمجهود خارق، التغلب على ألمها: وشعرت بانها تُضرب. وفهمت أيضاً بانه يُطلب منها أن تنهض، وان تواصل السير. وتدلت فوق رأسها قدمٌ ما. ورويداً رويداً، نهضت وانتصبت وسط الضربات، واستجاب جسدها لنداء الارادة اليائس. إنها امرأة قد دب فيها الضعف، يا صديقتي، بل ربما لم يبق فيها من معالم المرأة أي أثر. لم يبق فيها أي أثر من الكائن الانساني، بوجهها المتورم، وجسمها الذي حطمه الالم، وعينيها المحتقنتين بالدماء، ووجهها الذي جوفه الجوع. ومع هذا كانت أوغستا إليز إيورت، امرأة الالماني ايورت الذي يطلقون عليه اسم هاري برجيه، امرأة قوية. أيمكننا أن نتعرف، ولو بعض التعرف، من خلال هذه القطعة الإنسانية، التي كانت تنهض متباطئة وسط مطر من ضربات الهراوات، إلى إمرأة، إلى زهرة من الجنس البشري. لقد كان جسدها الدامي مغطى بثياب قد تمزقت إربا إربا. ولكن كان يخفق في صدرها قلب كبير كالعالم، تستمد منه تلك القوة، التي هي أعظم من الالم، والتي تجعلها تنهض وتمشي. وكانت هذه الطريق الصاعدة لا تنتهي أبداً. وفكرت أنها لن تنتهي مطلقاً، إذ يتوجب لذلك سنون وسنون... وخاطب رئيس الشرطة رجاله الذين ينضحون بالعرق قائلاً، على سبيل الاستنتاج:

ـ ألم أقل لكم أنها مهزلة نُمثل؟

ووجه إليها ضربة أخرى بقدمه، فسقطت من جدبد. لقد كانت تتقدم الآن مجرجرة نفسها على قدميها ويـديها، متسلقـة شجيرات عليّـق كـانـت بالقرب منها. وكان الرجال يتسلون بمداعبة مؤخرتها الهزيلة وهم يتفوهون بكلمات داعرة. وكانوا يضحكون، يضحكون بضجيج، لقد كانوا سعداء، مسروربن، وهم لم يتناولوا أي شراب، بل كانوا يتمتعون بصحة جيدة ويزعمون بانهم رجال، يا صديقتي.

وكانوا يتقدمون على هذا النحو. إنه لطواف كئيب في ليل لا قمر فيه. خاصرتاها.. لم كانتا تؤلمانها بهذا الشكل؟.. في إحدى قرى المانيا، في قرية جميلة، جميلة، كان الناس يضحكون في الشـوارع، يتحـدثـون على مفـارق الطرق، يشربون الجعة. أتعرّفت هذه القرية إلى معالم الوجود في يوم من الايام؟ وأخذت تذكر الصين، حيث عاشت فترة من الزمن؛ لقد كان هذا الشعب اللطيف يحرر نفسه. وذكرت محادثاتها الطويلة الرقيقة الحاشية. لا، لا، إن شيئاً من هذا لم يتعرف إلى الوجود ليس هناك سوى الالم فقط يضاف إليه رجال أقوياء يقومون بالقرب منها، ويقهقهون وهم يسومونها العذاب. وكانت تصعد، بينما أخذت الدماء تسيل من ركبتيها لدى ملامستها لحصى الهضبة. لقد انتُزعت منذ فترة وجيزة من غرفة انفراد قذرة في ثكنة الشرطة الخاصة. كان ذلك في منتصف الليل، ولم يكن من الضروري ايقاظها. ذلك لانها كانت تستيقظ وحدها في كل الليالي، عند حلول ساعة التعذيب، الذي كان يستمر حتى الصباح في كل الليالي على الاطلاق. واستمر هذا الامر أكثر من شهر، وسيستمر أكثر من سنة. وفي كل الليـالي كـانـت تستيقـظ قبـل منتصف الليل بقليل، وتعيش دقائق من الانتظار، دقائق من القلق، أشد قسوه من الساعات التي ستلي، عندمـا يـأتي الرجـال ويعـرونها مـن ثيـابها، وينهالون على جسدها النسائي اللدن بهراواتهم وأقدامهـم المدثـرة بجزمـات ثقيلة. وعندما كانت الشمس تنتصب عالية في كبد السماء، كانت، هي، تفقد الشعور بوطأة الضربات، إذ أنها تكون قد انُتزعت ثلاث مرات أو أربع من وطأة الاغماء، بواسطة الابر، بينما يكون ضاربوها قد كرروا ثلاث

مرات أو أربع مهمتهم الرشيقة ؛ وكانت تُسحب بعد ذلك نحو غرفة انفرادها ، حيث يشاطرها السكنَ الالمُ والجوع والعطش . وكانت ، في هذا اليوم بالذات ، قد استيقظت أبكر من العادة . فقضت فترات انتظار مرعبة . وأخيراً جاؤوا إليها وأمروها أن تخرج . ولكنهم في هذه المرة لم يعرّوها فوراً ، ولم يباشروا فوراً بصربها . لقد توجهوا نحو الهضبة ، خلف الثكنة ، ودفعوها إلى السير في الطريق الصاعدة . وأخذت أوغستا تتصور ، ولكن عبثاً ، ما كان ينتظرها . لقد كانت هذه الهضبة كالجلجلة [1] . وكان هؤلاء الرجال يذكرون أنهم قتلوا فوقها رجلاً آخر في يوم من الايام . وهم الآن يقتادون امرأة : إنها كانت تسحب نفسها ، بينما كانوا هم يتضاحكون ويتمازحون ؛ وامرّ واحد منهم ، أوفرهم خيالاً ، يده فوق ردفيهـا بحركة داعرة . وكانت تصعد ، وقد دميت منها اليدان ، دميت الركبتان ودمي الوجه .

ووصلوا أخيراً ، وشاهدت فوراً فريقاً هائلاً من رجال الشرطة بالالبسة الرسمية ، وقد حمل بعضهم مجارف ورفوشاً . ولكنها لم تشاهد مباشرة زوجها برجيه ، وقد أحاط به رجال الشرطة . لقد كانت تعرف أنه هزيل ، وقد انطبعت عليه علامات الضرب . لقد كان يُعذب أكثر منها ، وكانا أحياناً يعذبان معاً . ولكنها لم تتعرف إليه للوهلة الاولى . لقد كان هاري برجيه كومة من اللحم الدامي . لقد كان بديناً في الماضي ، أما اليوم فكان هزيلاً ، مغطى بمزق من ثياب تتناثر حوله ، وكان مطوياً على نفسه ، إذ أن غرفة انفراده كانت تشكل ثقباً في أسفل سلم الشرطة الخاصة الحديدي ، حيث لم يكن بمقدوره لا أن يقف ولا أن ينام . وكان متورماً لكثرة ما تلقاه من ضربات ، من المستحيل وصفها ؛ إذ أن من غير الممكن وصف حالة إنسان ما ، يا صديقتي ، عندما لا تستطيع امرأته أن تتعرف إليه .

ودُفع بها إلى جانبه . وتحت هذا القناع من الالم ، في هذا الوجه الذي لا شكل له ، اكتشفت أخيراً بعضاً من وجه زوجها . لم يكن قد بقي الآن

(١) Calvaire التلة التي صلب فوقها السيد المسيح ـ المعرّب .

حولها سوى رجال الشرطة الخاصة. وكان مندوبو الشرطة المدنية هناك، وقد جاء رئيسهم نفسه ليشهد هذا الاستجواب الذي يجب أن يكون حاسماً. تقدم نحوها وقال بصوت لطيف:

ـ إننا الآن نعرف كل شيء، من الأفضل أن تقصّي علينا أنت أيضاً ما تعرفين. لن يجديك النكران شيئاً. قولي لنا أين برستس ومن هم الثوريون الآخرون. قولي ما تعرفين. حقاً إننا نعرف الآن كل شيء.

وتبادل الرجل وزوجه النظرات. وقام هاري بمجهود وابتسم. وفهمت هي أن هذه الفجوة المخيفة هي استثارة لشجاعتها وابتسمت هي أيضاً. وتحدثت بالالمانية:

ـ أعُذبت كثيراً؟ وكان في صوتها كثير من الحنو ومن الحب العميق.

وكان على وشك أن يجيب، لولا أن الشرطة لم تدع له الوقت لذلك. واكتشف الرئيس في هذه الجملة اسراراً عظيمة، مؤامرة خطرة. ودون أن ينتظر الرجال إشارة الرئيس، انقضوا على هاري بضربات الهراوات، وجرّوه بعيداً عن امرأته. وأخذ الرئيس يتكلم الآن بصوت لم يبق فيه شيء من الهدوء:

ـ إذن أنت لا تريدين أن تقولي شيئاً؟

وأشار بحركة جانبية إلى رجاله، فبدأ هؤلاء بتجريد هاري وأوغستا من ثيابهما؛ وبدا الاثنان عاريين أمام رجال الشرطة الذين أخذوا يتضاحكون ويمطرون عضوي التناسل لدى الرجال والمرأة بنكاتهم. وأنار القمر المشهد، وحُملت أوغستا، بدافع من ضربات القبضات، على تناول رفش بين يديها. واصدروا إليها الامر بأن تحفر قبراً لزوجها. وتسمّرت أوغستا في مكانها، والرفش في يدها، بينما جعلت الريح الباردة تصفع جسدها العاري. وقال برجيه من بعيد، بالالمانية:

ـ قليلاً ما يهم هذا، يا صديقتي، سوف نموت نحن، ولكن الشعب لن يموت. إنه سيتحرر.

عندها استعادت قواها. ضغطت على الرفش بيديها وبدأت الحفر، بينما كانت الضربات تنهال على زوجها متدافعة متتالية. واستمر الامر كذلك طيلة ساعات. كان جسمها يؤلمها ويريد الاستسلام، ولكن ارادتها كانت أعظم قوة. انتهى الامر. أصدر الرئيس أمره بتشكيل مفرزة تنفيذ الاعدام. ووُضع هاري برجيه، عارياً، أمام الخندق الذي حفرته زوجته. حاولوا تعصيب عينيه ولكنه رفض ذلك. وتشكلت مفرزة الاعدام. وتقدم ملازم من رجال الشرطة لاصدار الاوامر. ولمّا لم يبق سوى اصدار الامر باطلاق النار، قال الرئيس:

ـ لا يزال في الوقت متسع للكلام.

فابتسم برجيه لامرأته، وأشار إليها مودعاً.

ولكن الامر باطلاق النار لم يصدر قط، وزأر الرئيس من الغضب، واصطك فكاه من الكراهية. إن هذين المعتقلين العاريين الهزيلين، اللذين سيما من العذاب أمره، كانا أقوى منه ومن رجاله المختارين من بين أشدّ الجنود وأعظمهم هامة. ما هي تلك القوة التي تعتمل في قلبي هذا الرجل وهذه المرأة؟ ما هي تلك القوة التي تدحر الالم والتهديد بالموت، وتتغلب على ضروب التعذيب كلها؟ وطفح قلب الرئيس بالكراهية. وشعر بوضاعته، وازداد قلبه، من جديد طفوحاً بالكراهية. ولكنه ابتسم لانه لا يزال يملك سلاحا. واصدر الامر باقتياد برجيه، بابعاده عن الخندق. ووُضع بالقرب من اوغستا. وقدّم الرئيس المرأة لرجاله، الذين تقطر الشهوة الحيوانيّة من نظراتهم، ليغتصبوها أمام قرينها. فابتسمت أوغستا لهاري؛ فالشرطة لن تتعرف مطلقاً إلى ما تخفي من أسرار. وأغمضت عينيها، بينما أجبر رجال الشرطة هاري على فتح عينيه ليتابع رؤية المشهد. وانقض رجال الشرطة عليها، وهم يمسكون باعضائهم التناسلية بايديهم، كما لو كان الامر يتعلق باحدى ادوات التعذيب. واختفى القمر خلف احدى الغيوم، لكي يوفر على نفسه رؤية الرجس المتحدر من هذا المشهد. وابتسم الرئيس، ولكنه سرعان ما أخذ يرتجف حقداً، إذ أن هذا التعذيب المشين لم يستطع أن يفتح من

هذين الكائنين فماً. ومن جديد انهالت ضربات الاقدام والقبضات والهراوات ومؤخرات البنادق. وتدحرج الجسدان الداميان، بينما اخفت عويلهما قهقهات الجنود.

لم ينته الشرطيّون من مهمتهم بعد. ها هم يمزقون ثديي أوغستا بضربات السكين. واستداروا نحو هاري يثخنون عضوه التناسلي بالجراح. ومن على هضبة سانتو انطونيو، فوق أراضي الشرطة الخاصة، في ريو دي جانيرو، أخذ الفجر يرسل بأشعته. ومن فم الرجل والمرأة لم تخرج أية كلمة ولم تصدر أية أشارة. نعم، يا صديقتي. وطوال هذا الوقت تقريباً، أرسل القمر بأشعته اللامعة النقية فوق هذا المشهد المخزي، ونظر إلى جلال العظمة في هذا الرجل وهذه المرأة. ومنذ فترة وجيزة، عندما كان رجال الشرطة يمزقون ببطء من أوغستا الثديين بسكاكينهم، ويقطّعون ببطء عضو الرجل التناسلي، كان القمر ينير المشهد. وكان رئيس الشرطة يبتسم، وكان رجال الشرطة يبتسمون. ولكن في قلوب البؤساء التي يحملها هؤلاء، كانت نيران حقدهم تمور أمام العظمة الإنسانية. لقد كان هذا الرجل وهذه المرأة يفوقانهم قوة.

وقال أحد الشرطيين الآن:

ـ يا للألمانيين اللعينين!

وعندما أغرق الجلاد نصل سكينه في صدر المرأة، فجّر منها رأس الثدي، الذي انطلق أحمر كورقة من تُويج زهرة. وسال الدم على هضبة سانتو انطونيو. وانبثق الصباح في وسط الآلام.

- ٣ -

« استطيع أن أؤكد أن جميع المعتقلين قد عوملوا بطيبة حتى الآن... »
« جيرتوليو فارغاس »
(من خطاب ألقاه في ١٢ أيار سنة ١٩٣٦)

وأصيب هاري برجيه، النائب الالماني السابق، بالجنون. إن كائناً بشرياً ما لم يُسم العذاب كما سِيمَ هذا الرجل. فلقد نبش من أجله رجال الشرطة، «من بساتينهم التعذيبية»، أنواعاً من التعذيبات مخزية: تعذيبات جسدية وأخرى معنوية. لقد حدثتك عن ليلة واحدة، ولكن هناك ليال لا تحصى تتابعت الواحدة تلو الاخرى. فبعد أن احتجز هذا الرجل في الطبقة السفلى لسُلم الشرطة الخاصة، حيث لم يكن بمقدوره أن يتنفس، أن يقف أو يتمدد، كان يتعرض كل يوم لمختلف أنواع التعذيب. فلقد انتزعت منه الاظافر بالكلابات، وسُحق منه عضو التناسل بالكماشات. وأمام رؤيته لزوجته تعذب أمام عينيه، تُغتصب من قبل رجال الشرطة، يقطّع منها النهدان، فَقَدَ الصواب. لقد كان هذا رجلاً مجبولاً من فولاذ وشرف. وخلدت شهرة هذا الالماني بين الشرطة، يا صديقتي. وحتى الجلاوزة الذين قاموا بتعذيبه لا يزالون يتحدثون عنه اليوم أيضاً باحترام، كانسان تثبت معتقداته أمام جميع تجارب الآلام. لقد كانوا يريدونه أن يتكلم. وساموه كل ما يمكن تصوره من ضروب العذاب، عذاب لن يخطر أقسى منه على بال أي مخلوق دون شك. ولكن لا فمه، ولا فم زوجته اللدن، الذي قدم ضحية على مذبح غريزة رجال الشرطة الحيوانية، انفتحا ليتلفظا باي حرف. وبعد العذاب الذي استهدفت إليه في البرازيل، ذهبت اوغستا أليز لتموت في ألمانيا. وفقَدَ برجيه، الرجل القوي العظيم المقاومة، خلال بضعة شهور، ثلاثين كيلوغراماً

من وزنه، ثم فَقَدَ الصواب. ويستعمله رجال الشرطة اليوم كوسيلة من وسائل تعذيب برستس، الذي وضع في غرفة انفراد مجاورة لغرفته. ويتحدث برجيه ليل نهار، ويضرب الجدران برأسه بصورة مستمرة. إنه الكائن الانساني الوحيد الذي يحس برستس بوجوده إلى قربه. فتصوري عمق الالم، يا صديقتي، الذي يعتمل في قرارة نفسه من جراء ذلك.

إن كل ما يستطيع رجل تحوّل إلى حيوان مفترس أن يخترع من أجل التعذيب، قد جرب على هاري برجيه وزوجته: إلهاب المؤخرة بشمعة مشتعلة، ادخال الدبابيس بين الاظافر والاصابع، اطفاء لفافات التبغ على الظهر، تحطيم عضو التناسل وكان ينهمر فوقها هذيان داعر.

لقد اختير الجلادون من بين أكثر المجرمين اغراقاً في الاجرام، من الرؤساء إلى أحط الجواسيس، من رجل محكمة الامن إلى المحققين. واننا لنشعر بقرف عظيم إذا ما أردنا التلفظ باسمائهم. إنهم يشكلون سُبة للجنس البشري، بذاءة حية، إنهم حيوانات يتجلببون مسوح الرجال، انهم تأكل العفونة، وتفوح منهم روائح المراحيض الآسنة.

وحلّ، قذارة، بذاءة، تعاسة، جراح منقيحة، لحم مصاب بالبرص، صديد الجراح، قيء وبصاق، عفونة انسانية، نفاية المواخير، تلك هي الصفات التي تليق بهذه الحثالة من الناس. وإنه لأفضل، يا صديقتي، أن نملأ فمنا بالقذارة، من أن نتلفظ باحد أسماء هذه الديدان التي تحمل قلب الوحوش، والتي ألقي بها على البرازيل لتكون مسبّة ومذلة للوطن. إنهم لقتلة! قتلة باردو الاعصاب، جبناء، بهائم ومنحطون. وإن أوسخ كلمة وأقذر عبارة، تشكلان شيئاً لطيف الوقع وقصيدة غنائية بالقياس إلى اسمائهم المتعفنة!

كان في ريو تلميذ يانكيّ [٢]، اعتقدت الشرطة انه يعرف مكان برستس، يا صديقتي، وكانت كل الدلائل تشير إلى انه لا يعرف شيئاً. ولكن الشرطة

(٢) اميركي.

استنفذت معه جميع وسائل « بستان تعذيباتها ». وعُقدت الوف الـ « سيسوس اسبيربناس »[٣] لكي تنتزع منه اسم الشارع الذي يقوم فيه بيت برسس، ورقم هذا البيت. وتحمل فكتور ألان بارون، الطالب اليانكي، ببطولة، جميع أنواع العذاب. وشعر رجال الشرطة البرازيلية بوضاعتهم بعض الشيء أمام عملاء الأنتليجنس سرفيس وأفراد الغستابو، الذين كانوا يتعاونون معهم في ريو دي جانيرو. عندها هرعوا إلى طلب معونة أحد مشاهير الاطباء[٤] « النكنيكية ». وحاول هذا أن يقاوم ما كان يطلب إليه القيام به، ولكن ضغط رجال الشرطة، والوعود التي مُنحها، ما لبثا أن سيطرا عليه؛ فوافق على الاشراف على التعذيب الذي استهدف إليه فكتور ألان بارون. وحُقن هذا الاخير، مراراً عدة، بـ « مصل الحقيقة ». وهوجمت اعصابه بواسطة مؤثرات كياوية عنيفة، وأعطي كمية من المنبهات، كما أعطي مواد تخديرية. ولكن بارون لم يكن بتكلم. وكان يُحقق معه ليل نهار عقب إبر الطبيب. ولكن بارون كان قد فقد القدرة على الابصار وعلى السماع؛ لقد كان، وقد حطمه التعب والالم، لا يريد إلا أن بنام. ولكن التحقيق لم يكن يتوقف، بل كان يستمر أياماً وليالي كاملة، دون توقف، بينما كانت الإبر تتتابع. ولم يكن يقدم إليه أي طعام، ولا أي شراب، ولم يكن يمنح دقيقة للرقاد، ولا ثانية من الراحة. ورغم ذلك لم يتكلم. ولكن كان بالشرطة حاجة إليه، فاستمرت في تعذيبه. وعندما كان بارون يكاد يفقد الوعي بصورة كاملة، كان بعطى شراباً قوياً، علّ الكحول تحل عقدة لسانه. ووخز بابر الانسولين، ولكنه ظل صامتاً. واقلعت الشرطة الحانقة عن إستعمال وسائل الطبيب، وعادت إلى ضربات الأقدام حتى ازهقت من الطالب الروح وألقي بجسده بعد ذلك، من الطابق الثالث من مبنى الشرطة المركزية، وقيل للصحافة أن الطالب الاميركي قد انتحر، كما لو كان بمقدور رجل محاط

---

(٣) Sessoes espiritas تعني حرفياً: جلسات مناجاة الأرواح، وكان رجال الشرطة يطلقون هذا الاسم على جلسات تعذيب المعتقلين خلال التحقيق.

(٤) هو الدكتور بونتس دي ميراندا، الذي انتابه الندم بعد فترة وجيزة من مصرع فكتور الان بارون، فانتحر.

برجال الشرطة ومحتجز في غرفة انفراد ، أن ينتحر . وانتحر الطبيب الذي رضي أن يكون مستشاراً للشرطة ، وساعدها في تعذيب فكنور ألان بارون بواسطة العلم ، تحت وطأة الندم الذي انتابه : لقد أطلق على رأسه رصاصة من مسدس ، يا صديقتي ، لكي يوفر على عينيه الرؤية المتواصلة ، ليل نهار ، لجسد الشاب الدامي ، الجائع العطش ، الذي عذبه ، ذلك الجسد الذي حقنه بالمنبهات أو المسكنات حسب الحاجة . أما الجلادون الآخرون فلم ينتحروا . لقد كانوا معتادين على هذا النوع من العمل .

كان خيرة رجال البرازيل محتجزين في السجن . ولما أصبحت السجون تغص بمن فيها ، حوّلت أكبر بواخر أسطول لويد برازيليوس ، « بدرو الاول » ، إلى سجن ، في وسط خليج غوانابارا . كما تحولت معامل مهجورة في سان باولو إلى سجون سياسية فاجعة الصيت ، كسجن « ماريازيليا » . كل هذه قد تحولت إلى سجون كانت تجري فيها ضروب من تعذيب لا يمكن وصفه ، وكان الجوع فيها رفيق المساجين الوحيد ، إذ لم يكن هؤلاء يجدون من طعام سوى الضرب المبرح ، الذي كانوا يتعرضون إليه في كل الايام . وعلى ظهر « بدرو الاول » ، وفي أماكن التأديب ، وفي الاصلاحية ، وفي ثكنات الشرطة العسكرية والشرطة الخاصة ، وفي قاعات سجن الشرطة المدنية ، كانت جنبات الناس مسودة من رفس الاقدام ، ومؤخراتهم محروقة بقناديل الاسيتيلين ، وكانت أظافرهم منتزعة . وكان بعضهم قد ألقي به في السجن بعد خروجه مباشرة من غرفة العمليات ، وسيم العذاب فوراً . وكان هناك مسلولون وآخرون على وشك الاصابة بهذا الداء . لقد كان هؤلاء الناس يمثلون ، يا صديقتي ، ألمع رجال الادب والعلم والجيش والبحرية في البرازيل . وكان معهم الوف من العمال ، من الفلاحين ، من الجنود ومن البحارة ، ومن أجل اساتذة الجامعة ، الذين طُردوا بمرسوم من على كراسيهم الجامعية ، التي لم يصلوا إليها إلا بعد اجتياز مسابقات في منتهى الصعوبة ؛ وكان هناك كتّاب واسعو الشهرة ، وضباط جيش وبحرية ، وأطباء ، ومهندسون ، وكهنة ، وطلاب ، وموظفون ومستخدمو مصارف . ولقد تكدسوا بعضهم فوق بعض

دون أن يتمتعوا باي حق، ولو مهما كان، فيما عدا حق الاستهداف للضرب والتعذيب. وكانوا يرقدون على الأرض دون دثار، وينامون مئتين في قاعة لا تتسع لسوى خمسين شخصاً.

وفي ليل التعاسة الطويل، الذي سيطر على البرازيل، لم تكن السجون سوى اداة انتقام سياسي وشخصي للشرطة وللفاشيين. وبالقياس إلى البعض، كانت السجون كذلك وسيلة للعيش وللاغتناء. فلقد القي بالعديد من الاغنياء في السجن دونما سبب؛ وعقب ذلك كانت عائلاتهم تتلقى زيارات رجال شرطةٍ كانوا يقترحون عليها، باسم رؤسائهم، دفع مبالغ عظيمة من المال مقابل تحرير المساجين. ودخل بذلك كثير من المال صناديق «المدافعين عن المدنية». وملأ رجال الشرطة القاعات في بيوتهم بالاثاث المسلوب من بيوت المعتقلين السياسيين. وإذا ما كان العذاب والضرب المبرح، عديداً لا يُحصى، فان السرقات لم تكن بأقل من ذلك عدداً، يا صديقتي.

إنني لا أريد أن أحدثك عن الحياة في السجون، يا صديقتي، إذ ان القمر سوف يختفي قبل أن أروي لك جزءاً ضئيلاً مما يحدث، من اجرام البعض وبطولة الآخرين. وإنها لرواية طويلة ومؤلمة، بائسة وبطولية، تلك التي سوف يكتبها، حول هذا الموضوع، شخص ما في يوم من الايام دون شك. وعلى أحد أولئك الكتّاب العديدين، الذين ألقي بهم في قاعات قريبة من تلك الغرف التي سيم فيها العمال والجنود والبحارة مختلف أنواع التعذيب، أن يكتب هذه القصة. في وسط الليل كانوا يوقظون الكتاب المعتقلين لكي يستطيعوا سماع صراخ الالم الذي يصعّده رفاقهم المعذبون. وكان هؤلاء الكتاب يشاهدون، في كثير من الاحيان، أناساً يذهبون إلى التعذيب بنظرة كئيبة إنما حازمة. وكانوا يرونهم عائدين بعد ذلك، يجرجرهم رجال الشرطة خلفهم، وقد اسودت منهم الاجسام من أثر الضرب، وتكسرت الاذرع، وتمزق الوجه، وألصق الدم ثيابهم بأجسادهم. ولقد عاش هذا المشهدَ كثيرٌ من الشعراء والروائيين والصحافيين والعلماء. وشاهد آخرون أيضاً أشياء أشد فظاعة؛ فلقد اقتيد غراسيليانو رواموس، أعظم روائيي البرازيل إطلاقاً، من

ألاغواس، على أثر وشاية أحد الانتغراليين. وفي رسيفي واجهه نيوتن كافالكنتي بالشتيمة. ومن هناك حُمل على باخرة امتلأت بمجرمي الحق العام، بقتلة، بلصوص ولوطيين. ومن ريو أرسل به إلى كولونيادواس ريوس، حيث كان المعتقلون السياسيون ينوءون تحت وطأة الاشغال الشاقة، ووطأة سياط رجال الشرطة المخمورين.

سوف يكتب إنسان ما الملحمة الفاجعة لسنوات التعذيب هذه، لهذه الليالي من الارهاب، من الضرب المبرح اليومي، ويتحدث عن الشهداء: عن يومان الارجنتيني، عن النقيب جوزيه أوغستو دي ميديروس، عن الجنديين ابغوار مارتينس وجوزيه أونييروس اللذين ماتا في داوس ريوس، عن الرقيب فيغا، عن العريف جوفر ألونسودا كُوستا، عن البحار مونتيرردادروشا، عن السائق جوان مانويل رابيلو، عن التاجر كارلوس زوديو، عن الطالب اليانكي بارون، عن الجوّال الكوبي سيلفيو كابريرا الذي أوقفه رجال الشرطة عن متابعة السفر لانهم كانوا يعتقدونه عميل اتصال مع الثوريين. وإن ذلك الذي سوف يكتب الملحمة الفاجعة لهذه السنوات من التعذيب، سوف يتحدث عن أولئك الذين خرجوا منها مشوهين ومرضى، وينظم لائحة هائلة بالاسماء. سوف يتحدث عن بطولة رودولفو غيولدي وعن شجاعة كارمن غيولدي، وعن الكائنين الخارقين العظيمين برجيه واوغسنا ـ إليز. سوف يتحدث عن مولاريس ـ، ذلك الوجه العظيم، ـ عن النساء السجينات اللواتي استهدفن للعذاب، عن النواب الذين انتزعوا بقسوة من على كراسيهم في مجلس النواب، عن عضو مجلس الشيوخ الذي أهين وضُرب في السجن. سوف يتحدث عن «الجد»، عن مرتّب شحنات السفن في مارينياون، البالغ من العمر أربعاً وتسعين سنة، عن غلمان المدرسة العسكرية، الذين كانوا يذهبون إلى التعذيب والابتسامة تعلو منهم الثغور. سوف يتحدث عن ديو نيليو ماشادو، الكاتب الكبير، عن اجيلدو وعن اغليبرتو؛ عن الناس الذين أعلنوا أعظم اضرابات الجوع، والذين لم يستسلموا مطلقاً.

سوف يتحدث عن كولونيا دواس ريوس؛ عن المرض والالم. سوف

يتحدث عن فرناندو دي نورونبا، عن السجن المحاط بالبحر. سوف يتحدث عن ثكنة الشرطة الخاصة، بغرفة التعذيب التي تقوم فيها، عن قاعات المعتقلين في مبنى الشرطة المركزية، عن أولئك الذين ماتوا، وأولئك الذين فقدوا الصحة، عن المشلولين، عن العجزة وعن المسلولين.

سوف يروي قصة الليالي التي كان يتصاعد من أرجائها عويل المعذبين ويندفع نحو البحر، ويذكر العويل الذي كان يغطي ضجيج المدينة وصخبها. سوف يتحدث عن ليل الارهاب الهائل، حيث كانت الحرية والثقافة والكرامة والجهالات، مهانة من قبل حكومات البرازيل، تلك الحكومات التي قذفت المساجين بجلادين سفلة، ديدان أرض وحيوانات مفترسة. وعندها سيعرف الشعب كل شيء. ومن الواجب أن لا يتطرق الشك إلى أي انسان حول هذا الموضوع، يا صديقتي. سيأتي يوم يرتعب العالم فيه من رواية هذه الجرائم.

- ٤ -

لقد كانت الشرطة تتمتّع بجميع الحقوق، يا صديقتي، في ليل الإرهاب هذا، في هذا الليل الهائل، الآسن هواؤه. إن أحداً لم يكن ليستطيع أن ينبس ببنت شفة؛ فالشرطة تتمتع بجميع الحقوق، ولا يتمع الشعب باي حق. وفي وسط صمت البيوت المخبف، كان الناس يعلقون على جرائم الحكومة بصوت منخفض. وكانت تهيمن على البلاد نفحة من التعاسة. وكان انتحاب المعذبين، وحشرجة الوف المحتضرين في السجون القذرة، تملأ الهواء.

لم تكن هذه السنوات مملوءة إلا بالجرائم والهمجية. وكانت أيضاً سنوات تعاسة وسخافة. وهي تعني: ثقافة مداسة بالاقدام، أدباً محرماً، فناً مقتصراً على المواضيع الدينية. وكانت الشرطة تبحث عن لويس كارلوس برستس بشكل محموم. ولكنها كانت تبحث كذلك بالتكالب نفسه عن كاتبين برازيليين، أحدهما شاعر والآخر روائي، وعن محرض أجنبي مخيف كان بودها لو تعامله معاملتها لغيولدي وبارون. وكان الشاعر هو كاسترو ألفيس، الذي قال حوالى سنة ١٨٦٨: «الحرية لا تموت» و: «إن أثمار العالم هي لجميع الناس». وكان من المستحيل على رجال الشرطة أن تجد هذا الشاعر، لانه كان قد مات في سنة ١٨٧١، وهو في الرابعة والعشرين من عمره. ولكن الشرطة لم تكن تعرف شيئاً من هذا. ووضع أحد عملائها اسمه في رأس لائحة اسماء المشبوهين الذين يتوجب توقيفهم. وكان الروائي هو راوول بومبيا، الفلوريانستي المملوء حماساً في عهد الجمهورية الاول، والذي انتحر في مطلع القرن، عندما شاهد انتصار قوى الرجعية وقوى أسياد العبيد. أما المحرض الاجنبي الذي كانت الشرطة تهيّىء له مصيراً شبيهاً بمصير برجبه، إذا ما اعتقلته، فلم يكن سوى فكتور هيغو الذي ألف، حسب

نظرها ، كتاباً منطرفاً بعنوان « البؤساء » ، هاجم فيه بعنف أمثال فيليتو وراو وغيرهم . وكان يتأجج في قلب الشرطة حقد شخصي على هذا الرجل... آه! لو كان بمقدورها أن تجده فقط...

وحدث في ليل الارهاب هذا ، في هذا الليل من السخافة ، أن قام واحد من انشط واذكى نواب الاكثرية الحكومية يطالب في مجلس النواب بالقاء القبض فوراً على نقيب في فرقة الهندسة ، بسبب احدى الصفحات التي كتبها . وكان هذا الرجل هو النقيب أوكليددا كونيا ، الكاتب الشهير الذي خطت يراعه كتاباً كلاسيكياً رائعاً ، هو أعظم كتب البرازيل على الاطلاق ، يدعى : « أوس سرتاوس » . ولم تكن الشرطة هي وحدها التي تجهل العصر الذي عاش فيه كبار الكتاب الوطنيين والاجانب . فالمثقفون الرجعيون انفسهم كانوا يجهلون ، هم أيضاً ، بأن أوكليددا كونيا قد اغتيل قبل سنوات عديدة من ذلك التاريخ .

إنه لليل من الرعب والسخافة ، ليل من الظلم ، ذلك الذي كان يغلف البرازيل بأردانه . وكان الجو هو جو المراحيض الحيوانية . ولكن الأمل كان ينبض بالحياة دائماً ، ولم تكن الحرية قد ماتت ، كما سبق للشاعر أن قال ولُوحِقَ من أجل هذا القول . إن الحرية سجينة ، إنها محتجزة في سجون البرازيل . إنها سجينة مع لويس كارلوس برستس في غرفة انفراده المفتقرة إلى الهواء والضوء . ولكن عيون البرازيل كلها معلقة في غرفة الانفراد هذه ، حيث يحتجز **فارس الأمل** . وستخرج الحرية أعظم جمالاً ، يا صديقتي ..

- ٥ -

في أحد بيوت الضواحي، تقدمت أولغا نحو زوجها وجلست بالقرب منه. صمتُ الشارع الهادىء، ينسلّ من خلال النافذة نصف المفتوحة. القمر يرسل أشعة شعرية، وتتعالى من بعيد انغام موسيقى يعزفها العشاق تحت نوافذ معشوقاتهم. وطالعت ثغرَ اولغا ابتسامة كئيبة بينما حفل قلبها بالتنبؤات. وكان لويس كارلوس برستس يعمل، كان يكتب وهو منكب على أوراقه. تطلعت اولغا عن كثب إلى البريق العظيم الذي ترسله عيناه. إنها تعرف ما يعتمل في نفسه من أفكار: إن شيئاً ما لم يضع. فبالرغم من التوقيفات، من التعذيب، من الرجعية التي افلتت من عقالها، يحلم الشعب بالحرية ويريد النضال من أجل تحقيق مطاليبه. كثير من الرفاق سقطوا صرعى واغتالت الشرطة عدداً كبيراً منهم، وعُذب آخرون بقسوة. ولكن الملاكات تتجدد فوراً، ويخلق الشعب باستمرار قادة جدداً أو أدلاء جدداً. ويعمل لويس كارلوس برستس، الزعيم، اللواء، الدليل وأمل الشعب، بصورة لا تعرف الكلل، وقد انكب على طاولة تعج بالأوراق.

وطرق شخص ما الباب طرقات معينة. نهضت أولغا لتفتح. دخل الرفيق وقدم الورقة التي يحمل، ثم عاد لتوه من حيث أتى. ومن الباب المفتوح تسلل الصوت المنشد فجأة عبر البيت؛ إنها قطعة غزلٍ جديدة تتجاوب اصداؤها في القاعة الفقيرة:

«إنني لا أبتهل إلا إلى الله...

وبالرغم من ذلك لا يُستجاب ابتهالي دائماً»...

أنصتت اولغا. إن هذه هي «سامبا» تمخض بها أحد معتَقلي الحق العام في

كولونيا دواس ريوس. إن هذه الموسيقى المملوءة بالكآبة واليأس اللامتناهي، تطفح بـألم الانسانية كلها، وبعذاباتها. وانقبض قلب اولغا. إن احساسها ينبىء بشر. ومع هذا فلقد كانت تريد اليوم أن تكون سعيدة. ولديها لذلك أسبابها. انقبض قلبها وتنبأ احساسها بحدوث شر. انكب برستس على الأوراق التي حملها إليه الزائر، وأخذ يجيب عن التحارير، يرسل الأوامر، يفتش عن اتصالات جديدة، بنظم صلات جديدة، يسيّر جهاز نضال الشعب كله. إن الناس يأملون فيه، وهو لم يخيب مطلقاً أمل شعبه.

وعندما انتهى من العمل، أمسك بيد اولغا الجالسة إلى جانبه، وقد امتلأت عيناه المشتعلتان بالحنو، وطفح قلبه حباً:

ـ ألا تشعرين بتعب؟ هيا ارقدي، فإنه لا يزال لدي ما أقوم به... هيا ارتاحي..

ولكن لديها ما يجب أن تقوله.. لقد كان بودها أن تكون بمنتهى الحبور، أن لا تدع أحاسيس الشر هذه تضغط على قلبها الزوجي بيد ثقيلة.

ـ لدي ما أريد أن اطلعك عليه..

ابتسم!

ـ قولي.

فأحنت رأسها على كتفه:

ـ سيكون لدينا ولد...

لمع بريق من السرور في عيني الرجل، وتشابكت الأيدي، والتقى الثغران بقبلة من السعادة لطيفة. ولد... في اوقات الكآبة والنضال هذه، في هذا الوقت الذي تحيط فيه زوجها بكل حنانها... وظلا لحظة صامتين؛ وإنه لجميل هذا الصمت الذي يغرقان خلاله في تفكير طويل يتمخض بتأكيد جديد: إن ولداً ستتفتح براعمه من حبهما.

ومن فجوة النافذة نصف المفتوحة، تسلل الصوت المنشد للسامبا الكئيبة، من جديد، كالرسالة. وشعرت اولغا فجأة بأن شراً ما سينشب مخالبه فيهما. فضغطت بنفسها على زوجها وأفضت إليه بمخاوفها فابتسم:

ـ لا تخافي... إن أي شر لن يحدث لنا الآن.. سيكون لدينا ولد...

فأجابت اولغا:

ـ بنت.

وامتلأ البيت مجدداً بالسعادة. أيكون الولد صبياً أم بنتاً؟ وتناقشا ضاحكين. ثم غادرها ليعاود العمل. وبينما كان على وشك الجلوس سارعت نحوه واحتضنته. كانت السامبا قد توقفت. وشعرت اولغا برعشة خوف تستبد بجسمها.

وسُمعت طرقات عنيفة على الباب. ودخل رجال يبلغ عددهم الخمسين، المئة، يحملون بنادق رشاشة صوبوا احداها نحو صدر برستس. وغطت اولغا زوجها بجسدها، وقدمت قلبها لفوهة البندقية.

في كوبا كابانا كان قد وصل بهم المطاف إلى بيت فارغ؛ وكان برستس قد توارى عن الأنظار. ولكن عملاء الانتليجنس سرفيس والغستابو الأجانب، الذين كانوا قد اكتشفوا بيت برستس، عادوا إلى العمل من جديد. وكانت شرطة ريو قد اعلنت عجزها عن العثور على برستس، ولم يأتها قتلها لبارون وتعذيبها لبرجيه وتقطيعها لثديي اوغستا ـ اليز، بأية نتيجة. ولم يفدها شيئاً قتلها للبحارة، للعمال وللجنود. ولكن أحد العملاء الأجانب جاء في أحد الايام، مع هذا، يحمل النبأ السعيد: لقد اكتشف الشارع الذي يسكنه برستس. ولم يبق عليه الآن سوى تحديد المنزل. وهيأت الشرطة المركزية والشرطة الخاصة نفسها لذلك تماماً ـ كما لو كان الأمر يتعلق بحملة تأديبية. فتسلح الوف الرجال بالبنادق الرشاشة، وعُبئت جميع قوات الشرطة الخاصة والقوى الحاضرة لـ «منظمة الأمن العام الاجتماعي»

أيضاً. وطُوق الشارع تطويقاً كاملاً، وسط الدهشة العظيمة لضاحية مايــر. ثم اعتقل كل من كان يحاول المرور أو اجتياز حاجز الشرطة. وكان يمكن أن يقال إنها الحرب، إنه هجوم يشن على مدينة معادية. ولم يخطر ببال أي انسان أن الأمر لا يتعدى اعتقال أحد الأشخاص. ولقد تلقى الرجل الذي أولج إليه أمر قيادة الحملة، التعليمات الملحة التالية من الرئيس: «اقتله عند ظهور أول بادرة مقاومة منه». لقد كانوا على ثقة أن برستس سوف يقاوم؛ وإنها لعمري طريقة فُضلى للتخلص منه. وإذا ما صدف أن لم يقاوم، فعليهم أن يقتلوه في الطريق، ويذاع في ما بعد أنه حاول الفرار. فلقــد كــان للــرئيس مصلحة خاصة في قتله، إذ أن لويس كارلوس برستس كان قد طرده، قبل عدة سنوات من الطابور، بسببٍ من جبن وخيانة.

وأخذ رجال الشرطة، وهم يزرعون الرعب في العائلات وينتهكون حرمة البيوت، ينقبون الحي منزلاً منزلاً، إلى أن وجدوا الشقة التي كان فيها برستس واولغا يتحدثان عن الولد الذي سوف يولد. إن أحد الشرطيين يصوب بندقيته الآن نحو صدر برستس، ولكن اولغا دافعت عن زوجها بصدرها. وأحيط ببرستس واعتقل، ولكن اولغا لم تدعه ولم تترك ذراعه دقيقة واحدة. وتبعتها الخادمة الهرمة، جوليا دوس سانتوس، واعتُقلت هي أيضاً. وفشلت مهمة الشرطة الأولى، إذ أنه لم تبدر عن برستس أية مقاومة. سوف يحاولون قتله الآن، خلال سيرهم باتجاه مباني الشرطة. وحاولوا فصل الزوج عن المرأة، واقتيـادهما في سيـارتين مختلفتين. السيـارات هنـا. صعـد برستس احداها: إنه هنا سوف يُقتل. ولكن اولغا لم تتخل عنه: إنها تعرف تماماً ما يبيته رجال الشرطة. حاول هؤلاء فصلها بالعنف، ولكنهم فشلوا. الحب أقوى من كل شيء في العالم، يا صديقتي. ليس بمقدور أي شيء، أي انسان أن ينتزع، أن يفصل اولغا عن زوجها. واستبد الغضب بالمفتشين. إنهم لن يستطيعوا تنفيذ أوامر رئيسهم الحازمة. إنهم لن يستطيعـوا قتـل لـويس كارلوس برستس في الخفاء. لقد جربوا كل شيء من أجل فصل اولغا عن زوجها، ولكن جميع جهودهم ذهبت ادراج الرياح.

فالحب يمنح هذه المرأة الضعيفة، التي يدب في احشائها جنين يتلمس طريقه نحو النور، قوى هائلة. وضغطت بنفسها على لويس كارلوس، إن شيئاً ما لا يستطيع فصلها مطلقاً. وهكذا، يا صديقي، في تلك الليلة من آذار سنة ١٩٣٦، انقذت اولغا بيناريو برستس، من أجل شعب البرازيل، حياة لويس كارلوس برستس: في ليلة اعتقاله، في االيلة نفسها التي قالت له فيها إنها سينجبان ولداً. وعندما تنطفىء آخر نجوم سماء البرازيل في هذه الليلة، تكون الحرية والديمقراطية والثقافة والجمال والحب، قد كبّلت منها الأيدي والأقدام، وأودعت السجن. في هذه الليلة لم تسمح اولغا بقتل الأمل بالحرية، بالديمقراطية، بالثقافة، بالجمال وبالحب في البرازيل. وحمت، بجسدها النسائي الضعيف، مستقبل الوطن نفسه، يا صديقي.

- ٦ -

لم يستطع رجال الشرطة فصل اولغا عن زوجها، وايداعه إحدى غرف الانتظار، إلا في مقر الشرطة المركزية، حيث لم يكن من الممكن قتله دون أن تروع البلاد بكاملها بالنبأ.

وفي هذه الليلة، صوبت البنادق الرشاشة نحو صدور المعتقلين السياسيين في القاعات التي احتجزوا فيها. واستدعي جميع الجلاوزة على عجل لحراسة الممرات. لقد كانت الحكومة تكره برستس، يا صديقتي. وكان كرهها يزداد لمعرفتها أن مجرد وجوده يعرض الجهاز البوليسي كله لهزؤ ساخر، مع كون هذا الجهاز هو الأول من نوعه في البلاد. كانت الحكومة تخاف برستس خوفها من الموت. واستبد برجال الشرطة رعب أعظم، لدى رؤيتهم له يصل حياً كانوا على أحر من الجمر انتظاراً لنبأ مصرعه «الذي نتج عن محاولته الهرب أو مقاومته للاعتقال». وكان الرئيس قد اصدر الأمر سلفاً بتهيئة بلاغ للصحف حول هذا الأمر. ولكن رجال الشرطة كانوا يرتجفون الآن من الرعب. فلقد مر بينهم برستس، الذي لم يبق بمقدوره ابداء مقاومة ما، وهو يرميهم بنظرة هي خلاصة الاحتقار. وهيئت قاعة للاستجواب على عجل. وكان الشرطيون يراقبون الرجل الهزيل الهادىء، المحاط بهامات رجال الشرطة الخاصة الطويلة. لقد كانوا يعرفون أن شعب البلاد يعيش وقد علقت منه النفس بشفتي هذا الرجل، بانتظار ما سوف يقول، بانتظار ما سوف يعمل. يعرفون أن صورته في داخلية البلاد، في السرتونات، تحاط بالشموع كصور القديسين، وأن الفلاحين يحتفظون بالأشياء التي سبق له أن لمسها، احتفاظهم بآثار مقدسة ثمينة. وكانوا يشعرون أنهم باعتقالهم له إنما يعتقلون شعباً كاملاً. وكانوا يتطلعون إليه من بعيد والخوف يملأ منهم

النفوس. أما هو، فكان يتقدم هادئاً صافي النظرة. وكذلك بدا أمام النائب العام والمدعي الجنائي اللذين سارعا إلى الحضور. وأعلن أمامهما أن على عاتقه وحده تقع مسؤولية تظاهرة الخامس من تموز، ومسؤولية التحالف الوطني التحريري، و «كل مسؤولية سياسية» تترتب عن حركة تشرين الثاني الثورية، إن في ريو أو في المنطقة الشمالية الشرقية، وأمام رجال الشرطة الممتلئين رعباً، جاهر بمعتقده الوطني. لقد تحدث عن هدفه الأعلى، عن حاجات الشعب البرازيلي.

ودبت الحركة من جديد في جهاز الشرطة كله، عندما أصبح من الواجب اقتياده إلى أحد سجون الشرطة الخاصة الآسنة. وستبدأ، من الآن فصاعداً مرحلة استشهاده الطويلة. ولكن سوف تبدأ في الوقت نفسه أروع مراحل حياته، تلك التي سوف ترقى به إلى جانب أعظم وجوه الانسانية. وأعلنت الحكومة، منذ اعتقال برستس، «حالة الحرب»، واختفت آخر مظاهر الشرعية في البلاد. وغلّف الظلام البرازيل. ولم يبق الآن، يا صديقتي، سوى الأمل الذي يلمع لمعان الشمعات التي تنير صورة البطل في بيوت المنطقة الشمالية الشرقية الفقيرة.

وفي السجن القذر الذي ألقي فيه، كان على برستس أن يقضي أكثر من عامٍ دون أن يتلفظ بأية كلمة أمام أي انسان. ولم يكن بمقدور أي شخص آخر أن يثبت أمام التجربة الرهيبة لسنوات السجن هذه، يا صديقتي، التي تمتد من سنة ١٩٣٦ حتى يومنا الحاضر.

وفي الطابق السفلي لسلم مبنى الشرطة المركزية، حيث احتُجز برجيه، كان هذا يعامَل ككلب كلِب. وأمام غرفة انفراد برستس، قام رجلٌ لم يكن يوجه إليه أية عبارة، ولم تكن له من مهمةٍ سوى الإنصات إلى ما يقوله برستس وتسجيله كلمة كلمة، ثم حمله إلى رئيس الشرطة فيلينتو مولر.

إن برستس، وهو الذي لا يستطيع التحدث إلى أي انسان، ولا يصله أي نبأ عن زوجه الحامل المعتقلة، والذي لا يشاهد سوى الجاسوس الموكل إليه

أمر مراقبته، كان لا يستطيع أن يقرأ لا صحيفة ولا كتاباً، ولم يكن يملك أي شيء يمكنه من الكتابة، بل ولم يكن يستطيع حتى أن يتلقى التحارير التي كانت ترسلها له والدته. ولم تكن تُقطع عزلته في غرفة سجنه الصغيرة، حيث لا هواء يدخل ولا نور يتسرب، إلا عند هبوط الظلام، عندما كان يأتي رجال الشرطة ويفتحون باب غرفة الانفراد، ويسمحون له بالتنزه في رواق نصبت في طرفه الرشاشات. وما يكاد يخرج، حتى يبدأ الشرطيون بجلد المعتقلين السياسيين، من أصدقائه ورفاقه، أمام عينيه. فيُحضرون البحارة المطرودين من الاسطول بسبب من ثوريتهم، ويحرقون منهم، أمامه، المؤخرات بقناديل الاسيتيلين. لقد كانوا يعرفون أن برستس سوف يلقي بنفسه عليهم. فكانوا يتلذذون بمنعه من ذلك، وبالقائه من جديد في غرفة انفراده، حيث ما كان ليستطيع إلا أن يسمع العويل وزفرات الألم التي كان يصعدها المعذبون. وكان الشرطيون يردون على احتجاجاته بالشتائم والقهقهات. ولقد جُن برجبه في طبقة سلم سفلى. وكانوا يريدون أن يدفعوا لويس كارلوس برستس إلى الجنون. كانوا يريدون أن يزهقوا منه الروح ببطء، وأن يحطموا مقاومته الجسدية والروحية، لقد كانوا يريدون تصفية أمر البطل، ذلك لأنه ما دام حياً، فإن الطمأنينة لن تدخل نفوس الطغاة مطلقاً.

وظل في معتقل الشرطة الخاصة من سنة ١٩٣٦ حتى سنة ١٩٣٧، ومن ثم نُقل إلى كورساو، حيث كانت تنتظره تجارب أخرى مرعبة. وكان يمضّي أيامه دون أن يرى انساناً، دون أن يتحدث بكلمةٍ إلى أي انسان، دون قراءة أو كتابة، ودون أن يعرف أي شيء عن العالم أو عن أعز الناس إليه. ما الذي كان يجري لامرأته؟ لقد كانت تحمل في احشائها كائناً بشرياً. إلى أي شيء كانت تتعرض؟ وأمه البعيدة عن الوطن، ما الذي كان يجري لها؟ وأي استشهاد كان يتعرض إليه شعبه، وما الذي كان يجري له؟ لقد كانت أيامه مملوءة بهذه الأفكار المرعبة، وبعزلةٍ هائلة، وبعدم استقرارٍ حول كل الأمور.

وعند هبوط الظلام، كان يشاهد رجـال الشرطـة الوحـوش يحرقـون، يقطعون ويجلدون الأجساد البشرية، يعذبون البحارة والعمال والمثقفين الذين ارادوا، مثله، أن يحرروا البرازيل.

وعندما تعاودكِ الذكرى الدنسة لثكنة الشرطة الخاصة هذه. يا صديقتي، إياك أن توجهي إليها نظرة خالية من حقد. ولتمتلىء عيناك أيضاً بالمودة والحنان. ففي هذه الثكنة برهن البطل أنه جدير بقيادة شعبه، أهلٌ لأن يكون في طليعة الناس المناضلين من أجل تحررهم. وهناك تألم من أجل أهله وأنصاره، وقدم إلينا درساً في البطولة؛ وهناك ازداد هذا الجبار نمواً في غمرة من احترام الناس وتقديرهم. وفي ثكنة الشرطة الخاصة هذه، لم يبق برستس، العبقرية والبطل فقط، بل أصبح حصناً معنوياً يصمد أمام مختلف أشكال الألم، لم يكن ليهن منه العزم مطلقاً، ولو مهما كان العذاب الذي يتعرض إليه. لقد ظل هو نفسه. إنه واحد من أبطال هذا العصر: إنه أعظم وجه في اميركا الحديثة.

وقد استندت الدعاوي التي أقيمت عليه إلى وثائق مزورة، إلى شهود مأجورين، إلى شهاداتِ خونة، يؤازرهم في ذلك قضاة في محكمة دنسة: محكمة الأمن. ولم يكن هؤلاء بقضاة، يا صديقتي: لقد كانوا رجال شرطة يتجلببون بحلة القضاة لكي يدنسوا، إلى ما لا نهاية، العدالة البرازيلية.

ووجهت إليه كذلك تهمة «الهرب من الجندية». وحل موعد النظر في هذه الدعوى، في يوم من الايام. وعقدت الجلسة لا في ردهة محكمة، بل في إحدى قاعات الشرطة الخاصة. وكان برستس قد بُرىء من هذا الجرم الخيـالي نفسه في آب سنة ١٩٣٦. ولم يكن قد حضر المحاكمة، لأن البـوليس كـان قد أعلن أمام المحكمة أن الأمر يتعلق بمجرم «من الصعب احضاره ولو محروساً». وطعنت الحكومة، هكذا بمنتهى البساطة، بقرار البراءة، وكسرته، وأصبح العسكريون الذين أصدروه في عداد المشتبه بهم. وكان بانتظاره الآن في إحدى قاعات المحكمة الخاصة، قضاة عسكريـون آخـرون، مـن أجـل محاكمته من جديد. وقامت «المحكمة» المرتجلة على مسـافـة لا تتجـاوز

خمسين خطوة من غرفة انفراده. ووصل برستس محاطاً بالشرطة المسلحة بالبنادق الرشاشة والقنابل المسيلة للدموع. إنه في تمام الهدوء، وقد اعتمر وجهه بصفاء تام. وكان هزاله ينبيء بالآلام التي لا يمكن وصفها، والتي كان يكابدها في السجن منذ ما يقرب من عام. وخاطبه رئيس المحكمة بقوله:

ـ بمقدورك أن تجلس، أيها النقيب.

فأجاب برستس:

ـ إنني هكذا في خير حال.

وظل وافقاً محاطاً بعشرات الشرطيين.

وأحاطه الزعيم فاريا جونيور، وهو واحد من قضاته، علماً، أن المحكمة، بمقتضى القانون، تمنحه حقاً واسعاً في الدفاع عن نفسه، وأن بمقدوره أن يختار وكيل دفاع إذا أراد.

فابتسم برستس وقال:

ـ ولكنني أكاد لا أعرف بم يتعلق الأمر...

ـ عليك أن تجيب عن أسئلة هيئة المحاكمة.

ـ كيف يمكنني أن أجيب، ما دمت منذ سنة مفصولاً عن العالم، ومعزولاً تماماً وسط هذا الارهاب البوليسي؟ عليَّ قبل أن ابدأ باختيار وكيلي، أن أعرف، على الأقل، ما هي التهمة الموجهة إلي.

فقال له أحد القضاة إنه متهم بجرم الفرار من الجندية، بموجب المادة ١١٧ من قانون الجزاء العسكري. ثم قيل له إن قرار براءته الصادر في آب سنة ١٩٣٦ قد كُسر.

فقال برستس وهو يرسل بإشارة هزؤ:

ـ إنكم لا تجهلون وضعي. كيف أستطيع الدفاع عن نفسي ما دمت معزولاً عن العالم تماماً؟ فأنا منذ ثلاث عشرة سنة بعيد عن الحياة العسكرية. وإنني أعرف أن عديداً من التعديلات قد طرأت على القانون خلال هذه الفترة، وعليّ أن الم بها، على الأقل، لأستطيع الدفاع عن نفسي.

فأعلن أحد القضاة أنه لم يطرأ على القانون أية تعديلات. ولكن المدعي العام قاطعه ليقول إن برستس على حق: فلقد طرأت تعديلات على القانون خلال هذه الفترة. ثم أضاف أن من الواجب رفع الجلسة، وأن على المحكمة أن تضع أمام برستس جميع الوسائل الضرورية التي تمكنه من تهيئة دفاعه. وتحدث برستس عن وضعه، عن وضع البلاد، وعن جميع أولئك الذين يدافعون عن الحرية في البرازيل.

وعادوا به إلى غرفة انفراده. وضاعف رجال الشرطة من وحشيتهم، عقب هذا الانتصار، وعادوا إلى اقتياد المعتقلين إلى أمام غرفة انفراده، وإلى تعذيبهم هناك. ولكي تنتقم الحكومة لنفسها من دعوى محاولة الفرار هذه، التي لم تستطع أن تصدر بواسطتها أي حكم على برستس، هيأت دعوى جديدة تتعلق بجرم سياسي وكُلفت محكمة الأمن بتنظيمها.

محكمة الأمن.. لكي أصف لك بكلمة واحدة هذه المحكمة، يا صديقتي، يكفيك أن تعرفي أن قضاتها ما كانوا يصدرون أحكامهم حسب الأدلة المقدمة إليهم، بل حسب وجدانهم فقط، كما لو كانوا يملكون وجدانا... ولم يكن هؤلاء القضاة المرتجلون سوى دمىً بائسة يحركها رجال الشرطة في الاتجاه الذي يريدون. وكانت الأحكام التي تصدرها محكمة الأمن، يُرسِل بها إليها فيلينتو مولر مقدماً. وكان بعض المعتقلين يعرفون سلفاً سنوات السجن التي سيحكمون بها، إذ كان يحلو احياناً للمحققين أن يتحدثوا، فيرسلوا بالتعليقات الساخرة تترى في ممرات باحة مبنى الشرطة. على هذا الشكل كانت تعمل محكمة الأمن.

واقتيد برستس. في كانون الثاني سنة ١٩٣٧، إلى مواجهة راوول

ماشادو، وهو كاتب فاشل وشاعر عاطل، يكره كل من يتمتع بشهرة ما، لم يكن هو جديراً بالحصول عليها. وهو، بصفته خادماً للطغاة، كان المدني الوحيد الذي يستطيع أن يتقبل مذلة الحصول على مركز قاض في محكمة الأمن. وجاء لمقابلة برستس. وكان كاتب المحكمة هو نفسه الذي استمع إلى برستس إبّان التحقيق، وكذلك كان الأمر في ما يتعلق بالمدعي العام، واستُبدل براوول ماشادو. واستمع إليه القاضي، كما جرى اثناء الاستنطاق، في إحدى قاعات الشرطة. ما الفرق إذن بين المحكمة والشرطة؟ ومُنِحَ برستس ثلاثة أيام من أجل تنظيم دفاعه، لكي يقدم حججه ويدرسها مع وكيله: إنها لوحشية، يا صديقتي، إن لم تكن مهزلة! إن هذا المتهم لم يشاهد وكيله، وهو لن يشاهده، فوق ذلك، إلا بعد فترة طويلة من انتهاء محاكمته. إنه لا يملك قلماً للكتابة؛ ولا يستطيع أن يتصل بأي مخلوق، ولا يعرف بالضبط التهمة الموجهة إليه، ويتمتع بثلاثة أيام من أجل تنظيم دفاعه، ورفض برستس أن يسهم بهذه المهزلة الفاجعة.

وطردت الشرطة بعنف وكيله الذي حاول الاتصال به. ومع هذا كانت الحكومة تريد أن يعتقد العالم أن محاكمته جرت بصورة شرعية.. والحال، كانت هذه المحاكمة أكثر استبداداً وأعظم وقاحة من محاكمة ديميتروف في ليبزغ. وجرى هذا في أميركا الحرة.. في أميركا الحرة حيث يُسام الظلم شعبٌ متعطش للحرية.

وقضت محكمة الأمن الوطني بسجنه. ست عشرة سنة وثمانية أشهر. وكان هذا قليلاً بالنظر للخوف الذي كان برستس يوحيه للحكومة. وفي ما بعد، ستقضي عليه الحكومة بالسجن ثلاثين سنة أخرى، إثر محاكمة ثانية.

إن عيون البرازيل تتطلع نحو هذا الرجل الذي يُسام العذاب في ثكنة الشرطة المركزية؛ إنه لا يعرف شيئاً عن زوجته: أأنجبت الولد الذي كانت تنتظر؟ ولا عن أمه التي تناضل في الخارج من أجل حريته. وهو لا يعرف شيئاً عما يجري في العالم، ولا يستطيع القراءة، ولا مشاهدة أي انسان. وهو يتحدث وحده بصوت مرتفع في غرفة انفراده، كي لا تغيب من ذاكرته

معالم الصوت الانساني. ولم تكن تصل إلى مسامعه سوى صراخات المعذبين. إنه يشاهد كل يوم أناساً يُسامون من العذاب ضروباً مختلفة. ولكنه يقاوم كل هذا، يا صديقتي، فهو يمثل شعباً بكامله. وهو، وقد ترعرع وتغذى وتربّى وسط مطالب الشعب، يتمتع بالقوة التي تهبها له الحرية التي يتقمصها. وهو يقاوم جميع الآلام. ويتعاظم وجهه يوماً بعد يوم، وينتصب، رحباً واسعاً فوق البرازيل. إنه الأمل، يا صديقتي.

- ٧ -

شاع الخبر في مبدأ الأمر، يا صديقتي، في قاعة النساء. وانطلق بعد ذلك إلى ديتنسون، ومن هناك تسرّب إلى كوريسون: سوف يُحضرون اولغا بيناريو برستس، امرأة لويس كارلوس بـرستس. ودخـل رجـال الشرطـة القاعة: وكان رومانو يترأس المفتشين. ورفضت أولغا ان تخرج.

إنها، وقد اعتقلت منذ ستة أشهر، لم تكن تعرف شيئاً عن زوجها. ولقد جعلها انفصالها عنه، هي والجنين الذي يتوثب حياةً في أحشائها، تفقد أقل أمل في المستقبل. وها هم الآن يأتون لاقتيادها. ولقد استطاعت في السجن ان تنال، على الأقل، عطف رفاقها في الحظ العاثر. وكان هناك إلى جانبها العديد من قرينات المعتقلين: أوجينيا ألفارو موريرا، روزا ميريْلس وكثيرات غيرها. وكانت أوغستا اليز إيورت قد اقتيدت هي أيضاً إلى المكان نفسه. وكانت النساء يشاهدنها تستيقظ في منتصف الليل، في الساعات نفسها التي كانت تُسام خلالها العذاب لدى الشرطة الخاصة. فكانت تستيقظ وتأخذ في النشج والانتحاب. وكانت أوغستا تعرف أن تعذيب هاري يبدأ في مثل هذا الوقت، فيقتاد من المكان الذي يجرجر فيه ما تبقّى من حياته، في أسفل الدرج، ليُعبث به كأداة لهو للشرطيين السفلة. وحُملت أوغستا اليز في أحد الأيام من المكان المحتجزة فيه. وشاهد النسوة رفيقتهن تذهب بوجه مشوّه، وقد انقلب منها الجسم، الجسم الجميل، إلى كتلة لا شكل لها على أثر ما استهدفت له من تعذيب. ولم يُعرف بعد ذلك عنها إلا القليل الغامض، المنبىء بانها نُقلت إلى المانيا حيث ماتت فور وصولها. وها هو دور أولغا يحين الآن.

وعبـأت كـارمـن غيـولـدي النسـاء. ونقـل هـؤلاء الخبر إلى المعتقلين

السياسيين، وسرعان ما انطلقت الاحتجاجات. ألوف من الرجال المعتقلين في الكوريسون وفي الديتنسون كانوا يصرخون ويحنجون وكانوا يرسلون بصراخهم عبر قضبان غرف انفرادهم الحديدية نحو الشارع. ولقد كانوا يتوقعون لأولغا ان تُنفى، وان يرسل بها إلى المانيا النازية. لقد اكسبها اقترانها، برجل برازيلي، الجنسيّة البرازيلية: هكذا يقول القانون. ولكن ما الذي يعنيه القانون بالقياس إلى الطغاة، يا صديقتي؟ وواصل المعتقلون احتجاجاتهم، ورفضت أولغا مغادرة السرير. انها لا تكاد تستطيع المشي، فلقد أثقل خطاها الحمل، هذا الحمل الذي أمضي في السجن، والذي قاست خلاله الامرّين. وقد تحطم منها القلب، من فقدان المعونة الطبية ومن عدم العناية، ومن طعام أقل من أن ينعت بالافتقار إلى المواد الغذائية. وقال لها الشرطة عند ذلك ان بودهم نقلها إلى احدى العيادات، إلى مستشفى توليد لتضع فيه. ومنذ الساعة التاسعة مساء كان الصراخ ما ينفكّ يتعالى من السجون. وقد تعطل السير في الشارع. وفي الساعة الثالثة صباحاً وافقت الشرطة على ان يرافق أولغا طبيب معتقل، وامرأة، معتقلة هي أيضاً. وسرعان ما تبين ان الأمر لا يعدو كونه مهزلة. فما كاد الثلاثة يخرجون من الكوريسون، حتى احتُجز الطبيب والمرأة في إحدى سيارات السجن وأُرسل بها إلى الشرطة المركزية، بينما اقتيدت أولغا إلى إحدى البواخر المسافرة إلى المانيا.

وحرمت حتى من التعزّي برؤية زوجها. بل ولم يسمح لها حتى بتوجيه رسالة وداع إليه. وألقي بها في قعر السفينة، سفينة الشحن الالمانية. وسافرت، وهي في شهرها الثامن من الحمل، وقد تمددت في زاوية ما، في قعر السفينة، قذرة ومحرومة من التعرّف إلى يد التنظيف، ولو لمرة، ولم يكن بمقدورها ان تتنشق ولو القليل من الهواء النقي. وكانت اهتزازات السفينة ـ سفينة شحن صغيرة في بحر هائج ـ تحملها على القيء. واضطرت، وهي المريضة الحامل، ان ترقد على قيئها طيلة الأيام الثلاثين من سفرها. وكانت قد خرجت من أيدي دمى فيلينتو لتقع في أيدي دُمى هملر.

ولم يكن بالامكان اتهام أولغا، التي أوقفت منذ سنة ١٩٣٦، بأية جريمة، حتى ولا باحدى تلك الجرائم السياسية التي كانت مخيلة رجال الشرطة البرازيلية، مع هذا، تنسج خيوطها بمنتهى السهولة. فلقد كانت أولغا امرأة متزوجة تهتم بكنها الزوجي وتحيط قرينها بعناياتها وتهبه مباهج حبها وعطفها. وهي، فوق ذلك، كانت تحمل في احشائها حياة انسانية، جنيناً هو نتاج حبها للويس كارلوس برستس. وانها، وأيم الحق، لمشكلة بالقياس إلى أسياد البلاد، يا صديقتي!.

إن هده المرأة لمن أرق وأحن وأشجع الزوجات يا صديقتي وهي لم ترتكب أية جريمة، حتى ولا بنظر القوانين المصنوعة من أجل معاقبة الناس الذين حملوا السلاح، في سنة ١٩٣٥، من أجل الدفاع عن الشعب ضد طغيان السلطات. وكان حرياً بهذه المرأة، في برازيل حرة، ان تشكل صورة رائعة من صور الطبيعة، تستدرّ حنان الشعب الذي كان يتابع مطالبته بالحرية لبرستس، ولقد أرسل بها إلى ألمانيا على متن سفينة شحن كانت تقلع من أحد المرافىء البرازيلية وتتجه مباشرة نحو مرفأ الماني؛ ولم تكن الحكومة تخشى شعب البرازيل فقط، بل كانت تخاف أيضاً شعوب العالم الأخرى.

ولم يستطع الطغاة ان يكتشفوا أية تهمة بمقدورهم إلصاقها بها. ولكن أولغا، يا صديقتي، كانت قد ارتكبت جريمة هائلة، جريمة لا تغتفر بنظر هؤلاء الأشخاص: جريمة الحب. وأنا أعرف، كما تعرفين انت أيضاً يا صديقتي، ان لا شيء أروع ولا أجمل من الحب. والحب حين تتفتح براعمه في نفوسنا، هو الشمس، هو السماء، هو اكتشاف كل الاشياء التي لم يسبق لنا ان أحسسنا بوجودها، هو الجمال في أروع بهائه: هو اكتشاف ضوء القمر في ليالي الصيف، والربيع الذي يخفق بين الأغصان ويتصاعد من الأرض، اكتشاف الأزهار والشعر والحنان. وانت تعرفين جيداً، يا صديقتي، اننا من أجل الحب نخاطر بكل شيء لكي نحصل على كل شيء، وهذا ما فعلته أولغا. لقد تبعت الرجل الذي كانت تحب، وكان هذا هو أكثر الكوائن الانسانية جدارة بان يُحب. لقد تبعت خطواته التي كانت خطوات الحرية. لقد كان

عليه ان يعمل الشيء الكثير، وكان به حاجة إليها لانجاز مهمته. وكانت هي ممتلئة كفاءة وطيبة، وكانت أفضل الزوجات وأكثرهن لطفاً وحناناً وأمانة. وانها لرائعة «كلمة» زوجة، هكذا يقول الجميع.

وهناك أشخاص يظهرون بمنتهى الفصاحة عندما يتحدثون عن الفضائل العائلية، يا صديقتي. وهم يحبون ان يتحدثوا عن الإخلاص والكرامة واللطف، ويؤكدون انهم لا يتقبلون أعلى المراكز وأسمى المناصب إلا رغبة منهم في الحفاظ على هذه الفضائل وايداءها حقها من التقدير. حذار من مثل هؤلاء الناس يا صديقتي؛ فمزورة هي أحاديثهم، ولا يعدو حبهم لهذه الفضائل ان يكون في الواقع حباً للمراكز والمناصب، حباً للسلطة. وان كل ما هو حقاً نبيل وكفؤ ولطيف، مقيت بنظر هؤلاء الناس، بنظر الطغاة. ذلك هو السبب الذي كانوا من أجله يكرهون أولغا، ويكرهون كرامتها ونبلها وحنانها الزوجي. وان هؤلاء الأشخاص، الذين كانوا يرتجفون رعباً لمجرد سماعهم باسم برستس، ـ لان برستس يتحلى بالعظيم من الفضائل ـ، قد انتزعوا الزوجة من يدي الزوج وهم يؤكدون، بمنتهى المداهنة والرياء، انهم إنما كانوا يتصرفون باسم المسيح. ولقد استحوذ الظلاّم على جميع الكلمات في العالم، يا صديقتي، واستولوا على أعظمها نبلاً، وعلى ذكرى الرجال العظام وذكرى القديسين. وعندما يتحدثون باسم هؤلاء، انما يفعلون ذلك لكي يرتكبوا ويتستروا على الجرائم والسفالات. وهذا ما فعلوه مع أولغا ومع لويس.

لقد كانوا يعذبون برستس: لأنه كان أكثر من يخشون من الرجال. وكانوا يعذبون أولغا لأنها كانت تحمل في أحشائها طفلاً هو نتاج حبها لهذا الرجل. وظناً منهم انهم قد اكتشفوا ما يستطيعون بواسطته حمل السعادة إلى قلب الطاغية هتلر، رأوا ان أفضل تقدمة وأعظم هدية يهبونه، هي: ان يبعثوا إليه بأولغا وبالجنين الذي يضطرب حياة في أحشائها.

وفي باخرة الشحن هذه، التي تذكّر بمشاهدها الدانتية[٥] ببواخر

(٥) نسبة إلى الشاعر الايطالي دانتي.

النخاسين، كانت أولغا ترقد على قيئها. في جسدها كانت تضج حياةٌ هي ثمرة حبها. ولقد بقي زوجها في البرازيل في أيدي أعداء الشعب، في أيدي اناسٍ يكرهون كل ما هو كرامة وجمال؛ ويكرهون بالتالي، هذا الزوج، الذي كان يتجسد فيه جمال الحياة وكرامتها. أما هي، مع الجنين الذي تحمله في أحشائها، فسوف تقع بين يدي مجنون مفترس ينشب مخالبه في البلاد التي ولدت فيها وكأحد الأثقال الملقى به فوق الأقذار، كانت تقبع في قعر السفينة الموبوء، الذي لا هواء فيه ولا نور. وقد ظلت ترن في مسمعها، طوال شهر، الأناشيد الهتلرية، وتتراءى لعينيها تحيات هؤلاء الأشخاص المقيتة.

وشاهدت في أحد الأيام، يا صديقتي، الشواطىء الألمانية، وأحست بنفحاتٍ من نسيم هامبورغ. وعادت بها الذكرى إلى عهد آخر كانت فيه ريح الحرية تنفخ فوق هذه الشواطىء التي تسيطر عليها التعاسة في هذه الأيام. وكانت أولغا تتغلب على ضعفها، كانت تعيش. وهي سوف تعيش من أجل زوجها، ومن أجل طفلتها التي سوف تولد في السجن.

وكان الغستابو ينتظر على الرصيف هدية الشرطة البرازيلية. واحتجزت أولغا فوراً في سجن بارنيمستراس المظلم، حيث وضعت، في السابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٣٦، يوم ذكرى انتفاضة ريو دي جانيرو، طفلة كان عليها، وقد ولدت في غرفة انفراد، ان تترعرع في المنفى.

ودعتها أولغا بأنيتا ليوكاديا، مُشيدة بذلك بذكرى امرأتين مثاليتين: أنيتا غاريبالدي، مرافقة المناضل العظيم من أجل الحرية، وليو كاديا برستس، والدة لويس كارلوس برستس البطلة. وخرجت هذه الطفلة إلى العالم سليمة قوية، لا تحمل أي أثر من العذاب والرعب والمأساة، التي كانت والدتها تعيش في كنفها. وأصبح الآن يعود إلى أولغا أمر العناية بالطفلة وجعلها كائناً جديراً بوالدها وجدها وبشعب البرازيل، الذي كان يعتبرها أحب بناته إليه. وكانت أولغا وحيدة في العالم، لا تعرف شيئاً عن زوجها، ولا تعرف، يا صديقتي، أي شيء عن أولئك الذين كانوا أعز الناس إليها، وكانت تجهل

المصير الذي كان ينتظرها هي. ولكنها قررت ان تجعل ابنتها تعيش. قررت ذلك بالعزم نفسه الذي أظهرته برفقة زوجها لويس كارلوس برستس، خلال ليالي الارهاب المظلمة للأشهر الأولى من سنة ١٩٣٦، عقب اندحار الثورة.

وبعد عدة أيام من خروج طفلتها إلى عالم الوجود، أحست أولغا ان الحليب يشح في ثدييها الهزيلين. ولم يكن غذاؤها الهزيل ـ سائل مصفر يطلق عليه النازيون اسم القهوة، في الصباح، قليل من الخبز الرديء وبعض حساء الخضر الجافة عند الظهر، ولا شيء بعد ذلك مطلقاً ـ ليمكّنها من إطعام طفلتها. وكانت الطفلة تصرخ متضورة من الجوع عقب كل رضاع. وبدأ الهزال يدب في أنيتا ليوكاديا أمام عيني والدتها التي يستبد بها القلق. وأخذت هذه، وهي البعيدة عن أعز الكوائن إليها والمحتجزة في سجن بارنيمستراس، تغني في الليل لتهدّىء من وطأة الجوع الذي يستبد بأنيتا، وتهدهدها بتلك الأحديات التي كان لويس كارلوس قد علمها إياها:

« شوشو يا وحش البابون
اخرج من فوق السقف
ودع الطفل في حلمه مطمئناً...

أحديات من البرازيل النائية، حيث يوجد لويس.. وكانت الدموع تنحدر على وجنتي أولغا بينما كانت أنيتا تبكي من الجوع. وكان صوت أولغا اللطيف يرتفع وسط سجن بارنيمستراس الرهيب ويحمل إلى المعتقلين الرقاد أو يسكّن من وطأة الآلام اللامتناهية. وكان الأمر ينتهي بالصغيرة أنيتا، الهزيلة والجائعة، والسابح وجهها بالدموع، هي أيضاً إلى الرقاد. ولكن الدموع كانت تغسل وجه أولغا كذلك، يا صديقتي، عند رؤيتها طفلتها تسير إلى الموت خَدَراً. ولم يكن لديها ما تقدمه إليها. وبالرغم من رداءة الطعام اللزج، الذي كان يُقدم إلى أولغا، فان هذه كانت تأكل كل شيء، املاً منها في ان تستطيع ان تهيّىء قليلاً من الحليب لطفلةٍ هي كل ما تملك في

هذه الحياة. وكانت انيتا تتأمل طفلتها عندما كان يستولي عليها الرقاد. لقد كانت هزيلة ذابلة كزهرة حرمت الماء والشمس. وكان يخيل إليها ان ابنتها ستموت، فكانت تصعّد نشيجاً مؤلماً من قلبها المتحطم أثر كل أحدية تنطلق من شفتيها في ظلام ليل سجن بارنيمستراس.

وإذا ما كانت انيتا قد ظلت على قيد الحياة، فالفضل بذلك يعود، يا صديقتي، إلى ان ليوكاديا برستس استطاعت ان تتصل بها وان ترسل إليها طعاماً. وعلى هذا الشكل أنقذت ليوكاديا الصغيرة. وسرعان ما أطلق المعتقلون على ابنة برستس لقب: «شعاع الشمس الصغير في بارنيمستراس».

وعندما بلغت الصغيرة الثمانية أشهر، نقل النازيون أولغا إلى غرفة انفراد أكثر قذارة وأكثر رطوبة من الأولى، محرومة من الماء. ولم يكن يسمح لأولغا، من أجل زينتها وزينة ابنتها، ومن أجل اطفاء جذوة عطشها وعطش انيتا، إلا بابريق ماء واحد في اليوم، وإذا ما كان الماء غير كاف، كان يتوجب الانتظار حتى اليوم التالي. وكم من المرات اضطرت ان تُهدىء من وطأة عطش ابنتها الصغيرة، التي كانت تبكي طلباً لجرعة من الماء، بهدهدتها باحديات المنطقة الشمالية الشرقية البرازيلية. وتعلمت انيتا الزحف على أرض غرفة الانفراد الملاطية، القاسية الخشنة. على هذا الشكل كانت الأم والابنة تعيشان، يا صديقتي، في السجن النازي في ألمانيا.

وفي هذه الأثناء كانت ليوكاديا، الجدة، تنقّب الأرض والسماء بحثاً عن حفيدتها الصغيرة، وشنت من أوروبا حملتها العظيمة من أجل انتزاع البريئة من أيدي الغستابو. ولم يكن رجال الغستابو يقولون شيئاً حول هذا الموضوع لأولغا. ألم يُرسل بها إلى هتلر من أجل سومها العذاب؟ فلتعذب إذن. بل ولقد قيل لها إن أنيتا ستُنتزع منها فور بلوغها الشهر العاشر من عمرها، وسيرسل بها إلى احد المياتم النازية ويعهد بتربيتها إلى النازيين. وكان الشهران الباقيان لذلك التاريخ بمثابة أعظم الفترات المؤلمة بالقياس إلى أولغا، كانا موتا يومياً، انتظاراً قاسياً للوقت الذي ستُقاد ابنتها خلاله إلى إحدى مدارس

الشراسة والكراهية. تصوري، يا صديقتي، ما كان يعتمل من ألم فظيع في قلب هذه الأم، التي سوف تُنتزع منها طفلتها ويلقى بها إلى أعدائها ليربوها على مبادىء السفالة. تصوري، يا صديقتي، ألم هذه المرأة التي، وقد سبق لزوجها ان اقتيد إلى السجن، تحتجز وطفلتها كحيوان مفترس. تصوري هذه المرأة التي تسام مختلف أنواع الفظاعات: معنوية كانت أم جسدية. وكانت دموع أولغا تسيل مدرارة في ظلام ليالي السجن.

وبدأت انيتا تمشي وتتكلم؛ فلقد كانت ملاطفات أولغا وعناياتها أقوى من الشراسة البشرية. وكانت الطفلة جميلة سليمة، كانت «شعاع شمس» السجن. لقد بلغت السنة الأولى من عمرها، ولم يأت مع هذا أحد لاقتيادها. وبدأت براعم من الأمل تتفتح في قلب أولغا القلق.

ولكن في أحد الأيام، في صبيحة يوم الواحد والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٣٨، دخل مدير السجن غرفتها وأمرها أن تعدّ ابنتها للرحيل. ان وقت انفصالها عن طفلتها قد دقت ساعته. ولم تكن أولغا تعلم أن دونا ليوكاديا برستس كانت في غرفة الانتظار تحتج لعدم تمكينها من رؤية كنتها، وانها سوف تستولي على أنيتا. وبوحشية، من الدقة بحيث لم تكن لتخطر ببال ضبع كاسرة، قال لها المدير إن ابنتها ستُقاد إلى أحد المياتم النازية، كما سبق وأخبرها. وعارضت أولغا في ذلك، ولكن المدير انتزع الطفلة منها بالقوة، وتركها تنشج كالمجنونة في غرفة انفرادها.

وعاشت، وهي على تمام الثقة بان ابنتها بين أيدي البرابرة، أشهراً من القلق الرهيب، وتعرّفت إلى اتعس ليالٍ يمكن لامرأة ان تتعرف إليها، يا صديقتي. واستمر الحال كذلك شهوراً طوالاً.

إلى أن جاء اليوم الذي سمح لها فيه الغستابو أن تتلقى تحريراً من حماتها، وهو واحد من تحارير عديدة كانت هذه قد أرسلت بها إليها. وهكذا تعرفت إلى ان انيتا هي بين يدي جدتها. وحمل إليها يوم البهجة هذا تعويضاً عن كل أيام التعاسة التي كابدتها وفي هذا اليوم قررت أولغا ان تكون أقوى

من الألم ومن العذاب: سوف تحيا من أجل زوجها ومن أجل ابنتها.

ونُقلت، بعد قليل من ذلك، من سجن بارنيمستراس إلى معسكر اعتقال رافنسبرون، في فورستنبورغ فكلمبورغ، في شمال برلين، حيث بدأت تعيش حياة شاقة. وفي العديد من المرات كان عليها ان تسقط صريعة الأمراض بسبب البرد والجوع والحرمان.

وكانت، في مرات عديدة، على قاب قوسين أو أدنى من الموت. ولكن تصميمها على ان تعيش، على ان ترى زوجها وابنتها مجدداً، كان أعظم من الألم والأمراض. ولم تفقد الأمل، كان زوجها «**فارس أمل**» شعب كامل، وكان املها هي. وكانت، وهي التي تحيا حاملة ذكرى قرينها، تتغذّى بالأمل عند قراءتها الكتب النادرة التي كانت تصل إليها من زوجها وحماتها. كانت تتغذى، يا صديقتي، بالثقة بأن الشعب سيحطم في أحد الأيام أغلاله، ويحرر نفسه من الطغاة. لقد علمها لويس كارلوس برستس هذه الحقيقة. وكان أملها يتحدّر من هذه الثقة؛ وكانت هذه الثقة تمنحها قوة العيش.

حتى انها كتبت من معسكر الاعتقال، في أحد الأيام، هذه الكلمات المؤلمة: «انني لا افتقر لا إلى الشهية ولا إلى الرقاد». واضافت في تحرير آخر: «انني سعيدة لأنني أعمل كثيراً، ولا يبقى لديّ بذلك وقت للتفكير. وعندما أعود في المساء، لا أشعر إلا برغبة وحيدة: ان أتمدد، وأرقد كالحجر. وهذا ما يملأ نفسي بالسعادة». عبارات مرة، يكمن خلفها أملٌ ما: أمل زوجة وأم مثالية!.

- ٨ -

دخلت « التنتوريرو »[٦] فناء الكوريسون، وصعد إليها أغليبرتو وأجيلدو. وبعد عدة دقائق من ذلك وصلت عربة سجن أخرى: ان الأمر يتعلق الآن برودولفو غيولدي. لقد كان هؤلاء سيمثلون أمام محكمة استئناف، بعد ان أصدرت محكمة الأمن أحكامها ضدهم. فلقد استأنف المحامون القرارات الصادرة، لدى المحكمة العسكرية العليا؛ وقرر المعتقلون، من جهتهم، ان يدافعوا عن أنفسهم أمام هذه المحكمة العريقة التقليد في البلاد، والتي كانت تتألف من قضاة حقيقيين. فلم تكن المحكمة العسكرية العليا أداةً لاصدار الأحكام، كمحكمة الأمن. وقرر « السياسيون » ان يدافعوا عن أنفسهم أمامهم. وكان على لويس كارلوس برستس وهاري برجيه ورودولفو غيولدي وأجيلدو باراتا وأغليبرتو فيارا دي آزيفيدو ان يمثلوا أمام محكمة الاستئناف في اليوم نفسه. وكان برستس قد حُكم بالسجن ست عشرة سنة وثمانية أشهر، وهاري برجيه ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر، ورودولفو غيولدي أربع سنوات وأربعة أشهر، وأجيلدو باراتا عشر سنوات، واغليبرتو فيارا سبعاً وعشرين سنة وستة أشهر. وكان برستس وأجيلدو وأغليبرتو، مع سيلوميرس الموجود في رسيفي، يُعتبرون رؤساء الانتفاضة العسكرية. وكان برجيه وغيولدي يُلاحقان، بصورة خاصة، بسبب من كونهم أجانب. وكان جميع هؤلاء سيمثلون أمام محكمة حرة، لم تكن تخضع لسيطرة الشرطة كمحكمة الأمن.

وذهبت « التنتوريرو » التي تقود رودولفو غيولدي من فناء الكوريسون إلى فناء الشرطة المركزية. وظلت هناك عدة دقائق، جاء عقبها أحد رجال

(٦) سلة خضر، وتعني هنا عربة من عربات السجن.

الشرطة، ففتح الباب وقال:

ـ انزل.

فخرج رودولفو وصعد «تنتوريرو» أخرى كانت بانتظاره. وكانت هذه عربة مقسمة في الداخل إلى غرف انفراد صغيرة، حُشر غيولدي في واحدة منها، كان قد وضع فيها رجل آخر، هو أشبه ما يكون بشبح هزيل محدودب الظهر. وحاول رودولفو ان يخترق حجب الظلام بنظراته. ولم يكن وجه الرجل ببعيد عنه، ولكنه عجز مع هذا عن التعرف إليه. فأغمض عينيه نصف إغماض ليحسن الرؤية. لا، انه لم يكن يعرف من هو، ولم يكن ليخطر له ببال. ان الأمر كان يتعلق بهاري برجيه، الذي لم يتعرف إليه تماماً إلا عندما سمعه يردد بالالمانية:

ـ أهذا أنت يا غيولدي؟.

واستولت الدهشة على رودولفو:

ـ إنني لم أتعرف إليك..

فانفرجت شفتا برجيه عن ابتسامته الكئيبة وسأل:

ـ هل استهدفت لكثير من العذاب؟ أما في ما يتعلق بي، فانني قد ضربت كما لم يكن ليخطر لي ببال مطلقاً ان يضرب انسان..

وسارت العربة باتجاه المحكمة العسكرية. وكان رودولفو يتطلع إلى الرجل الجالس بالقرب منه. منذ وقت ليس بالطويل، كان هذا رجلاً قوياً كبيراً. وهو الآن يشكل ما يشبه نفاية كائن بشري. وقال برجيه بصوت كان له جرسٌ فاجع وسط ظلام عربة السجن المنطلقة بأقصى سرعتها في الشوارع:

ـ وامرأتي؟.

وانطلق السؤال متموّجاً بشكل رهيب في وسط العربة. فلقد كانت الأخبار عن أوغستا أليز متناقضة بعد سفرها إلى ألمانيا. فحسب البعض

ـ وهذا هو الواقع ـ انها أسلمت الروح عند وصولها إلى السجن الألماني، على أثر التعذيب الذي استهدفت إليه في الرازيل. وكان الآخرون يقولون إنها حية. واختار رودولفو أفضل الروايات وأكثرها تفاؤلاً. وحاول صوته ان يكون بهيجاً في قلب العربة، حيث كانت الأنوار التي تدخل من الثقوب القائمة في هيكل العربة من أجل تهوية غرف الانفراد، ترسم أشباحاً غريبة:

ـ إنها في باريس... فلقد اختطفت من السفينة في مرسيليا. واختنقت الكلمات في حنجرة برجيه قبل ان تنطلق لتقول:

ـ لا أعتقد ذلك...

وران الصمت ثانية طويلة هائلة. وعاد صوته إلى الترديد مرة، مرتين، ثلاث مرات:

ـ لا أعتقد ذلك... لا أعتقد ذلك... لا يمكنني ان أعتقده..

وخيم الصمت من جديد وكان صخب المدينة النائي يتغلغل في العربة من خلال الثقوب مع الأشعة الداخلة. وعاود برجيه الكلام بصوت ثقيل كالمطرقة:

ـ لقد ماتت... انني لعلى ثقة بأنها ماتت...

ثم سأل أيضاً:

ـ أعذبت كثيراً يا غيولدي؟ لقد استهدفت لاشياء كان من المستحيل علي ان أتصور حدوثها. واعتقد أن الأيام لن تمتد بي، وأنني سوف أموت... لقد ضُربتُ كثيراً على رأسي... خاصة على رأسي... وفيما لو لم أمت، فإنني لعلى ثقة بان أفقد صوابي... انني لعلى ثقة من ذلك... سوف أجن...

وكان صوت برجيه يتساقط في جو «التنتوريرو» الثقيل، حاملاً في طياته شيئاً ما كان يذكّر غيولدي بمختلف لهجات المأساة اليونانية. وكان ضجيج

المدبة تسلل من خلال شقوق عربة السجن، وانطلقت بقيّة من قهقهة لسموت في « السندرير و ». وقال برجيه:

ـ لقد سبق ان انتابتني نوبات هذيان في بعض الليالي.. سأصبح مجنوناً.. أنا على ثقة من ذلك تماما.. تماماً.. مجنوناً..

وتوقفت عربة السجن، ونزل السجينان يحيط بهما رجال الشرطة، وانطلق في الفناء مزيج من الكلمات والصرخات والأوامر، ومن أصوات أبواق السيارات. ولم يكن رودولفو غيولدي يسمع شيئاً من كل هذا. وكانت كلمات هاري برجيه هي وحدها التي تهتز في أذنيه: « سأصبح مجنوناً.. مجنوناً »..

وكانت الشرطة الخاصة والشرطة المدنية قد احتلت جميع الشوارع المجاورة وقطع السير: ولم يكن يسمح بالتجول إلا للعربات التي يقودها رجال الشرطة ومنع السير على المشاة أيضاً. وحرست جميع الشوارع المحيطة بالمحكمة ونزل المعتقلون من العربات في فناء المحكمة الداخلي، وصعدوا السلم حتى الطابق الأول. وكان أجيلدو وأغليبرتو قد سبق لهما ان وصلا وجلسا في المقعدين المخصصين لهما. وجلس أمين سر الحزب الشيوعي السابق وبرجيه ورودولفو غيولدي في اماكنهم أيضاً، وظل إلى جانب القضاة مركز فارغ.

وكان القضاة العسكريون، يا صديقتي، يجلسون وراء منبر دائري الشكل، وكانوا يألفون من ألوية ومحامين واسعي الشهرة اختيروا لتسنم هذا المنصب. وكان رجال الشرطة الخاصة والشرطة المدنية يقفون، بطريقة تشكل إهانة عظمى للحشمة وللعدالة، خلف القضاة، من أجل التأثير عليهم. وخلف كرسي الرئيس كان يقف رومانو، من الشرطة المدنية، والعقيد كيروز، من الشرطة الخاصة، وإلى يمين القضاة كان الجمهور؛ ولكن هذا الجمهور كان مؤلفاً، يا صديقتي، من العملاء ومن رجال الشرطة الخاصة. وكانوا مصطفون على طول الجدار الجنوبي والجدار المواجه للقضاة. وكان المعتقلون

بالقرب من الجدرا الشمالي؛ وقد جلسوا بالترتيب التالي: أجيلدو، أغليبرتو، الأمين السابق للحزب الشيوعي، وإلى جانبه مركز فارغ. وأعدت قبالتهم منصة كان عليهم ان يتحدثوا من ورائها. ومُنح كل منهم خمس عشرة دقيقة للدفاع ضد اتهامات فظيعة. ووقف خلفهم رجال من الشرطة الخاصة: ثلاثة وراء كل معتقل. انها محكمة حرة.

وفجأة حدث في القاعة هرج ومرج، وانطلقت صرخات كان لويس كارلوس برستس يدخل دامي الفم، إذ ان رجال الشرطة، وقد اغتنموا الفوضى التي حدثت أثناء نزوله من عربة السجن، وبحجة التحقيق في ما إذا كان يحمل سلاحاً، هو الخارج من غرفة انفراد في سجن الشرطة الخاصة، وجهوا إلى وجهه لكماتهم، وكانوا يجرونه قسراً، بينما أخذ يصرخ في القضاة:

ـ أيها الألوية، ان هذا لاهانة للجيش... لقد كان والدي عسكرياً، وكذلك كنت أنا. وان رجال الشرطة الذين يضربونني يهينون جيش البرازيل..

وتابع رجال الشرطة سحبه، بفمه الدامي، ولكنه تخلص من الأيدي التي توجه إليه اللكمات. وفي هذه الفترة، يا صديقتي، انطلقت فتاة كانت في القاعة، هي ابنة لأحد المعتقلين السياسيين، من بين يدي أمها وهي تنشج، وجعلت تضغط بنفسها على ساقي برستس بالرغم من الشرطيين.

وتدخل القضاة، وأمروا رجال الشرطة بالابتعاد. وتابع برستس كلامه قائلاً:

ـ إنها لسفالة تلك التي تجري في البرازيل. انها لدناءة لا حدّ لها، لجريمة أعظم من أن تُقدر..

وحاول بقية المتهمين، ساعة دخوله، ان ينهضوا ويهتفوا له ويساعدوه على دخول القاعة. ولكن رجال الشرطة الخاصة منعوهم من ذلك وأجبروهم على البقاء جالسين. كل هذا كان يجري، يا صديقتي، في المحكمة العسكرية

العلماء، نخبة أبطال الأدب ومستشارين محلّفين قدماء، كانوا مفخرة للجيش وللعدالة، وكانت الحكومة لا تني تسربلهم بوابل من احتقارها.

ويتوجه الرئيس إلى برستس ليطلب إليه الجلوس وليقول له إن بمقدوره ان يتكلم في ما بعد. وقبل برستس ذلك. فبدأ المدعي العام قراءة مطالعة اتهاماته التي استمرت ساعتين متواصلتين. ثم أعطي الكلام لبرستس. انه لا يتمتع بسوى خمس عشرة دقيقة. ولكن ما قاله كان من التأثير والقوة والرهبة بمقدار لم يملك معه القضاة أنفسهم، وقد سيطرت عليهم حرارة عبارته، إلا ان ينصتوا إليه طوال خمس وأربعين دقيقة. إنه لم يكن يدافع عن نفسه: لقد كان يتهم. وكان صوته ينقض كقذفة من نار على رؤوس أعداء الشعب؛ وكان النظارة القليلون، الذين لا ينتمون إلى الشرطة، يبكون من التأثر وأخذ فارس الأمل يشجب بحماسة البرازيل المرتمية في أحضان العبودية (٧).

والتهبت اتهاماته ضد الشرطة كالجمر وأشار بيده إلى الشرطيين المنتصبين خلف هيئة المحكمة. أشار إليهم واحداً واحداً وأخذ يصف جرائمهم. المتّهم يتهم. شعب البرازيل بكامله يتهم بصوت بطله حكومة مجرمة ويعلن أنها سوف تؤدي الحساب عما ارتكبت يداها عندما يبزغ فجر الحرية.

وارتجفت جدران المحكمة من وقع الاتهامات المنهمرة ضد رجال الشرطة وضد جرائم الحكومة وبللت الدموع من النظارة الوجنات، وتعلّقت من

(٧) كتب المحامي الفرنسي مارسيل ويلار، معلقاً على هذه المحاكمة يقول: «إن بطل الاتحاد الثابت، بطل الاستقلال، بوليفار أميركا اللاتينية الجديد لويس كارلوس برستس، يستحق حب الجماهير البرازيلية ويستحوذ عليه. فلقد تقمصت في شخصه مطامحهم ومطامعهم العميقة، وإرادتهم في التحرر الاجتماعي والوطني. ولقد جهد الجلادون كثيراً في إخفات صوته، ولكنه كان دائماً ينطلق إلى الأعالي وإلى الاماكن النائية. وهو مسموع ليس فقط في جميع المناطق، من قبل كل شعب هذه البلاد الواسعة نصف الاقطاعية ونصف المستعمرة (الكبيرة كأوروبا والمأهولة كفرنسا)، ذات المستقبل عبر الحدود، بالرغم من السرية والمراقبة، بل هو مسموع كذلك في جميع أنحاء العالم الجديد، وفي أميركا وأوروبا، بل وفي جميع أنحاء العالم». (ملاحظة من المؤلف).

القضاة النفوس في شفتي برستس. لقد نسوا ان خلفهم ينحني « رومانو » و « كيروز » ورجال شرطتها، ليذكروهم بأن أقل بادرة من عطف نحو المعتقلين يمكنها ان تكلفهم غالياً.

وبعد أن فضح برستس أمام البلاد جرائم الحكومة، بدأ دفاعه وقرأ تحريراً كان قد كتبه إلى الدكتور سوبرال بنتو، المحامي المكلف بالدفاع عنه، ولكن رجال الشرطة كانوا قد صادروه عندما حاول ايصاله إلى وكيله، فاعاد بناءه الآن وأخذ يقرأه: انه دفاع متقن جريء، انه ميثاق شرف.

وبدأ برستس هذا التحرير، الذي انصت إليه النظّارة بحناجر منقبضة من التأثر، بالافصاح عن رغبته في التحدث إلى الشعب البرازيلي:

« ... ليس هناك أي انسان تعتمل في نفسه رغبة أكثر جموحاً من تلك التي تعتمل في نفسي لكي أشرح وضعي جهاراً، وبصوت عظيم الارتفاع، أمام الشعب البرازيلي وأمام الرأي العالمي كله. فليسمح لي السادة الحكام هؤلاء، وليسمح لي خدمهم من رجال الشرطة، أو من أعضاء محكمة القمع، بالكلام؛ ليسمحوا لي بدراسة الملف الذي كُدّست فيه « البراهين » التي اخترعتها الشرطة، حول « الجرائم » التي ارتكبتها: وليسمحوا لي بتوجيه الاسئلة إلى شهود الاتهام، وليُدْعَ إلى المحكمة، فيما إذا كانت هذه تريد محاكمتي بصورة صحيحة، شهود النفي العديدون الذين استطيع تقديمهم، والذين سأوجه إليهم اسئلتي. ولتجر المحاكمة بصورة علنية وأمام ممثلين عن الصحافة الوطنية والأجنبية. عندها يكون بالمستطاع إصدار الحكم. ولست أنا، يا دكتور سوبرال بنتو، الذي يخشى نور العلنية، أو الدراسة الدقيقة لوضعي من قبل الرأي العام. انني لا أتمنى أكثر من ان يتاح لي أن أعرض جميع دقائق حياتي الثورية. وفيما إذا كانت الاتهامات التي يوجهها إلي رجال الشرطة وعملاؤها في الصحافة مرتكزة على أساس صحيح، فيما إذا كنت مباعاً، لصاً أو مجنوناً، فلمَ لا يُسمح لي ان أعرض، بحرية، وجهة نظري، وأشرح موقفي »؟.

إنه لسؤال يوجه. لقد شهّرت الحكومة البرازيلية بهذا الانسان أمام البلاد وأمام العالم كله، كمرتكب لجرائم منكرة، كرجل وحش. لم اذن تجري محاكمة هذا الرجل وجرائمه في الخفاء، بعيداً عن أعين الجمهور، في فترة إعلان حالة الحرب ووسط صحافة مكمومة الفم، وشرطة تسوم الشعب بإرهابها؟.

ورسم برستس لوحة للوضع الذي يتردى فيه، مشيراً، بإصبعه، إلى المجرمين الحقيقيين:

«إن أولئك الذين يتهمونني، أولئك الذين، في ظل نظام استثنائي وتحت حماية الغاز ورشاشات الشرطة، يفترون علي وعلى حزبي، أولئك الذين يشنونها حملة من أحط وأسفل حملات التجني، هم بالضبط هؤلاء السادة الحكام، هؤلاء الذين كبّلوا مني القدمين واليدين، وكمموا الفم، وأرسلوا السيد راوول ما شادو هذا ليصيح لي في أذنيّ، في التاسع والعشرين من شهر كانون الأول سنة ١٩٣٦، خلال اجتماع سري عُقد هنا، في جحر التعذيب والتقتيل هذا، تحت ضغط الشرطة وأمام قهقهات الجلاوزة الغبية: «هيا، دافع عن نفسك. لقد استؤجرت كي أحاكمك»».

«وتقدم هذه الكلمات الصورة الحقيقية لحكومة ومحكمة ورجل كان يقول عن نفسه انه قاض: صورة (حكومة ـ حالة الحرب) و (محكمة ـ الأمن العام ـ الوطني)، و (القاضي ـ راوول ـ ماشادو)».

وأعاد برستس إلى الأذهان صورة تلك الملهاة الفاجعة لليلة الشرطة الخاصة تلك، حيث كان راوول ماشادو، وهو يطأ بقدميه بؤسه نفسه، يصرخ بوقاحة انه «استؤجر» ليحاكم برستس ويحكمه، حيث كان هذا الرجل القميء يعترف بانه لم يكن سوى اداة بائسة على استعداد لخيانة تقاليد العدالة للمحاكم البرازيلية. وتعالى صوت برستس فوق هذه العفونات جميعها ليتهم باسم البرازيل كلها ويقول:

«في وسط المستنقع الذي نتردى فيه الآن، تفوح رائحة الرشوة والسفالة والدناءة في كل مكان. ولا يستطيع ذوو الكرامة من الناس ان يوفروا على

أنفسهم السقوط في حمأة الوحل « الجيتوليستاسي »[٨] التي تحيط بهم إلا بمجهود كبير، ذلك لأنه زال كل أثر للصحافة ولمجلس النواب، اللذين كانا آخر معقلين، حيث كان أكثر الناس جرأة يناضلون ضد الطغاة. ولجأت الدكتاتورية، بصورة فاضحة ودونما وازع من حياء أو تردد، إلى استعمال جميع أولئك الذين كانوا، إنْ لجهلهم، (جهل هو من اسوأ ما عُرف، ذلك لان الأمر لا يتعلق بجهل القسم الأكبر من مواطنينا الذين لم يستطيعوا حتى الآن تعلم القراءة، والذين يتلافون هذا النقص بذكاء واع في معظم الأحيان، يمكّنهم من انتاج ثروات البلاد في المعامل وفي الريف ـ ذلك لانهم هم الذين ينتجون ويصنعون كل شيء)، أو لانعدام ثقافتهم، أو أيضاً لضعف في نفسياتهم، يتأثرون ببريق الأوضاع الكاذب وبالمنفعة المادية التي يحصلون عليها ».

« وكانت الشرطة التي هي أفضل سند للدكتاتورية، والتي يبدو انها تقاد بواسطة أناس أخصائيين بالخيانة، توجه نشاطها كله لكي تجعل من مواطنينا، بالعنف أو بالخداع، أشخاصاً مجردين من الكرامة أو سفلة. وكانت تسوم العذاب أولئك الذين لم يكن من طبعهم الانحناء. وكانت، وقد سيطر عليها هوسٌ مَرَضي ـ لا يوفر في اندفاعه حتى « اصدقاء » الحكومة ـ تحاول ان تُظهر الناس الذين عُرفوا بأنهم شرفاء ذوو كرامة، بمظهر خونة أدنياء وبؤساء ».

وكانت الحياة تضطرم خفاقة في هذه الكلمات التي كانت تتسرب من خلال شقوق نوافذ المحكمة المغلقة، وتنظف جسم البرازيل الهائل من الوحل الذي يلطخه. إن شعباً كاملاً يجتز ببضع الحقيقة لحم حكومة عفن، ويعرضها، عارية تافهة، أمام الرأي العام العالمي. وأثبتت الحرية والشجاعة والكرامة في هذا اليوم، بلسان برستس ولسان رفاقه من بعده، انها ما تزال ثابتة الأسس في البرازيل، في صدور المعتقلين، وانها أكثر من كلمات تافهة مجردة من المعنى.

---

(٨) نسبة إلى جيتوليو فارغاس دكتاتور البرازيل.

وأشاد برستس بالشعراء، بالجيش، بالشعب البرازيلي وبكبار أبطال الماضي. وأشار إلى ما هو متعفن في البرازيل، ولكنه أشار أيضاً إلى الناحية السليمة في البلاد، إلى الشعب الجائع المتعطش للحرية. وكان قرار اتهام هذا أنشودة للأمل كذلك، رسالة من **فارس الأمل** إلى شعبه، رسالة متناهية القوة، ستخرج من قاعة المحكمة المغلقة هذه، وتنطلق في الشوارع، في الريف، في المدن والممتلكات الكبرى، مكهربة الشعب، مانحة إياه الشجاعة، وملهمة الناس إيماناً وثقة، كشعاع من النور في وحل المستنقعات العفن، يا صديقتي.

وتابع برستس كلامه يقول:

«اما في ما يتعلق بي، فمن الضروري ان يُعرف انني سوف أتابع النضال ضد مستثمري ومضطهدي شعبنا. أيراد منعي من الكلام ومن إرسال التوجيهات، بواسطة حزبي، إلى الملايين من مواطنيّ الذين يودون الانصات إلى هذا الحزب؟ إذن سأحاول، بتصرفاتي، ان أفهم شعبنا كم هو ضروري أن يناضل الآن من أجل حقوقه الدستورية، ضد تشريع الدكتاتورية الإرهابي، من أجل حرية جميع أولئك الذين يتألمون من الملاحقات السياسية وضد الشرطة».

وأخذ النظارة القليلون الموجودون بين رجال الشرطة يصفقون، وقد امتلأت منهم العيون بالدموع، والقلوب بالثقة. وزجر الشرطيون المصفقين بقسوة، وأخذ القضاة يستعيدون روعهم بتؤدة. ورجع برستس إلى مكانه. هذا هو زعيم الشعب البرازيلي، وإذا ما سبق له في فترة ما ان أقلع عن ان يكون كذلك، لكان جديراً أن ينال خلال الفترة الرائعة هذه، حق السير في طليعة الشعب على دروب الحرية. ولكنه سبق له ان قاد البرازيل سنوات عديدة على هذه الدروب. وهو، كما في أيام الطابور، يفتتح المسالك الصعبة التي سيسير فيها الشعب، موفراً على نفسه، بفضلها، أمر التردّي في وحل المستنقعات. وانها لمسالك سوف تتحول غداً إلى طريق عريضة للحرية، يا صديقتي.

وأعطي الكلام لهاري برجيه. ونهض كجثة تنهض من قبر. لقد نقص وزنه ثلاثين كيلوغراماً منذ توقيفه. ولقد كان يراد قتله، اخفات صوته إلى الأبد بأشد التعذيبات وحشية. ولكن ها هو صوته يرتفع من جديد، رجولياً عنيفاً، انه صوت الحقيقة، صوت الشعب. وتحدث بالانكليزية. وشوه المترجم فكرته. وأعلن برستس وغيولدي، في العديد من المرات، احتجاجهما على التحوير المتعمد للكلام، الذي يلجأ إليه هذا المترجم المأجور. وانهى برجيه كلامه معلناً ثقته بالشعب البرازيلي، وبشعوب العالم كلها:

«إني، ولو مهما كان وضعي، مستهدفاً لمختلف وسائل العنف كما كنت وكما سوف أكون، لا شك في ذلك ولا ريب، مساماً العذاب يومياً وباستمرار، سائراً في طريق ميتة بربرية، واثقاً بان عقلي لن يقاوم طويلاً كل هذا الاضطهاد، موقناً من اقترابي يوماً بعد يوم أكثر فأكثر من الجنون، أريد، في هذه الساعة التي يتاح لي خلالها الكلام، ان أؤكد ثقتي بالشعب البرازيلي، العظيم الشجاعة والكرامة والشرف، وبالبروليتاريا العالمية، التي، ولو مهما حصل، سوف تحرز النصر النهائي وتحرر الانسانية من الجوع والاضطهاد»!.

تلك كانت، يا صديقتي، عباراته الأخيرة، التي، رغم احتجاجات برستس وغيولدي، حوّرها المترجم بشكل وقح. وان منظر هذا الرجل الذي بدت في جسمه علامات التعذيب جليّة واضحة المعالم، والذي كان أمره مبتوتاً به من الناحية الجسدية، كان يصدر حكماً رهيباً على متهميه الذين كان يسيطر عليهم بعظمته. وكان صوته وحده يُدخل الرعشة في أوصال الشرطيين.

وتحدث بعد ذلك أجيلدو، بطل الفيلق الثالث، فبدأ كلامه بالتذكير بأن هيئة المحكمة والحضور والموقوفين، كانوا شهود عيان للعنف الذي تعرض إليه اللواء لويس كارلوس برستس. وطلب إلى القضاة ان يصدروا الأمر فوراً بتوقيف رجال الشرطة الذين ضربوا أمامهم أحد الموقوفين، الذي هو، كما قال، أعظم وجه من وجوه البلاد. وطلب ان يُصار، قبل افتتاح الجلسة

بصورة فعلية، إلى انشاء محضر ضبط بالحادث. وصمت بانتظار جواب المحكمة. ولما لم يتلق هذا الجواب توجه نحو القضاة بصوت يهتز اهتزاز الصفعة:

«أممكنٌ هذا؟ ما الذي جرى لطلبي؟ هل سيصار أو لا يصار إلى كتابة محضر ضبط بالحادث الوحشي»؟.

وبين دهشة الحضور، استشار رئيس المحكمة. الذي استبد به التأثر، رومانو رئيس الشرطة، الذي يقف خلفه. وأصدر رومانو أوامره. فتحول الرئيس نحو أجيلدو قائلاً إنه سيصار إلى الاهتمام بهذا الحادث في ما بعد. عندها بدأ قائد أول فيلق في الجيش الشعبي البرازيلي الدفاع عن نفسه وعن رفاقه الذين أسهموا مثله في ثورة سنة ١٩٣٥. وأخذ يفنّد اتهامات الحكومة المتعلقة بالصفة «الشيوعية» لثورة سنة ١٩٣٥، ويحلل الأسباب التي أدّت إلى انتفاضة ناتال وثورة رسيفي. وبرهن ان التحالف الوطني التحريري، وقيادته العسكرية، قررا مساعدة حركة الشمال الشرقي، وأصدرا لثكنات ريو الأمرَ بالثورة. وذكّر بأن حملة مناهضة للشيوعية سبق لها ان شنت بمناسبة حوادث سابقة. ولقد نُعت ثوريو سنة ١٩٣٠، هم أنفسهم كذلك، بالشيوعية، تلك الصفة التي لم يحرم منها كذلك ثوريو سنة ١٩٣٢. وأخذ أجيلدو على مسؤوليته، كضابط في الجيش الذي ناضل في ثورتي سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٣٢، أمر الدفاع عن حكومة ناتال الوطنية ـ الثورية، مؤكداً ان: «حكومة تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ لم تكن شيوعية، بل وطنية تحريرية. ولم تكن هذه الحركة تهدف إلى الاستيلاء على الحكم من أجل إقامة دكتاتورية للبروليتاريا، بل إلى انشاء حكومة وطنية ديمقراطية تمثل فيها جميع شُعب الرأي العام، الوطنية، بصورة شرعية».

واستعرض أجيلدو كذلك وضع البلاد في الوقت الحاضر، وأشار إلى الخطر الفاشي الذي كان عليه ان يتحول بعد فترة من الوقت وجيزة إلى حقيقة لا مراء فيها. وفضح علاقات الحكومة بالنازية، ثم أشار إلى إهمال الحكومة للدفاع الوطني. وصاح لكي ينهي قرار اتهامه:

« من هم إذن المجرمون الذين يتوجب عليهم ان يمثلوا أمام العدالة بتهمة ارتكاب جريمة خيانة الوطن الدنيئة »؟.

وأجاب الشعب البرازيلي عن هذا السؤال، من خلال الإرهاب: إنهم الرجال الذين يحكمون البلاد.

وجاء دور اغليبرتو. وكان قد سبق لقائد مدرسة الطيران ان حكم بسبع وعشرين سنة وبضعة شهور من السجن. وكان بوّد الحكومة ان تركّز عليه حقد رفاقه في الجيش. وأخذ أغليبرتو، الذي يشكّل رمزاً للشجاعة والإخلاص، يدافع عن التحالف الوطني التحريري؟ ويفسر أسباب ظهوره في البلاد، والمساعدة التي كان يقدمها إليه الشعب. ولم يكد يصل إلى منتصف مرافعته، حتى عمدت المحكمة إلى منعه من متابعة الحديث، بالرغم من كونه لم يستوف حقه في التحدث خلال خمس عشرة دقيقة.

وتحدث بعد ذلك رودولفو غيولدي. وأشار هذا بسخرية إلى المخازي التي ارتكبها فرغولينو هيامالايا، مدعي عام محكمة الأمن، في ما يتعلق بالشوري الصيني فان مين، الذي حولته الشرطة والمحكمة إلى هولندي. وتحدث عن تضامن البروليتاريا العالمية مع الاتحاد السوفياتي، ومزّق إرباً إرباً الاتهامات التي وجهتها الشرطة لثورة سنة ١٩٣٥. ثم برهن ان لا علاقة البتّة للأممية الشيوعية بهذه الحركة. وأشار بعد ذلك إلى التزوير الذي استهدف إليه خطاب فان مين، الذي يشكل قطعة أدبية جيلة، هي من الروعة ومن السخرية الفنية بمكان، لدرجة لم يملك معها أحد قضاة المحكمة العسكرية نفسه، وقد أخذ بجمال الأسلوب وقوة المنطق، من ان يُظهر رغبته في إعادة قراءتها في فترة راحة. وأشار غيولدي بعد ذلك إلى الأسباب التي دعته، بصفته شيوعياً، إلى اعتبار الاسهام في نضال الشعب البرازيلي التحريري، واجباً عليه. لقد شاهد وأحسّ بتعطش هذا الشعب إلى الحرية، فوقف إلى جانبه ابّان نضاله. وكان لنهاية خطابه جمال عميق مؤثر، وقوة ثورية عظمى:

« لقد قضيت ثلاثين شهراً في البرازيل، عشرين منها في السجن. وان

بمقدوري التأكيد بقوة، انني لا أعرف من هذه البلاد العظيمة، سوى نظام الاعتقال فيها، ولكنني تعرّفت، في الديتنسون، إلى برازيليين من كل النواحي ومن مختلف المهن، آراؤهم السياسية هي من الاختلاف بمكان عظيم. ولقد تعلمت التعرف عن كثب إلى مطامح ومشاعر الشعب البرازيلي، الذي أشعر بارتباطي به بصورة لا انفصام لها، بأحرّ أواصر المودة والتضامن. ولقد شاهدت مقدار ما هي عميقة إرادة هذا الشعب في التحرر الوطني. وأنا، باعتباري شيوعياً ارجنتينياً يفخر بصفته هذه، أشعر كذلك بأنني مواطن لكل أميركا اللاتينية، التي اتمنى رؤيتها متحررة من التهديد الفاشي، من السيطرة الاستعمارية، ومن كل تأخر اقتصادي وثقافي. وانني، وقد تعرضت لتحديد في حقي بالالتجاء، أناضل من أجل الحريات العامة. وإذا ما منحت المجال في هذه الساعة المظلمة، حيث تتعرض الأمم لغارات أشبه ما تكون بتلك التي يتعرض إليها المسافرون على الطرق عندما ينقض عليهم قطاع الطرق الكبرى، هذه الساعة التي تحاول هيئات أركان حرب خلالها ان تصنع في أميركا منشوريا جديدة، وتتآمر قوات ظلامية داخلية ضد كرامة ونزاهة شعوبنا، إذا ما أتيح لي ذلك أقول: إنني على تمام الثقة بمقدرة الرجال الواعين في بلادنا على توطيد أركان السلام في قارتنا ودفع تهديدات العدوان. وإذا ما كان هناك من وجود لوعي أميركي، فعلى هؤلاء ان ينمّوه ليصبح ان يكون أساساً لاتحاد حر لجمهوريات معادية للاستعمار في أميركا اللاتينية».

وبانتهاء مرافعة غيولدي انتهت المحاكمة. وأصدر رئيس المحكمة الأمر إلى الجمهور بالانسحاب، فغادر القاعة تسعة أشخاص بالضبط من بين العشرات الذين كانوا يشكلون الجمهور. وكان الآخرون عملاء ومفتشين في الشرطة الخاصة، يرتدون الثياب المدنية، اخفقوا في اكمال تمثيل المهزلة بالخروج. ووجه العقيد كيروز عندها إهانة جديدة للجيش وللعدالة، المتمثلين بالألوية القضاة، وأصدر الأمر، دون استشارة رئيس المحكمة، بصرخات عالية، إلى الشرطيين الذين يؤلفون الجمهور بالانسحاب.

واقتيد المعتقلون، فيما عدا برستس وبرجيه. ولم يكن بالمراد اعادتهم إلى

الديتنسون، حيث كانوا سابقاً، بل إلى الشرطة الخاصة حيث سيتعرضون لتعذيب جديد. وكان من بين الذين حضروا الجلسة الماجور ادموندو ماسيدو سوارس، من مكتب الوزير ماسيدو سوارس، الذي سارع، عندما علم بنبأ إصدار الأمر باقتياد المعتقلين إلى مباني الشرطة الخاصة من أجل سومهم العذاب، يحمل النبأ إلى مكتب الوزير. وأصدر ماسيدو سوارس، وهو الوزير الوحيد الذي بذل الجهود من أجل معاملة المعتقلين ككوائن بشرية، الأمر بإرسال المعتقلين إلى السجون التي أحضروا منها، دون تعريضهم لأيّ عقاب. ولكن الماجو ادموندو اضطر، من أجل تنفيذ هذا الأمر، إلى الاشتراك بمناقشة حادة مع رئيس الشرطة، فيلينتو مولّر، الذي كان يريد ان ينتقم من الحقائق التي أعلنها الموقوفون ابان المحاكمة. ورأى الماجور ادموندو نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى سلطة الوزير كلها وإلى سلطته هو، ضد هذا الرجل، الذي كان نقيباً في طابور برستس في سنة ١٩٢٤ وطرد منه بسبب من سفالة وخيانة، والذي يريد الآن الثأر من هذا الطرد بسوم برستس ورفاقه ضروب التعذيب.

ولم يمت صوت المعتقلين، الصوت العظيم الرائع للحرية، بين جدران المحكمة العسكرية الأربعة.

وقليلاً ما يهم، يا صديقي، ان تكون هذه المحكمة، بضغط من الشرطة، قد ثبتت الحكم الذي أصدرته محكمة الأمن. فلقد استعمل برستس هذه المحاكمة لكي يدل شعبه على الطريق الواجب اتباعها في ليل الارهاب. وان هذه لهي الطريق التي سيتبعها الشعب في نضاله من أجل الحرية. وهي الطريق التي نمشي عليها نحن الآن يا صديقي.

- ٩ -

عندما قبل مجلسا النواب والشيوخ في أواخر أيام سنة ١٩٣٥، الاسهام في الاستفزاز المعادي للشيوعية، الذي نظمته الحكومة، حكما على نفسيهما بالانتحار، إذ انهما بذلك يكونان قد أعلنا للحكومة عن رغبتهما في الإقلاع عن كل نشاط، في حياة البلاد السياسية. ولم يكن العاشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٧ هو التاريخ الذي صفت خلاله الحكومة أمر المجلسين، ووضعت حداً لنظام التمثيل الشعبي. فلقد صفى المجلسان أمرهما بنفسهما في اليوم الذي اقترعا فيه على إعلان حالة الحصار في البلاد، وذلك الذي اقترعا خلاله، في نيسان سنة ١٩٣٨، بصالح إعلان حالة الحرب بصورة رسمية وألقيا بأربعة نواب وبشيخ بين براثن الارهاب البوليسي.

فلقد كان هذان المجلسان يشكلان، حتى ذلك التاريخ، حاجزين قويين ضد عمل الحكومة المشؤوم. فكثيراً ما كان ينتصب فيهما رجال شجعان ويفضحون جرائم الشرطة. بل ولقد استطاع المعتقلون السياسيون انفسهم سماع صوتهم من فوق منصتي هذين المجلسين، وذلك بفضل الرسائل التي كانت تتسرب من السجن، بطريقة سرية، وترسل إلى النواب لإثارتهم وفضح الدناءة والحيوانية التي تلجأ الحكومة إليها في معاملتها للثوريين. وارتفعت أصوات «جوان مانغابيرا» و«أوتافيو داسيليبرا» و«دومينغوس فيلسكو» و«ابغوار باستوس» و«كافيه فيليو»، في مجلس النواب، وتعالى في مجلس الشيوخ صوت «ابل شرمونتي» يرسل باتهاماته المؤثرة. وكانت هذه الأصوات الحرة المرتفعة في مجلسيْ الشيوخ والنواب، تجعل الشعب على صلة بالجرائم التي كانت تُرتكب ضده. وأصرت الشرطة على إعلان حالة الحرب. وجاء اعتقال برستس يثبّت انتصارها. وزُورت الوثائق، وعُمد إلى الضغط

حيثما دعت الحاجة، ونظمت الانتغرالية عديداً من حوادث الاستفزاز. فاقترع النواب والشيوخ، الذين استبد بهم الهلع، لصالح إعلان حالة الحرب، وسرعان ما أحسوا، هم أنفسهم، بالنتائج التي ترتبت على هذا الاقتراع. في الليلة نفسها التي أعلنت خلالها حالة الحرب، ألقي بأربعةٍ من النواب في غياهب السجن، واعتقل عضوٌ في مجلس الشيوخ وسيم ضروب العذاب.

وبلغت الرجعية، وقد استندت إلى الأقلية المؤيدة لقيام الدكتاتورية، الذروة من الانطلاق. وكانت الانتغرالية، وقد رأت أبواب الحكم تنفتح أمامها، تشكل السند الرئيسي للحكومة وللرجعية. وعلى الصعيد الدولي، كانت الحكومة البرازيلية تعتمد على مؤازرة ألمانيا وعلى ميثاق محاربة ـ الكومنترن. وأخذت النازية تتغنى بامتداح هذه الحكومة. ووضع هتلر تحت تصرفها ثلاثين طائرة لتستعملها، حين تدعو الحاجة، من أجل خنق أية حركة ديمقراطية قد تعترض سبيلها، وعقد معها اتفاق «الماركات» المعوّضة (الذي وقعه أحد الانتغراليين). وكان بعضٌ من ذوي الرتب العالية في الجيش يتآمر في ذلك الوقت مع الانتغرالية ويساند، هو أيضاً، الرجعية الحومية.

وكان الاستعداد لانقلاب العاشر من تشرين الثاني قد بدأ في سنة ١٩٣٥، عندما اعطت الحكومة لكلمة «شيوعي» أوسع ما يمكن من المعاني. فلقد أضحى شيوعياً كل انسان ديمقراطي أو ليبرالي أوإشتراكي، وكل رجل يساريٌّ أو من أحزاب الوسط كان يعارض أي تجاوز للسلطات على القوانين. وكانت السجون تغص باناسٍ من مختلف الاتجاهات السياسية. ولم يبق اعضاء التحالف وثوريو شهر تشرين الثاني وحيدين في مواجهة التعذيب في السجون. فلقد كانت تهمة «شيوعي» تُوجه إلى مختلف أوساط المعارضة. وزج في غياهب السجن بحاكم المنطقة الاتحادية، بدرو ارنستو، ذلك الطبيب الذي استحق تقدير الشعب العميق للطريقة التي كان يلجأ إليها من أجل العناية بصحة وثقافة الجماهير، لان شعبيته كانت تزعج الفاشيين. وأضُطر أنيزيو تيشيرا، أمين سر التربية الوطنية في المنطقة، والدافع إلى قيام عمل تربوي عظيم، إلى الاستقالة من منصبه لاتهامه بـ «الشيوعية». وكانت الحكومة لا

تفتأ تلجأ إلى مثل هذه الأساليب لكي تستمر في السيطرة على الحكم.

وكانت الانتغرالية تتآمر. لقد كانت تسند الحكومة، ولكنها كانت تحلم بالاستيلاء على الحكم في الوقت نفسه. وكان رئيس الشرطة وبعضٌ من الألوية، ضيوف بلينيو سلغادو الدائمين، وكانوا يرون فيه الرجل الذي سيجعل من حلمهم حقيقة واقعة: ربط البرازيل نهائياً بالمانيا، وتحويلها إلى دولة فاشية.

ولم يكن فارغاس غبياً عما يجري حوله. لقد كان يستعمل الانتغرالية، ولكن لم يكن لديه أي ميل لأن يتخلى لها عن الحكم. وهو، فوق ذلك، وإن كان قد قدم امتيازات بالغة الأهمية للاستعمارية الألمانية، قد كانت له ارتباطات جدية مع الولايات المتحدة. وكانت ملاحقته للديمقراطيين تشكل لعبة معقدة بالغة الدقة.

وكان الشعب المكبل المكموم الفم، يغتنم جميع المناسبات للافصاح عن حماسه للديمقراطية. وهكذا، عندما اكتشف جوراسي ماغالياس، الذي كان لا يزال حاكماً لولاية باهيّا منذ عهد «التيننتيسمو»، مؤامرة «للقمصان الخضر» ضد حكومة هذه الولاية ووضع الانتغرالية خارج القانون، منحه الشعب تأييداً حماسياً. وانتهى الأمر بالضغط الشعبي إلى فتح عيون النواب والشيوخ. وعندما انتهت الفترة الثانية لاعلان حالة الحرب، رفض هؤلاء تمديدها للمرة الثالثة.

وأشرفت مدة ولاية فارغاس على نهايتها. وبدأ الشعب يتابع نضاله حول مرشحيْن ديمقراطيين. ومُنح بعضٌ من المعتقلين السياسيين، الذين لم تكن قد وجهت إليهم بعد أية تهم، حريتهم. وبدأت البرازيل تتنفس بملء رئتيها. إن حب الحرية متأصلة جذوره في قلب الشعب البرازيلي، يا صديقتي.

ان الترشيح للرئاسة في سنة ١٩٣٧، والحملات الانتخابية التي نتجت عن ذلك، هما برهان ساطع على حب الشعب البرازيلي للديمقراطية وللحرية. وأعلن رجلان ديمقراطيان ترشيحهما للرئاسة، وهما: حاكم سان باولو،

ارماندو سالس دي أوليفيرا، ووزير الطيران القديم، الذي كان عندئذ وزيراً لمحكمة ضبط حسابات خزينة الدولة، جوزيه أمريكو دي ألميدا. ورشحت الانتغرالية فوهررها المثير للسخرية. وتابع الشعب حضور اجتماعات المرشحيْن الديمقراطيين الانتخابية التي لا تُنسى. وقرأ جوزيه أمريكو بيانه في ساحة دوكاستيلو. ووعد أرماندو سالس، من جهته، بانشاء إدارة حرة، لن تتعرف فيها جرائم الحكومات الماضية إلى الوجود مرة أخرى. وجرت الحملة في جو من الحماس الديمقراطي. وكان الشعب يشارك في الاجتماعات الانتخابية بجماهير غفيرة، وقد تكشّف عن حماس طاغ فياض. وأخذ الناس يسجلون اسماءهم في مراكز الاقتراع. لقد كان الشعب يريد ان يتنفس. وكان ذلك هو الوقت الذي خلّف فيه ماسيدو سوارس، راو، في وزارة العدلية، وقام خلاله بزيارة المعتقلين السياسيين وأبدى اهتمامه بمصيرهم، وشنها حرباً لا هوادة فيها ضد رئيس الشرطة.

وجمّع جوزيه أمريكو حول ترشيحه فقراء الناس في البرازيل. وبسبب من ألاعيب الانتغراليين، وجهت كبار المؤسسات الاجنبية إلى جوزيه أمريكو، هو أيضاً، تهمة «الشيوعية».

وكانت الطبقات الشعبية التي لا تؤيد جوزيه أمريكو، تمنح مؤازرتها لأرماندو سالس، حاكم سان باولو، هذا الرجل الذي يهتم، باعتباره مثقفاً وسياسياً بارعاً وبسبب من كونه حاكماً، بالتعليم وبالطفولة. ولقد حقق، لدى توليه الادارة في سان باولو، عملاً ثقافياً واجتماعياً واسع المدى. ولم يكن هذان الترشيحان نتاجاً لجرعة سياسية من نوع ما. ولقد كان حماس الشعب يحيط بهما، وكان حب الحرية والديمقراطية يشتعل وقّاداً في قلب هذا الشعب.

عندها هرع جيتوليو فارغاس إلى طلب العون من بلينيو سلغادو، واختفى خلف رئيس الشرطة ووراء «غوويس مونتيرو» و«دوترا» و«نيوتن كافالكنتي» واختفى وراء حكم الأقلية. وقدم ماسيدو سوارس استقالته. فاستدعى «جيتوليو» «فرنسيسكو كامبوس» الذي جاء بدستور فاشي

يختفي وراء قناع حقوقي. وتتابعت المباحثات بين «بلينيو» و«كامبوس» باستمرار، وكان جيتوليو يستند إلى الانتغرالية من أجل تحقيق انقلابه.

وكان على قوى البلاد الديمقراطية، مرة أخرى أيضاً، ان تحصد ألماً بذارَ عدم اتحادها. فبينما كان واضحاً ان فارغاس، المؤيد من قبل بلاد المحور والقوى السياسية للمحور في البرازيل، والذي يعتمد بصورة شخصية على الانتغرالية، سيقوم بانقلاب من نوع فاشي، لم يتوصل الديمقراطيون إلى توحيد كلمتهم حول واحد من مرشحيْهم للرئاسة، بالرغم من معرفتهم بانهم يسيطرون على أهم ولايات البرازيل الثلاث: سان باولو، التي كان أحد المرشحيْن، أرماندو سالس، حاكماً لها، وريّو غراندي دوسول، حيث كان فلورس داكونيا يؤيد أرماندو، وباهيّا، حيث كان جوراسي ماغالياس يؤازر جوزيه أمريكو. وعلاوة على ذلك، كان كارلوس لبيما، حاكم برنمبوكو، يؤيد جوراسي.

وكان بمقدور اتحاد القوى الديمقراطية، الذي كان يدعو إليه اليساريون ورفاق برستس، ان ينجح في انشاء حكومة العهد الجديد؛ فلقد كان ضعف الحكومة بادياً لكل ذي عينين، وكانت سياستها الخارجية المناصرة علناً للمحور، تثير ضدها غضب الجماهير. ولكن المرشحيْن الديمقراطيين ومؤيديهما كانوا يفتقرون إلى نهج سياسي صحيح. كان اليساريون يقولون إن الاتحاد الديمقراطي هو طريق الخلاص الوحيدة، ولكن السياسيين أصروا بعناد، كل من جهته، على ابقاء المرشحيْن في الساحة. عندها قذفت الحكومة المرشحيْن، كلاهما، بتهمة السير بقيادة «الشيوعيين». وجواباً عن هذا الاستفزاز، الذي كان بمقدوره ان يؤدي إلى توحيد القوى الديمقراطية الوطنية فيما لو كان للمرشحين نظرة صائبة حول مجريات الأمور، اندفع هذان، على العكس من ذلك، في تقديم عدة تنازلات للمستفزين؛ لقد كانا يعتقدان بان تلك هي الدرب الصالحة التي تمكّن الاقتراع من ان يحصل. واغتنم المخربون ضعف المرشحيْن لكي يروّجوا لفكرة اعادة النظر في الدستور.

كان الانتغراليون يقومون باستعراضات في الشوارع. وكانت السفن الألمانية تُفرغ السلاح في مرفأي «بارانا» و«سانتا كاتارينا». وتلقّى فون كوسل، الرجل الذي أرسل به هتلر لكي يدير سياسته في البرازيل، المدالية الذهبية المخصصة لأحسن النازيين بلاءً في الخارج. وهو لم ينشىء فقط ٨٧ مركزاً نازياً بالغ الأهمية بين المان البرازيل، بل لقد عمد، بصورة خاصة، إلى تشكيل الحزب الانتغرالي.

وأخرج عندها غرويس مونتيرو من جعبته وثيقة في منتهى السخف، عزاها للكومنترن، كانت تحتوي على «خطة» بلهاء للقيام بـ«ثورة شيوعية في البرازيل». وأُرسلت بـ«الوثيقة» إلى مجلس الشيوخ. وكان فرنسيسكو كامبوس يدرس في هذه الأثناء مع بلينيو سلغادو أمر الدستور التعاوني المنوي اعطاؤه للبلاد.

وأعلن المجلسان، اللذان سبق لهما ان سارا في طريق الانتحار في سنة ١٩٣٥، حالة الحرب مجدداً في البلاد. ومع هذا كان اتحاد القوى الديمقراطية لا يزال ممكناً. وحاولت العناصر اليسارية، التي كانت تحس الخطر بوضوح، ان تقنع رؤساء الفريقين الديمقراطيين بالضرورة الملحة لتشكيل الجبهة الموحدة. ولكن مرشحيْ الرئاسة كانا يثقان بما يقال لهما. لقد أُكد لهما بان «انتخابات الرئاسة سوف تجري دون شك». وكانا يؤمنان بهذا «التأكيد»، ايمانهما بالتأكيدات التي قدمتها الشعبة الانتغرالية الصغرى في الجيش، التي كانت هي، مع هذا، بطل تقديم «الوثيقة». وبدلاً من ان يتحدا، قاما بتنازلات جديدة: أعلنا انهما، هما أيضاً، على استعداد لمحاربة «الخطر الأحمر» المزعوم.

وبينما كان الانتغراليون ينتشرون في الشوارع، وقد تسلحوا بالخناجر الموشاة بالسوستيكا، وبالبنادق الألمانية، ذهب نيوتن كافلكانتي لاقفال أبواب مجلسي الشيوخ والنواب، وقام فارغاس بانقلابه بمنتهى الهدوء. وأعلن في العاشر من شهر تشرين الثاني، للبلاد وللشعب، بانه لم يبق هناك من

وجود للجمهورية، التي استُبدلت بالدولة التعاونية الجديدة التي استمد دستورها من الدستورين الايطالي والبرتغالي، والتي تتمتع بتأييد حماسي من قبل المانيا وايطاليا الفاشية.

إن أكثر سنوات الدولة الجديدة اثارة للرعب، سوف تأتي كذلك، يا صديقتي. فالدولة الجديدة تتميز بنظام من الفساد، من الاحتقار المطلق الوقح لمصالح البلاد والشعب. انها نظام من عبودية ومداهنة وسفالة بلغت حدها الأعلى من الانطلاق. ان هذا هو عهد الطغيان في أميركا. طغيان مذلّ مجرم.

- ١٠ -

في الوقت الذي كان برستس يجتاز فيه مع طابوره السرتونات الصعبة المسالك ، كان الشعب اليائس ، يا صديقتي ، يدعوه بـ « **فارس الأمل** » . لقد كان عندئذ أمل البرازيل ، أمل الشعب المطالب بالحرية . وإنه لنجمة الصباح في ليل التعاسة ، لنهر صفت منه المياه في أيام الجفاف ، إنه قلب رجل بين قلوب حيوانات مفترسة انفلتت منها الغرائز . وعندما ستنقضّ أيام التعاسة ، في عهد الدولة الجديدة ، على البرازيل ، كسيل هائل من الوحل والسفالة ، سوف تنطلق ، مرة أخرى أيضاً ، من أربعة انحاء البلاد ، من الشمال والجنوب ، من الشرق والغرب ، أصوات الشعب اليائس ، الجائع والمكبّل ، وتناديه بـ « فارس الأمل » . كان برستس ، يا صديقتي ، قد وجد في أحد الأيام ، خلال سير الطابور في الغوياس ، رجلاً أوثق منه العنق واليدان والرجلان إلى إحدى الأشجار . إن قاضياً ثملاً كان قد أصدر بحقه حكماً ما قبل إحدى عشرة سنة من هذا التاريخ ، بالرغم من كونه بريئاً . ولقد أوثقت الدولة الجديدة شعب البرازيل ، على هذا الشكل ، من يديه وقدميه وعنقه ، إلى جذع احدى الاشجار ، يا صديقتي ، اوثقته من يديه وقدميه وعنقه ، يا صديقتي ، ولكن قلب البرازيليين ظل حراً ، حراً كالهواء ، كالنجوم والبحر . إن قلب شعب البرازيل يخفق مع بطله من أجل الحرية . إنه يخفق خفقان قلب الثائرين الحر . ومن داخل سجنه القذر ، حيث كان وحيداً معذباً ، مريضاً وبعيداً عن عشيرته ، وحيث وجهت إليه افظع التهم واعظمها دناءة ، وسيم جميع ما يمكن لمخيلة مريضة لأناس أشرار أن تخترع من ضروب التعذيب ، كان لويس كارلوس برستس ، فارس أمل البرازيل يحتفظ بقلب حر ، وكان قلبه يخفق من أجل شعبه ووطنه ومن أجل الحرية .

إن قلبه المصنوع من فولاذ ودم، من انسانية، من عبقرية وبطولة، يشكل أعظم ما حققه الجنس البرازيلي.

وبينما كانت أشعار كاسترو ألفيس تحمل الحرية إلى البرازيل، كانت أعمال لويس كارلوس برستس، خلال سنوات السير الكبير، وملحمة كرامته في السجن وإبّان العذاب، تجعلان الحرية تشعُّ فوق البرازيل. إنه النجمة الجديدة التي شاهدتها حمراء قانية تلمع في سماء الوطن، يا صديقتي.

وفي بيوت البلاد الداخلية الفقيرة، تعيش الحرية، يا صديقتي، في اللهيب الزاهي للشموع التي تشتعل تحت صورة البطل. إنها تحيا في الحب الذي يغلّف احتفاظنا بالأشياء التي لمستها يداه، ويغلف صوت جميع الفقراء الذين ينادونه، وجميع الفلاحين الذين أقلعوا عن أن يكونوا قطاع طرق. إن قلب الشعب قد حفرت فيه هذه العبارات بشكل لا يمكن معه لاي الم أن يمحوها: «أيها الشعب، إن بطلك هو **فارس الأمل**».

إن دم قلبه يغذّي البرازيل. ويهبنا لويس كارلوس برستس، يا زنجيتي، الاملَ والثقة والشجاعة. وان وحل السفالة والم التعذيب وقذارة الفساد، أن كل هذا لا يستطيع أن يجد له مكاناً في قلوبنا التي طهرتها كرامة لويس كارلوس برستس من كل دناءة.

وفي وسط الفساد والالم، يا صديقتي، في وسط افظع الفساد وأعمق الالم، ينتصب وجه لويس كارلوس برستس المتناهي السعة، وتشعّ عظمته النادرة المثال. لقد قال الشاعر، يا صديقتي، إنه في كل مرّة يضطهد الظلمُ فيها الحرّية ويرفسها بالاقدام، تنتصب هذه أشدّ مضاء. وإن الامر لكذلك بالقياس إلى لويس كارلوس برستس. إنه رجل لا تتوصل الآلام إلى أن تحنيه، ولا تجد عروض الطغاة وقعاً لها في نفسه. إنه الحرية التي تعيش خفّاقة في قلوب الناس. ويهيمن لويس كارلوس برستس، بقامته، على الاشخاص القميئين التعساء الذين يعيشون عالة على آلام الشعب. وينتصب الأمل والحرية معه. إن فارس الأمل يسمو مع الشعب، يا صديقتي، فوق الطغاة، وفوق الآلام والشقاء والرعب.

لقد سبق وقلت لك، يا صديقي، إن السجن والالم يجردان الناس من كل ما هو سطحي فيهم ولا يبقى في قلب سجين يسام العذاب إلا ما هو صحيح حقاً. وويلٌ لمن لا تشكل الكرامة والرزانة وحب الحرية والشعب سوى قناع له، يا صديقتي. ويلٌ لمن لا يحمل سوى قناع البطل، يا زنجيتي! ففي السجن، يتساقط هذا القناع لدى أولى التعذيبات، لدى أول العروض المغرية الدنيئة. وإن الرجل الذي صُنع قلبه من فولاذ، ونسجت من الشبَه[٩] نفسيته، والذي يخفق حبُّ الحرية في صـدره، وتشكّل البطولة بالقياس إليه شرطاً للعيش نفسه، هو وحده يظل رجلاً في السجن ووسط الالم. وكذلك هو لويس كارلوس برستس، بطل البرازيل!

وليس هناك من أدخل الرعب إلى قلوب الطغاة خيراً منه. وإن الشعب ليقدسه ويؤمن به كما لم يسبق له أن آمن بأي إنسان. ذلك كان السبب الذي دفع الطغاة الذين يريدون خداع الشعب إلى محاولة شرائه. ولقد عُرض عليه كل شيء: السلطة والمجد ورفاه العيش وجميع مباهج هذا العالم. عرض عليه كل شيء شرط أن يقف في الصف المعادي للشعب. ولكنه رفض جميع العروض. ولم يستطع أيُّ معدن بالعالم أن يخلب منه اللب ويشتريه، ولم يتوصل أيُّ وعد إلى احنائه. عندها، وعلى سبيل الانتقام، سيم جميع ضروب العذاب، وانفلتت عليه وحشية مفترسة، ووُجّـه إليه من الإهانات أعظمها بذاءة. ولكنه لم ينحن، وظل رأسه يسمو مرتفعاً، وبقي قلبه الفولاذي قلباً للشعب.

إنه لم يكن يحمل قناع بطل، بل كان هو البطل، البطل الذي تبناه وغذاه ورباه الشعب، والذي يغذي الشعب الآن بقلبه وبعظمته.

على هذا الشكل هم الابطال، يا صديقتي. ويحتضن الشعبُ البطل الذي هو ابن له. وفي ما بعد يصبح البطل، وهو في مقدمة الشعـب والحريـة، والداً للشعب، ويعذبه بمثاله وعلوّ قدره.

---

(٩) البرونز.

وإننا لنحيا به، يا صديقتي فمنه يأتي الامل الذي نرسل باشعاعه، ومنه تأتي قوتنا في النضال. وإننا لنقرأ في عينيه المتوقدتين اللتين لم تكدر صفاءهما قضبانُ السجن، وظلتا محتفظتين بحسها الرائع لترسّم الأشياء، اننا لنقرأ في هاتين العينين مستقبل البرازيل. وسيظل الشعب واقفاً طيلة ما هو واقف، وتظل البرازيل منتصبة والحرية أيضاً. وإن الحرية لا تُباع ولا تنحني، يا صديقتي. إنها خالدة خلودَ الانسان، خالدة كالعبقرية وكذكرى الابطال: إنها الشعب، يا صديقتي. إنها **لويس كارلوس برستس**. لقد ولدت مع أول بطل للبرازيل، ولن تموت أبداً لان الشعب لن يموت. وتُدعى البرازيل أيضاً **لويس كارلوس برستس**، يا صديقتي.

وإننا نحن كتاب الشعب، أصوات الناس المستعبَدين، منه نستمد حياتنا. وإننا نحن الشعب، الجنود، الفلاحين والعمال، الاغنياء والفقراء، نحن الذين نحب الحرية والوطن، نتغذى من كرامته، من صفاء طبيعته، من نزاهته المعنوية، من قوة ثقته، من عظمته في الالم، من ايمانه بالشعب ومن عبقريته. وإن البرازيل، يا صديقتي، هي هذا الرجل المحتَجز. ولم يتعرف أيُّ شخص، له ما للويس كارلوس برستس من عظمة أبان أيام التعاسة، إلى الوجود مطلقاً. وإن واقع وجوده يسمح بأن نحلم بمستقبل البرازيل.

واننا اليوم، كما في الامس، فيه نركزّ آمالنا. ولقد سماه الشعب في أحد الايام بفارس الامل. ويحلق هذا الاسم اليوم فوق البرازيل، كالصرخة وكالصخب، في الظلام، مغطياً اليأس والتعاسة، ومفتتحاً الدروب القائدة إلى التحرير. وهو كالمنارة في وسط بحر متلاطم الأمواج، وكنجمة في السماء ساعة انطلاق العاصفة، وكالقلب حين يخفق بالحب، إنه **فارس الأمل**.

وارسلت شعوب العالم كلها باحتجاجات صخابة ضد سجنه. لقد شاهدت عيناه لدى الشرطة الخاصة فصولاً من القسوة بعيدة عن حدود التصور، وكابد من الآلام ما لا يمكن احاطته بوصف؛ فلقد سيم رفاقه

العذاب أمام ناظريه، وبدأه القول قاضٍ أنيط به أمر استجوابه: إنه قادم لادانته. ولم يكن بمقدوره الكتابة لا إلى زوجته ولا إلى شقيقاته، ولم يكن يعرف إذا ما كانت أولغا لا تزال حية في سجنها في ألمانيا، ولا كونه أصبح والداً لبنيّةٍ صغيرة. ولم يكن بمقدوره الاتصال بأي إنسان، بل ومنع حتى من الاتصال بمحاميه.

وانتهى الامر بالاحتجاج الذي كان العالم كله يصعّده، بالقاء الرعب في قلوب الطغاة. ونُقل في أحد الايام إلى سجن آخر. وليس هناك من مكان في قلوب الطغاةِ إلا للحقد والخوف من الشعب. عندما انتشر الشعب في الشوارع طيلة حملة سنة ١٩٣٧ الانتخابية، نُقل برستس إلى سجن جديد.

وكان شعب البرازيل والشعوب الحرة في العالم كله، تحتج ضد سجنه وضد التعذيب الذي كانت تتتابع فصوله لدى الشرطة الخاصة. عندها بُنيت في الكوريسون، في جناح المسلولين في مستشفى السجن، غرفة انفراد لبرستس، على طراز القرون الوسطى، بجدران سميكة، تذكر باسوار أحد القصور القديمة، وبشكل مثلث، لا تتعرف لا إلى الهواء ولا إلى النور، قامت في أحد جدرانها كوة غطيت بشريط معدني لمنع برستس من مشاهدة نور النهار. وكانت هذه الكوّة تشرف على فناء صغير في الكوريسون. إنها لم تكن تطل على الشارع، لانهم كانوا راغبين عن تمكينه من رؤية الناس يسيرون في الشارع تحت نافذته. ومن حديدٍ صُنع بابها. وبفضلٍ من احتجاج عنيف صادر عن جميع أنحاء العالم، وعن محاميه، سُمح له بتلقي بعض رسالات واردة من زوجه وامه. وسُمح له بالكتابة إليهما من وقت لآخر.

وناضل رجل قوي البأس شجاع، يا صديقتي، من أجله في البرازيل. وليس هناك من برازيلي واحد يمور في حناياه حبٌّ للحرية إلا ويمنح سوبرال بنتو مودته. لقد عينته نقابة المحامين من أجل الدفاع عن لويس كارلوس برستس. وكانت لهذا المحامي شهرة في النزاهة متأصلة جذورها في القِدم لدى محاكم ريو دي جانيرو. وبصفته كاثوليكياً، ينصت بصورة حقيقية لصوت المسيح، ولا يذهب إلى الكنيسة أملاً في الوقوف إلى جانب أرباب

السلطـان، وبصفتـه مسيحياً حقيقيـاً لا يستعمـل اسم المسيـح ستـاراً يغطي به سفالات ما، فهم أنه يواجه جلجلة[١٠] جديدة، واحس بعظمة برستس كلها خلال أيام سجنه. ولما كان مخلصاً لرسالته كمحام، مقدساً مهنةً يُذلها آخرون، وديناً طالما تاجر به كثيرون، ناضل من أجل الناس الذين أنيط به أمر الدفاع عنهم ـ وكان من بينهم هاري برجيه ـ لكي يُعاملوا معاملة الكائن البشري. ولكنه فشل في ذلك، لان مَن كان يناضل معهم كانوا من بؤساء الناس. ولم تكن الاهانات وسوء المعاملة وتحرش الشرطة به واقتياده هو نفسه إلى العدالة، لم يكن كل هـذا ليثير فيـه مـن الغضـب مـا يـدفعـه إلى النكوص، وتابع النضال.

وعندما قام وزير العدلية، في سنة ١٩٣٧، بزيارةٍ لبرستس في غرفة انفراده في سجن الشرطة الخاصـة، واخبره بـانـه اصـدر الامـر بنقلـه إلى الكوريسون، طلب برستس أن يُستبدل ببرجيه، الذي فقد الصواب، والذي كانت به أكثر من أي انسان حاجة لان يُنقل إلى سجن آخر. وعندما اجابت السلطات البرازيلية في الكوريسون سوبرال بنتو، بانه ليس بالمستطاع تقديم العلاج اللازم لبرجيه، لانه لم يكن لديه ما يدفعه اجراً لعلاجه، وضع برستس تحت تصرف المريض كل ما يحمل من مال، ذلك المال الذي أرسلت به إليه امه من المنفى. ولكن السلطات لم تكن تقصد بادعائها ذاك سوى التذرع بحجة ما، لذا رفضت قبول المال المقدم، واستمر برجيه، ولا يزال، في الوضع نفسه الذي يتردى فيه.

لقد بنوا غرفة انفراد خاصة من أجل برستس بالقرب من المسلولين، لكي يجعلوا هذا الداء ينتقل إليه بالعدوى، ويقتلوه على هذا الشكل. وكانت لأسوار غرفته سماكة غريبة، أوحى بها الخوف من أن يأتي الشعب لتحريره. وقسمت إلى قسمين، كان في أحـدهما مفتش يـراقـب بـرستس ليـل نهار. وبقربها كانت تقوم غرفة انفراد هاري برجيه. وكان هذا الكائن الانساني،

Calvaire. (١٠)

الفاجع إلى ما لا حد له، هو الشخص الوحيد الذي يحس به برستس بالقرب منه يا صديقتي. لقد فقد صديقه ورفيقه الصواب؛ لقد تردى ذلك التكنيكي الاجنبي الذي احضره معه، في الجنون والسل، إثر عذاب بربري سامته الشرطة اياه. وكان برجيه يمضّي ايامه في ضرب رأسه بالجدران، وفي تعداد ما استهدف إليه وزوجته من تعذيب، خاطباً بالانكليزية، مرسلاً بالصرخات عالية في الفضاء، تماماً كما لو كان يرى زوجته تعذب أمام ناظريه. ولم يكن يفصل برستس عن هذا المشهد الفاجع سوى بضعة أمتار. ولم يكن في رواق السجن هذا سوى برستس وبرجيه وسجانيهما. وعندما كان برجيه يمضّي خمسة أيام أو ستة في الصراخ والصخب وضرب الرأس بالحائط، وفي الاندفاع في ثورة جنونه، كان رجال الشرطة يأتون إلى غرفته ويخزونه بابر تُلقي به أياماً كاملة في بحار من النوم. وكان شخص برجيه الفاجع، هو الكائن الانساني الوحيد الذي يشعر برستس بوجوده. تصوري اذن يا صديقتي، مقدار ألم هذا الرجل منذ أربع سنوات، منذ ما نُقل من لدى الشرطة الخاصة إلى هذا المكان.

وكانت غرفة انفراده من تلك التي لا يمكن الفرار منها. لقد كانت مظلمة، باردة، قذرة، ومحروسة دوماً بشرطي يقف في الفناء وباحد جواسيس الشرطة يقبع في الداخل. ولم يكن يسمح بان يزوره أحد. ولم يكن يستطيع أن يرى أي انسان، بل ولم يكن يستطيع أن يرى أي شيء، حتى ولا السماء. وخلال السنتين الاوليين، سنتي الشرطة الخاصة، لم يكن يملك لا جريدة ولا كتاباً بل حتى ولا قلماً للكتابة. ثم سمح له بقراءة احدى الجرائد. وبالرغم من تعرض جميع الجرائد في البرازيل للرقابة، كانت هذه الجريدة تمر، مرة أخرى، تحت رقابة رجال الشرطة. وقدمت إليه بضعة كتب. ولكن لم يُسمح له بكتابة مؤلفه الصغير عن الرياضيات الذي كان بوده أن ينشئه من أجل شبيبة بلاده. وكانت مراسلاته مع عائلته عرضة لنزوات رجال الشرطة وكانت تشطب بعض من مقاطعها من وقت لآخر. وكان يظل شهوراً وشهوراً دون أن يعرف شيئاً لا عن زوجه ولا عن أمه ولا عن ابنته.

تلك كانت حياته، يا صديقتي. حياة نسجت خيوطها من التعذيب، حياة استشهاد. وكتب في أحد الايام إلى دونا ليوكاديا يقول: «آه! ليتني امنح الهدوء الذي عليه أن يتجاوب مع الوحدة الكاملة التي فُرض علي أن اتردَّى فيها...».

إنه لم يكن يتمتع حتى بهذا الهدوء، يا صديقتي. وتتابعت الدعاوى التي كان يراد بواسطتها ابعاده عن الشعب. وأُخرج من السجن لكي يُستجوب حول اتهامات دنيئة وبائسة. وأقال رئيس الشرطة أحدّ مديري الكوريسون وأوقفه لانه لا يضطهد برستس بما فيه الكفاية، وعين بدلاً منه رجلاً عُرف بقسوة ووحشية تميز بها حين كان مديراً لمعتقل دوس ريوس التأديبي، أعظم ما عرف من السجون شؤماً. وسوف يسمع برستس، هاري يتحدث ليل نهار، في غرفة الانفراد المجاورة، ويروي صارخاً قصص العذاب الذي استهدفت إليه اوغستا إليز إيورت. على هذا الشكل عاش برستس، يا صديقتي.

ورفضت جميع مطالبه. ولم يكن بمقدوره حتى التحدث إلى محاميه لتهيئة دفاعه حول الدعاوى الجديدة التي كانت تقام ضده. وكانت الرسائل التي يكتبها إليه تظل أياماً عديدة في ايدي رجال الشرطة، الذين كان يراهم بام العين ينقضّون على محاميه لينتزعوا منه بالقوة الوثائق التي تخصه. تلك كانت حياة برستس، يا صديقتي.

وكانت المعاملة التي يلقاها برستس تستثير نفوس المعتقلين المرضى، المحتجزين بالقرب من غرفة انفراده. وكان عريف الشرطة العسكرية المسمى دبوغو، والمعتقل بسبب من جرم ارتكبه في الثكنة، والذي أصيب بالسل في السجن إثر ذلك، يمضّي شهوراً وشهوراً بالقرب من غرفة انفراد برستس. وكان، وقد تأثر بسمو نفس عظيم يعتمل في حنايا المعتقل، يتعبد برستس، بالرغم من انه لم يسبق له أن رآه مطلقاً. ولاحظ دبوغو، يوماً إثر يوم، أن أحد الحرس يرفض الاستجابة لأيّ من طلبات برستس، حتى البسيطة منها والضرورية لحياته؛ فلفت العريف نظر الحارس مرتين إلى هذا الموضوع،

متسائلاً عن السبب الذي كان يدفعه إلى هذا التصرف. فكان كل جواب أرسله هذا هو اطلاقه قهقهة عالية واستمراره على متابعة تصرفه الحقير. وفي أحد الايام انقض العريف، المعتقل المسلول، على الحارس، وقد افلت منه زمام السيطرة على أعصابه، وأوسعه ضرباً ولكماً حتى استطاع قلبه أن يُفرغ بعض ما يمتلىء به من حقد. لقد كان معتقلو الحق العام يكنون احتراماً عظيماً لرفيقهم غير المنظور، ويفعلون ما يستطيعون في سبيل التخفيف عن كربه.

أما في ما يتعلق بالمعتقلين السياسيين، بالرجال المتضامنين مع برستس ـ جنوده ـ، فما كانوا يترددون، عندما كانت تسنح لهم الفرصة، في أن يمنحوه تضامنهم واملهم. وكانوا يتجمعون في كل مساء ويرسلون هتافاً عالياً بحياة قائدهم السجين. وعندما نُقلوا من الكوريسون إلى جحيم فرنندو دي نورونيا، لم يغادروا المكان قبل أن يرسلوا بعبارات الوداع إلى لوائهم. فلقد سُحب المساجين المراد نقلهم إلى فرننذو دي نورونيا، السجن المأتمي القابع في وسط البحر، من أسرتهم في وسط الليل، بواسطة رجال الشرطة الخاصة، وهم يجهلون إذا ما كان يراد أخذهم أو لا إلى «ثلاجات» الشرطة لسومهم ضروباً جديدة من العذاب. وخرجوا واحداً واحداً، وساروا بصمت وهدوء، وقد أحاط بهم الجنود. وما كادوا يصلون إلى قرب مستشفى السجن حيث برستس، حتى توقفوا لحظة، وسرعان ما تعالى هتاف مُدوٍّ يملأ من السجن جميع ارجائه:

ـ يعيش اللواء لويس كارلوس برستس!

إن مظاهر التضامن هذه، وحب الشعب البرازيلي، والاحتجاجات التي تنصبّ من كل انحاء العالم، كل هذا كان يثير غضب الخونة، ويدفعهم إلى الانتقام لانفسهم من شخص برستس.

إنهم لا يملكون الجرأة على إعدامه رمياً بالرصاص، إذ أن الشعب سيطالعهم عندها بثورة عارمة، وهم لا يملكون الجرأة على قتله أمام أحد الجدران، خوفاً من نقمة الشعب. إن بهم رغبة لان يستلّوا منه الروح بتؤدة،

لان يستلوا منه العقل. وكانوا لا يقدمون له سوى ما هزل من الطعام، ويرفضون معاملته كأي كائن بشري يتنفس ويحيا.

ولكن السّجانين، يا صديقتي، لا يعرفون قدر الرجال، ولا يعرف الخونة والطغاة واعداء الشعب من أي طينة صُنع الابطال. إنهم لا يعرفون ماهية القوة الغريبة التي تجري في دم أولئك الذين يشبهون لويس كارلوس برستس!. لقد خُيل إليهم أن بمقدورهم شراءه فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً، وظنوا أن باستطاعتهم احناءه، وفشلوا. ففكروا بقتله بدناءة وجبن، ولكنه قاوم، يا صديقتي. ومعه كان الشعب والحرية هما اللذان يقاومان. وخلال عشر سنوات من التعذيب الهائل، حافظ هذا الرجل على كرامة الشعب ورفع عالياً راية مناقب تفكير وقوة وشجاعة هذا الشعب. ويتناسى الطغاة، يا صديقتي، انه بطل الشعب وفارس الامل، وانه خالد خلودَ هذا الشعب. ولكن الشعب الذي سبق له أن رآه مرتين تحت سماء الوطن، يعرف بانه سوف يراه مرة ثالثة ممتطياً صهوة جواده الاسود، ومفتتحاً دروب الحرية. وعندما ستتحطم قضبان السجون، ويرتفع ثقلُ أيام الالم والتعاسة عن البرازيل، سنشاهد **فارس الأمل** هذا، مرة أخرى، يا صديقتي.

- ١١ -

لقد حُكم بالسجن ست عشرة سنة وثمانية أشهر، يا صديقتي. ست عشرة سنة وثمانية أشهر من سجن هو أعظم رعباً من الموت، حيث كان يعزل وحيداً ويُعامل كحيوان متوحش لا ككائن بشري، وكانت عظمته في الألم تمنح الشعب الشجاعة وتزيد في كراهيته للظلم. وكان الشعب يرى، أكثر من أي وقت مضى، في هذا الرجل السجين، رئيسه ولواءه وبطله...

ست عشرة سنة وثمانية أشهر، إن هذه لمدة قصيرة، يا صديقي، بالنظر إلى الحقد الذي كان يعتمل في صدور الطغاة، وإلى الخوف الذي كان هذا الرجل يوحيه إليهم. وكانوا، وقد أحاط بهم جواسيسهم، يرتجفون لمجرد سماعهم اسم لويس كارلوس برستس. لقد كانوا يعرفون إن الشعب يكرههم ويحب هذا الرجل الذي لا يلين له عود في السجن. وإن هذا الشعب الذي كان يكره الدكتاتورية، كان يعتمل في نفسه كره أشد للدولة الجديدة ذات الصبغة الفاشية.

وأخذت حركة برستس التحريرية تنتشر في جميع انحاء البلاد وفي الخارج. وكان الظلم يرتجف وقد استبد به هلع مميت.

ولم تكن المهازل التي يهيئها الطغاة سخيفة، بل كانت فاجعة، لانها كانت تُكتب بمدادٍ من دم الشعب. ولكن تلك التي حُبكت خيوطها من أجل ابعاد الشعب عن لويس كارلوس برستس، كانت هي السخافة عينها. وكان مؤلفوها يجهلون أن الشعب لا يصدقهم، وإنه لم يكن لأقوالهم أي رصيد لديه. انهم ما كانوا ليرون أنهم إذا ما قذفوا بالوحل زعيم الشعب، فان الأمر ينتهي بهذا الوحل إلى ان يغطيهم هم أنفسهم. لقد جهلوا انه لا يمكن لأي

انسان ان يبْصق إلى مستوى أعلى منه، ذلك لان البصاق عندها يتساقط على وجهه.

واتهمت الشرطة لويس كارلوس برستس بارتكاب جريمة قتل. فارسل الشعب في وجه رجال الشرطة بقهقهات له عالية، ومنح «الوثائق» المقدمة وابلاً من هزئه. فالشعب كان يعرف منذ وقت طويل كيف تصنع «وثائق» الشرطة. ولقد استُعملت «وثيقة» مماثلة من أجل تشييد «الدولة الجديدة».

وعمدت الحكومة، وقد استندت إلى خونة بؤساء فاسدين، بل وأكثر فساداً من رجال الشرطة أنفسهم، وإلى صحافة وإذاعة وكتب يجتز ويقتطع منها الرقيب ما حلا له وطاب، إلى افتتاح هذه المحاكمة السخيفة، بعد ان غطت البلاد بجو من الارهاب كان معه الناس لا يستطيعون حتى ان يتكلموا. تصوري هذا المشهد، يا صديقتي. لقد أخذ الجلادون، وقد أحاط بهم شرطيون قساة القلوب، يبصقون نحو السماء أملا باصابة البطل برذاذ لعابهم. ولكن البصاق ما كان الا ليتساقط على وجوههم ووجوه من تبعهم.

لقد اتُهم برستس بانه مسؤول معنوياً عن موت إلسا فرنندس؛ وهي فتاة شابة توفيت في سنة ١٩٣٥، بطريقة يكتنفها الغموض. وكل ما عُرف ان فرنندس أوقفت في سنة ١٩٣٥ واختفت آثارها من لدى الشرطة. وحاولت الشرطة، عقب توقيف برستس في سنة ١٩٣٦، ان تكشف النقاب عن سر مصير هذه الفتاة. ولكن الناس كانوا لا يزالون يحتفظون بذكرى توقيف إلسا وبجرائم القتل المرتكبة في أقبية ومخابىء الشرطة. فكان من الخطورة بمكان إذن إلقاء تبعة موت هذه الفتاة ساعتئذ على عاتق الثوريين. وفشلت الشرطة في استفزازها هذا. ولكنها ما لبثت ان أخرجت هذه القضية من خزائن محفوظاتها، في سنة ١٩٤٠، وأعلنت ان الثوريين هم الذين قتلوا الفتاة بأمر من لويس كارلوس برستس. وشهد بعض الاشخاص على ذلك تحت تأثير التعذيب وبعض الوعود التي بذلت لهم. وأخذت الشرطة تلوح بيدها، بتحرير زعمت ان يد برستس هي التي اختطت منه السطور. وبالرغم

من انه لم يرد في هذا التحرير، ولو مرة واحدة، أي شيء عن إلسا فرنندس أو عن موتها وان الأمر لا يعدو كونه تزويراً سمجاً «لوثيقة» من معدن «وثائق» «الدولة الجديدة»، فلقد حُكم برستس بثلاثين سنة من السجن الاضافي، فبلغت مجموع مدد السجن المحكوم بها ستاً وأربعين سنة وثمانية أشهر.

وفي بحران من حماقتهم واستهتارهم بذكاء الشعب، وضع المزورون تاريخاً للتحرير يعود إلى العهد الذي كان فيه لويس كارلوس برستس سجيناً في ثكنة الشرطة الخاصة، أي في وقت كان فيه معزولاً تماماً في غرفة انفراد يقوم على حراستها أحد الجنود، ولا يملك ايما شيء يمكنه من الكتابة: لا قلماً ولا ريشة ولا حبراً... ولم يكن بمقدور الشرطة، يا صديقتي، ان تضع للتحرير تاريخاً سابقاً، إذ أن الجميع كانوا يعرفون ان إلسا كانت في السجن طيلة أيام سنتي ١٩٣٥ - ١٩٣٦، ولم يفرج عنها إلا بعد توقيف برستس. لذا كان من العسير على الشرطة ان تضع للتحرير المزور تاريخاً سابقاً للافراج عنها. فوضعت، كما سبق وقلت، تاريخاً يعود إلى زمن كان فيه برستس سجيناً بصورة سرية في ثكنة الشرطة الخاصة.

وعلى أساس هذه «الوثيقة» السخيفة أصدرت محكمة الأمن حكمها على برستس بالسجن الانفرادي طيلة ثلاثين سنة. ولا يدهشنك ذلك، يا صديقتي، لان محكمة الأمن لم تكن بمحكمة، بل كانت دكاناً تباع فيه العدالة بثمن بخس.

وعمدوا، من أجل تحويل الجماهير عن منح حبها للويس كارلوس برستس، إلى استثارة مشاعرها بشكل ماكر. فكان أولئك الذين ترددوا في الخيانة توفيراً للتعذيب، والذين أصبحوا الممثلين الأول في مهازل الشرطة، يعقدون مؤتمرات صحفية مثيرة يروون فيها «جرائمهم» بتفصيل فخم سخيف. وخصصت، بالطبع، الصحف المأجورة أعمدة كاملة لهذه الفضيحة المثيرة. ولكي يصل رجال الشرطة بالاستفزاز إلى ذروته، عقدوا في مساء أحد الأيام مؤتمراً صحيفاً واحضروا برستس من غرفة انفراده. ولم تكن

لدى هذا أية فكرة لا عن التهم الموجهة إليه ولا عن خيانة أولئك الرجال الذين جُبلوا من وحل هو ذلك نفسه الذي جُبل منه رجال الشرطة. ووصل برستس هادئاً رائقاً برأس مرتفع وعينين متوقدتين لكي يلقي بكلمات من نار. وقدم له مندوب الحق العام السياسي والاجتماعي التحرير. واقترب الصحافيون، وارتسمت على ثغور الشرطيين ابتسامة من سعادة. وما كاد برستس يلقي نظرة خاطفة على التحرير حتى أرسل إشارة من احتقار بالغ أمام هذه الخديعة البائسة وقال بتؤدة:

ـ إن جميع الناس يعرفون عقليتي وحياتي؛ وان الجميع في وضع يستطيعون معه ان يحكموا في ما إذا كنت أو لم أكن واضع هذا التحرير.

إن برستس هو رجل تحمّل دوماً كامل المسؤولية المترتبة على أعمال قام أو أمر بالقيام بها، يا صديقتي. ولم يتنصل مطلقاً من مسؤولية من هذا النوع. ولقد سبق له، في سنة ١٩٣٦، ان تحمل كامل مسؤولية حركة تشرين الثاني سنة ١٩٣٥. وفيما لو كان له أقل ضلع في أمر القضاء على فتاة ثورية ترددت في الخيانة، كما زعمت الشرطة، فما كان لينكر ذلك مطلقاً.

لقد كان الصحافيون إذن على تمام الثقة بان لا علاقة لبرستس البتة بمصرع إلسا فرننديس. عندها حاول الشرطيون اللجوء إلى الرجال الذين استأجروهم، وكانوا هناك لاتهامه، ولكنّ برستس لم يعنّ نفسه حتى بالتطلع إليهم، وخرج من القاعة دون ان ينتظر رجال الشرطة، ودون ان يفكر بمصيره كمعتقل. وظل المندوب الحكومي هناك ينضح بالخجل، بينما كان الصحافيون يمتلئون حماساً. وكان لويس كارلوس برستس قد خرج بهدوء. ولم يستعد الشرطيون روعهم إلا بعد ان كان قد وصل إلى الرواق، حيث لحقوا به واقتادوه إلى غرفة انفراده المثلثة في جناح المسلولين في الكوريسون.

وبالرغم من الفشل الهائل لهذا الاستفزاز، تابعت الشرطة السير بالدعوى. يا لها من وحشية قضائية! لقد كانت جريمة «القتل» هذه تُعرض أمام محكمة استثنائية. وفيما لو كان برستس يُحاكم حسب القانون من قبل محكمة عادية،

ومحلفين من المواطنين، ودفاع يتمتع بكامل حقوقه، لما أمكن ان يصدر أيّ حكم بحقه. وكانت الحكومة، وقد فشلت في ان تلطخ برستس بالعار أمام نظر شعبه، تريد ان تنتقم لنفسها بإصدار حكم جديد عليه.

كانت محكمة الأمن قد بدأت بالانعقاد، عندما وصل برستس في عربة السجن. وكان الناس من الشعب ينظرونه يمرّ: هزيلاً، مريضاً، انما برأس مرتفع وحركات هادئة وابتسامة تتلألأ في الشفتين. ولم يكن قد تمكن من رؤية محاميه ولو لفترة واحدة. وكل ما كان يعرفه عن هذه الدعوى هو ما قيل له خلال أمسية الشرطة تلك، طيلة الدقائق المعدودة التي استمر خلالها عرض المهزلة التي هُيئت للهزؤ منه. وحاول محاميه الاقتراب منه، وبدأ يفسر له أمراً ما، ولكن رجال الشرطة أبعدوه عنه بعنف. وأعلنت المحكمة افتتاح الجلسة. وكان القاضي الذي سيحاكم برستس هو ماينارغومس، ملازم سيغريب الثوري السابق، الذي كان قد ثار مرتين لمناصرة برستس في سنتي ١٩٢٤ و ١٩٢٦. وإليه وجّه برستس أولى كلماته.

وكانوا يأملون ان يُذلوا برستس، يا صديقتي، أمام هذه المحكمة: كانوا يعتقدون انه سيطلب تخفيفاً لشروط عيشه، ويجهد لتفسير مهزلة الاستفزاز التي مثلها رجال الشرطة، ويناقش «الوثائق» المخترعة. وكان أعداء الشعب قد هيأوا أنفسهم للتمتع بمرأى الزعيم الشعبي العظيم يتردى في المذلة. وانه لخطأ كئيب، يا صديقتي، لأولئك الذين يحكمون على الناس حسب أنفسهم هم. وأرسل برستس، أول ما أرسل، بكلماتٍ من نار، صفع بها ماينارغومس، ذلك الثوري القديم الذي يقوم الآن بالدور القذر لقاضي محكمة الأمن. وأخفى ماينار، وقد غرق في بحار من الخجل، وجهاً كان يتقلب من لونٍ إلى لون، وهو لا يدري اين يلقي بنظراته.

وتحول برستس بعد ذلك نحو الجمهور الذي يملأ قاعة المحاكمة، يا صديقتي. وكان قد اختير لمحاكمته يوم السابع من شهر تشرين الثاني، ذكرى الثورة الروسية. وأسمع لويس كارلوس برستس صوته متحدثاً مرة جديدة إلى شعبه:

«أود أن أغتنم الفرصة التي أتيحت لي بالتحدّث إلى الشعب البرازيلي لكي أحيي اليوم واحدةً من أعظم مآثر التاريخ كله، الذكرى الثالثة والعشرين للثورة الروسية العظمى التي حررت شعباً كاملاً من الظلم...».

وأصدر إليه القضاة، وقد استبد بهم الرعب، الأمر بالسكوت. وقوطع حديثه. ولكن تعالت من جنبات القاعة هتافات «يعيش لويس كارلوس برستس»! وألقي القبض على احدى النساء في اللحظة التي كانت تصرخ فيها باسم زعيم الشعب، وهي تبكي من التأثر. وسيطرت الفوضى على المحاكمة، وأخذ الشعب يهتف لبطله. فاقتادت الشرطة بمنتهى السرعة لويس كارلوس من ذلك المكان، واصدرت المحكمة قرارها ضده أثناء غيابه.

وأضيف إلى السنوات الست عشرة والشهور الثمانية، التي سبق له ان حُكم بها، ثلاثون سنة أخرى من السجن. ولكن قليلاً ما يهم هذا، يا صديقتي، فان للكلمات التي أطلقها تدوي في المحكمة، وهو يتوجه إلى الشعب، من القيمة أعظم مما لهذا الحكم، كما يفوقه قيمة كذلك هتاف الشعب لقائده وتوقيف المرأة التي تهتف بملء صوتها باسم هذا القائد. وارتجف الطابور الخامس من الرعب، في هذا اليوم. وفي هذا اليوم برهن لويس كارلوس برستس ان سنوات السجن والتعذيب، ما كانت لتهزم منه الروح ولا الايمان بالشعب. وبرهن الشعب انه ليس بمقدور أي استفزاز، ولو مهما كان مقدار السفالة التي يتردى فيها، ان يبعده عن رئيسه، وان يقلل أو يطفىء جذوة الحب العظيم الذي يمنحه لويس كارلوس برستس. لقد حكم بسجن أضافي مقداره ثلاثون سنة. قليلاً ما يهم هذا، يا صديقتي. ففي يوم السابع من تشرين الثاني سنة ١٩٤٠ هذا، أثبت الشعب ولويس كارلوس برستس، مرة جديدة أيضاً، إنهما مرتبطان بالحب نفسه وبالرغبة نفسها بالحرية للبرازيل.

وأرسل العالم باحتجاجاته ضد الجريمة التي كانت ترتكب في البرازيل، بواسطة أصوات الشعراء ورجال السياسة والعلماء والحكومات والفنانين والشباب والنساء والرجال.

إن الدكتاتورية تحتجز في السجن أعظم قائد معادٍ للفاشية في أميركا، تحتجز بطل العالم الجديد، «بوليفاراً»[(١١)] لاستقلال أميركي جديد. ان الانسانية بكاملها كانت ترسل باحتجاجاتها بلسان أعاظم رجالها من الشعراء والعلماء والحكام وكبار الجنود والقادة الشعبيين، احتجاجات هائلة عالمية. وكان يتموج في سماء البرازيل صراخٌ قادمٌ من كل مكان، كانهام توجهه الحرية ضد الظلم.

ومن كافة أنحاء أوروبا وآسيا وأميركا كان يتصاعد هذا الصخب مطالباً بتحرير البطل. وانهمرت البرقيات من كل النواحي، انهار الأغاني والمقالات والقصائد. ونظمت الاجتماعات الواسعة من أجل المطالبة باعادة الحرية لواحدٍ من أعاظم ابناء الانسانية والجيل.

إن عمل برستس الخالد، إنْ من الناحية العسكرية، أو من ناحية التربية الاجتماعية والسياسية، قد اجتاز حدود البرازيل ليصبح ملكاً لجميع الناس في كل الاقطار. وكما ان القصائد الخالدة لا تخص شخصاً بعينه بل تخص العالم كله، فان المآثر البطولية هي ملك للانسانية جمعاء، يا صديقتي. وكذلك شأن عمل برستس. فان **السير الكبير** هو مفخرةٌ للعالم العسكري الجديد. وتخص عبقرية برستس جميع الناس، ولا يزال لديها الكثير مما عليها ان تهبه العالم أيضاً. لذا لم يكن احتجازه جريمة بالقياس إلى البرازيل فقط، بل جريمة ضد البشرية كلها، يا صديقتي، جريمة ضد الحرية.

من أجل ذلك كان يطالب رجال ونساء من كافة أنحاء العالم بتحريره.

وأطلق اسمه على لجنة لمساعدة الاتحاد السوفياتي في بوينوس آيرس. وكان هذا الاسم يُذكر في الاعلانات عن الاجتماعات المعادية للفاشية، ويهتف به الشعب حيثما يحصل تجمّعٌ لأناس أحرار. ويُهتف باسمه في فرنسا، في انكلترا، في الولايات المتحدة، في الصين: حيث يعيد الثوار ذكرى مآثر

(١١) لواء ورجل دولة أميركي عمل على تحرير عدد من البلدان الأميركية من السيطرة الاسبانية. ولد في سنة ١٧٨٣ وتوفي في سنة ١٨٣٠ (المعرّب).

الطابور، في الشيلي، في المكسيك: حيث نُفي انصاره، في تشيكوسلوفاكيا، في النرويج وفي بلجيكا. ان اسمه هو كالعَلَم في كل بلاد العالم. ومن كافة ارجاء الكرة الأرضية يتصاعد صخب هائل: **الحرية للبطل.**

وكان «رومان رولان» و «لنجفان» و «فرنسيس جوردان» و «ألفارس دل فايو» و «فرنز بوواس» و «أوبتون سنكلر» و «كليفورد ماك أفويْ» و «جاك رومان» وزنوج هايتي وألوف الكتاب في العالم؛ وكان «نيقولا غيلن» و «بلاّغاس» و «نيرودا» و «ألبرتي» و «فرنجيلا» و «سيرافيم غارسيا»، والشعراء الزنوج في الولايات المتحدة، وشعراء البلاد السكنديناڤية الشقر؛ و «الباسيوناريا» باسم شعب اسبانيا، وباتيستا باسم شعب كوبا، ولازارو كارديناس ومجلس النواب في المكسيك باسم الشعب المكسيكي العظيم، ونواب وشيوخ أرجنتينيون من مختلف الأحزاب والاتجاهات السياسية، ونواب انكليز، وجامعيون، وممثلو سينما ولاعبو كرة قدم؛ «دولورس دل ريّو» و «ايزيدورو لنغارا»، ونساء من الطبقة الراقية، وعمال مصانع، وجرائد كبرى وصحف مدرسية صغرى، وكتّاب يعقدون مؤتمراً لهم في الارجنتين، **كل هؤلاء كانوا يحتجون على احتجاز وتعذيب البطل.** كما كان الشاعر «النخيل كروشاغا سانتا ماريا» والنقّاد «لويس البرتو سنشز، والشيلي والبيرو، والكولومبي «قيصر أوريب بيدراهيتا» والاورغويّاني جيزوالدو، رجال ونساء من كل أرجاء العالم، يرسلون باحتجاجاتهم هم كذلك.

وفي مقدمة كل هؤلاء، كان ينتصب وجهٌ لامرأةٍ تناضل من أجل ولدها! وجه ليوكاديا برستس التي تبلغ السبعين من عمرها. فكّري، يا صديقتي، بهذه المرأة الهرمة ذات الشعر الأشهب، والوجه الذي ترك فيه الألم أثراً لمروره. ان باستطاعة كل أم ان تفهم القلق الذي يعتمل في نفسها. فالابن هو لحمُ لحمنا، هو دم دمنا، هو قلبنا نفسه يخفق في جسد آخر. يا لها من انسان غريب ليوكاديا برستس، الهرمة هذه، التي كانت، دون ان يعتورها دقيقةً من فتور ولا ظل من يأس ولا خيال من تردد، تناضل من أجل تحرير

ولدها، لويس كارلوس برستس. انها لأم جديرة برجل بمثل هذه العظمة.

كانت ليوكاديا برستس لا تزال، منذ وقت وجيز، تعيش على أراض مكسيكية نائية ـ أراض أميركية حرة ـ دون اطمئنان ودون بهجة. وكان معها حفيدتها أنيتا ليوكاديا برستس، ابنة سجين مولر وسجينة هملر، التي كانت قد انتزعتها من يد القتلة، بفضلٍ من شجاعتها ومن ضغط شعوب العالم كلها. وكانت أنيتا وليوكاديا تعيشان في أعظم قلق يمكن لأمٍ ولابنة ان تتعرفا إليه.

ستظل ذكرى هذه المرأة الهرمة، يا صديقتي، خالدة خلود مشاهير الوجوه الأميركية. وفي المستقبل، عندما سيجري الحديث حول النساء اللواتي توّجن بالشرف معالم العالم الجديد، لن يكون بالامكان نسيان هذا الوجه الرائع العظيم لأم تناضل من أجل حرية ولدها وكنتها وحفيدتها. وفي الوقت الذي كانت فيه معظم النساءِ يقبعن بهدوء في بيوتهن في كنف السعادة العائلية، كانت ليوكاديا الهرمة تجوب العالم. وهي، وقد طُردت من بلادها، لم يكن بمقدورها الرجوع إليها ولا رؤية ولدها ولا مساعدته في ساعات وحدته الناضحة بالالم، ولا رؤية كنتها، ولا التمتع بمرأى ابتسامة حفيدتها الصغيرة. ولقد كرّست آخر سنوات حياتها البطولية في محاولةٍ لانتزاع أشخاص أعزاء من أيدٍ مجرمة.

وبدأت أولاً بالنضال من أجل الطفلة. وانها لجريمة عظمى ترك هذه الطفلة تُضحّى على مذابح غرائز النازيين الوحشية، غرائز أولئك الذين كانوا جد مشوقين ليجعلوا من ابنة لويس كارلوس برستس، بطل الشعب والحرية، وحشاً نازياً وعدواً للشعب وللحرية. وفي أوروبا لما قبل ثلاث سنوات، بمشاكلها وبالحرب التي تتربص منها على الأبواب، في أوروبا تلك، التي كان عليها ان تستمع إلى أصوات عديدة مختلفة متنوعة وفاجعة، كان صوت الهرمة ليوكاديا، المصعّد من وسط الألم، من القوة بحيث فرض الانصات إليه. ان هذه الأم البرازيلية، التي اعتادت العيش في داخل بيتها، حرّكت

مشاعر اناس مختلفي الأنواع، حركت باريس، قامت بزيارة جميع أولئك الذين كان بمقدورهم ان يؤدوا خدمة ما إليها، وتحدثت في العديد من الاجتماعات، وتوجهت إلى الشعب. تحدثت أمام جماهير من الناس غفيرة، أمام الفقراء الذين يعرفون ما هو الألم، والذين لهذا السبب نفسه، فهموها على حقيقتها. وأنقذ الشعب أنيتا. لقد انتزع الشعب هذه الطفلة البريئة من أيدي القتلة وردها إلى جدتها.

إنه انتصارٌ للشعب، ولكنه انتصارٌ لليوكاديا الهرمة، كذلك، يا صديقتي.

وذهبت والدة القائد الأميركي المعادي للفاشية حتى المانيا. ذهبت حتى السجن الذي تُحتجز فيه كنتها واستعادت حفيدتها. ولكن في هذه الساعة من الحبور غير المحدود، كان الدم لا يزال يتفجر من قلبها، لان أولغا، زوجة ولدها، تلك التي تمنحها من حبها القسط الأوفر، كانت ما تزال سجينة.

وما كان هذا الانتصار ليكفي ليوكاديا. لقد كان عليها ان تنتزع من ايدٍ مجرمة ثلاثة كوائن انسانية، ولم تنقذ إلا واحداً. ولم يكن وجود الصغيرة ليحملها على الصمت، بل على العكس، كان يدفعها إلى مضاعفة القوى والجهود. وتعالى صوتها من المكسيك، فتجاوب صداه في أميركا كلها، بل وفي جميع أنحاء العالم. وكان هذا الصوت، الذي ينضح بأعمق الألم، من القوة بحيث تجاوب في الاسماع، بالرغم من ضجيج القنابل ومن أصوات الحرب المتعالية في كل مكان. لقد كانت تناضل من أجل تحرير لويس كارلوس برستس، من أجل تحرير أولغا بيناريو برستس.

واننا لنعرف، يا صديقتي، كم من المرات ارتفعت أصواتٌ عديدة في أوروبا وآسيا، في أفريقيا وأوقيانيا، محتجة ضد الآلام التي تسببها الحرب. ولكننا نعرف كذلك ان هذه الحرب قد هُيئت وشُنّت من قِبل الوحش النازي، وانه ما دام نبض الحياة يخفق في صدر هذا، فان الشر هو الذي سيظل السيد المسيطر في جميع أرجاء الأرض. وان هذا الصراخ الهائل الذي

يتصاعد من ساحات القتال، من البلاد المجتاحة والمضحاة، هو صراخ تحذيرٍ بالقياس إلينا نحن الأميركيين.

واليوم تحلق النازية ـ هذه التعاسة المرعبة ـ فوق أوروبا، وقد ذهب بها الظن إلى الاعتقاد بان ساعة أميركا قد دقت. ولكن الجنود السوفياتيين هم في سبيل توجيه ضربات مميتة للوحش المجرم، يا صديقتي. وتتحد اميركا الآن من أجل قتاله. ويريد النازيون ان يلقوا في مهاوي العبودية بجميع البلاد الأميركية. لذا كانت حياة وحرية القادة الأميركيين المعادين للنازية، بنظرنا، اليوم أكثر من أي وقت مضى، ضرورية وعالية القدر. وكذلك هي حياة وحرية جميع أولئك الذين انتصبوا أو ينتصبون، في بلادنا، ضد الوحش النازي.

وفي البرازيل، يُحتجز في سجن قذر واحدٌ من أعاظم القادة الديمقراطيين الأميركيين. يحتجز رجلٌ خلّف وراءه تقليداً أعظمَ من بطولي، تقليداً ملحمياً. فهو، في بلاد جنود كبار، أكبرُ الجنود، انه خليفة فلوريانو بيشوتو. ولقد أثبت، في بلاد يعرف الناس فيها النضال من أجل الحرية، انه أعظم الأبطال، انه: خليفة التيرادنتس. وهو، بصفته عبقرية عسكرية ورجل شرف يضع الكرامة فوق كل اعتبار آخر في العالم، قد عرف ان يكون محبوباً من ألوف الناس، ان يكون محرّضاً، رجلاً مملوءاً بالمناقب الانسانية، ان يكون دائماً إلى جانب الشعوب وفي مقدمة شعبه. لويس كارلوس برستس هو إحدى الضمانات للحرية وللديمقراطية في أميركا. وهو بالقياس إلى شعب البرازيل، شعبي، شعبك يا زنجبيتي، ضمانةٌ للسعادة. من أجل ذلك دُعي بفارس الأمل. وان احتجازه في السجن لا يعني سوى تجريد شعبٍ من لوائه وتقديم سلاح ماض لا يُقدر إلى البربرية النازية. وانه لمن واجب جميع الديمقراطيات والديمقراطيين الأميركيين، جميع أولئك الذين يحبون الحرية والثقافة والجمال وكرامة الحياة، ان يحرروا لويس كارلوس برستس، سجين الفاشية في البرازيل.

وليس صوتي الهزيل كقاصّ، يا صديقتي، هو الذي جعل الاحتجاجات تنهمر على أميركا دفاعاً عن برستس. انه صوت امرأة هرمة، صوت قوي لامرأة وأم، تجاوبت نغمات يأسه وأمله قادمة من أراضي المكسيك. انه صوت ليوكاديا المدهشة هذه، أم لويس كارلوس برستس، وصوت الصغيرة أنيتا، الفتاة التي لم تشاهد والدها مطلقاً، والتي مُنحت وقتاً كافياً لرؤية والدتها تتألم في السجن، الفتاة التي ولدت في السجن وترعرعت في المنفى بعيداً عن وطنها، وسط وابل من أخبارٍ تدخل الرعب إلى النفوس.

وإنه لمن المستحيل، يا صديقتي، تصور هرمٍ وطفولة أكثر فجعاً من هرم ليوكاديا وطفولة أنيتا. ومن وقت لآخر كانت ليوكاديا تتلقى رسالة من ولدها. ولم تكن هذه المراسلة بمنتظمة، تخضع لمزاج حرس برستس، أحياناً، ولم يكن هذا بالظرف النادر. كانت تمر شهور كاملة دون أن تتلقى إلاّ أخباراً من ولدها. ثم يأتي تحرير يحمل أخباراً كئيبة: لقد ازداد مرضه، وهو لا يعرف شيئاً عما يجري في العالم، لقد جُرّد من الكتب القليلة التي كان قد سمح له بمطالعتها، ومُنع من قراءات الصحف. وتمر شهور جديدة دون أي خبر. ولكن ليو كاديا كانت تعرف أن عليها أن لا تبكي، أن لا تدع اليأس ينشبُ مخالبه فيها، وأن عليها أن تسيطر على ألمها وتتابع النضال من أجل تحرير ولدها.

تصوري، يا صديقتي، حال هذه الأم الهرمة التي لم يكن بمقدورها ان تبكي! في زمن العبودية، في البرازيل، حدثنا شاعرٌ عن الأمهات السود، عن أولئك النساء التاعسات اللواتي حرمن حتى من حق مداعبة أولادهن. وتلك كانت حال ليوكاديا. لم يكن يسمح لها بالدخول إلى البرازيل والعناية بولدها السجين. لقد حرمت من كل حق، حتى ذلك الذي يخولها السكنى في بلادها، في وطنها، بالقرب من ولدها. كان عليها ان تظل بعيدة وتعيش في بحار من عدم الاستقرار، وتمضّي أياماً مملوءة بالقلق، وهي في خوفٍ دائم من ورود خبر الشؤم المحتوم. ولم يكن لسجّاني برستس من عمل سوى تعذيبه؛ ولقد عذّبوا وقتلوا ببطء امرأة هرمة، جرمها الوحيد انها تحب ولدها، لقد قتلوها

بأعظم الطرق بؤساً: بتركها في بحارٍ من الشك حول مصير ابنها، باحتجازهم التحارير التي كان يرسل بها إليها، بالافتراء على اسمه.

إن البرازيل تجتاز ليلاً مظلماً من التعاسة، يا صديقتي. وعندما ستتوصل الأصوات التي ترتفع من جميع أنحاء العالم، وتلك التي تصعّدها شفاه ليوكاديا وأنيتا ـ الأم التي انتُزع منها ولدها والفتاة التي انتزع منها والدها ـ عندما تتوصل هذه الأصوات إلى تحرير لويس كارلوس برستس، سيُتاح لنا، يا صديقتي، أن نقدّر معنى الحرية، لانه يكون قد سبق لنا ان اكتوينا بنار العبودية.

لقد كان الصراخ المطالب بتحرير برستس يتصاعد من فم ليوكاديا، المظفرة في وسط هرمها، ولكنه كان يرتفع كذلك من شفتي أنيتا البرئيتين. تصوري هذه الطفلة يا صديقتي: انها لم تتعرف إلى أية ساعة من بهجة لا شائبة فيها، إلى أية ساعة من سعادة حقيقية. وكان اليوم الذي توصلت فيه جدتها إلى انتزاعها من أيدي النازيين، يوماً حزيناً بالقياس إليها، ذلك لأن أمها ظلت سجينة في أيدي البرابرة. وهذه، مع هذا، هي الفترة الوحيدة في حياتها القصيرة التي منحها خلالها القدر شيئاً ما. لقد جردها الناس من أمها وأبيها، ولم يُقدر لها أبداً ان تشاهد وطنها، وان كل ما تبقى لها في هذا العالم هو رؤية جدتها القلقة فريسة للألم. لقد انقضت طفولة أنيتا بانتظار ابتسامة من جدتها وخبر عن مصير أبيها ومصير أولغا. إن هذا الكائن البريء تماماً، الذي يكابد الآلام كمجرم عريق في الاجرام، يطالب العالم بتحرير لويس كارلوس برستس، يا صديقتي.

ومن جميع أرجاء العالم تتصاعد النداءات من أجل تحرير البطل! وفي هذه الساعة المرعبة التي يتتابع خلالها النضال ضد أعداء السعادة الانسانية، ضد أعداء الجمال وثقافة الانسان وحريته، نريد أن نشاهد برستس إلى جانبنا! ومن أربعة أنحاء العالم يرفع شعراء وكتابٌ وعلماء ورؤساء سياسيون وألوية وجنود وقواد بحريون وبحارة وعمال وفلاحون وتكنيكيون، اصواتاً عالية

تضخّم وتزيد منْ الصوت القوي العميق الذي تصعّده ليوكاديا برستس، تلك الأم المظفرة المعذّبة، ومن الصوت اللطيف البريء المتألم الذي ترسل به أنيتا، تلك الفتاة التي جردها القتلة من أب لها وأم؛ ومن صوت الشعب البرازيلي كذلك، المطالب بلوائه وقائده وبطله. إن صوتاً هائلاً ينتشر فوق العالم، فوق أميركا وفوق البرازيل، يا صديقتي.

- ١٢ -

يا لشعب البرازيل من شعب بطل، يا صديقي! فلقد حاولت الحكومة، طيلة سنوات الارهاب، ان تغرس في أرض الوطن شجرة الفاشية المؤذية، واستنفذ الطابور الخامس جهوده كلها في هذا السبيل منذ سنة ١٩٣٧ حتى أيامنا هذه. ولكن الشعب دفع بالفاشية بعيداً عنه، واحتفظ في قلبه بالحرية وبالثورة! وان هذا الشعب، المجر من أية حقوق من أي نوع كانت، ومن أية قوانين تمكنّه من تفتيح امكاناتـه، قاوم الفاشية، بالرغم من عدالة سُميت كذلك تجاوزاً، ومن نظام ارهابي، ومَنعٍ، في وقت كان يُقضى على الناس فيه لأقل البوادر، الخونة من تقديم البلاد لمحور روما ـ برلين، ودفع البرازيل في الطريق التي سلكتها الدول الديمقراطية. وانه لمجهود خارق بطولي ذلك الذي يستطيع بواسطته شعب ما ان يحمل حكومة نشرت دستورا تعاونياً إلى التخلي عن حلفائها الطبيعيين لكي تساند الديمقراطيات. ولا يملك أي انسان الحق في ان يتصور غير ذلك حول هذا الموضوع، يا صديقي. فان وضع البرازيل العالمي الحالي، وما يُفترض وجوده فيه من ميل نحو الديمقراطيات، هو نتاج الشعب، هو نتاج شعب أنجز تربيته السياسية في سنة ١٩٣٥ التحالف الوطني التحريري. وان في هذا لتأكيد بان الشعب لم يكن ليتقبل أبداً مساندة نازيي ألمانيا ولا فاشي ايطاليا ولا القتلة اليابانيين. وهذا ما دفع الحكام إلى التخلي عن تبعيتهم المشؤومة للمحور. ووجد جيتوليـو فـارغـاس نفسـه في مفـرق صعب، فلقد كانت القوى المرتبطة بالنازية تريد ان تجر البرازيل إلى اتخاذ موقف، على الصعيد العالمي، كان الشعب يقاومه أعنف مقاومة. وظهر في أول الأمر ان فارغاس يؤمن بانتصار الألمان، ويميل نحو المحور. تلك هي فترة خطبه في شهري تموز وأيلول سنة ١٩٤٠، ذلك العهد الذي كانت تلجأ خلاله الإذاعة الألمانية إلى استعمال مقاطع من خطبه تلك في الرد على خطب

الرئيس روزفلت. ولكن خلال هذا الوقت كانت قوة المقاومة الشعبية لهذا الأمر قد تمركزت. وفهم فارغاس تمام الفهم، بدافع من حس سياسي يتميز به، ان شعب البرازيل لن يلقي بنفسه أبداً في المغامرة النازية. وعندما أضرم الشعب النار في الصحف النازية، في سان باولو، استطاع فارغاس ان يشعر بالاتجاه الذي يسير فيه الرأي العام الوطني. ولم يجد بداً من تغيير مجرى سياسته العالمية. وعليه، إذا ما كان يود البقاء في الحكم، ان يغير كذلك مجرى سياسته الداخلية على الشكل نفسه.

لقد فهم فارغاس أن كل حكومة تستند إلى المحور سيكون مصيرها القلب، وأن البرازيل، في مثل تلك الحال، سوف تثور وتنضم إلى صفوف الشعوب الحرة المناضلة، إلى صف البلاد الأميركية المحاربة، صف الاتحاد السوفياتي الذي يخلق قصيدة معارك الجيش الأحمر الرائعة، صف انكلترا، صف البلاد المجتاحة، إنما غير المغلوبة على أمرها. فهم فارغاس ذلك في الوقت المناسب، في الوقت الذي كانت فيه سمعة النازية العسكرية، وقد حطمتها عبقرية ستالين، تتساقط إرباً في سهوب الاتحاد السوفياتي.

عندئذٍ أخذ يحوّل سياسته في اتجاه مؤازرة الديمقراطيات. وبالرغم من جميع ما قام به في هذا الاتجاه في الزمن الأخير، فإن رجال الطابور الخامس، المتغلغلين في الحكومة، كانوا ما يزالون يتابعون تخريب سياستها هذه ولهذا السبب تجردت هذه السياسة، في أول الأمر، من الفعالية الضرورية. وإذا ما كان جيتو ليو فارغاس يريد حقاً أن يقترب من الشعب وأن يتعاون معه، فعليه بالضرورة أن يغير مجرى السياسة الداخلية في البلاد عليه أن يكشف النقاب عن رجال الطابور الخامس، عن العناصر النازية، عن المدافعين عن اليابانيين، عن خدم السفارة الايطالية؛ وعليه أن ينشر الديمقراطية في البلاد: فمن غير الممكن محاربة الفاشية في وقت نسمح لها فيه أن تعشش لدينا، في بيتنا. كما عليه ان يصدر عفواً عاماً عن القادة المعادين للفاشية الذين ادخلوا السجن، بالضبط، بسبب من انتصابهم في البرازيل ضد الخطر الفاشي.

كيف يمكن متابعة احتجاز لويس كارلوس برستس في السجن، في وقت يتهدد فيه الخطرُ البلاد؟ كيف يمكن ان يُحتجز خلف القضبان أعظم قائد من القادة المعادين للفاشية في أميركا، أعظم لواء من الألوية الأميركيين، في وقت نناضل فيه ضد الفاشية، في وقت أحوج ما يكون فيه وطننا المهدد بالخطر إلى عبقرية لوائه؟ ولن يتوصل جيتوليو فارغاس إلى اطفاء جذوة الحذر الذي يشعر به الشعب نحوه، الا عندما يعمد إلى اجراء تحويل في مجرى سياسته الداخلية. وسيجد نفسه مضطراً إلى اتخاذ هذا النهج، إذ ان الشعب الذي حمله على مساندة الديمقراطية ضد المحور، سيحمله على انتهاج هذا السبيل.

لقد تعلم هذا الشعب من شفتي لويس كارلوس برستس أن ليس هناك من خطر أعظم من الخطر الفاشي، ولا من تعاسة أعظم من تلك التي تنحدر من الفاشية. «برستس قال ذلك»، عبارة طالما رددها البرازيليون عند رغبتهم في إقناع محدثهم بصواب ما يقولون. لقد قال برستس إن الفاشية هي الشقاء الذي يهدد بالسيطرة على العالم. وأخذ شعب البرازيل، المعذب المهان، يقاوم ويناضل ضد سيطرة الفاشية بصورة نهائية في بلاده، ولقد قاوم ومنع تحالف البرازيل مع المانيا وايطاليا واليابان.

لقد قاوم الشعب البرازيلي، باستمرار وعناد، الدستور التعاوني للدولة الجديدة. ويناضل اليوم هذا البطل، يا صديقتي، ضد الطابور الخامس. وليس هناك من شك في ان الحكومة سوف تغير سياستها الداخلية تغييراً تاماً: تلك هي الدرب التي سوف تسير عليها، لان تلك هي درب الشعب.

تطلعي يا صديقتي، قريبةً أضحت ساعة الحرية. إن الجنود السوفياتيين هم في سبيل تقريب أجلها بتصفيتهم، إلى الأبد، أمر الفاشية من على الأرض. وإلى جانبهم تسير الشعوب الديمقراطية في أميركا وآسيا وأوروبا، ويسير الجنود الصينيون في حربهم الملحمية، ويسير اليوغسلافيون والتشيكيون والفرنسيون الذين يقتلون الألمان في شوارع باريس، ويسير البولونيون والهولنديون الخارقو الشجاعة، ويسير اليونانيون والنروجيون. ان الروس

يدافعون عن الحرية التي وطدوا منها الأسس وفي طليعتهم يسير ستالين: علماً وقلباً. ان الحرية تقترب، وقريبةً أضحت نهاية الليل، يا صديقتي. ولقد بدأت هذه الحرية ترسم خطاً لها على الأرصفة، حيث أخذت تظهر قادمة مع الفجر، وبدأت نجمة الصباح ترسل بريقها في السماوات.

إن الحرية تبزغ في السماوات، يا صديقتي، في سماء البرازيل. وسوف تلمع عبر القضبان المعدنية لكوى غرفة الانفراد التي يُحتجز فيها لويس كارلوس كارلوس برستس.

لقد حُكم بست وأربعين سنة وثمانية أشهر من السجن. وكتب، عندما صدر بحقه الحكم الثاني، إلى دونا ليوكاديا برستس، هذه الكلمات العظيمة الجمال والتأثير:

«ان هذا الحكم يحررني من آخر معالمٍ لغرور أو كبر كانت لا تزال آثار لها تضطرم في نفسي، ويدفع بي نهائياً في الخضم الهائل لأكثر الناس بساطة وأعظمهم تعاسة. وأقول مخلصاً بان ليس في هذا ما يسوؤني» ...

المستقبل هو لأكثر الناس بساطة، لأولئك الذين لم يتعرفوا، حتى الآن، إلا إلى استثمارهم من قبل أناسٍ آخرين، لأولئك الذين لم تكن الحياة بالقياس إليهم سوى تعاسة وإهانة واستشهاد. المستقبل، يا صديقتي، هو للويس كارلوس برستس، دليل شعب البرازيلي، دليل الشعب المستشهد المشتوم، المُهان في كرامته والمداس في شرفه. وغداً، يا صديقتي، سيخرج لويس كارلوس برستس من غرفة انفراده وسط أوسع معالم اتحادٍ وطني تعرّف إليه «اب البرازيل، وسيمشي الشعب البرازيلي كله إلى جانبه ويمشي الطابور: ملايين وملايين من الرجال يتبعون خطاه من ريو غراندي دوسول حتى الأمازون، من ريو دي جانيرو حتى ماتوغروسو.

وعمدت الحكومة، من أجل اخفات حدة الاحتجاجات المتصاعدة من أرجاء العالم كله، إلى السماح لأحد الصحفيين بالتحدث إليه في غرفة انفراده. وسأله الصحفي عن موقفه من المشاكل العالمية. وأجاب برستس أنه، بالطبع،

يؤازر جميع البلاد التي تناضل ضد النازية. لقد كان يؤازر في ذلك الحين أميركا روزفلت.

ـ ماذا يتوجب القيام به إذن، أيها اللواء برستس؟.

ـ يجب اعلان التعبئة العامة فوراً، ودعوة مئة ألف، مئتي ألف رجل لخدمة العلم، وتسليح الأمة كلها، أتفهم؟.

لقد تحدث عن ضرورة زيادة عدد معامل التسليح، وطالب باتخاذ اجراءات عملية وفعّالة.

إنه هناك، يا صديقتي، في السجن. وان شريط كوى غرفة انفراده المعدني يمنعه من رؤية منظر المدينة العام الجميل. ولكن أحداً لا يستطيع ان يمنع عينيه العميقتين من رؤية تطور الحياة، ان أحداً لا يستطيع منعه من الاحساس والتحليل والحكم حول الحوادث الجارية، وتمييز الطريق التي يتوجب اتباعها.

وعندما يتحدث، يا صديقتي، فان عبقرية الشعب هي التي تتحدث، عبقرية البرازيل، ان بطل أميركا هو الذي يتحدث!.

إنه هناك، في سجن قذر. لا يُسمح له بالتحدث إلى محاميه، ولا بتحرير الكتب التي يود تحريرها، وتحتجز رسائله إلى ذويه، ويسام العذاب اشكالاً وألواناً، وهو لا يعرف، منذ ما بدأت الحرب، أي شيء عن زوجه، وهو يلاحق ويحاكم بصورة كيفية، ويعطى من الطعام النزر القليل وخلافاً لما وصف له الأطباء الذين عاينوا الأمراض التي يكابدها، ولقد وضع بالقرب من المسلولين أملاً بان تدب فيه عدوى هذا الداء، ووضع بالقرب منه رفيقٌ له سلب منه التعذيبُ الصواب وأصبح مجنوناً، لمعرفة إذا ما كان الجنون سيتطرق إليه هو أيضاً. وصُنع معه كل ما يمكن صنعه مع كائن بشري، أو مع حيوان كان رجال علم منحطون يهيئونه من أجل تجارب مختبر. ولقد غطي بالوحل والقذارة، أملاً في جعله عاجزاً لا يستطيع مقاومة. لقد كانوا لا يملكون الشجاعة على قتله، خوفاً من الشعب الذي يثور عندئذ ليثأر لموت

بطله. ولكنهم كانوا يحتزون منه الروح بتؤدة وبوحشية خارقة. ولقد ألقوا بوالدته الهرمة في حالة من القلق الوحشي، وجعلوه، هو، يكابد من التعذيب امضه وأضناه.

انهم لم يتوصلوا إلى احنائه، إلى إبعاد الشعب عنه، ولم يكن بمقدور أعظم الآلام إثارة للرعب ان تضعف من عمق نظرته حول العالم وحول الناس. ولن تستطيع جميع أنواع التعاسات أن تقلل من الحب والثقة اللـذيـن يمنحها إيـاه الشعب، ولا من الثقة بان هذا الشعب سيراه مرة أخرى ينطلق عبر سهول البرازيل إبّان المعركة النهائية للحرية.

واذكري، يا صديقتي، في أيام التعاسة هذه، ليالي أخرى من التعاسة في مرافىء أخرى، في مرافىء الوطن. وأحياناً، كان اليأس يتسرب إلى قلوبنا، عندما كان أحد معارفنا يتردىٰ في الخيـانـة وينغمس في الوحـل ويتجلبـب بالقذارات؛ عندئذ كان اسم برستس يردده أحد المارة، أو ذكرى إشارة منه، كان هذا كافياً لاعادة الأمل إلى نفـوسنـا وإعـادة الثقـة. إن شعـب البرازيل لم يخطىء، لان برستس أسنده بمثاله وغذّاه ببطولته.

أتذكرين، يا صديقتي، ليلة لمعت خلالها نجمة جديدة نادرة الجمال في سماء البرازيل، وكان زنوج الأرصفة يشيرون بأصابعهم إلى نجوم في السماء خلال ليالي يامنجا، وكان هناك صليب الجنوب، وفينوس، ومارس، وألوف من النجوم الأخرى تتلألأ فوق البحر والمرافىء، فوق الحقول، فوق السرتون، في المدن وفي الريف وفوق الانهار. ولقد أطلق الزنوج مختلف الأسماء على هذه النجوم: فكانت إحداها تُدعى كاسترو ألفيس، وأخرى تسمى زمبي دوس بالمارس. وبعيداً كان يلمع بدور أيفو وتيرادنتس وفراي كانيكا وفيليبي دوس سانتوس. ان أبطال الوطن وشعراء الحريـة والرجـال الشجعـان ذوي الكرامة كانوا نجوماً مشعّة في السماء وفي قلوب الناس. ولكن ظهرت في السماء نجمة جديدة، أعظم جمالاً، قانية براقة، وأرسلت في الظلام أشعة نقية. وضحك الزنوج، ووُشم صدر أحدهم بحرف ـ ب ـ. وسألتني إذا ما كان في

الأمر أعجوبة، يا صديقتي. وأجبتك: «انها لأعجوبة، أعجوبة شعبية». وأرسل الزنوج بضحكاتهم العريضة. وتدحرجت ضحكات الزنوج فوق البحر وايقظت يامنجا التي جاءت إلى قربنا. عندها تفوه الزنجي باسم النجمة الجديدة: انها تدعى لويس كارلوس برستس، ويشع نورها من غرفة انفراد في سجن قذر، ويملأ البرازيل بالأمل. ان هذه النجمة تُدعى **فارس الأمل**، أمل البرازيل، يا صديقتي.

إن صوته كعقاب عظيم، كشاعر، كجندي، كلواء، يخفق فوق البرازيل مثالاً للكرامة. ولقد سأله أحد الصحافيين منذ مدة ليست بالطويلة إذا ما كان يريد أن يوجه طلباً ما بواسطة صحيفة. فأجابه بصوته الذي اعتاد على الآلام:

ـ ليس لديّ ما أطلبه لنفسي. اما فيما يتعلق بزوجي فإنني أصر على ضرورة اخراجها من معسكر الاعتقال الذي أرسل بها إليه. وان المكسيك لعلى استعداد لاستقبالها. ثم أشار إلى غرفة سجنه البائسة وأضاف:

ـ إنني أعيش هنا دون ان تستطيع عيناي النظر بعيداً. انني محتجزٌ في ثقب محاط بأربعة جدران. ولقد كان وحشياً ذلك الحقد الذي خص به الإنكليز نابوليون، ولكنهم أرسلوا به، على الأقل، إلى إحدى الجزر. أما أعدائي فانهم يعاملونني بحقد أشد ضراوة.

إنه ليس وحيداً في سجنه القذر، يا صديقتي. ان شعب البرازيل معه الحرية والجمال والثقافة وكرامة الحياة. وهو من سجنه يرسل بالأمل وهاجاً فوق البرازيل، كنجمة وقادة الشعاع نقية النور.

غداً، يا صديقتي، سيأتي يوم الحرية. وبعد ان يحطم لويس كارلوس برستس، فارس الأمل، قيود العبودية، سينطلق في مقدمة شعبه سائراً نحو يوم عيد تشييد الوطن السعيد، المتحرر من العبودية، وطن السرور والعمل والحرية والحب! غداً، يا صديقتي، سنشاهد من جديد **فارس الأمل في مقدمة** الشعب المتحرر!.

- ١٣ -

سأروي لك في أحد الأيام، يا صديقتي، نهاية هذه القصة. سأرويها لك في يوم الحرية، عندما يصبح البطل بين شعبه من أجل الاحتفال بعيد الديمقراطية. لقد حدثتك عنه خلال أيام النضال والنصر والنفي والآلام. لقد حدثتك عن عظمته وعبقريته وبطولته. والآن، وقد تعرفتِ إليه، فانه لن يكون بمقدور اليأس ان يستولي مجدداً على قلبك، ولو مهما بلغت كثافة ليل الظلم. انك تعرفين ان فجر الحرية سوف يرسم قريباً في الأفق خطوطه. وعندما يحطم هو والشعب قيودهما، ويسيران، سنسير معهما، يا زنجيتي، وسيكون ذلك اليوم عيداً أخوياً بهيجاً، عيداً للحرية وللحب.

من الواجب تحرير البطل، يا زنجيتي. ستظل الليالي كئيبة ما دام محتجزاً في سجنه، ولن تتردد سوى ألحان حزينة فوق أجواء رمل المرافىء، وفوق الأرصفة والحقول، فوق الجبال والانهار. أرسلي يا زنجية رغباتي وزوجة قلبي، ورفيقة أتراحي وأفراحي، بصوتك الحنون، الآن، وقد بدأ الفجر يرتسم في جوانب الفضاء وينطلق القمر من جديد نحو البرازيل، أرسلي به خفاقاً في أميركا، في العالم كله، مطالباً بالحرية للبطل، بالحرية لفارس الأمل ولشعب البرازيل الذي يُحتجز معه في السجن!.

وعندما يعود غداً إلى وسط شعبه، يا صديقتي، ستصبح الليالي، ليالي لطيفة من الحب، وتتصاعد فوق رمال الأرصفة تأوهات الغرام. ولكن علينا ان نصرخ في ليالي أيام الحزن والألم هذه، ان نصرخ عالياً مطالبين له بالحرية. إرفعي الصوتَ، يا صديقتي، واصرخي معي، مع جميع أناس الأرصفة، مع جميع شعوب العالم الحرة، اصرخي حتى تفرضي سماع صوتك:

الحرية للويس كارلوس برستس.

«بوس أيرس في ٣ كانون الثاني سنة ١٩٤٢»

(الذكرى الرابعة والاربعين لميلاد برستس).

الفهرس